حصاد التبليغ

الجزء الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الطّبعة الثّانية
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

حصاد التبليغ

الجزء الرابع

الشيخ جميل الربيعي

الإِسْلامُ وَمُتَطَلَّباتُ المَرْحَلَةِ[1]

﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[2].

نقصد بمتطلّبات المرحلة: الحاجات الحقيقيّة لهذه المرحلة الَّتي نعيشها، فالإنسان إذا ما احتاج شيئاً طلبه، والحاجة هي محور النّشاط الإنسانيّ؛ لأنَّ الله خلق الإنسان مفطوراً على حاجات تلازمه كحاجته إلى الطَّعام، والشَّراب، والنّكاح، والأمن، والاستقرار، والتّحرّر.

وحاجاتُ الإنسان منها متغيّرةٌ، ومنها ثابتةٌ بحسب مقتضيات الزَّمان، والحاجات المتغيّرة معروفة، أمّا الثّابتة الَّتي لا مناص منها لكلّ إنسان كحاجته إلى إشباع اللّوازم الفكريّة الَّتي تجيب عن تساؤلاته عن الوجود الكونيّ، والإنساني من أين؟ وفي أين؟ والى أين؟ وكما ورد في الحديث المرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**رَحِمَ اللهُ امْرِئاً أَعَدَّ لِنَفْسِهِ وَاسْتَعَدَّ لِرَمْسِهِ، وَعَلِمَ مِنْ أَيْنَ، وَفِي أَيْنَ، وَإِلى أَيْنَ**»[3].

---

(١) هذا الموضوع هو خلاصة محاضرة ألقيتها في بعقوبة بعد سقوط فرعون العراق سنة ٢٠٠٤م.

(٢) المائدة: ٤٩-٥٠.

(٣) الفيض الكاشانيّ، كتاب الوافي: ١/١١٦.

ولا بدّ من وجود نظام أخلاقيّ كامل رشيد؛ لتهذيب غرائز النَّفس، وتوجيهها، وتلطيفها، ووجود نظام سليم يوجّه علاقاته مع الله، ومع نفسه، ومع النّاس، ومع الطَّبيعة.

وإشباع هذه الحاجات والمتطلّبات لا بدَّ لها من تشريع ينظّم حياة النّاس في المجال الاجتماعيّ، والسّياسيّ، والاقتصاديّ، بل في جميع مجالات الحياة الإنسانيّة.

والسّؤال الّذي يطرح نفسه: هل التَّشريع الإسلاميّ له القدرة على تلبية جميع متطلّبات الحياة الإنسانيّة؟

ويختلف الجواب باختلاف فهم الإنسان للدّين، والإسلام، فالَّذين يفهمون الدّين على أنَّه علاقةٌ فرديّةٌ بين الخالق والمخلوق، وأنَّه نظامٌ أخلاقيّ يوجّه السُّلوك الفرديّ، ولا علاقةَ له بالشّؤون الاجتماعيّة الأخرى، ينفون عن التَّشريع الإسلاميّ صلاحيّته لتلبية متطلبات العصر.

وأمّا من فهم الإسلام على أنَّه عقيدةٌ كونيّةٌ تحدّدُ نظرةَ الإنسان للكون والحياة، وتجيب عن كلّ ما يدور في نفسه من تساؤلات، ومنها ينبثق نظام كامل شامل لجميع متطلّبات الإنسان، ويرسم له شوطه الواضح المحدّد، ويضع له هدفاً أعلى في ذلك الشَّوط، ويعرّفه على مكاسبه منه[١]؛ فإنَّهم يثبتون صلاحيّة التَّشريع.

وإذا أردنا تحديد المتطلّبات الحاليّة[٢] في العراق بالذّات، فلا بدَّ من أن ندرس الحقبة السّابقة، ونعرف ما تركته من آثار سلبيّة على الوضع النَّفسيّ للشَّعب العراقيّ، وما خلقته من مشاكل اجتماعيّة، واقتصاديّة، وسياسيّة، وفكريّة خطيرة،

---

(١) راجع: فلسفتنا للسّيّد الشَّهيد محمّد باقر الصَّدر: ٥٩.

(٢) كما تقدَّم فإنَّ تاريخ الحديث يعود إلى سنة ٢٠٠٤م.

وما أفرزته من ظواهر مدمّرة للوضع الاجتماعيّ.

لقد أفرزت الحقبة السّابقة حالات نفسيّة، واجتماعيّة، وفكريّة حَرِيٌّ بنا أن ندرسها، ونضع الحلول المناسبة لها؛ فقد أفرزت ثلّة من النّاس عاشوا الجريمة بأبشع صورها، وصار ديدنهم السَّلب، والنَّهب، والاعتداء لا يرون لإنسان حرمة، وإلى جانبهم طبقة منكسرة تعيش الحرمان بأفظع أشكاله، ويلازمها الخوف، والرّعب.

وأفرزت تيّارات فكريّة، وسياسيّة متضاربة لا تنظر إلا إلى مصالحها، وتعيش التّطرّف، والاختلال النَّفسيّ، والتّمرّد على القيم الأخلاقيّة، والتّعصّب الأعمى، والطّائفيّة المقيتة.

وبرزت المصلحيّة، والذّاتيّة، والرّوح النّفاقيّة، ومحاولة التّسلّق إلى المواقع العليا في الدّولة، ولو بالتّزوير، وركوب الموجة، والسَّيطرة على المواقع في الوقت الَّذي لازمها السّكون، والسّكوت، والمداهنة طيلة المدّة المظلمة، كلّ ذلك حَرِيٌّ بنا أن لا نتغافل عنه، بل يجب أن نعيه بدقّة، ونفكّر جيّداً في معالجته، أو مواجهته.

هذا من جانب، ومن جانب آخر لا بدَّ أن نحدّد المعالم الأساسيّة للسّياسة الاستكباريّة، ونشير بإيجاز إلى بعض تلك المعالم:

١- إنَّ السّياسة الاستكباريّة تحكمها المصالح، لا المبادئ الإنسانيّة، وإن ادّعتها، ودعت إليها، وتلبَّست بها، كما هو الحال اليوم في الادّعاءات، والدَّعوات المزخرفة مرّة بعنوان التّحرّر، والتّقدّم، وأخرى باسم حقوق الإنسان، والدّفاع عن المرأة والطّفولة...

والدَّليل على ذلك إضافة إلى الأمر الواقع، أنَّ بريطانيا حينما احتلَّت العراق في سنة ١٩٢٠م عملت وفق مصالحها، فكلُّ المؤسّسات الَّتي لها علاقة بمصالحها

الخاصّة طوَّرتها كخطوط السّكك الحديديّة، والبنوك، والمؤسّسات النّفطيّة، فقد نظّمت هذه الدوائر تنظيماً جيّداً، وأمّا الدّوائر المتعلّقة بمصالح النّاس كالمؤسّسات الثّقافيّة، والتّربويّة، والخدميّة، فقد وضعت بصورة معرقلة، ومتعبة، ومعيقة عن تحقيق مصالح النّاس، وصدقت (مارغريت تارتشر) رئيسة وزرائها حين قالت: «ليس في السّياسة مبادئ، وإنَّما تحكمها المصالح».

٢- ومن معالم تلك السّياسة: العمل على توسيع الانقسامات المذهبيّة، والعرقيّة، والعشائريّة، وخلق فوارق جديدة بين أبناء الشَّعب بين المتعلّم وغيره، وبين الجنديّ، والضّابط وهكذا.

٣- ومن معالمها الضَّرب على أوتار المشاعر المذهبيّة، والدّينيّة، والعرقيّة، وتعميق الانقسامات الطّائفيّة بين المسلمين سنّةً وشيعةً، وعرباً وكرداً اعتماداً على قاعدة (فَرّقْ تَسُدْ).

٤- ومن معالمِ السّياسةِ الاستعماريّة تشويهُ مفهومِ الدّينِ في أذهانِ العامّةِ، وتشجيعُ انتشارِ الخرافاتِ، والأساطيرِ، وترويجُ العاداتِ، والتَّقاليدِ المنسوبةِ إلى الدّين، وعَدّها من أسس الإسلام وفق قواعد الاستشراق، وفي المقابل ضرب التّحرّك الدّينيّ المبني على الأصول الأساسيّة من القرآن، والسّنّة.

فإذا وعينا المرحلة السّابقة، وما تركته من آثار سلبيّة خطيرة، وشخَّصنا الأمراض الاجتماعيّة، والمشاكل السّياسيّة، والاقتصاديّة، والانحرافات الفكريّة، ووعينا بدقّة، وعمق، وشمول ألاعيب السّياسة الاستعماريّة استطعنا أن نحدّد متطلّبات المرحلة الحاليّة؛ وباختصار شديد علينا أن نعم على:

أ- توعية الأمّة الإسلاميّة على الإسلام الحقيقيّ الأصيل كما أنزله الله تعالى، وأنَّه عقيدةٌ خلقيّةٌ معنويّةٌ ينبثق عنها نظام كامل للإنسانيّة، وأنَّ الدّينَ ليس «كلماتٍ

جامدةً تردّدها الشّفاه، ولا طقوساً تقليديّةً تؤدّيها العضلات»(١)، وإنّما عقيدة تحدّد وجهة نظر الإنسان للكون والحياة، ونظام يوجّه الفرد والمجتمع، وكيان يحكم، ويبني، ويعمر، ومنهج للتّفكير يعلّم، ويهذّب، ويربّي.

وبعبارة أخرى: إنَّ شروطَ نهضة الأمّة بالإسلام هو الإيمان به، والوعي له، والعمل بأحكامه، ولا شكَّ أنَّ الأمّة تؤمن بالإسلام، ولكن لا تعيه وعياً كلّيّاً جامعاً لجميع أبعاده الخلقيّة، والفكريّة، والاقتصاديّة، والسّياسيّة، والاجتماعيّة، فلو فهمت الأمّة أنَّ الإسلامَ ثورةٌ لقلب الواقع الفاسد إلى واقع سليم لما وصلت إلى هذا الواقع المتردّي، وبتعبير آخر: لقد شوَّهت صورة الإسلام في أذهان العامّة، وأنَّه منحصرٌ في تقاليد، وأعراف، وعادات سلوكيّة بعيدة عن جوهره؛ ولذا أوجدت أزمة حادّة بين المثقّفين بالثّقافة الغربيّة، وبين الإسلام، فراحوا يبحثون عن التّقدّم، والازدهار في الحضارة الغربيّة، وجهلوا أنَّ للإسلام حضارة سادت العالم كلّه، وبعثت فيه روح التّحرّر والتّقدّم والازدهار.

ومن جملة أسس التّوعية الإسلاميّة فهم سنن الله في التّاريخ، ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾(٢)؛ ولذلك من النّهوض الحضاريّ بالإسلام تنوير عقول الأمّة، وإيقاظ عقولهم، وتوسيع آفاقهم، وتحريك هممهم؛ لكي ينهضوا من حالة الخمود، والرّكود، والسّبات الّتي انتهت إلى هذا المصير البائس المفجع من الجهل، والمرض، والأمّيّة، والتّخلّف الفكريّ، والسّياسيّ.

---

(١) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، المدرسة القرآنيّة: ٣٦٤.

(٢) فاطر: ٤٣.

ب- تنمية الوعي السّياسيّ الشّامل على المستوى الوطنيّ، والإقليميّ والعالميّ، ومعرفة ما يدور وراء الكواليس من خطط جهنّميّة للقضاء على التّحرّك الإسلاميّ، إنَّ الوعي السّياسيّ يعرّفنا أعداء الإسلام داخل البلاد وخارجها، ويفضح الخطط الاستغلاليّة للدّول الاستعماريّة، ويفتح أذهان الأمّة على مفاهيم الإسلام؛ ليوقفها على سرّ وجودها، وعلّة إيجادها، ويبعث روح المسؤوليّة في النُّفوس؛ لينقلها من حالة الرُّكود والجمود إلى التّحرّك، والانبعاث، ويوفّر لها آليّة التَّغيير والإصلاح، ومن هنا «لا بدَّ من وعي سياسي صحيح ينبثق عن مفاهيم حقيقيّة للحياة، ويتبنّى القضيّة الإنسانيّة الكبرى، ويسعى إلى تحقيقها على قاعدة تلك المفاهيم، ويدرس مسائل العالم من هذه الزّاوية، وعند اكتمال هذا الوعي السّياسيّ في العالَم، واكتساحه لكلّ وعي سياسيّ آخر، وغزوه لكلّ مفهوم للحياة لا يندمج بقاعدته الرّئيسيّة.. يمكن أن يُدخل العالَم في حياة جديدة، مشرقة بالنّور عامرة بالسَّعادة.

إنَّ هذا الوعي السّياسيّ العميق هو رسالة السَّلام الحقيقيّ في العالم، وإنَّ هذه الرّسالة المنقذة لهي رسالة الإسلام الخالدة، الَّتي استمدَّت نظامها الاجتماعيّ - المختلف عن كلّ ما عرضناه من أنظمة - من قاعدة فكريّة جديدة للحياة والكون»[1].

---

(١) فلسفتنا: ٥٣.

السُّؤالُ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

أَسْبابُ النُّزولِ:

ذكر المفسّرون روايات عدّة لأسباب نزول هذه الآية الكريمة:

١- رُوِيَ عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ أنّه قال: «نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن عَنَمة، وهما [رجلان] من الأنصار، قالا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو، أو يطلع دقيقاً مثل الخيط، ثمّ يزيد حتّى يعظم، ويستوي ويستدير، ثمّ لا يزال ينقص، ويدقّ حتّى يعود كما كان لا يكون على حال واحد؟ فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ في حلّ دينهم، ولصومهم، ولفطرهم، وعدّة نسائهم، والشّروط الّتي بينهم إلى أجل معلوم»[2].

٢- وجاء في تفسير الكشّاف: «كان ناس من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل

---

(١) البقرة: ١٨٩.

(٢) أبو نعيم الأصبهانيّ، معرفة الصّحابة: ٤٩٣/١-٤٩٤، ح/١٤٠٠.

أحد منهم حائطاً، ولا داراً، ولا فسطاطاً من باب، فإذا كان من أهل المدر[١] نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل، ويخرج، أو يتّخذ سلّماً يصعد فيه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء، فقيل لهم: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ﴾ بتحرّجكم من دخول الباب، ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ برّ ﴿مَنِ اتَّقَىٰ﴾ ما حرّم الله»[٢].

٣- وروى السّيوطيّ في الدرّ المنثور، قال: «كانوا إذا أحرموا في الجاهليّة أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾»[٣].

الإِسْلامُ دينُ التَّغْييرِ:

عندما انطلق الرّسول الأكرم ﷺ داعياً إلى الله كان يهدف تغيير واقع المجتمع البشريّ؛ لتكوين أمّة التّوحيد السّاعية إلى تغيير الواقع الفاسد إلى واقع سليم، فالإسلام دين التّغيير، والإصلاح، والتّكامل، والرّقيّ، والازدهار الرّوحيّ، والفكريّ، والاجتماعيّ، والسّياسيّ، ونقطة الانطلاق في ذلك تغيير المحتوى الدّاخليّ لأفراد المجتمع لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٤]، فهو ينتقل في بناء الإنسان من واقعه الفرديّ إلى واقعه الاجتماعيّ؛ لأنَّ الإنسان ما لم يتغيّر داخله لا يمكن أن

---

(١) أهل المدر: سكّان البيوت المبنيّة، خلاف البدو أهل الخيام.

(٢) الزّمخشريّ، الكشّاف: ١/٢٣٤.

(٣) جلال الدّين السّيوطيّ، الدرّ المنثور: ٢/٣٠٧.

(٤) الأنفال: ٥٣.

يصلح واقعه الخارجيّ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[(١)]؛ ولهذا يركّز الإسلام على بناء الأسس العقائديّة، والفكريّة، والأخلاقيّة، والنَّفسيّة؛ لأنَّها تمثّل البُنى التَّحتيّة الَّتي يقوم عليها البناء الفوقيّ، وبناءً على ذلك فإنَّ الإسلام ينقل الإنسان من الكفر إلى الإيمان، ومن الشّرك إلى التَّوحيد، ومن الضَّلال إلى الهدى.

ومن جملة معالم التَّغيير تغيير العادات، والتَّقاليد، والأعراف المخالفة للشَّريعة المقدّسة، وكان النّبيّ ﷺ يستغلّ كلّ مناسبة أو إثارة؛ لتحقيق التَّغيير بمختلف العادة.

إِثَارَةُ الأَسْئِلَةِ مَنْهَجُ تَغْيِيرٍ وَتَعْلِيمٍ:

كلمة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ وردت في القرآن الكريم أربع عشرة مرّة، وفي كلّ مرّة تعالج إحدى القضايا المهمّة في الوسط الاجتماعيّ، قال ابن عبّاس: «ما كان قومٌ أقلّ سؤالاً من أمّة محمّد ﷺ سألوا عن أربعة عشر حرفاً فأجيبوا»[(٢)].

وحين نتابع الكلمة في القرآن نجدها تعالج مسائل عقائديّة، وفكريّة، وأخلاقيّة، واجتماعيّة... ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[(٣)] سؤال عن الذّات.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ سؤال عن الخالقيّة، وحكمة جعل الهلال، وتدرّجه من الصّغر إلى الكبر، ومن النُّقصان

---

(١) الرّعد: ١١.

(٢) الفخر الرّازيّ، التَّفسير الكبير: ١٢٩/٥.

(٣) البقرة: ١٨٦.

إلى التّمام، ثمّ العودة من الكبر إلى الصّغر، وهو بيان لعظمة الخالق وقدرته الَّتي لا يحدّها زمان ولا مكان.

وفي باب تبدّل الخلق، وتغيير الكون الدّالّ على المعاد كما في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾(٣).

وفي قضيّة القتال، والدّفاع، وأوقاته، وعواقبه، يقول تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(٤).

وفي مسألة الخمر والميسر، ومدى نفعهما وإثمهما، يقول تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾(٥).

وفي مسألة النّساء وحيضهن يقول تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ

---

(١) النّازعات: ٤٢.

(٢) الأعراف: ١٨٧.

(٣) طه: ١٠٥-١٠٦.

(٤) البقرة: ٢١٧.

(٥) البقرة: ٢١٩.

أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾(١).

وفيما أحلَّ الله من المأكل يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾(٢).

وفي مورد آخر يتضمّن البعد الاقتصاديّ كما في قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٤).

وفي البعد الاجتماعيّ والإصلاحيّ يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٥).

وعن حقيقة الرّوح وحقيقتها يقول تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ

(١) البقرة: ٢٢٢.

(٢) المائدة: ٤.

(٣) البقرة: ٢١٥.

(٤) الأنفال: ١.

(٥) البقرة: ٢٢٠.

مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[(١)].

ويمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾[(٢)] تمثيل البعد التّأريخيّ لعظماء التّأريخ، ومدى أثرهم من حركة الإنسان على الأرض، وهكذا تكون إثارة الأسئلة وسيلة لنشر المعرفة على مختلف الصُّعد؛ لتترسّخ في فكر المُتَلقّي، ولتطبع في قلبه؛ لأنَّ «حركة الجواب في السُّؤال تستطيع أن تؤصّل للإنسان عقيدته وتفكيره، وتملأ بالصَّفاء، روحه وعقله، وتقوّي قدرته على المواجهة والدُّخول في ساحات الصراع، ليحمي مواقعه عندما تحتدم الأفكار، وتعنف الكلمات»[(٣)].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنَّ الجواب عن سؤال شخص يجعله أكثر توجهاً وانتباهاً، فـ «أسلوب السّؤال والجواب هو من أفضل الأساليب التّربويّة في تعميق الفكرة في وجدان الإنسان؛ لأنَّك في الجواب تحدّث السّائل عن نفسه عندما تعالج أسباب حيرته، فتفتح له أبواب المعرفة في ما يجهله، ما يجعله ينجذب إلى الكلمة انجذاباً وجدانيّاً بفكره، وشعوره؛ لأنَّها تمثّل ردّ الفعل لكلمته، ومفتاح الحلّ لمشكلته، فلا يستسلم في انفتاحه على الجواب لأيّة حالة شرود، أو ذهول، أو غفلة؛ لأنَّ الإنسان لا يسأل عادة إلا عن الأشياء الَّتي تضغط على وجدانه، وتنطلق من عمق اهتماماته، بينما نجد هذا الإنسان لا يندفع بمثل هذا المستوى لسماع محاضرة، أو درس، أو نقاش بين اثنين، فقد يقف موقف اللامبالاة، أو

---

(١) الإسراء: ٨٥

(٢) الكهف: ٨٣

(٣) السّيّد محمّد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن: ١١٠/٢.

يستسلم لبعض الشُّرود الفكريّ، أو الذّهول الرّوحيّ، أو يبتعد عن الجوّ كلّيّاً من خلال قضايا أخرى أكثر أهمّيّة من هذه القضيّة أو تلك»[١].

وقد أكَّد أهل بيت العصمة والطّهارة عليهم السلام هذه الحقيقة، وعدّوها مفتاح العلم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الْعِلْمُ خَزائِنُ، وَالْمَفاتيحُ السُّؤالُ، فَاسْأَلوا يَرْحَمْكُمُ اللهُ، فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ في الْعِلْمِ أَرْبَعَةٌ: السّائِلُ، وَالْمُتَكَلِّمُ، وَالْمُسْتَمِعُ، وَالْمُحِبُّ لَهُمْ**»[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الْعِلْمُ خَزائِنُ، وَمِفْتاحُها السُّؤالُ، فَاسْأَلوا يَرْحَمْكُمُ اللهُ؛ فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ فيهِ أَرْبَعَة: السّائِلُ، وَالْمُعَلِّمُ، وَالْمُسْتَمِعُ، وَالْمُجيبُ لَهُمْ**»[٣].

وعن الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**الْقُلوبُ أَقْفالٌ وَمَفاتحُها السُّؤالُ**».

«**سَلْ عَمّا لا بُدَّ لَكَ مِنْ عِلْمِه، وَلا تُعْذَرُ في جَهْلِه**»[٤].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إِنَّ هذا الْعِلْمَ عَلَيْه قُفْلٌ وَمِفْتاحُهُ الْمَسْأَلَةُ**»[٥].

حُسْنُ السُّؤالِ نِصْفُ الْعِلْمِ:

يتناسب طرح السُّؤال مع مستوى السّائل العلمي والثّقافي، منطلقاً من خلال توجّهاته الفكريّة، والسّياسيّة، والاجتماعيّة، ومن خلال أهدافه، وغاياته، فكلّما

---

(١) تفسير من وحي القرآن: ١١٠/٢.

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٢٤٥/١.

(٣) أبو نعيم الأصبهانيّ، حلية الأولياء: ١٩٢/٣.

(٤) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٦٠، ح/٦٥٤-٦٦٠.

(٥) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٩٧/١، ح/٨٨

ارتفع المستوى المعرفيّ للإنسان حسن تساؤله أسلوباً، وهدفاً، وتلقّياً من المجيب، واستيعاباً لما يطرح، وتفاعلاً مع الفكرة المطروحة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ أَحْسَنَ السُّؤالَ عَلِمَ**»، و«**مَنْ عَلِمَ أَحْسَنَ السُّؤالَ**»(١).

ولعلّه عليه السلام يقصد بحسن السُّؤال مراعاة أدب مساءلة أهل العلم والمعرفة، وهي الرّفق، والتّواضع، والاحترام للعالم المسؤول، وعدم التّعنّت، ولطف المخاطبة، وقمّة أدب التّساؤل في طلب المعرفة تتجلّى في لقاء موسى عليه السلام مع العبد الصّالح الّذي آتاه الله تعالى من عنده رحمة(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ **قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۞ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۞ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۞ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا** ﴾(٣).

قال العلامة الطّباطبائيّ: «فكلامه موضوع على التّواضع من أوّله إلى آخره، وقد تأدَّب معه أوّلاً، فلم يورد طلبه منه التّعليم في صورة الأمر، بل في صورة الاستفهام؛ هضماً لنفسه، وسمّى مصاحبته اتّباعاً منه له»(٤).

وقال المحدّث المجلسيّ: «وكيفيّة طلبه منه هذا الأمر مقروناً بغاية الأدب، مع كونه عليه السلام من أولي العزم من الرُّسل، وعدم تكليفه أن يعلّمه جميع علمه، بل

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٦٠، ح/٦٥٩-٦٦١.

(٢) إشـــارة إلى قوله تعالى: ﴿ **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** ﴾، الكهف: ٦٥.

(٣) الكهف: ٦٦-٦٩.

(٤) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٣٤٣/١٣.

قال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾، وتأديب المعلّم للمتعلّم، وأخذ العهد منه أوّلاً، وعدم معصية المتعلّم للمعلّم، وعدم المبادرة إلى إنكار ما يراه من المعلّم، والصَّبر على ما لم يحط علمه به من ذلك، وعدم المبادرة بالسُّؤال في الأمور الغامضة»[١].

وكما أنَّ السّائل يجب أن يتأدّب بتلك الآداب العظيمة في استدرار المعرفة يجب أن يكون السُّؤال عن هدف صحيح في طلب المعرفة، فلا يسأل لكي يمتحن المسؤول أو يكتشف قابليّته، ويجب أن يكون السّؤال هادفاً واعياً، وهذا عكس ما يجري اليوم في أوساطنا الاجتماعيّة الّتي اُبتلَيت بالجهلة من منتحلي التّديّن كذباً وزوراً، فتراهم يثيرون الأسئلة التَّعجيزيّة، وهم جاهلون أنَّ هذا الأسلوب قد انتحله اليهود في مواجهة المدّ الإسلامي؛ ليوقفوا حركة التَّوحيد، ويشغلوا النّبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام بأشياء لا تنفع من تعلّمها، ولا تضرّ من جهلها، ومن ذلك سؤال الّذي سأل أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخطب، يريد إظهار عجزه، فحين قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**سَلوني قَبْلَ أَنْ تفْقَدوني، فَوَالله ما تَسْأَلوني عَنْ شَيْءٍ مَضى، وَلا شَيْءٍ يَكونُ إلا نَبَّأْتُكُمْ بِه**»، قام إليه سعد بن أبي وقّاص، وقال: «يا أمير المؤمنين، أخبرني كم في رأسي ولحيتي من شعرة»، فقال له: «**وَالله لَقَدْ سَأَلْتَني عَنْ مَسْأَلَةٍ حَدَّثَني خَليلي رَسولُ الله صلى الله عليه وآله أَنَّكَ سَتَسْأَلُني عَنْها، وَما في رَأْسِكَ وَلِحْيَتِكَ مِنْ شَعْرَةٍ إلا وَفي أَصْلِها شَيْطانٌ جالسٌ، وَإنَّ في بَيْتِكَ لَسَخْلاً يَقْتُلُ الْحُسَيْنَ ابْني**»، وعمر يومئذٍ يدرج بين يدي أبيه[٢].

أو سؤالهم عن قبر سار لصاحبه، وعن مفاتيح السَّماوات والأرض، وهكذا

---

(١) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ٢/٤٠-٤١.

(٢) ابن قولويه، كامل الزّيارات: ١٥٥-١٥٦، ح/١٩١.

من الأسئلة الَّتي لا تعود بفائدة على أحد سوى إشغال النّاس لبلبلة أذهانهم، وصرفها عمّا يهمّهم، واليوم نسمع ونقرأ من هذا القبيل كسؤالهم عن اسم أمّ نوح، واسم النَّملة التي كلَّمت سليمان، وعن أرض طلعت عليها الشّمس مرّة واحدة.

بعد هذا نعود إلى الآية الكريمة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾، وقد ذكرنا سبب نزول الآية، ولكنَّ أسباب النُّزول لا تحدّ من إطلاق الآية في غير سبب نزول، فالمورد لا يحدّد الوارد، فسؤالهم عن الأهلّة في الحقيقة كان عن حكمة تغيّر القمر من حالة إلى أخرى، وليس عن ذاتيّة القمر، والعجيب أنَّ هذا السؤال كان من الإثارات اليهوديّة؛ فقد رُويَ أنَّ معاذ بن جبل قال: «يا رسول الله، إنَّ اليهود تغشانا، ويكثرون مسألتنا عن الأهلّة، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[١].

وقال قتادة: ذُكرَ لنا أنَّهم سألوا نبيَّ الله ﷺ: لمَ خُلقت هذه الأهلّة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية»[٢]؛ «لتقول إنَّ للأهلة فوائد مادّيّةً ومعنويّةً في نظام الحياة الإنسانيّة»[٣].

وتقدّمت روايات أخرى في ذلك، ولكنَّ الرسول الأكرم ﷺ بحكمته الرّساليّة، وتخطيطه الإلهيّ المنزّل من عند العزيز الحكيم استطاع أن يدير فحوى السُّؤال من قضية كونيّة، وظاهرة طبيعيّة، ويجرُّهم إلى ما ينفعهم، ويغيّر أحوالهم، وأفكارهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، ويبطل عادة مستحكمة في الوسط الاجتماعيّ مخالفة للعقل، والشَّرع، والمنطق، تلك العادة الَّتي ورثوها من أسلافهم، وهي أنَّهم إذا أحرموا للحجّ لا يدخلون بيوتهم من أبوابها، وإنَّما يدخلونها من ظهورها كما

---

(١) الواحديّ، أسباب نزول القرآن: ١٦١.

(٢) المصدر نفسه: ١٦٢.

(٣) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٠/٢.

تقدّم في أسباب النُّزول عن تفسير الكشّاف وغيره من التَّفاسير.

وقد ذكر الرّازيّ وجهاً آخر عن الحسن والأصمّ قال: «كان الرّجل في الجاهليّة إذا همَّ بشيء، فتعسّر عليه مطلوبُهُ لم يدخل بيته من بابه، بل يأتيه من خلفه، ويبقى على هذه الحالة حولاً كاملاً، فنهاهم الله تعالى عن ذلك؛ لأنَّهم كانوا يفعلونه تطيّراً»[١].

إذن إثارة السُّؤال كان لغاية معيّنة قد يكون فيها شيء من طلب المعرفة، ولكنَّ الرّائع واللافت للنّظر أنَّ الجواب كان من الحكمة بمكان عظيم إذ وجّه أنظارهم إلى ما ينفعهم في التَّغيير والإصلاح الاجتماعيّ، ويمكن أن نوجزه في نقاط:

١- لفت أنظارهم إلى أنَّ تغيّر القمر من حالة الهلال إلى القمر إلى الزّبرقان[٢]، هو بيان لأهمّيّة الوقت، ومنهج لتنظيمه؛ لتكون حياة الإنسان خاضعة لمنهج منظم لحياة الفرد والمجتمع، ورعاية لمصالحهم، فلا بدَّ في أحكام الله تعالى من رعاية المصالح والحكم، ومن هنا بيَّن لهم أنَّ الحكمة في اختلاف أحوال القمر لغاية إنسانيّة، وهي معرفة الوقت، وبيان قيمته في حياة الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿**وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ**﴾[٣]، وفي آية أخرى: ﴿**فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ**﴾[٤]، قال الرّازيّ: «وتفصيل القول فيه أنَّ تقدير الزّمان بالشُّهور فيه

(١) التَّفسير الكبير: ١٣٤/٥.

(٢) الزّبرقان بكسر الزّاء والرّاء وسكون الباء الموحّدة: ليلة خمس عشرة من الشّهر.

(٣) يونس: ٥.

(٤) الإسراء: ١٢.

منافع بعضها متّصل بالدّين وبعضها بالدُّنيا، أمّا ما يتّصل منها بالدّين، فكثيرة منها الصَّوم، قال الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾[(١)]، وثانيها: الحجّ، قال الله تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾[(٢)]، وثالثها: عدّة المتوفّى عنها زوجها قال الله تعالى: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾[(٣)]، ورابعها: النّذور الَّتي تتعلّق بالأوقات، ولفضائل الصّوم في أيام لا تعلم إلا بالأهلّة. وأمّا ما يتّصل منها بالدُّنيا فهو كالمداينات، والإجارات، والمواعيد، ولمدّة الحمل والرّضاع، كما قال: ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً ﴾[(٤)] وغيرها، فكلُّ ذلك ممّا لا يسهل ضبط أوقاتها إلا عند وقوع الاختلاف في شكل القمر»[(٥)].

٢- ربط بين تعريفهم بأهمّيّة الوقت، وضرورة تنظيمه في الحياة اليوميّة للإنسان؛ ليعرف عدد السّنين، والحساب، ولتجري معاملاتهم، ومسيرتهم ضمن هذا التَّنظيم؛ فالسّاعة، واليوم، والأسبوع، والشّهر، والسّنة وحدات زمنيّة يمكن للإنسان من خلالها إنجاز ما يروم إنجازه، وبذلك تتمّ أعمالهم في التّبادل الاقتصاديّ، والمواعيد الاجتماعيّة، والحالات الخاضعة للزّمن كحمل المرأة، وولادتها، وعادتها الشّهريّة، وتشمل تنظيم العبادات كالصَّلاة في أوقاتها المحدّدة صبحاً، ظهراً... والصَّوم، والحجّ، وإنَّما تمَّ «إفراد الحجّ بالذّكر إنّما كان لبيان أنَّ الحجَّ مقصور على الأشهر الَّتي عيَّنها الله تعالى لفرضه، وأنَّه لا يجوز نقل الحجّ من

---

(١) البقرة: ١٨٥.

(٢) البقرة: ١٩٧.

(٣) البقرة: ٢٣٤.

(٤) الأحقاف: ١٥.

(٥) التَّفسير الكبير: ١٣٢/٥-١٣٣.

تلك الأشهر إلى أشهر كما كانت العرب تفعل ذلك في النَّسيء، والله أعلم»[١].

٣- عالج الجواب الإلهيّ الحكيم حالة التَّقليد الأعمى الجاري آنذاك في دخول البيوت من ظهورها، وأكَّد لهم أنَّ الخير ليس في تقليد الآباء فيما جروا عليه ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ على نحو التّقليد أو التَّطيّر، وتوقّع الشرّ في مخالفة العادات، فلا يحصل الخير بذلك، وإنَّما يتحقق الخير كلّ الخير في تحصيل التَّقوى؛ لأنَّ من ﴿يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[٢].

فالآية الكريمة إذن لفتت أنظارهم إلى عظمة الخالق في قدرته العظيمة في تحويل الأجرام السَّماويّة، ومنها القمر المتدرّج في ظهوره واختفائه، وإنَّ ذلك آية من آيات الله الدالّة على الصّانع الحكيم كما وصف الإمام زين العابدين عليه السلام ذلك في دعائه عندما نظر إلى الهلال، فقال عليه السلام مخاطباً القمر: «**أَيُّها الْخَلْقُ الْمطيعُ، الدّائبُ السَّريعُ، الْمُتَرَدِّدُ في مَنازل التَّقْديْر، والْمُتصرِّفُ في فَلَك التَّدْبير، آمَنْتُ بمنْ نوَّرَ بكَ الظُّلَمَ، وأَوْضَحَ بكَ الْبُهم، وجعلَكَ آيةً منْ آيات مُلْكه، وعلامةً منْ علامات سُلْطانه، وامْتَهنكَ بالزِّيادة والنُّقْصان، والطُّلوع والأُفول، والإنارة والْكُسوف، في كُلِّ ذلكَ أَنْتَ لَهُ مُطيعٌ، وإلى إرادته سريعٌ**»[٣].

وقد لفتت الآية إلى أنَّه تعالى «دبَّر الأهلّة هذا التَّدبير العجيب لمنافع عباده في قوام دنياهم مع ما يستدلّون بهذه الأحوال المختلفة على وحدانيّة الله سبحانه

---

(١) التَّفسير الكبير: ١٣٤/٥.

(٢) الطّلاق: ٢-٣-٤.

(٣) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ١٦٣، دعاء: ٤٣.

وتعالى، وكمال قدرته، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[1]»[2].

ووجَّههم إلى تغيير العادات والتَّقاليد الَّتي ورثوها؛ ليحوّلهم إلى حالة تغيير المحتوى الدّاخليّ في نفوسهم، ولا يتحقّق ذلك إلا بحصول التَّقوى، الَّتي تمثّل قوّة المقاومة الدّاخليّة للنّزعات النّفسيّة، والشَّهوات الرّخيصة، ومقاومة الطّاغوت، والتّمرّد على إرادة شياطين الجنّ والإنس، والالتزام بما أمر الله تعالى، وإنَّ النَّجاح في سير الإنسان وسلوكه لا يتحقّق إلا بالتَّقوى.

---

(١) آل عمران: ١٩٠.

(٢) التَّفسير الكبير: ١٣٤/٥.

حِكْمَةُ لُقْمانَ

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۞ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۞ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۞ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۞ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۞ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[١].

الآيات الكريمة المتقدّمة تقدّم درساً يتضمّن دروساً عظيمةً متشعّبة الأطراف، جامعةً لبعض أصول العقيدة، بل ابتدأت بالتّأكيد على عمودها الفقريّ (التّوحيد)، ومنه فرعت الأصول العقائديّة الأخرى، والأحكام الشَّرعيّة، والمرتكزات الأخلاقيّة، والسّلوكيّة؛ فهي ترسم العلاقات الأساسيّة بين الإنسان

(١) لقمان: ١٢-١٩.

وربّه، وبينه وبين أبناء مجتمعه، وتؤسّس لسلوكٍ أخلاقيّ، ومنهجٍ معرفيّ دقيقٍ جاء بصيغة الحكاية على لسان عبدٍ من عباد الله الصّالحين الّذي آتاه اللهُ الحكمة وهو (لقمان).

ولقد اختلف المفسّرون فيه، فمن قائلٍ: إنَّه كان نبيّاً، ومن قائلٍ: إنَّه وليٌّ من أولياء الله، وعبدٌ صالحٌ آتاه الله الحكمة، وقد ذكر بعض المؤرّخين: «إنَّ لقمان كان عبداً أسود من سودان مصر، وكان له إلى جانب وجهه غير الحسن قلبٌ مضيءٌ وروحٌ صافيةٌ، وكان يصدق في القول من البداية، ولا يمزج الأمانة بالخيانة، ولم يكن يتدخّل فيما لا يعنيه»[١].

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**إنَّ لُقْمانَ كانَ عَبْداً كثيرَ التَّفَكُّر، حَسنَ النَّظَر، كَثيرَ الصَّمْت، أَحَبَّ اللهَ فَأَحَبَّهُ اللهُ، فَمَنَّ عَلَيْه بالْحكْمَة، نودي بالْخلافَة قَبْلَ داودَ عليه السلام، فقيلَ لَهُ: يا لُقْمانُ، هلْ لَكَ أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ خَليفَةً في الأَرْض تَحْكُمُ بَيْنَ النّاس بالْحَقّ؟ قالَ لُقْمانُ عليه السلام: إنْ جَبَرَني رَبّي قَبلْتُ؛ فَإنّي أَعْلَمُ إنْ فَعَلَ ذلكَ بي، أَعانَني، وعَلَّمَني، وعَصَمَني، وَإنْ خَيَّرَني رَبّي قَبلْتُ الْعافيَةَ، ولَمْ أَسْأَل الْبَلاءَ، فَقالَت الْمَلائكَةُ بصَوْت لا يَراهُمْ: يا لُقْمانُ، لمَ قُلْتَ هكَذا؟ قال: لأَنَّ الْحاكمَ بأَشَدّ الْمَنازل وَأَكْدَرها، يَغْشاهُ الظُّلْمُ منْ كُلّ مَكان فَيُخْذَلُ، أَوْ يُعانُ، وَإنْ أَصابَ فَبالْحَريّ أَنْ يَنْجو، ولَئنْ أَخْطَأَ أَخْطَأَ طَريقَ الْجَنَّة، وَمَنْ يَكُنْ في الدُّنْيا ذَليلاً خَيْرٌ منْ أَنْ يَكونَ شَريفاً ضائعاً، وَمَنْ يَخْتارُ الدُّنْيا عَلى الآخرَة فاتَتْهُ الدُّنْيا، وَلا يَصيرُ إلى مُلْك الآخرَة، فَعَجبَت الْمَلائكَةُ لحُسْن مَنْطقه، فَنامَ نَوْمَةً، فَغَطَّ بالْحكْمَة غَطّاً، فَانْتَبَهَ، فَتَكَلَّمَ بها**»[٢].

(١) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣٨/١٣.

(٢) التّرمذيّ، نوادر الأصول: ٣٧٣/١؛ والدّرّ المنثور للسّيوطيّ: ٦٢٧/١١-٦٢٨.

وقد ورد في بعض الرّوايات أنَّ شخصاً سأل لقمان: «ألستَ كنتَ ترعى معنا؟»، فقال: «نعم»، قال: «فمن أين أوتيتَ ما أرى؟» قال: «قدر الله، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، والصَّمت عمّا لا يعنيني»[١].

مَعْنى الْحِكْمَة:

اختلف العلماء المفسّرون في معنى الحكمة، فقيل بأنَّها: «علم القرآن ناسخه، ومنسوخه، ومحكمه، ومتشابهه، ومقدّمه، ومؤخّره، وحلاله، وحرامه وأمثاله عن ابن عبّاس وابن مسعود، وقيل: هو الإصابة في القول والفعل عن مجاهد، وقيل: إنَّه علمُ الدّين عن ابن زيد، وقيل: هو النّبوّة عن السّدّيّ، وقيل: هو المعرفة بالله تعالى عن عطاء، وقيل: هو الفهم عن إبراهيم، وقيل: هو خشية الله عن الرَّبيع، وقيل: هو القرآن والفقه عن أبي عبد الله عليه السلام، ورُويَ أيضاً عن مجاهد، وقيل: هو العلم الَّذي تعظم منفعته، وتجلّ فائدته، وهذا جامع للأقوال، وقيل: هو ما آتاه الله أنبياءه»[٢].

ونحن إذا تأمَّلنا في المعاني المتقدّمة كلّها لا نجدها تختلف كثيراً، فعلم القرآن، وعلم الدّين، والمعرفة بالله، والإصابة في الرّأي أو القول، أو التّفقّه والتّبصّر في أحكام الله تعالى تنتهي إلى نتيجة واحدة، وهي العلمُ بالله وأحكامه، والتّمسّكُ بها، وتجسيدُها سلوكاً مطابقاً لدين الله تعالى، وبذلك يصحُّ ما قاله العلامة الطّباطبائيّ قدس سره: «فالحكمة هي القضايا الحقّة المطابقة للواقع من حيث اشتمالها بنحو على سعادة الإنسان، كالمعارف الحقّة الإلهيّة في المبدأ والمعاد، والمعارف

(١) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤٩٤/٨.

(٢) المصدر نفسه: ٦٥٩/٢.

الَّتي تشرح حقائق العالم الطَّبيعيّ من جهة مساسِها بسعادة الإنسان، كالحقائق الفطريّة الَّتي هي أساس التَّشريعات الدّينيّة»[١].

وأوجز الفيلسوف الإسلاميّ الكبير صدر الدّين الشّيرازيّ معنى (الحكمة) بقوله: «الحكمة هي العلم بحقائق الأشياء كما هي بقدر الطّاقة، والعمل على وفقه»[٢].

وقال الرّاغب الأصفهانيّ في مفرداته: «والحكمة إصابة الحقّ بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء، وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات، وفعل الخيرات، وهذا هو الَّذي وُصِفَ به لقمان في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾»[٣].

وقال السّيّد محمّد حسين فضل الله قُدِّسَ سِرُّهُ بعد استعراض المعاني اللّغويّة والتَّفسيريّة: «وقد يظهر من بعض الآيات، أنَّ الحكمةَ تعبيرٌ عن حالة الوعي الذّاتيّة الكامنة في داخل الإنسان الَّتي تُتيح له الرُّؤية الواضحة للأشياء، فتدفعه إلى التّصرّف السَّليم، والرَّأي السَّديد، وهذا ما نتمثّله في قصّة لقمان»[٤].

فالحكمة إذن هي علمٌ يترسّخ في النَّفس، ومعرفة تتأصّل في العقل، ونور يشرق في القلب، وفكرٌ يصقل الحقائق، ويستجلي حقيقة الأشياءَ، والأحداثَ، والأشخاصَ، وسلوكٌ سليم هادف يتجسّد في الواقع، وسيرٌ في خطّ التّكامل الَّذي أراده الله تعالى.

(١) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٣٩٥/٢.

(٢) صدر المتألّهين، شرح أصول الكافي: ٥١٨/١.

(٣) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ١٧٩، (حكم).

(٤) السّيّد محمّد حسين فضل الله، مع الحكمة في خطّ الإسلام: ١٨.

وقد اقترنت لفظة (الحكمة) بلفظة الكتاب في تسع آيات ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[١]، فهل الكتاب غير الحكمة؟ ويجيب على السّؤال السّيّد المرحوم محمّد حسين فضل الله قدّس سرّه، قائلاً: «إنّنا لا نستطيع الجزم بذلك؛ لأنّنا لم نجد لذلك أثراً في رسالات الأنبياء الّذين أنزلت عليهم الكتب؛ فلم يُعْرَف لموسى عليه السلام شيءٌ منزَّل غير التّوراة، ولم يعرف لعيسى عليه السلام غير الإنجيل كما ليس لمحمّد صلى الله عليه وآله غير القرآن ممّا يدخل في الوحي، والتّنزيل الّذي أراد الله من الأنبياء أن يعلّموه للنّاس»[٢].

وخلاصة الكلام: الحكمةُ علمٌ، ومعرفةٌ، وتبصّرٌ في حقائق الكون والحياة، ينتج مواقفاً سليمةً صائبةً إزاء الأحداث والأشياء والأشخاص؛ لوَضعِ كلِّ شيءٍ في موضعه المناسب، وبالتّالي هي هبة من الله يهبها لعباده الّذين وعَوْا رسالتَه، وتحرّكوا في سبيلها: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٣].

ولنرجعْ إلى حكمة لقمان عليه السلام في موعظته لولده: فبعد أنْ يؤكّدَ القرآن الكريم بأنَّ لقمانَ أكرمه الله بالحكمة، وعماد الحكمة معرفة الله تعالى، ففي أوّل خطوة يخطوها الإنسان في معرفة الله هي شكر المُنْعِمِ على نعمته، وكما صرَّح علماء العقائد والكلام: «إنَّ الدّافعَ للحركة إلى الله تعالى هو شكر النّعمة؛ لأنَّ

(١) البقرة: ١٢٩، البقرة: ١٥١، البقرة: ٢٣١، آل عمران: ٤٨، آل عمران: ١٦٤، النّساء: ٥٤، النّساء: ١١٣، المائدة: ١١٠، الجمعة: ٢.

(٢) مع الحكمة في خطّ الإسلام: ١٥.

(٣) البقرة: ٢٦٩.

الإنسانَ عندما يفتح عينه، يرى نفسه غارقاً في بحر النعم؛ فيدعوه الضَّمير مباشرةً إلى معرفة المُنْعِم، وهذا هو بداية الطَّريق لمعرفة الله تعالى»[1].

والشُّكر المقصود هنا هو الشُّكر بالعمل لا باللّفظ، يقول تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾[2]، فمن عَملَ بما أمره اللهُ تعالى، وانتهى عمّا نهاه الله تعالى فقد شكر الله حقَّ شكره، وبالتّالي الشُّكرُ معرفةٌ بالقلب - بإفضال المنعم -، تفيض على اللّسان ثناء، وتتجسّد سلوكاً جميلاً في الواقع.

ثمّ تأتي موعظة لقمان على مراحل متدرّجة من البناء التَّحتيّ الَّذي يقوم عليه كيان الشّخصيّة الموحّدة.

المرحلة الأولى: ﴿لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ لا في القول، ولا في العمل، ولا تعدل بالله شيئاً، وإنَّما توحيد خالص لله من أيّة شائبة شرك لا ظاهراً، ولا باطناً، والسَّبب في ذلك أنَّ الشّركَ (ظلمٌ عظيمٌ) خطيرٌ على دنيا الإنسان فضلاً عن آخرته.

وقد صوَّر القرآن الكريم خطر الشّرك هذا بتصوير مرعب مخيف العاقبة، ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾[3]، تشبيه رائع لو تأمّلنا به لرأينا صورةً مفزعة، حيث يهوي الإنسان من السَّماء، وما يكاد يصل إلى الأرض حتّى تتمزّق أعضاؤه، وتتلقّفه كواسر الطّيور، أو يهوي إلى قعر سحيق، فلا تجد له أثراً، وهذه هي عاقبة من يهوي من قمّة التَّوحيد إلى حضيض الشّرك، ومن الهدى إلى الضَّلال، ولا أعرف صورة تخلع

---

(١) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأخلاق في القرآن: ٨٩/١.

(٢) سبأ: ١٣.

(٣) الحجّ: ٣١.

القلوب كهذه الصّورة المفزعة.

وقد ذكر القرآن الكريم الشّرك في عشرات الآيات، وبيَّن عاقبة المشركين، نذكر من ذلك:

الشّرك يحبط الأعمال، يقول تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾(١)، ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

والشّرك افتراء وانقطاع كامل عن الله تعالى، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾(٣).

والشّرك ضلال وضياع، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾(٤).

والشّرك ذنب لا يغفر، فكلّ ذنب قابل للغفران والعفو عند الله تعالى إلا الشّرك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾(٥).

والشّرك حسرة وندامة يوم القيامة، ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾(٦).

وكما أنَّ التَّوحيد يجعل شخصيّة الموحّد متماسكةً، مستقلّةً في تفكيرها، مستقيمة في سلوكها، فإنَّ الشّركَ يمزّقها ويجعلها ريشة في مهبّ الرّياح، تلعب بها الأهواء والأفكار الفاسدة، وتتجاذبها الشَّهوات، وتقذف بها في لهوات العذاب

---

(١) الزّمر: ٦٥.

(٢) الأنعام: ٨٨.

(٣) النّساء: ٤٨.

(٤) النّساء: ١١٦.

(٥) النّساء: ١١٦.

(٦) الكهف: ٤٢.

الدّنيويّ والأخرويّ.

وما أن تؤسّسَ الآية القاعدة الرَّصينة لبناء الشّخصيّة حتّى تنتقل إلى البناء الاجتماعيّ في لبنته الأولى، وهي العائلة فتوصي الولد بالوالدين: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾.

والآية جاءت معترضة في وسط موعظة لقمان لولده؛ لتؤكّد على معاناة الأمّ في حملها ووضعها، وما تلاقيه من مشقّة، ملتذّة بذلك، وراضية فرحة به، كما وصف الإمام السّجّاد عليه السلام في رسالة الحقوق قائلاً:

«فَحَقُّ أُمِّكَ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّها حَمَلَتْكَ حَيْثُ لا يَحْمِلُ أَحَدٌ أَحَداً، وَأَطْعَمَتْكَ مِنْ ثَمَرَةِ قَلْبِها ما لا يُطْعِمُ أَحَدٌ أحداً، وأَنَّها وَقَتْكَ بِسَمْعِها، وبَصَرِها، ويَدِها ورِجْلِها، وشَعْرِها، وبَشَرِها، وجَمِيعِ جَوارِحِها، مُسْتَبْشِرةً بذلكَ، فَرِحَةً، مُوابِلَةً[1]، مُحْتَمِلةً لما فيه مَكْرُوهُها، وأَلَمُها، وثِقْلُها، وغَمُّها، حَتَّى دَفَعَتْها عَنْكَ يَدُ الْقُدْرَةِ، وأَخْرَجَتْكَ إلى الأَرْضِ؛ فَرَضِيَتْ أَنْ تَشْبَعَ وتَجوعَ هِيَ، وتَكْسُوكَ وتَعْرى، وتَرْوِيكَ وتَظْمأَ، وتُظِلَّكَ وتَضْحى، وتُنَعِّمَكَ بِبُؤْسِها، وتُلَذِّذَكَ بالنَّوْمِ بأَرَقِها، وكانَ بَطْنُها لَكَ وِعاءً، وحَجْرُها لَكَ حِواءً، وثَدْيُها لَكَ سِقاءً، ونَفْسُها لَكَ وِقاءً، تُباشِرُ حَرَّ الدُّنْيا، وبَرْدَها لَكَ ودونَكَ، فَتَشْكُرُها عَلى قَدْرِ ذلكَ، ولا تَقْدِرُ عَلَيْهِ إلا بِعَوْنِ الله وتَوْفِيقِه»[2].

ثمَّ بيَّن طبيعة العلاقة مع الوالدين، فأمر بتقديم الشُّكر لهما بعد شكر الله تعالى، ومصاحبتهما بالمعروف، وطاعتهما لكن لا على نحو الإطلاق، وإنَّما قيد

(١) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٢٦٣.

(٢) وابله: واظبه.

الطّاعة بتوحيد الله من قبلهما؛ فإذا تجاوز الوالدان حقَّهما سقطت طاعتهما، ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا ﴾، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ورغم ذلك لا بدَّ أن يعاشرهما بالمعروف، ولا نعرف كلمة أجمل من المعروف، وهو هنا الإحسان لهما، والرّفق بهما في المصالح الدّنيويّة، وإن وجبت مخالفتهما في أبواب الدّين لشركهما... وفي الوقت نفسه الَّذي يحسن فيه لوالديه عليه أن يسلك سبيل السّائرين في طريق الله، يقتدي بهم، ويترسّم خطواتهم، ويعمل على أن يكون معهم، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[1].

وبعد هذه الجولة مع الوالدين تتواصل موعظة لقمان لابنه؛ ليركّز في نفسه رقابة الله تعالى من خلال الايمان بعلم الله بأدقّ الأشياء وأصغرها؛ فلا يضيع عند الله شيء مهما دقَّ وصغر من خير أو شرّ؛ فمهما عمل الإنسان من خير أو شرّ، ولو كان بمقدار حبّة خردل في أقصى الأرض أو في أعماق البحار، فإنَّ الله تعالى يعلمها، وسيأتي بها يوم القيامة كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾[2].

وبعد هذا التّركيز العقائديّ في التَّوحيد، والمعاد تعود الموعظة إلى رسم المنهاج العمليّ، والسّلوكيّ لعبادة الله تعالى، فيأمر بإقامة الصَّلاة؛ لأنَّها هي الشَّعيرة الَّتي تربط العبد بمولاه وتنزّهه عن ذمائم الأخلاق، والفواحش، والمنكرات، وبذلك تتهذّب نفسه من أدران الذُّنوب، ثمّ يدخله إلى الوسط الاجتماعيّ، فيأمره

---

(١) التّوبة: ١١٩.

(٢) الزّلزلة: ٧-٨

بأداء فريضة من أشرف الفرائض وأسماها، هي فريضة الأمر المعروف والنّهي عن المنكر.

وفي المرحلة الأخيرة يأتي البيان الأخلاقيّ، لمواصلة المسير إلى الله تعالى، فيأمره بالصَّبر على الأذى في سبيل الله، والمشقّة وشدائد الدُّنيا، ومكارهها: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، أي من الأمور الَّتي يجب أن يوطّن الإنسان نفسه عليها؛ فإنَّ السّائر في طريق الكدح إلى الله تعالى، وهو طريق ذات الشَّوكة لا بدَّ أن يواجه العقبات والأشواك، ويعاني المشاقّ الكثيرة، وليس له من سبيل للمواصلة إلا الصَّبر، فمن صبر ظفر، ومن جزع هوى وسقط.

وفي الختام بيان رائع لأخطر الأمراض الأخلاقيّة، وهي التّكبّر، ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، أي لا تصدّ بوجهك عمّن يقبل إليك، ولا تلوي عنقك تكبّراً، ولا تعرض عمّن يكلّمك أو يخطب ودّك.

والمرض الآخر هو الغرور والإعجاب ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ مشي متكبر مغرور معجب بنفسه؛ فإنَّ ذلك ممّا يبعدك عن الله تعالى، ويكسبك بغض الآخرين واحتقارهم، وبناءً على ذلك عليك أن تتواضع لله وللنّاس.

وأخيراً يرسم له منهجاً عمليّاً في حركته وسط المجتمع ممّا يمنحه الاحترام والتَّقدير، وهما السَّير المتوازن بين السّرعة والبطء، فلا سرعة توحي بالخفّة، ولا بطء يوحي بالرّكود والجمود.

والقاعدة الأخرى هي: المنطق السَّليم، والصوت الهادئ الرّخيم، والابتعاد عن الصّياح، والزَّعيق، والنّعيق؛ فإنَّ ذلك من منكرات الأصوات بل أنكرها، ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

وَلا تُخْزِني يَوْمَ يُبْعَثونَ

﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۞ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾(١).

تشير الآية الكريمة إلى ثلاث مطالب مهمّة:

١- حالة الكافرين يوم البعث والنُّشور حين تنكشف سرائر الإنسان جميعاً، فلا تخفى منهم خافية، ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾(٢) في يوم كشف السَّرائر والأعمال، ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾(٣).

نعم، تظهر حقائق الأعمال، ومخفيّات السَّرائر أمام الإنسان نفسه، وعلى رؤوس الأشهاد، فمن كان محسناً ظهرت حسناته، ومن كان مسيئاً ظهرت سيّئاته، وتشهد على الإنسان جوارحه، ويتجلّى أمام ناظريه جميع ما كان يكنّه، ويخفيه عن النّاس: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾(٤)، إنَّه لمشهدٌ مرعبٌ في ساعة الحساب يوم العرض الأكبر على الله، وكلّ يحاول أن يخفي سيّئاته، وإذا بجوارحه تنطق بصريح العبارة شاهدة عليه

---

(١) الشّعراء: ٨٧-٨٩

(٢) الحاقّة: ١٨.

(٣) غافر: ١٦.

(٤) يس: ٦٥.

كاشفة كلّ ما حاول أن يخفيه، وأنّى له الإنكار، وشاهده من عند نفسه؛ ولذا يفاجئه هذا الأمر، ويبهته فيعترض على الشُّهود:

﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾، ويأتيه الجواب صريحاً واضحاً بَيّناً لا يمكنه إنكاره ﴿ أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، هذا هو الخزي الَّذي خاف منه أولياء الله، فراحوا يتضرَّعون إلى الله أن لا يخزيهم على رؤوس الأشهاد، إنَّه حقّاً لمشهدٌ مرعب يخلع القلوب من شغافها، وتلك هي الصّورة الفنّيّة الرّائعة، بل المُخيفة المرعبة ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1].

تلك هي الحسرة الكبرى والمصيبة العظمى الَّتي تحلّ بالإنسان إذ تنطق عليه جوارحه، وتظهر سيّئاته أمام الملأ، وهذه فضيحة أخرى، وهذا هو الخزي العظيم؛ إذ الذّلّة والانكسار المفرط الّذي يصيب الإنسان نتيجة النَّدامة على ما أقدم عليه من الأعمال السّيّئة هذا من جانب، ومن جانب آخر أنَّ هذه الأعمال السّيّئة تبرز وتظهر أمام جميع البشريّة، فَيَسْتَخفّون به، ويحتقرونه، فيشعر بالذّلّ، والحقارة، والعذاب الأليم الَّذي يتمنّى الموت لأجله، ولكن أنَّى له ذلك، وهي موتة واحدة، وبعد هذا كلّه يساق إلى العذاب الأليم الَّذي لا يموت فيه ولا يحيا، أعاذنا الله من خزي يوم عظيم بشفاعة سيّد المرسلين وآله الطّاهرين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، «**وَاحْشُرْنا في زُمْرَتِه غَيْرَ خَزايا، وَلا نادِمينَ، وَلا ناكِبينَ، وَلا ناكِثينَ،**

(١) فصّلت: ١٩-٢١.

ولا ضالّين، ولا مفْتونين»[(١)].

والفقرة الثّانية من الآية تشير إلى عدم نفع الأموال والبنين يوم القيامة، والمراد بها والله أعلم هي الأموال والبنين الّتي تشغل الإنسان عن ذكر ربّه، وخدمة دينه، فتمتلكه، وتسيطر على جميع جوارحه ومشاعره، وتصبح قطب الرّحى في حياته، فلا تدعه يرجع إلى ربّه، ولو في لحظة واحدة، وهي أعذار المشتغلين بها لرسول الله ﷺ عند قعودهم عن الجهاد، ﴿**شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا**﴾[(٢)]، هذه الأموال تكون وبالاً على صاحبها فضلاً عن أن ينتفع بها إذ يطوّق بها يوم القيامة على صورة نار مشتعلة، ويحاول التّخلّص منها، فلا يستطيع، ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾[(٣)].

وقد رُوي عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**ما منْ رَجُلٍ لا يُؤدّي زَكاةَ ماله إلا جَعَلَ اللهُ لهُ شُجاعاً**[(٤)] **في عُنُقه يوْمَ الْقيامَة**»، ثمّ تلا هذه الآية[(٥)].

وفي رواية أخرى عنه ﷺ أنَّه قال: «**ما منْ رَجُلٍ لا يُؤدّي زَكاةَ ماله إلا جَعَلَ اللهُ لهُ شُجاعاً في عُنُقه يوْمَ الْقيامَة**»، وقيل: «يجعل ما بخل به من الزّكاة حيّة في عنقه، تنهشه من قرنه إلى قدمه، وتنقر رأسه، وتقول أنا مالك»[(٦)].

---

(١) نهج البلاغة: ١٨٣، خطبة: ١٠٥.

(٢) الفتح: ١١.

(٣) آل عمران: ١٨٠.

(٤) الشّجاع: ضرب من الحيّات.

(٥) فتح الله الكاشانيّ، زبدة التّفاسير: ٦٠٧/١.

(٦) تفسير أبي السّعود: ١٢٠/٢.

ومختصر القول: إنَّ هذه النُّصوص الكريمة هي تعبير عن العذاب الأليم الَّذي سيلاقيه عَبَدَةُ الأموال الَّذين يكنزونها، وتستحوذ على قلوبهم وأذهانهم، ويحرمون الفقراء والمساكين منها، وهذا المعنى صريح في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[1].

فإذن الأموال والبنين الَّتي تلهي الإنسان عن ذكر الله تكون وبالاً على الإنسان يوم القيامة، ولا ينتفع بها شيئاً إذا شغلته عن أداء حقّ الله، وخدمة رسالة الله؛ لأنَّ الأموال إنَّما أعطاها الله تعالى للإنسان كوكيل عليها يُنْفِقُ منها بقدر حاجته، ويُخرج الحقّ المفروض فيها كما أمره الله، فهو خليفة الله على ما في يده من الأموال، ولذلك يجب أن يضعها حيث أمره الله، وهنا تكون الأموال نافعة للإنسان في الدُّنيا والآخرة، إذا لم تسيطر عليه، ولم تملكه بل ملكها، وهو في تمام الزُّهد في الدُّنيا، ولا تتحقّق تلك الملكة وهذه القدرة إلا إذا سَلِم القلب من أمراض الطَّمع والجشع، وشحّ النَّفس الَّتي توقّع الإنسان في شباك الشَّيطان؛ ولذا نرى أنَّ خليل الرَّحمن عليه السلام وهو من عظماء رسل الله ورغم مكانته العظيمة عند الله يتوسّل إلى الله تعالى أن يجعل قلبه سليماً مطمئنّاً خالصاً له تعالى؛ لأنَّه بسلامة القلب من حبّ الدُّنيا وما فيها يمكن أن يتوصّل الإنسان إلى أسمى المراتب والمقامات الَّتي تقرّبه إلى الله تعالى، قال صدر المتألّهين: «فإنَّ هؤلاء الأكابر العرفاء، وصلوا إلى مقام المعرفة والشّهود، لا بتركيب المقدّمات والحدود، ومحافظة الضَّوابط

(١) التّوبة: ٣٤-٣٥.

القياسيّة، ومراعاة القوانين التّصويريّة والتّصديقيّة، بل بالقلب السَّليم، والفطرة الصّافية، والتّوجّه التّامّ، والخشوع والإنابة قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾(١)، وهم قد عرفوا الحقّ بنور الحقّ بالعيان، ووصلوا إليه لا بقوّة الأقدام الحجّة والبرهان، بل بخلع النَّعلين وطرح القدمين، ورفض الكونين(٢)، ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾(٣)»(٤).

والمقصود بالقلب السَّليم هو القلب الَّذي خلا وفرغ من كلّ شيء سوى حبّ الله ومعرفته، وقد ورد في الكافي عن سفيان بن عُيَيْنة، قال: «سألته [الإمام الصّادق عليه السلام] عن قوله الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾، قال: **الْقَلْبُ السَّليمُ الَّذي يَلْقى ربَّهُ، ولَيْسَ فيه أَحَدٌ سواه**»(٥).

ورُوِيَ عن النّبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في هذه الآية: «**الْقَلْبُ السَّليمُ الْمُتَبَرّي عَنِ الشَّكِّ**»(٦).

وقيل: «إنَّه سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وآله عن القلب السَّليم؟ فقال صلى الله عليه وآله: **هذا قَلْبُ مَنْ لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِكَثْرَةِ الصَّلاةِ وَالصِّيامِ، وَلكِنْ يَدْخُلُها بِرَحْمَةِ اللهِ، وَسَلامَةِ**

---

(١) الرّوم: ٣٠.

(٢) لعلّ المقصود بهذه التّعابير هو التّجرّد الكامل عن متعلّقات الدُّنيا وزخارفها.

(٣) الزّمر: ٢٢.

(٤) صدر المتألّهين، إيقاظ النّائمين: ٤-٥.

(٥) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٤٦/٣، ح/١٤٨٦.

(٦) القطب الرّاونديّ، لبّ اللّباب: ٢٠٠/٢.

الصَّدْر، وَسَخاوَة النَّفْس، والشَّفَقَة على الْمُسْلمينَ»[١].

وفي مجمع البيان: «رُوِيَ عن الصّادق عليه السلام أنَّه قال: **هُوَ الْقَلْبُ الَّذي سَلُمَ مِنْ حُبِّ الدُّنْيا**، ويؤيّده قول النَّبيّ صلى الله عليه وآله: **حُبُّ الدُّنْيا رَأْسُ كُلِّ خَطيئَة**»[٢].

إذن «إنّ مدار السّعادة يومئذٍ على سلامة القلب، سواء كان صاحبه ذا مال وبنين في الدُّنيا أو لم يكن»[٣].

وأمّا سلامة القلب فيتطلّب لأجل استيعاب البحث أن نشير إلى أنَّه ليس المقصود بالقلب هنا هو المضغة الموجودة في صدر الإنسان الَّتي تضخّ الدَّم إلى الجسم، ولكنّ المقصود به على ما يقول علماء الأخلاق بأنَّه اللَّطيفة الرّبّانيّة الرّوحانيّة النّورانيّة، وهذه هي حقيقة الإنسان، وهو المُدرك العارف من الإنسان، وهو المخاطَب والمعاتَب... وقيل: إنَّ معناه الرّوح والنّفس النّاطقة، وقد يراد به العقل؛ «لأنَّه محلّ التّصوّر، وكثيراً ما يطلق عليه لغةً وعرفاً»[٤]، وقلب الإنسان يمثّل عالماً مستقلاً بنفسه حين يجمع أوصافاً متضاربة ومختلفة بعضها عن البعض الآخر، فمثلاً فيه قوّة الباعث عن الشَّهوات، وهو ما يعبّر عنه بالإرادة الباعثة، وفيه قوّة دفع المنافي كالغضب، وفيه قوة الإدراك للتّعرّف على الأشياء.

وبالجانب الآخر هو وعاء العلم والمعرفة والحكمة والفكر، فتارة يمتلئ بحبّ الشَّهوات فيظلم، ومرّة يمتلئ بالعلم والحكمة والتّفكّر والمعرفة، فيتنوّر ولا يفوز الإنسان إلا إذا حَكَّم قوّة العلم على الجهل، والحكمة على الطّيش، وهكذا...

---

(١) القطب الرّاونديّ، لبّ اللّباب: ٢٠٠/٢.

(٢) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٣٠٥/٧.

(٣) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٢٨٩/١٥.

(٤) السّيّد علي خان المدنيّ، رياض السّالكين: ٧٠/٣.

إنَّ الشَّيطان دائماً يحاول أن ينفذ إلى هذا القدس الملكوتيّ في الإنسان للعبث فيه، فهو يحوم حول القلوب؛ ليضلّها، ويبعدها عن جادّة الحقّ والصَّواب، والعدل، والإنسانيّة، ويوقع بينها العداوة والبغضاء؛ ليضلّها ويصدّها عن سبيل الله؛ ولذا قال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[1]، وهناك عوامل مساعدة في النَّفس تجعلها تتجاوب مع خطرات الشَّيطان، وأهمّها:

أ- اتّباع الهوى: وهو أخطر مداخل الشَّيطان إذ يسوّل له اقتراف المعاصي بعد أن يُزيّنها له، ويوحي له بالمبرّرات، فهذا الباب أحد المداخل المهمّة إلى النَّفس، ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾[2].

ب-إعجاب الإنسان بنفسه، واستكثار أعماله، واستصغار سيّئاته، وتعداد الصُّعوبات الَّتي مرَّت به في حياته، وصبره عليها، كلّ ذلك يكون مسرّباً من مسارب الشَّيطان إلى القلب، فقد ورد في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: بيْنَما موسى عليه السلام جالسٌ إذْ أَقْبَلَ إبْليسُ، وعَلَيْه بُرْنُسٌ[3] ذو أَلْوان، فلَمّا دَنا منْ موسى عليه السلام خلعَ الْبُرْنُسَ، وقامَ إلى موسى، فَسلَّمَ علَيْه، فقالَ لَهُ موسى: منْ أَنْتَ؟ فقالَ: أَنا إبْليسُ، قالَ: أَنْتَ؟! فَلا قرَّبَ اللهُ دارَكَ، قالَ: إنّي إنّما جئْتُ لأُسَلِّمَ علَيْكَ؛ لمكانكَ منَ الله**».

قال: «**فَقالَ لَهُ موسى عليه السلام: فَما هذا الْبُرْنُسُ؟ قالَ: به أَخْتَطفُ قُلوبَ**

---

(١) ص: ٨٢-٨٣.

(٢) ص: ٢٦.

(٣) البُرنُس: كلّ ثوب رأسه منه ملتزق به، درّاعة كان أو ممطراً أو جبّة.

بَني آدَمَ، فَقالَ موسى: فَأَخْبِرْني بالذَّنْب الَّذي إذا أَذْنَبَهُ ابْنُ آدَمَ اسْتَحْوَذْتَ عَلَيْه. قالَ: إذا أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، واسْتَكْثَرَ عَمَلَه، وصَغُرَ في عَيْنِه ذَنْبُه»[١].

أمّا أهمّ الأمراض المعنويّة الَّتي يُصاب بها القلب، فهي:

أ- العقائد الفاسدة: وهي من أخطر أمراض القلب إذ تحجبه عن رؤية الحقيقة؛ ولذا يجب على المسلم أن يتحرّى الحقيقة بدقّة متناهية في تبنّي العقيدة الحقّة؛ لأنَّ الإنسان إذا فسدت عقيدته فسدت جميع أعماله وأحواله؛ ولذا جعل الإسلام التَّقليد في العقائد باطلاً، وأراد من الإنسان أن يصل إلى العقيدة الصَّحيحة بنفسه.

ب- الأخلاق الذَّميمة: وهي من القاذورات الَّتي تترك أثراً خطيراً على القلب، وهي من أوسع مداخل الشَّيطان كالحقد، والحسد، والنّفاق، والتّكبّر، والحرص، والبخل، والشّك، والرّيب.

ج- المعاصي والآثام: لا يعمل الإنسان عملاً إلا ترك ذلك العمل أثراً على قلبه، إن حسناً فـ(نور) وإن سيّئاً فـ(ظلام)، وبذلك يحجب النّور الإلهيّ عن القلب؛ لأنَّ «**هذه الْقُلوبَ تَصْدَأُ كَما يَصْدَأُ الْحَديدَ**، [و]هو أن يركبها الرَّين بمباشرة المعاصي والآثام، فيذهب بجلائها، كما يعلو الصَّدأ وجه المرآة والسَّيف ونحوهما»[٢].

يقول تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[٣].

---

(١) الكافي: ٣/٧٦٤-٧٦٥، ح/٢٥٨٥.

(٢) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/١٥.

(٣) المطفّفين: ١٤.

وفي هذا وردت أحاديث كثيرة، فعن الإمام الصّادق عليه السلام: «**كانَ أَبي** عليه السلام **يَقولُ: ما مِنْ شَيْءٍ أَفْسَدَ لِلْقَلْبِ مِنْ خَطيئَةٍ؛ إِنَّ الْقَلْبَ لَيُواقِعُ الْخَطيئَةَ، فَما تَزالُ بِهِ حَتّى تَغْلِبَ عَلَيْهِ، فَيُصَيِّرَ أَعْلاهُ أَسْفَلَهُ**»(١).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**تَذاكَروا، وَتَلاقوا، وَتَحَدَّثوا؛ فَإِنَّ الْحَديثَ جِلاءٌ لِلْقُلوبِ، إِنَّ الْقُلوبَ لَتَرينُ كَما يَرينُ السَّيْفُ، جِلاؤُها الْحَديثُ**»(٢).

وأمّا آثار هذه الأمراض على القلب، فكثيرة أيضاً أهمّها:

١- الانغماس في حبّ الدُّنيا وزينتها؛ إذ إنّ القلب إذا فرغ من حبّ الله شغله حبّ الدُّنيا.

٢- الحرص الشَّديد على ملاذّ الدُّنيا.

٣- الطَّمع بما في أيدي النّاس.

٤- البخل والخوف من الفقر.

٥- التّعصّب للمذاهب والحقد على الخصوم والنّظر إليهم بعين الازدراء.

«**اللَّهُمَّ، طَهِّرْ لِساني مِنَ الْكَذِبِ، وَقَلْبي مِنَ النِّفاقِ، وَعَمَلي مِنَ الرِّياءِ، وَبَصَري مِنَ الْخِيانَةِ، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ وَما تُخْفي الصُّدورُ**»(٣).

---

(١) الكافي: ٦٦٧/٣، ح/٢٤١١.

(٢) المصدر نفسه: ٩٩/١، ح/٩٣.

(٣) الشّيخ الطّوسيّ، مصباح المتهجّد: ٥٠٢.

مَيِّتُ الأَحْياءِ

﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[1].

يا له من مرمى بعيد المدى، عميق الغور، دقيق التَّعبير، بمَثَلٍ واضح، وتشبيه رائع، واستعارة لطيفة، وإشارة حكيمة؛ لتنوير العقل، وتطهير النَّفس، وتحفيز الوجدان إلى التَّطهير، والتَّزكية، والارتفاع عن عالم المادّة المظلم إلى إشعاع الرّوح المنير، وبرمزيّة موحية إلى معنى دقيق يلامس واقع الحياة؛ ليرفعها من كثافة المادّة، وظلمات الشَّهوات إلى شفّافيّة الرّوح، وطهارة النَّفس، وسموّ الإنسانيّة الحقّة بكلمات واضحة دقيقة قريبة للنَّفس، مؤثّرة في القلب، إنَّها الموت، والحياة، والنّور، والظُّلمة، فالموت هنا يشير إلى حالة الضَّلال، والضّياع، والتّذبذب، في زحمة الأحداث، وظلمات دروب الكفر.

والموت أنواع كما الحياة، فهناك الموت المادّيّ إذا صح التَّعبير، وهو مغادرة الرّوح البدن، وحينئذٍ يعود البدن كأيّ جسم آخر قد يضرّ، ولا ينفع، فلا بدّ من التّخلّص منه بدفنه، وهذا ليس هو المقصود في الآية قطعاً، فما رأينا ميتاً عاد إلى الحياة مرة أخرى إلا بإعجاز إلهيّ؛ لتنبيه البشريّة، كموت عزير، وأصحاب الكهف.

---

(١) الأنعام: ١٢٢.

وهناك الموت المعنويّ، الَّذي يكون الإنسان حيّاً متحرّكاً يأكل ويشرب، وينام... إلا أنَّه بحكم الميّت؛ لأنَّه فقد الإحساس بمسؤوليّته عن نفسه وأمام ربّه، فلم يعد يفكّر بشيء خارج ذاته، وأناته؛ لأنَّه قد مات ضميره، وقسى قلبه، وفقد إحساسه الإنسانيّ، وطمست فطرته تحت ركام الذُّنوب، والسّيّئات، ومذامّ الأخلاق، والاستغراق في شهوات النَّفس الَّتي استقطبت كلّ قواه النَّفسيّة والعقليّة، وأصبحت الذّات الضّيّقة قطب الرَّحى في حياته، حتّى استحوذت عليه شهوات النَّفس الأمّارة بالسّوء، فهذا هو ميّت الأحياء؛ لأنَّه لم يفرّق بين الخير والشّرّ، والمعروف والمنكر، والحقّ والباطل، فأصبح كدابّة همّها علفها، وغايتها ملء كرشها، وإشباع فرجها، من هنا ورد في آثار أهل بيت النّبوّة عليهم السلام أنَّ التّارك لإنكار المنكر بقلبه، ولسانه ويده، فذلك هو ميّت الأحياء[1].

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ تَرَكَ إِنْكارَ الْمُنْكَرِ بِقَلْبِه، ويَدِه، ولِسانه، فَهُوَ مَيِّتُ الأَحْياء**»[2].

والظّاهر أنَّ أصدق مصاديق ميّت الأحياء المتظاهر والمتفاخر بكونه من أهل العلم طلباً للسُّمعة والشُّهرة كما وصف أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**وآخَرُ قَدْ تَسَمّى عالماً ولَيْس به، فَاقْتَبَسَ جَهائلَ منْ جُهّالَ، وأَضاليلَ منْ ضُلّال، ونَصَبَ للنّاس أَشْراكاً منْ حبال غُرور، وقَوْل زور، قَدْ حَمَلَ الْكتابَ عَلى آرائه، وعَطَفَ الْحَقَّ عَلى أَهْوائه، يُؤمِّنُ النّاسَ منَ الْعَظائم، ويُهوِّنُ كَبيرَ الْجَرائم، يَقولُ: أَقفُ عنْدَ الشُّبُهات، وفيها وقَعَ، ويَقولُ: أَعْتَزلُ الْبدَعَ وبَيْنَها**

(١) ينظر: نهج البلاغة: ٥٤٩، قصار الحكم: ٣٦٤؛ والفقه المنسوب للإمام الرّضا عليه السلام: ٣٧٥-٣٧٦.

(٢) موسوعة الشّيخ المفيد (المقنعة): ١٤/٨٠٨-٨٠٩.

اضْطَجَعَ، فَالصّورَةُ صورَةُ إنْسان، وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوان، لا يَعْرِفُ بابَ الْهُدى فَيَتَّبِعَهُ، وَلا بابَ الْعَمى فَيَصُدَّ عَنْهُ، فَذلكَ مَيِّتُ الأَحْياء»[1].

قال شارح نهج البلاغة حبيب الله الخوئيّ: «وهم الَّذين تعلَّموا العلم من أهله، وأخذوه من أحاديث الأئمّة، ورجعوا في تفسير القرآن إلى تفسير خير الأمّة إلا أنّهم لم يعملوا بعلمهم، ووصفوا الحقّ فخالف فعلهم قولهم، وهم علماء الدّنيا الَّذين قصدهم من العلم التّنعّم بالدّنيا والتّوصّل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها. والآيات والأخبار في ذمّ هؤلاء وتشديد الأمر عليهم فوق حدّ الإحصاء ومتجاوزة مرتبة الاستقصاء»[2].

وسُئِلَ حذيفة: «ما ميّت الأحياء؟»، قال: «من لم يعرف المعروف بقلبه، وينكر المنكر بقلبه»[3].

وما أجمل ما قال الشّاعر[4]: [من الوافر]

لقد أسمعْتَ لو ناديْتَ حيّاً ... ولكن لا حياةَ لمن تُنادي

ولو نارٌ نفخْتَ بها أضاءت ... ولكن أنت تنفُخُ في رماد

وأنشد عديّ بن رعلاء الغسّانيّ[5]: [من الخفيف]

ليس من مات فاستراح بمَيْت ... إنّما المَيْتُ ميّت الأحياء

إنّما المَيْت من يعيــش ذليلاً ... سيّئاً باله قليل الرَّجاء

(١) نهج البلاغة: ١٤٢-١٤٣، خطبة: ٨٦

(٢) حبيب الله الخوئيّ، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ١٨٣/٦.

(٣) ابن أبي شيبة الكوفي، المصنّف: ١٥٩/١٤، ح/٣٨٥٧٣.

(٤) شعر عمرو بن معدي كرب الزّبيديّ: ١١٣.

(٥) الأصمعيّات: ١٥٢.

فالموت إذن ليس هو موت البدن وحسب، إنَّما هو موت الرّوح الإنسانيّة الَّتي تحمل الرّحمة، والرَّأفة، والشَّفقة، والحبّ، والحنان، فإذا فقدت كلّ ذلك، فهي ميتة، وإن كانت تأكل، وتشرب، وتنام، وتتصرّف كالأحياء فهي ميتة لا تنتفع، ولا تنفع، قال صاحب مجمع البيان: «وإنَّما سمّى الله تعالى الكافر ميتاً، لأنَّه لا ينتفع بحياته، ولا ينتفع غيره بحياته، فهو أسوأ حالاً من الميت، إذ لا يوجد من الميت ما يعاقب عليه، ولا يتضرّر غيره به»[1].

وأمّا الحياة في الآية الكريمة فإنَّها ترمز إلى الإيمان، أو الاهتداء؛ لأنَّ الإنسان من دون الإيمان بالله تعالى يصبح ريشة في مهبّ الرّياح، تتقاذفه حيثما تهبّ؛ لأنَّها لا تقف على أرضيّة صلبة تحفظ لها موقعها، وإنَّما تقف على رمال متحرّكة لا يستقرّ لها قرار، وهكذا يبقى الإنسان كمّيّة مهملة ضائعة منقطعة الصّلة بواجب الوجود، بل بالوجود نفسه، وحينئذٍ يفقد الإنسان قيمته الحقيقة لانقطاع صلته بخالقه تعالى، نقصد الإيمان لوازمه الفاعليّة، وأهمّها الصّلة الثّابتة بالله من حيث الخوف، والخشية، والحبّ، والرّجاء، والاستمداد لرحمته، والاستجابة لأحكامه، والاستشعار لرقابته، والرّجاء لثوابه، والخوف من عقابه، والتَّضحية في سبيله، والسّعي المتواصل للتَّعريف بشريعته للنّاس جميعاً، ودعوتهم لاعتناق عقيدته، والالتزام بأحكامه، وبالتّالي الجدّيّة الفاعلة، والتَّخطيط المحكم لتحكيم نظمه وشرائعه، وغير ذلك من لوازم الإيمان تلك هي الحياة الطّيّبة المتّسمة بالحكمة، والرّشاد، والفضائل الإنسانيّة الرَّفيعة كالعدل، والعفّة، والقناعة، والرّضا بما قسم الله، والشَّجاعة، والمروءة هذه الخصال هي السَّبيل إلى الحياة الطّيّبة

---

(١) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥٥٦/٤.

المحدودة في حدود الدُّنيا الفانية، ولعلّه أدقّ وصف لهذه الحياة ما جاء في دعاء الإمام السّجّاد:

«اللّهمَّ، فاجْعَلْ نَفْسي مُطْمَئِنَّةً بقَدَرِك، راضيةً بقَضائك، مولَعَةً بذِكْرِكَ ودُعائك، مُحبَّةً لصفْوَة أَوْليائك محْبوبةً في أَرْضك وسَمائك، صابرةً على نُزول بلائكَ، شاكرةً لفَواضل نَعْمائك، ذاكرةً لسَوابغ آلائك، مُشْتاقةً إلى فَرْحَة لقائك، مُتزوِّدةً التَّقْوى ليَوْم جزائك، مُسْتَنَّةً بسُنَن أَوْليائك، مُفارقَةً لأَخْلاق أَعْدائك، مَشْغولةً عَن الدُّنْيا بحَمْدك وثَنائك»[١].

هذه هي الحياة الطّيّبة المحدودة الّتي تعيش فيها النَّفس الإنسانيّة الطّاهرة من ذمائم الأخلاق، وأمراض القلوب، وأدران الذُّنوب، وقبائح العادات في رحاب الإيمان بالله، عارفة لله في أسمائه وصفاته، عابدة له تعالى بكلّ ما أفاض عليها من طاقة فكريّة وروحيّة وأخلاقيّة، متحرّرة من جميع الضَّواغط النّفسيّة والاجتماعيّة، ولعلَّ هذا هو المعنى الّذي أشار إليه سيّد الشُّهداء الإمام الحسين عليه السلام بقوله: **«أيُّها النّاسُ، إنَّ اللهَ جَلَّ ذكْرُهُ ما خَلَقَ الْعبادَ إلا ليَعْرفوهُ، فَإذا عَرَفوهُ عَبَدوهُ، فَإذا عَبَدوهُ اسْتَغْنَوا بعبادَته عَنْ عبادَة مَنْ سواهُ»**[٢].

وهناك الحياة الطّيّبة المطلقة في دار رحمة الله، وهي حياة لا موت فيها، وسعادة لا شقاء معها، ولذّة لا ألم فيها ولا انقطاع، وخلود لا فناء فيها، وفيها **«ما لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْب بَشَرٍ»**[٣].

---

(١) ابن قولويه القمّيّ، كامل الزّيارات: ٩٢-٩٣.

(٢) الشّيخ الصّدوق، علل الشّرائع: ٥٦.

(٣) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٢٨١، ح/٣١٠.

تلك هي الحياة الطّيّبة لـ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[١].

وهكذا يتَّضح «أنَّ للحياة، والموت أنواعاً، ومراتب متفاوتة جدّاً تبتدئ بحياة ماديّة فيها مجرّد الإحساس والحركة، وتنتهي بالموت الَّذي يفقد فيه ذلك، وحياة معنويّة فيها الإحساس بالنّور، وتنتهي إلى دار السَّلام، وحياة روحانيّة، وحياة عقليّة، ولكلّ واحدة منها أهل، وقد تكون لبعض النّاس واحدة منها أو اثنتان أو ثلاثة، وقد أوتي سيّد الخلائق، وإمام الأنبياء ﷺ كلّها، فهو قدوة الجميع، وله أقصى مراتب الكمال»[٢].

وأمّا الظُّلمات، فهي: الجهل، والكفر، والنّفاق حيث يضيع الإنسان في متاهات دروب الكفر حين لا يعرف سرّ وجوده، وعلّة إيجاده، فيبقى كالكرة الَّتي يتقاذفها اللاعبون من دون أن تحسّ، وتعي، وهؤلاء هم الغافلون الَّذين لا يعرفون ماذا يريدون، وماذا يُراد منهم، فلا يفكّرون إلا بكروشهم، أو عروشهم، ولا يسعون إلا ما يتناغم مع أهوائهم وشهواتهم، ولا يبصرون ممّا وراء ذلك شيئاً، ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[٣].

وإنَّما أنزلوا درجات عن البهائم؛ لأنَّ البهائم «إذا زُجِرَت انزجرت، وإذا أرشدت إلى طريق اهتدت، وهؤلاء لكفرهم وعتوّهم، لا يهتدون إلى شيء من الخيرات، مع ما ركّب الله فيهم من العقول الدّالّة على الرَّشاد، الصّارفة عن الفساد...

---

(١) النّحل: ٩٧.

(٢) مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن: ٣٥٣/١٤.

(٣) الأعراف: ١٧٩.

وقيل: إنَّما قال ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ من الأنعام؛ لأنَّ الأنعام لم تعطَ آلة المعرفة والتَّمييز فلا تلحقها المذمّة، وهؤلاء أعطوا آلة المعرفة والتّمييز فضيّعوها، ولم ينتفعوا بها؛ ولأنَّ الأنعام وإن لم تكن مطيعة لم تكن عاصية، وهؤلاء عصاة، فهم أسوأ حالاً منها ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾»[1].

والنَّتيجة: إنَّ الكفر، والضّلال «انعزال عن القوّة الفاعلة المؤثرة في الوجود كلّه»، وبالتّالي هو «انكماش وتحجّر.. فهو ضيق.. وشرود عن الطّريق الفطريّ الميسّر»[2].

وأمّا النّور، فهو نور الحقّ المبين الَّذي يضيء دروب الحياة، ويكشف للإنسان حقائق الأشياء، وسرّ وجودها، ويجنّبه مزالق الطَّريق، ويتجاوز به عقبات المسير الكأداء، وقد اختلف المفسّرون في تفسير معنى النَّور الَّذي جعله الله للمؤمنين؛ ليمشوا به في النّاس ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾؛ ليمشي به في النّاس سويّاً، واضحة رؤياه، رزينة خطواته، سليمة نظراته، وقيل: إنَّ المراد بالنّور هو العلم والحكمة، وسمّي ذلك نوراً، والجهل ظلمة؛ لأنَّ العلم يهتدي به إلى الرّشاد كما يهتدي بالنّور في الطُّرقات، وبالتّالي النّور هو الظّاهر بنفسه، المظهر لغيره، وبهذا المعنى، فإنَّ الله «سبحانه نور يظهر به السّماوات والأرض، وهذا هو المراد بقوله: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ حيث أُضيف النّور إلى السَّماوات والأرض، ثمّ حمل على اسم الجلالة، وعلى هذا ينبغي أن يحمل قول من قال: إنَّ المعنى الله منوّر السّماوات والأرض»[3].

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٧٢/٤.

(٢) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٣٧٤/٣.

(٣) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ١٢٢/١٥.

فالنّور هو القوّة الكاشفة عن الأشياء؛ لتجعل الإنسان واضح الرّؤية، مستقيم السُّلوك، ومن هنا يمكن أن يقال أنَّ النّور الَّذي جعله الله للمؤمنين؛ ليمشوا به في النّاس هو نور المعرفة بالله، وبأحكامه سواء كان على مستوى العقائد الحقّة، أو الأحكام الشَّرعيّة في كلّ مجال من مجالات الحياة، فمن كان عارفاً بالله تعالى، وبأسمائه، وصفاته، وأحكامه معرفة سليمة، فهو على نور من ربّه، يعلم من أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟ وماذا يراد منه؟ ومتّى يتحرّك؟ ومتى يقف؟ فالمعرفة تجعل الإنسان على بيّنة من أمره، فهي الَّتي تمنح الإنسان التَّقوى، وتنوّره بنورها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾[1].

وبعد هذا الاستعراض السَّريع لمفردات الآية يمكننا أن نعرف أنَّ الآية تؤسّس لنوع من الحياة الحقيقيّة للإنسان؛ لتوقفه على حقيقة وجوده، وطريقة سعادته، وكأنَّها تقارن بين الميّت الجامد الَّذي لا حراك فيه، وبين الحيّ النّاطق الَّذي يتحرّك بوعي، ومعرفة في التّعامل في كلّ مجالات الحياة الرّوحيّة، والفكرية، والأخلاقيّة، والسّياسيّة، وتسمو بالإنسان إلى عالم رفيع شفّاف فوق القيم المادّيّة الصّرفة، الَّتي تجعل الإنسان يدور في حلقة مفرّغة لا يعرف كيف يخرج منها، بل لا يريد أن يخرج منها كما عبَّرت الآية الكريمة عن الكافر المرتكس في الظُّلمات ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[2]، لا يمكن أن يخرج من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة، ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا ﴾.

---

(١) الحديد: ٢٨.

(٢) النّور: ٤٠.

حَمِيَّةُ الْجاهِلِيَّةِ

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[1].

الهدف الرَّئيس في رسالات السّماء كافّة هو تحرير الإنسان من كلّ أشكال العبوديّة لغير الله تعالى، ولا سيّما عبوديّة الذّات، وهي أسوأ أنواع العبوديّة؛ لأنها إذا استحكمت في الإنسان تحوَّل إلى عبد ذليل لأهوائه وميوله وشهواته «**عَبْدُ الشَّهْوَةِ أَذَلُّ مِنْ عَبْدِ الرِّقِّ**»[2] كما جاء عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

وحميّة الجاهليّة هي فرعٌ من عبوديّة الذّات، فالآية الكريمة تشير إلى إيقاع الإنسان نفسه تحت سيطرتها حتّى تعميه عن رؤية غيرها.

والحميّة معناها: «الأنفة والعار والغيرة، وهي من أسباب الحماية أي المنع والدّفع، ومن لوازم الغضب والفخر والعجب والكبر؛ لأنَّها تنشأ من تصوّر المؤذي مع التّرفّع على فاعله، واعتقاد الشَّرف عليه»[3].

والحميّة: «الأنفة والإنكار، يقال: فلان ذو حميّة منكرة إذا كان ذا غضب وأنفة»[4].

---

(١) الفتح: ٢٦.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣٤٢/٢٠.

(٣) المولى محمّد صالح المازندرانيّ، شرح أصول الكافي: ٣٢٢/٩.

(٤) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ١٨٩/٩.

وبها «عُبّر عن القوة الغضبيّة إذا ثارت، وكثُرت بالحميّة، فقيل: حميت على فلان أي غضبت عليه، قال تعالى: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾»[١].

فهي إذن حالة نفسيّة تسيطر على الإنسان في مواقف معيّنة تدفعه إلى العناد والإصرار أو المقاومة والثَّبات... وهي في الأغلب حالة مذمومة منكرة، ورد في الحديث عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: «**لَمْ يُدْخِلِ الْجَنَّةَ حَمِيَّةٌ غَيْرُ حَمِيَّة حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ غَضَباً لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وآله في حَدِيثِ السَّلى الَّذِي أُلْقِيَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله**»[٢].

وهي بعد ذلك من سمات إبليس برزت عليه حين تكبّر على آدم «**بِالْحَمِيَّةِ وَالْغَضَبِ، فَقَالَ:** ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[٣]»[٤].

ثمَّ هي خطرة من خطرات إبليس، ونخوة من نخواته، ونفثة ينفثها في المسلم، فيثير فيه نار الغضب، ولقحة من لواقحه، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«**وَإِنَّما تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكونُ في الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَراتِ الشَّيْطانِ وَنَخَواتِهِ، وَنَزَغاتِهِ وَنَفَثاتِهِ... فَاللهَ اللهَ في كِبْرِ الْحَمِيَّةِ، وَفَخْرِ الْجاهِلِيَّةِ؛ فَإِنَّهُ مَلاقِحُ الشَّنَآنِ**[٥]**، وَمَنافِخُ الشَّيْطانِ اللَّاتي خَدَعَ بِها الأُمَمَ الْماضِيَةَ، وَالْقُرونَ الْخالِيَةَ**»[٦].

---

(١) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ١٨٦-١٨٧، (حمى).

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٧٥١/٣، ح/٢٥٥٧.

(٣) الأعراف: ١٢.

(٤) الكافي: ٧٥٢/٣، ح/٢٥٥٨.

(٥) الملاقح - جمع ملقح كمكرم - الفحول الَّتي تلقّح الإناث وتستولد الأولاد، والشّنآن: البغض.

(٦) نهج البلاغة: ٣١٨، خطبة: ١٩٢.

وهي عمليّ استجابة لنوازع الهوى الَّذي يمنعه من الخضوع للحقّ والهدى؛ ليصدّ النّاس عن سبيل الله تعالى.

ولا تنحصر الجاهليّة بما قبل الإسلام وحسب، فهي ليست محصورة في مدّة زمنيّة محدودة، ولا هي جهل بمعنى معاكس للعلم والتّطوّر والحضارة، وإنَّما هي «- كما عناها القرآن وحدّدها - حالة نفسيّة ترفض الاهتداء بهدى الله، ووضع تنظيميّ يرفض الحكم بما أنزل الله: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾[1].

هي إذن مقابل معرفة الله، والاهتداء بهدى الله، والحكم بما أنزل الله.. وليست مقابل ما يسمّى العلم والحضارة المادّيّة ووفرة الإنتاج»[2].

والدَّليل على أنَّ الجاهليّة حالٌ لا مدّة زمنيّة قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَلا تَكونوا كَجُفَاة الْجاهلِيَّة: لا في الدّين تَتَفَقَّهونَ، وَلا عَن الله تَعْقلونَ**»[3].

وبعد أن تبيّن لنا معنى الحميّة، ومعنى الجاهليّة، وإنَّ كليهما حالة نفسيّةٌ، لنقف قليلاً على آثارها الخطيرة:

١- إنَّها سبب للعصبيّة العمياء، وهي مذمومة عقلاً وشرعاً سواء كانت للقوميّة، أو العشيرة، أو الوطن، أو أيّ شيء آخر؛ لأنَّها تعبّر عن تحجّر عقليّ، وضيق أفقيّ، وجمود على ما عليه المتعصّب مع رفضه من الآخرين، عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: مَنْ تَعَصَّبَ أَوْ تُعُصِّبَ لَهُ، فَقَدْ خلَعَ**

(١) المائدة: ٥٠.

(٢) محمّد قطب، جاهليّة القرن العشرين: ٧.

(٣) نهج البلاغة: ٢٧٢-٢٧٣، خطبة: ١٦٦.

رِبْقَ الإيمان منْ عنُقه»[1].

وعنه عليه السلام قال: «**قال رَسول الله** صلى الله عليه وآله: **مَنْ كانَ في قَلْبه حَبَّةٌ منْ خَرْدَلٍ منْ عَصَبيَّة، بعثه اللهُ يوْمَ الْقيامَة مع أَعْراب الْجاهليَّة**»[2].

وعنه عليه السلام: «**مَنْ تعَصَّب، عصَّبَه اللهُ بعصابَةٍ منْ نار**»[3].

والمقصود بالعصبيّة هنا هي الإصرار على مواجهة تيّار الحقّ إزاء تيّار شخصيّ، أو فكريّ، أو قوميّ، مع بطلانه، وإنَّه شرٌّ وظلم، وليس من العصبيّة أن يحبّ الرّجل قومه، فقد سُئِلَ النّبيّ صلى الله عليه وآله: «يا رسول الله، أمن العصبيّة أن يحبّ الرّجل قومه؟»، قال: «**لا، ولَكنْ من الْعَصَبيَّة أَنْ يُعين الرَّجلُ قَوْمَهُ على الظُّلْم**»[4].

وعن عَليّ بْن الْحُسَيْن عليهما السلام أَنَّهُ سُئل عَن الْعَصَبيَّة، فَقالَ: «**الْعَصَبيَّةُ الَّتي يَأْثَمُ عَلَيْها صاحبُها أَنْ يرى الرَّجلُ شرارَ قَوْمه خَيْراً منْ خيار قَوْمٍ آخَرين، ولَيْس منَ الْعَصَبيَّة أَنْ يُحبَّ الرَّجلُ قَوْمَهُ، ولَكنْ من الْعَصَبيَّة أَنْ يُعين قَوْمَهُ على الظُّلْم**»[5].

٢- والعصبيّة هي العنصر الأساس في معظم الأمراض النّفسيّة كالتّكبّر، والعجب، والتّفاخر، والإصرار، والعناد، والحقد على البريء، والتّعامي عن الحقّ، والصّدّ عن سبيل الله.

---

(١) الكافي: ٧٥٠/٣، ح/٢٥٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ح/٢٥٥٥.

(٣) المصدر نفسه: ٧٥١/٣، ح/٢٥٥٦.

(٤) سنن ابن ماجة: ١٣٠٢/٢، ح/٣٩٤٩.

(٥) الكافي: ٧٥٢/٣، ح/٢٥٥٩.

٣- والأخطر من ذلك أنَّها السَّبب الأصليّ في الصّدود عن سبيل الله، ومحاربة أولياء الله، وسلوك سبل الشّيطان.

وفي مقابل ترسّخ الحمّيّة في قلوب المعاندين نتيجة تصوّراتهم الوهميّة، وتعاميهم عن الصّراط السّويّ: نزول السّكينة من الله في قلوب المؤمنين، وإلزامهم كلمة التَّقوى، حيث البصيرة النّيّرة، والهدف الواضح، وسلوك الوسيلة الشّرعيّة لتحقيقه.

والسَّكينة أيضاً هي حالة نفسيّة يرزقها الله تعالى لأوليائه، فتمنحهم الهدوء، والاستقرار، والثّبات، والطَّمأنينة في مختلف الحالات السّلبيّة والإيجابيّة، وهي زبدة الإيمان، وروحه، وثمرة من ثمرات التّوكّل والتّسليم لأمره تعالى، قال العلامة الطّباطبائيّ رحمه الله: «والسَّكينة من السّكون خلاف الحركة، وتستعمل في سكون القلب، وهو استقرار الإنسان، وعدم اضطراب باطنه في تصميم إرادته على ما هو حال الإنسان الحكيم (من الحكمة باصطلاح فنّ الأخلاق) صاحب العزيمة في أفعاله، والله سبحانه جعلها من خواصّ الإيمان في مرتبة كماله، وعدّها من مواهبه السّامية...

وقد ظهر ممّا مرَّ أنَّه يمكن أن يستفاد من كلامه تعالى أنَّ السّكينة روحٌ إلهيٌّ، أو تستلزم روحاً إلهيّاً من أمر الله تعالى يوجب سكينة القلب، واستقرار النَّفس وربط الجأش»[1].

ولهذا يتبيّن أنَّ السَّكينة مرتبة من مراتب النَّفس السّامية توجب للنّفس الهدوء والاستقرار الدّاخليّ من خلال الاستسلام لأمر الله تعالى.

---

(١) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٢٨٩/٢-٢٩١.

وقال العلامة الطّباطبائيّ أيضاً: «السَّكينة أمر وراء السّكون والثّبات لا أنَّ لها معنى في اللّغة أو العرف وراء مفهوم الحالة النّفسانيّة الحاصلة من السّكون والطّمأنينة، بل بمعنى أنَّ الَّذي يريده تعالى من السَّكينة في كلامه له مصداق غير المصداق الَّذي نجده عند كلّ شجاع باسل له نفس ساكنة، وجأشٌ مربوط، وإنَّما هي نوع خاصٌّ من الطّمأنينة النَّفسانيّة له نعتٌ خاصٌّ وصفة مخصوصة... فهي حالة إلهيّة لا ينسى العبد معها مقام ربّه، لا كما عليه عامّة الشُّجعان أولوا الشّدّة والبسالة المعجبون ببسالتهم المعتمدون على أنفسهم»(١).

ثمَّ إنزال السَّكينة في قلوب المؤمنين يحتاج إلى استعداد يتوفّر عليه قلب المؤمن وهو المتانة العقليّة، والطّهارة القلبيّة، والصَّفاء النَّفسيّ، وإنزالها في قلوب المؤمنين يعني إيجادها بعد عدمها.

ولهذه المنّة الإلهيّة عطاء عظيم لا يحوطه بيان، ولا يمكن أن يتصوَّره إنسان إلا حين يتذوّق لذّاتها في حالات الشّدّة والعسر عندما تتكالب عليه الأعداء، وتظلم عليه دنيا النّاس، ورغم ذلك كلّه يبقى قلبه ثابتاً مطمئنّاً، لا ينتابه قلق، ولا اضطراب.

ومن هنا فإنَّ حامل رسالة الله، الدّاعي له، ينبغي أن يطلب من الله بشوق وشدّة وإخلاص أن يمنّ الله عليه بها؛ فإنَّها نعمة لا تفوقها نعمة، وسعادة لا تدانيها سعادة، وهي السّلاح الجبّار الّذي يقاوم به المؤمن فتن الحياة بكلا طرفيها السّلبيّ والإيجابيّ، قال العلامة المجلسيّ:

«المراد بالسَّكينة الثّبات، وطمأنينة النّفس، وشدّة اليقين، بحيث لا يتزلزل

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٢٢٣/٩.

عند الفتن، وعروض الشّبهات، بل هذا إيمان موهبيٌّ يتفرّع على الأعمال الصّالحة، والمجاهدات الدّينيّة سوى الإيمان الحاصل بالدَّليل والبرهان»(١).

فالسَّكينة وإن كانت هبة إلهيّة، فلا بدّ لمن يريد تحصيلها من عناء وصبر على تحمّل تكاليف السَّماء، ولا بدَّ له من معاكسة لأهواء النَّفس، وميولها، ولا بدّ من توسّل مستمر يستمطر به رحمة الله.

وأمّا كلمة التَّقوى فهي كلمة التّوحيد، وشعار الإسلام (**لا إله إلا الله**)، وهي روح الإيمان، وعموده، «وفسَّرها أكثر المفسّرين بكلمة الشّهادة، وقالوا: إضافة الكلمة إلى التَّقوى لأنَّها سببها، أو كلمة أهلها، أو بها يتّقى من النّار، وورد في الأخبار أنَّ المراد بها الأئمّة عليهم السلام، فإطلاق الكلمة عليهم لانتفاع النّاس بهم وبكلامهم»(٢).

والسَّكينة ثمرةٌ من ثمار وعي كلمة التَّقوى، والذّوبان في ما توحيه من أبعاد فكريّة وأخلاقيّة، وسلوكيّة تتجسّد حركة في الواقع العمليّ حتّى تصبح طبعاً وعادةً وسلوكاً، ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ**﴾(٣).

وهي نوع من الإمداد والتّأييد واللّطف الإلهيّ تثبيتاً للإيمان بتقوية أسسه في القلوب الَّتي تجرَّدت لله في إيمانها حتّى عادت لا ترى مؤثّراً في الوجود إلا الله.

---

(١) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ١٩٩/٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ٣١١/١٠٠.

(٣) المجادلة: ٢٢.

الْقَسَمُ

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[1].

الآية الكريمة تتعرّض لحالة تعوَّد بعض النّاس عليها، وهي كثرة الحلف والقسم أو اليمين، وهي عادة مذمومة في الإسلام منهيّ عنها، صادقاً كان الحالف أو كاذباً كما سيأتي في الأحاديث الشَّريفة.

والحلف لغةً هو القسم أو اليمين، وأصلها العقد بالعزم والنّيّة، والحلف: اليمين، يقال: حلف يحلف حلفاً: أقسم، ومحلوفاً أيضاً، وهو أحد ما جاء في المصادر على مفعول كالمجلود والمعقول[2].

قال ابن الأثير: «الحَلْف هو اليمين، حَلَف يحلف حلفاً، وأصلها العقد بالعزم والنّيّة، فخالف بين اللفظتين تأكيداً لعقده، وإعلاماً أنَّ لغو اليمين لا ينعقد تحته»[3].

وأمّا الأَيْمان «جمع يمين بمعنى الحلف، مأخوذة من اليمين بمعنى الجارحة لكونهم يضربون بها في الحلف والعهد والبيعة ونحو ذلك، فاشتقّ من آلة العمل

---

(١) البقرة: ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٥٣/٩، (حلف)؛ ومجمع البحرين للطّريحيّ: ٤٠/٥، (حلف).

(٣) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٤٢٥/١، (حلف).

اسم للعمل؛ للملازمة بينها كما يشتق من العمل اسم لآلة العمل كالسّبّابة للإصبع الّتي يسبّ بها»[١].

وقال السّيّد محمّد حسين فضل الله بعد عرض معنى اليمين المعجميّ: «أقول: الظّاهر أنَّ المعنى الأصليّ للفظ اليمين هو الجارحة، أي اليد اليمنى، ويكون استعمال اليمين في المعاني الأخرى من قبيل الاشتقاق من المعنى الأصليّ؛ لوجود جهة شبه أو مناسبة بين المعنى الأصليّ والمعنى الفرعيّ، أو حصول تلازم - بالمعنى الأعمّ من العقليّ والاعتباريّ والعاديّ - بين المعنيين»[٢].

وخلاصة الكلام: اليمين إلزام الإنسان نفسه برابط شرعيّ يلزم نفسه خبراً أو إنشاء، وبتعبير العلامة الطّباطبائيّ: «فالقسم إيجاد ربط خاصّ بين شيء من الخبر أو الإنشاء، وبين شيء آخر ذي مكانة وشرف يبطل المربوط إليه ببطلان المربوط بحسب الدَّعوى...»[٣].

والحلف أمر دائرة في جميع الأوساط الاجتماعيّة عند أغلب الأمم؛ إذ تعارف أن يلزم الإنسان عند بعض الحالات بربطه بمقدّس يؤمن به، ويعدّه في أعلى درجات القدسيّة في نفسه ويكون مسؤولاً أمامه بالالتزام بما ألزم نفسه به.

قال العلامة الطّباطبائيّ: «والحلف واليمين - فيما نعلم - من العادات الدّائرة في ألسنة النّاس الموروثة جيلاً بعد جيل، ولا يختصّ بلغة دون لغة، وهو الدَّليل على أنَّه ليس من الشّؤون اللّغويّة اللّفظيّة، بل إنَّما يهدي الإنسان إليه حياته الاجتماعيّة في موارد يتنبّه على وجوب الالتجاء إليه والاستفادة منه.

---

(١) العلامة السّيّد محمّد حسين الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٢٢٢/٢.

(٢) السّيّد محمّد حسين فضل الله، اليمين والعهد والنّذر: ١٩.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٢٠٨/٦.

ولم تزل اليمين دائراً بين الأمم، ربّما يبنى عليه ويركن إليه في موارد متفرّقة غير مضبوطة تحدث في مجتمعاتهم لأغراض متنوّعة؛ لدفع التّهمة، ورفع الفريّة، وتطييب النَّفس، وتأييد الخبر حتّى اعتنى بأمره القوانين المدنيّة، وأعطتها وجهة قانونيّة في بعض من الموارد كحلف الرُّؤساء وأولياء الأمور عند تقلّد المناصب الهامّة وإشغال المقامات العظيمة العالية، وغير ذلك»(١).

وقال السّيّد فضل الله: «لا نعتبر اليمين مصطلحاً شرعيّاً أو مفهوماً تعبّديّاً، بل هو معنى نابع من الممارسة العقلائيّة في كلّ المجتمعات»(٢).

وهكذا يتَّضح أنَّ في اليمين والقسم أبعاداً اجتماعيّة والتزامات شرعيّة لتنظيم العلاقات الاجتماعيّة ضمن قواعد شرعيّة مقدّسة يلزم الإنسان نفسه بأن لا يتعدّى حدودها، ولا يخرج عن أطرها، «من هنا فإنَّ استمرار القسم واليمين في السّلوك البشريّ هو استمرار للثّابت المقدّس والغيب المتعالي، وأساس عميق للتّرابط الاجتماعيّ، ومتكأً لكافة الالتزامات وأشكال المعاملة بين النّاس»(٣).

وإذا استقرأنا الآيات الكريمة في اليمين نرى لها جذوراً من أوَّل الخليقة، فلمّا خلق الله آدم وأمر الملائكة بالسُّجود له إلا إبليس الَّذي أصرَّ على أعوانه، وواصل وسوسته له، ليفصله عمّا أراد الله له، يقول تعالى:

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَا

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٢٠٩.

(٢) اليمين والعهد والنّذر: ٢١.

(٣) المصدر نفسه: ٢٦.

﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾(١).

وهنا تبيَّن أنَّ إبليس استطاع أن يقنع آدم وحوّاء بالقسم، وإقناعهما تعبير عن مرتكز القسم في الطّبيعة البشريّة بالرّجوع إلى الله تعالى؛ لأنَّه ظنَّ أنَّ إبليس صادق معه.

وإذا أردنا أن نحلّل عمليّة القسم نجدها تتكون من أربعة عناصر هي: الحالف، والشّخص المحلوف له، ومتعلّق الحلف، والمحلوف به، فالحالف الَّذي ألزم نفسه برابط معيّن، والمحلوف له الَّذي أعطي الضّمان والرّهن، والمتعلّق الشَّيء الَّذي تعهّد به الحالف، والمحلوف له هو الجهة المقدّسة العليا الَّذي وضع نفسه مسؤولاً أمامها، وهي عادة الله تعالى.

فالحالف «يعتبر مرهون الإيمان بما حلف عليه ما لم يظهر خلافه، وإذا ظهر الخلاف عاد صفر الكفّ من الإيمان ساقطاً عن درجة الاعتبار، محروماً من التّمتّع بثمرة الإيمان، وهي في المجتمع الدّينيّ جميع المزايا الاجتماعيّة، ورجع مطروداً من المجتمع المتلائم الأجزاء، لا سماء تظلّه، ولا أرض تقلّه»(٢).

وقد اعتنى الإسلام باليمين عناية خاصّة، وعدَّ الوفاء والالتزام به من أساسيّات الإيمان، وعدَّ مخالفته مخالفة لحقيقة الإيمان الَّتي يؤمن بها الإنسان.

بعد هذا نرجع إلى أصل الآية، فهي تنهى عن الإكثار من اليمين والقسم بغير ضرورة، أو يجعل القسم مانعاً و«ذريعة للامتناع عمّا أمر به من البرّ والتّقوى والإصلاح بين النّاس»، والسّرّ في ذلك أنَّ «الحلاف المكثر من اليمين لا يستعظم ما حلف به، ويصغّر ما أقسم به لكثرة تناوله، فلا يبالي الكذب، فيكثر منه هذا عند

---

(١) الأعراف: ٢٠-٢١.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٢١٠/٦.

نفسه»، هذا بالنّسبة لله تعالى، أمّا بالنّسبة للمكثر من الحلف فكما أشار العلامة الطّباطبائيّ: «وكذا يهوّن خطبه، وينزّل قدره عند النّاس لاستشعارهم أنّه لا يرى لنفسه عند النّاس قدم صدق، ويعتقد أنَّهم لا يصدّقونه فيما يقول، ولا أنّه يوقّر نفسه بالاعتماد عليها، فيكون على حدّ قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ** ﴾[(١)]»[(٢)].

فكثرة الحلف إذن تهوّن القيمة القدسيّة للمثل الأعلى عند الإنسان، وتهوّن القيمة الذّاتيّة لنفسه أي إنَّ كثرة الحلف توحي أنَّ الحالف غير واثق من كلامه، وغير مطمئن لصدق قوله، ويريد أن يؤكّد صدقه لمن يتحدّث لهم.

وتأسيساً على ما تقدَّم نجد في الأحاديث الشَّريفة النَّهي المؤكّد عن كثرة اليمين على حدّ سواء صدقاً أو كذباً، عَنْ أَبِي أَيّوبَ الْخَزّاز، قالَ: «**سَمِعْتُ أَبا عَبْد الله** عليه السلام **يَقولُ: لا تَحْلفوا بالله صادقين، ولا كاذبين؛ فَإنَّهُ عزَّ وَجَلَّ يَقولُ:** ﴿ **وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ** ﴾[(٣)]»[(٤)].

وفي حديث آخر قال عليه السلام: «**يا سَدير، مَنْ حَلَفَ بالله كاذباً كَفَرَ، وَمَنْ حَلَفَ بالله صادقاً أَثمَ**»[(٥)].

بل إنَّ بعض الأحاديث عدَّت الامتناع عن القسم إجلالاً لله، وتعظيماً، وتوقيراً، عَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قالَ: «**قالَ رَسولُ الله** صلى الله عليه وآله**: مَنْ أَجَلَّ اللهَ أَنْ يَحْلفَ به، أَعْطاهُ اللهُ خَيْراً ممّا ذَهَبَ مِنْه**»[(٦)].

---

(١) القلم: ١٠.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٢/٢٢٢-٢٢٣.

(٣) البقرة: ٢٢٤.

(٤) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١٤/٧٠٧، ح/١٤٦٧٢.

(٥) المصدر نفسه: ١٤/٧٠٩، ح/١٤٦٧٥.

(٦) الكافي: ١٤/٧٠٨، ح/١٤٦٧٣.

وفي أحاديث أخرى رغَّبت الإنسان أن يتحمّل الغرامات الماليّة، ولو كان محقّاً، ومكذوباً عليه بدلاً من تأدية اليمين، فعَنْ أَبي بَصير، قالَ: «حَدَّثَني أَبو جَعْفَر عليه السلام: **أَنَّ أَباهُ كانَتْ عِنْدَهُ امْرَأَةٌ منَ الْخَوارِج - أَظُنُّهُ قالَ: منْ بَني حَنيفَةَ - فَقال لَهُ مَوْلًى لَهُ: يا ابْنَ رَسول الله، إنَّ عنْدَكَ امْرَأَةً تبرأُ منْ جدِّك، فقضي لأَبي أَنَّه طَلَّقَها، فَادَّعَتْ عَلَيْه صَداقَها، فَجاءَتْ به إلى أَمير الْمَدينة تَسْتَعْديه، فَقالَ لَهُ أَميرُ الْمَدينَة: يا عَليُّ، إمّا أَنْ تَحْلفَ، وَإمّا أَنْ تُعْطيها، فَقالَ لي: قُمْ يا بُنَيَّ، فَأَعْطها أَرْبعمائَة دينار، فَقُلْتُ لَهُ: يا أَبَه، جُعلْتُ فداكَ، أَلَسْتَ مُحقّاً؟ قالَ: بَلى، يا بُنَيَّ، ولَكنّي أَجْلَلْتُ اللهَ أَنْ أَحْلفَ به يَمينَ صَبْر**[1]»[2].

وفي حديث آخر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إذا ادُّعيَ عَلَيْكَ مالٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْك، فَأَرادَ أَنْ يُحَلِّفَكَ، فإنْ بَلَغَ مقْدار ثَلاثين درْهَماً، فَأَعْطه، ولا تَحْلفْ، وَإنْ كانَ أَكْثَرَ منْ ذلك، فَاحْلفْ وَلا تُعْطه**»[3].

الآثارُ الْوَضْعِيَّةُ لِلْيَمينِ:

كما تقدّم إنَّ كثرة الحلف - ولو كان الحالف صادقاً - مكروه، وينبغي أن يجلّ الله تعالى، وهو حرام إن كان كاذباً لأنَّه يغمس صاحبه في النّار والإثم، ولذا سمّيت باليمين الغموس[4]، والسّرّ في ذلك أنَّ له آثاراً وضعيّةً على الإنسان تؤثّر

---

(١) يمين صبر: «أي أُلزم بها وحُبس عليها، وكانت لازمة لصاحبها من جهة الحكم»، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٨/٣ (صبر).

(٢) الكافي: ٧٠٩/١٤، ح/١٤٦٧٦.

(٣) المصدر نفسه: ٧١٠/١٤، ح/١٤٦٧٧.

(٤) اليمين الغموس هي «الّتي تغمس صاحبها في الإثم، ثمّ في النّار، أو الّتي تقتطع بها مال غيرك، وهي الكاذبة الّتي يتعمّدها صاحبها، عالماً بأنَّ الأمر بخلافه»، القاموس المحيط للفيروزآبادي: ٣٢٨/٢، (غمس).

على عقيدته، وتظهر في سلوكه وأخلاقه، نذكر من هذه الآثار:

١- إضعاف الهيبة الإلهيّة في النَّفس ولا سيّما إذا تعرّض لضغوط نفسيّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة تدعوه لمخالفة ما ألزم نفسه به، وقد يدخل في حالة تبرير وتعليل ليدفع عن نفسه تلك الضُّغوط، وقد يخادع نفسه، ويكذب على الله، فقد جاء في حديث أبان بن تغلب قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: **إذا قالَ الْعَبْدُ: عَلِمَ اللهُ، وَكانَ كاذِباً، قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: أَما وَجَدْتَ أَحَداً تَكْذِبُ عَلَيْه غَيْري؟**»[1].

وخلاصة الكلام: إنَّ المكثر من الحلف واليمين قد يصل إلى درجة لا يعظّم من يحلف به، وينجرَّ بالتّالي إلى التّهاون والاستهانة، وهذا ما يعرّضه لغضب الله تعالى، ولبيان فظاعة هذا العمل، قال أَبو عَبْد الله عليه السلام قالَ: «**مَنْ قالَ: اللهُ يَعْلَمُ ما لَمْ يَعْلَم، اهْتَزَّ لذلكَ عَرْشُهُ إعْظاماً لَهُ**»[2].

وعن النّبيّ صلى الله عليه وآله: «**مَنْ حَلَفَ يَميناً يَقْتَطِعُ بِها مالَ أَخيه لَقى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْه غَضْبان**»[3].

والسّرّ في غضب الله تعالى على الكاذب والنّاكث ليمينه؛ لأنَّ «نكث اليمين إهانة وازدراء بساحة العزّة والكرامة، مضافاً إلى ما في نقض اليمين والعهد معاً من الانقطاع والانفصال عنه سبحانه بعد توكيد الاتّصال»[4].

واليمين الكاذبة تجرّؤ على مقام الله تعالى وقدسيّته، وتعرّض لعقوبته، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَمَنْ حَلَفَ يَميناً كاذِبةً، فَقَدِ اجْتَرى عَلى الله، فَلْيَنْتَظِرْ**

(١) الكافي: ٧١٦/١٤، ح/١٤٦٩٠.

(٢) المصدر نفسه: ٧١٥/١٤، ح/١٤٦٨٩.

(٣) الشّيخ الطّوسيّ، كتاب الأمالي: ٥٣٤؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ٣٩٨/٩، ح/٥٥٨٣.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ٣٣٥/١٢.

عقوبته»[١].

٢- إنَّ نقض اليمين أو الخداع فيه قد يجرّ إلى الانحراف عن جادّة الله؛ وذلك لأنَّ النّاكث ليمينه والمتساهل قد استهان بأقدس المثل العليا وأعلاها، وهي القدسيّة الإلهيّة، والقسم في حقيقته هو التّعهّد، والالتزام، والقطع على النَّفس أمام الله وفي كفالته تعالى كما يقول تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[٢].

فمن يضع نفسه في كفالة الله تعالى لا بدَّ أن يعرف أنَّ هذا الكفيل الَّذي لا يخفى عليه لحظة بصر، ولا خطرة قلب، ولا فكر تدور في النُّفوس؛ لذلك يجب أن يجعل هذه الكفالة حاكمة في كلّ حركة وسكون في نفسه... وبالعكس لو أراد أن يتهاون أو يتراخى أو يتساهل فإنَّه قد يخادع نفسه، ويبرّر أعماله مرّة بعد أخرى، وبالتّالي ينجرّ إلى الكذب، والخداع، والخيانة، والأخطر من ذلك إذا ألبسها ثوباً شرعيّاً، وأخرجها إخراجاً فقهيّاً، ويكون ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾[٣]، وهكذا يصبح «نقض الأيمان كالمقدّمة لاتّخاذها دخلاً؛ فإنَّ الإنسان إذا نقض اليمين لسبب من الأسباب لأوّل مرّة هان عليه أمر النَّقض، ومهَّد ذلك السَّبيل إلى النّقض ثانياً وثالثاً، وجعل الحلف ثمّ النّقض وسيلة خدعة وخيانة، فلا يلبث دون أن تكون حليف دغل، وخدعة، وخيانة، وغرور، ومكر،

---

(١) القاضي النّعمان المغربيّ، دعائم الإسلام: ٩٤/٢، ح/٢٩٤.

(٢) النَّحل: ٩١.

(٣) النَّحل: ٩٢.

وكيد، وكذب، وزور، لا يبالي ما قال وما فعل، ويعود جرثومة فساد يفسد المجتمع الإنسانيّ أينما توجّه، ويقع في سبيل غير سبيل الله الَّذي خطَّته الفطرة السَّليمة»[١].

ولعلَّ هذا هو مفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[٢].

وهكذا يتّضح لنا أنَّ «زلّة القدم بعد ثبوتها مثل لنقض اليمين بعد العقد والتّوكيد والزَّوال عن الموقف الَّذي ارتكز فيه؛ فإنَّ ثبات الإنسان واستقامته على ما عزم عليه واهتمَّ به من كرائم الإنسانيّة وأصول فضائلها، وعليه بناء الدّين الإلهيّ، وحفظ اليمين على توكيده قدم من الأقدام الّتي يتمّ بها هذا الأصل الوسيع، وكأنَّه لذلك جيء بالقدم نكرة في قوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ﴾»[٣].

٣- لمّا كان نقض اليمين أو الكذب فيه تعدّ وتجرّؤ على قدسيّة الله تعالى؛ فإنَّها تخالف الفطرة الإنسانيّة، وتجرّ إلى الانحراف عن جادّة الصَّواب، وممّا لا شكَّ فيه أنَّ هذا له آثار وضعيّة خطيرة ليس فقط على الجوانب المعنويّة للنَّفس الإنسانيّة أو الوسط الاجتماعيّ فقط، وإنَّما له آثار خطيرة في الجوانب المادّيّة أيضاً؛ لأنَّ انحراف الإنسان عن المنهج الإلهيّ ينعكس سلباً على الواقع الموضوعيّ؛ ولذلك أكَّدت الآثار النّبويّة على هذه الحقيقة، ففي رواية أبي عبيدة الحذّاء، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**إنَّ في كتاب عليٍّ** عليه السلام**: أَنَّ الْيَمينَ الْكاذِبَةَ، وَقَطيعَةَ الرَّحِمِ تَذَرانِ الدِّيارَ بَلاقِعَ مِنْ أَهْلِها، وتَنْغَلُ**[٤] **الرَّحِمَ، يَعْني انْقِطاعَ**

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٣٣٧/١٢.

(٢) النَّحل: ٩٤.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٣٣٧/١٢-٣٣٨.

(٤) «النَّغَل - بالتَّحريك -: الفساد، ورجل نَغِلٌ، وقد نَغِلَ الأديمُ، إذا عفن وتهرّى في الدّباغ، فينفسد ويهلك»، النّهاية في غريب الحديث والأَثر: ٨٨/٥.

النَّسْلِ»(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام: «قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: إيّاكُمْ والْيَمينَ الْفاجرةَ؛ فَإِنَّها تَدَعُ الدِّيارَ مِنْ أَهْلِها بَلاقِعَ»(٢).

٤- والأخطر من ذلك كلّه أنَّ اليمين الفاجرة أو الكاذبة أكَّدت الأحاديث الشَّريفة أنَّها محاربة لله تعالى، ومن حارب الله أدحض حجَّته، ودمَّر حياته في الدُّنيا والآخرة، فقد ورد في كتاب عليّ عليه السلام: «ثَلاثُ خصالٍ لا يَموتُ صاحِبُهُنَّ أَبَداً حَتّى يرى وَبالَهُنَّ: الْبَغْيُ، وَقَطيعَةُ الرَّحِمِ، وَالْيَمينُ الْكاذِبَةُ يُبارِزُ اللهَ بِها»(٣).

وفي حديث آخر عَنْ يَعْقوبَ الأَحْمَر، قالَ: «قالَ أَبو عَبْد الله عليه السلام: مَنْ حَلَفَ عَلى يَمينٍ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ كاذِبٌ، فَقَدْ بارَزَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ»(٤).

تَحْرِيمُ الْقَسَمِ بِالْبَراءَةِ:

هناك بعض من النّاس يقسم بالبراءة - والعياذ بالله - من الله، أو من الدّين، أو من الإسلام أو من الأئمّة، وهذا النّوع من القسم أكَّدت السُّنّة الشّريفة على حرمته القطعيّة، عَن ابْن أَبي عُمَيْر رفَعَهُ، قالَ: «سَمِعَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله رَجُلاً يَقولُ: أَنا بَريءٌ مِنْ دينِ مُحَمَّدٍ، فَقالَ لَهُ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: وَيْلَكَ، إِذا بَرِئْتَ مِنْ دينِ

(١) الكافي: ١٤/٧١٣، ح/١٤٦٨٦.

(٢) المصدر نفسه: ١٤/٧١١، ح/١٤٦٨٠؛ و«البلاقع: جمع بلقع وبلقعة، وهي الأرض القفر الَّتي لا شيء بها، يريد أنَّ الحالف بها يفتقر ويذهب ما في بيته من الرّزق. وقيل: هو أن يفرّق الله شـمله، ويغيّر عليه ما أولاه من نعمه»، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ١/١٥٣، (بلقع).

(٣) الكافي: ٤/٦٠، ح/٢٧١٨.

(٤) المصدر نفسه: ١٤/٧١٠، ح/١٤٦٧٨.

محمَّد، فَعَلى دينِ مَنْ تكونُ؟» قال: «فما كَلَّمَهُ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَتّى ماتَ»[١].

وعن يونس بن ظبيان، قال: «قالَ لي: **يا يونُسُ، لا تَحْلِفْ بالْبَراءَةِ منّا؛ فَإِنَّهُ مَنْ حَلَفَ بالْبَراءَةِ منّا صادقاً أَوْ كاذباً، فَقَدْ بَرِئَ منّا**»[٢].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**مَنْ بَرِئَ من الله عَزَّ وَجَلَّ صادقاً كانَ أَوْ كاذباً فَقَدْ بَرِئَ اللهُ منْهُ**»[٣].

الْيَمِينُ الْغَمُوسُ:

هي اليمين الكاذبة الفاجرة الَّتي يقطع بها الحالف مال غيره مع علمه أنَّ الأمر بخلافه، وليس فيها كفّارة لشدّة الذَّنب فيها.

وسمّيت بذلك لأنَّها تغمس في الإثم، ثمّ في النار، فهي فعول للمبالغة الَّتي عقوبتها دخول النّار، فقد ورد عن الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**الْيمينُ الْغَموسُ الَّتي توجِبُ النّارَ: الرَّجُلُ يَحْلِفُ عَلى حَقِّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ عَلى حَبْسِ مالِه**»[٤].

---

(١) الكافي: ٧١٨/١٤، ح/١٤٦٩٤.

(٢) المصدر نفسه: ٧١٨/١٤، ح/١٤٦٩٥.

(٣) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٣٧٥/٣، ح/٤٣١٨

(٤) الكافي: ٧١٣/١٤، ح/١٤٦٨٥.

الْقِراءَةُ

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾[1].

هكذا انبثق نور الإسلام في بدء انطلاقته بتوجيه الأمر إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بالقراءة، وما أدراك ما القراءة؟!

القراءة حركة العقل، وفاعليّة الفكر لتغيير الواقع النَّفسيّ والاجتماعيّ من حالة دانية إلى حالة مرتفعة سامية.

والآية الكريمة من سورة يؤكّد أغلب المفسّرين أنَّها أوّل سورة نزلت على صدر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وبها رُبطت الأرض بالسّماء، وغيّرت وجه التّأريخ، ومن ساعة نزولها انطلق الإسلام حاملاً راية العلم والمعرفة، ليبني الإنسان فرداً ومجتمعاً ودولة، وينشئ حضارة إنسانيّة رائعة.

إنَّ القراءة بمعناها الحقيقيّ هي الوسيلة الأعظم والأهمّ للتّأمّل والتّدبّر في كتاب التَّكوين الآفاقيّ والأنفسيّ، وفي كتاب التَّدوين المتمثّل في كتاب الله المنزل على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؛ ليكون دليلاً ومرشداً إلى معرفة ما في الكون من أسرار، وما يستبطن خلقه من أهداف، وما هي علّة إيجاد هذا الكون؟ وما وراءه؟ وماذا يراد منه؟

---

(١) العلق: ١-٥.

إنَّ القراءة الَّتي أمر الله تعالى بها النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وأمّته، والسّائرين على هداه يجب أن تهدي إلى الواحد الأحد لمعرفة أسمائه وصفاته، ومقاصده الَّتي أنزل كتابه من أجلها، هذه القراءة في كلّ حركة وسكون، بل في كلّ لحظة بصر، وخطرة قلب تبدأ باسم الله، وتتحرّك على هدى الله.

وعلى كلّ حال: القراءة طريق ووسيلة للوصول إلى معرفة الله تعالى ومعرفة أحكامه، وما يريده من الإنسان للسَّير في معارج الكمال.

والملفت للنَّظر تكرار الأمر بالقراءة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾، وهي إشارة إلى تثبيت الفكرة، وبيان أهمّيّتها، وتأكيد على ترسيخها في أذهان السّامعين؛ لتصبح حقيقة راسخة في روح الإنسان لا يحيد عنها، لتصبح أصلاً متجذّراً في كيانه...

وهي كذلك إشارة إلى مظهر من مظاهر لطف الله في الإنسان وإكرامه أَنْ عَلَّمَ الإنسان بالقلم؛ ليرفعه إلى أعلى المستويات الفكريّة والرّوحيّة والأخلاقيّة، ولينقله من كثافة المادّة وطين الطَّبيعة إلى شفافيّة الرّوح، ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ بعد أن أخرجه إلى هذه الدُّنيا صفحة بيضاء لا يحتوي على شيء سوى أنَّها أرضيّة صالحة لغرس بذور العلم، لتعمّق الإيمان، وتهدي الإنسان إلى التَّوحيد.

وخلاصة الكلام: إنَّ الإسلام أكَّد على القراءة الواعية للقرآن؛ لأنَّه كتاب التَّدوين، وقراءة الكون فهو كتاب التكوين...

وأقسم تعالى بالقلم لما له من دور في رفع شأن الإنسان، وإصلاح المجتمع، وانتشار الحضارة ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[1]، قال المفسّر الكبير الشَّيخ الطّبرسيّ:

(١) القلم: ١.

«﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ الّذي يكتب به أقسم الله به لمنافع الخلق فيه، إذ هو أحد لساني الإنسان يؤدّي عنه ما في جنانه، ويبلغ البعيد عنه ما يبلغ القريب بلسانه، وبه تحفظ أحكام الدّين، وبه تستقيم أمور العالمين، وقد قيل: إنَّ البيان بيانان؛ بيان اللّسان، وبيان البنان، وبيان اللّسان تدرسه الأعوام، وبيان الأقلام باقٍ على مر الأيام، وقيل: إن قوام أمور الدّين والدُّنيا بشيئين القلم والسَّيف، والسَّيف تحت القلم، وقد نظمه بعض الشُّعراء وأحسن فيما قال: [من البسيط]

إن يخدم القلمَ السَّيفُ الَّذي خضعت ... له الرّقاب ودانت حِذْرَهُ الأممُ
فالموت والموت شيء لا يغالبه ... ما زال يتبع ما يجري به القلمُ
كذا قضى الله للأقلام مذ بُرِيَت ... إنَّ السُّيوف لها مذ أرهفت خدمُ»[1]

وقال العلامة الطَّباطبائيّ رحمه الله: «أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون به، وظاهر السّياق أنَّ المراد بذلك مطلق القلم، ومطلق ما يسطرون به، وهو المكتوب فإنَّ القلم وما يسطر به من الكتابة من أعظم النّعم الإلهيّة الَّتي اهتدى إليها الإنسان يتلو الكلام في ضبط الحوادث الغائبة عن الأنظار، والمعاني المستكنة في الضَّمائر، وبه يتيّسر للإنسان أن يستحضر كلّ ما ضرب مرور الزَّمان أو بعد دون المكان دونه حجاباً.

وقد امتنَّ الله سبحانه على الإنسان بهدايته إليهما وتعليمهما له، فقال في الكلام: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۞ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[2]، وقال في القلم: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3]، فإقسامه تعالى بالقلم وما يسطرون إقسام بالنّعمة»[4].

---

(١) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤٩٩/١٠.
(٢) الرّحمن: ٣-٤.
(٣) العلق: ٤-٥.
(٤) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٣٦٧/١٩-٣٦٨.

هذا إجمال الإشارة إلى أهمّيّة القلم، وأمّا التَّفصيل: فإنَّ الإسلام إنَّما أعطى للعلم هذه الأهمّيّة لأمور كثيرة تتوقّف عليها بناء الإنسان، وتسيير أموره، ومن تلك الأمور:

١- إنَّ القلم الَّذي هو رمز للعلم والمعرفة يعدّ هو المصدر «لجميع الحضارات الإنسانيّة في العالم أجمع، إنَّ تطوّر وتكامل العلوم والوعي والأفكار وتطوّر المدارس المذهبيّة والفكريّة، وبلورة الكثير من المفاهيم الحياتيّة.. كان في الواقع بفضل ما ثبت من العلوم والمعارف الإنسانيّة في الحقول المختلفة، ممّا كان له الأثر الكبير في يقظة الأمم وهداية الإنسان.. وكان ذلك بواسطة (القلم)»[١].

٢- إنَّ القلم له الدّور الأساسيّ والرّئيس في تأسيس الحضارة وبناء ثقافة الشُّعوب وتقدّمها، بل هو العامل الأهمّ في تقدّم الشعوب ورقيّها.

٣- إنَّ القراءة عاملٌ أساسيٌّ في فهم الحياة الإنسانيّة السّابقة والحاضرة واللاحقة، وفهم سرّ وجودها، وأهدافها، ووسائلها، معرفة تحدّد عوامل النُّهوض والتّقدّم، وكذلك عوامل السّقوط والانهيار.

٤- القراءة مصدر هامٌّ لتحصيل المعارف والمعلومات، وتثبيتها في سجل التّأريخ وبقائها ترفد مسيرة الإنسان على طول خطّ التّأريخ.

٥- وإذا تخلّينا عن كلّ ذلك نجد أنَّ القراءة أفضل متعة وتسلية وسياحة في عمق التّأريخ وغذاء للرّوح والعقل والنَّفس، وانتقال من عوالم ضيّقة محدودة إلى عوالم واسعة سعة الحياة؛ ولذا قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«الْكُتُبُ بَساتِينُ الْعُلَماءِ».

«الْكِتابُ أَحَدُ الْمُحَدِّثِينَ».

---

(١) الشَّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٤٧٢/١٨.

«مَنْ تَسَلَّى بالْكُتُب لَمْ تَفُتْهُ سَلْوَةٌ».

«نِعْمَ الْمُحَدِّثُ الْكتابُ»(١).

وبناءً على ذلك نجد في السُّنَّة الشّريفة التّأكيد على الكتاب والكتابة، ففي الحديث الشّريف: **«قَيِّدوا الْعِلْمَ بِالْكِتابَة»**(٢).

وعن المفضّل بن عمر قال: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام: **اكْتُبْ، وَبُثَّ عِلْمَكَ في إِخْوانك، فَإِنْ مِتَّ فَأَوْرِثْ كُتُبَكَ بَنيكَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتي عَلى النّاسِ زَمانٌ هَرْجٍ لا يَأْنَسونَ إِلا بِكُتُبِهِمْ»**(٣).

وعن الإمام الحسن عليه السلام أنَّه دعا بنيه وبني أخيه، فقال: «**يا بَنِيّ، وَبَني أَخي، إِنَّكُمْ صِغارُ قَوْمٍ يوشِكُ أَنْ تَكونوا كِبارَ قَوْمٍ آخَرينَ، فَتَعَلَّموا الْعِلْمَ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ أَنْ يَرْوِيَهُ** - أو قال: **يَحْفَظَهُ** - **فَلْيَكْتُبْهُ وَلْيَضَعْهُ في بَيْتِه**»(٤).

وقال عليه السلام لأبي بصير: «**ما يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْكِتابَة؟ إِنَّكُمْ لَنْ تَحْفَظوا حَتّى تَكْتُبوا، إِنَّهُ خَرَجَ مِنْ عِنْدي رَهْطٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَة، سَأَلوني عَنْ أَشْياء، فَكَتَبوها**»(٥).

هكذا أكَّد الإسلام على القراءة والكتابة، فهما متلازمان لا تنفكّ إحداهما عن الأخرى.

ولأهمّيّة هذا الأمر نرى أنَّ الأمم المتحضّرة اهتمَّت بشأن الكتب

---

(١) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٩، ح/٢٩١-٢٩٢-٢٩٣-٢٩٤.

(٢) الدّيلميّ، أعلام الدّين في صفات المؤمنين: ٨٢.

(٣) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١٣٠/١، ح/١٥٣.

(٤) سنن الدّارميّ: ١٤٠/١، ح/٥١١.

(٥) علي الطّبرسيّ، مشكاة الأنوار: ٣١٩/١، ح/٧٢٩.

والمكتبات، وأسَّست لها المؤسّسات الكبيرة؛ لأنَّها معلمٌ حضاريٌّ كبير.

عَوامِلُ انْصِرافِ النّاسِ الْيَوْمَ عَنِ الْمُطالَعَةِ:

رغم علم الجميع بأهمّيّة القراءة والكتابة وإجماع النّاس على ذلك في جميع الأمم والشُّعوب إلا أنَّنا نرى اليوم انصراف أكثر النّاس عن القراءة والمطالعة، وقد هجروا المكتبات، وقد قامت بعض المؤسّسات بتقديم إحصائيّات عن نسبة القراءة في الوطن العربيّ، وقارنتها بنسبة القراءة في أمريكا وبريطانيا وبقية الدُّول الأوربيّة، فعن جريدة الرّأي الأردنيّة أنَّ معدّل قراءة المواطن العربيّ سنويّاً ربع صفحة، ومعدل قراءة الأمريكي ١١ كتاب سنويّاً، و٧ كتب نسبة قراءة البريطانيّ، وإجمالي ما تنتجه الدّول العربيّة ١،١٪ من الإنتاج العالميّ رغم أنَّ نسبة سكّان الوطن العربيّ إلى سكّان العالم ٥٪ بحسب إحصائيّات سنة ٢٠٠٩، وما يطبع باللّغة الإنجليزيّة ٦٠٪ من نسبة المطبوعات بالعالم، وهناك إحصائيّات عن عدد المطبوعات في كلّ دولة[١].

جاء في تقرير النَّتيجة الإنسانيّة العربيّة الَّذي أشرف عليه المئات من الخبرات والعلماء والباحثين إحصاءات، ووصلوا إلى النَّتيجة المذهلة القائلة: ثلث الرّجال، ونصف النّساء في الوطن العربيّ لا يقرؤون.

وقامت منظمة اليونسكو في تقرير لها عن القراءة في الوطن العربي أنَّ المواطن العربيّ يقرأ ستّ دقائق في السّنة، وهذا غير الكتب المدرسيّة والمجلات والصّحف[٢].

---

(١) من الشّبكة العنكبوتية.

(٢) من الشّبكة العنكبوتية.

والّذي يهمّنا في هذا البحث أن نعرف أسباب انصراف الفرد العراقيّ عن القراءة والمطالعة، بعد أن كان سابقاً يعدّ العراقيّ من المطالعين الجيّدين حتّى قيل: «مصر تكتب، ولبنان تطبع، والعراق يقرأ».

يمكننا أن نقسم الأسباب على أصناف عدّة:

١- الأسباب السّياسيّة.

٢- الأسباب النَّفسيّة.

٣- الأسباب المنهجيّة للمراحل الدّراسيّة المختلفة.

أمّا الأسباب السّياسيّة فبعد حدوث نهضة فكريّة إبّان عقود ستّينات وسبعينات القرن الماضي نتيجة ظهور الحركة الإسلاميّة، وبروز بعض المرجعيّات ذات الاهتمام الثّقافيّ والتَّبليغيّ كما هي في مرجعيّة السّيّد الحكيم والسّيّد الصَّدر، وافتتاح مكتبة الإمام الحكيم، وامتداد فروعها في معظم أنحاء العراق، مع وجود صراع فكريّ بين الإسلاميّين والشّيوعيّين، لكنَّ هذا لم يدم طويل،اً فلم يدم أكثر من عقد حتّى جيء بحزب البعث، وتسلّط الجهلة وأشباه المتعلّمين على مقدّرات الشَّعب العراقيّ حتّى طرحت خارطة التَّجهيل ونشر الأمّيّة الفكريّة، فكانت أوّل مبادراتهم إصدار أوامر بمنع كلّ كتاب يتنافى مع فكرهم المزعوم، ومنع انتشار الكتاب الإسلاميّ بالذّات من المدارس والجماعات، وسحب هذه الكتب وحرقها، وامتدَّ ذلك إلى المكتبات العامّة بعنوان التَّطهير الفكريّ والثّقافيّ، بل امتدّ إلى المكتبات الشَّخصيّة، ومداهمتها ومصادرة الكتب المنوّعة، واستمرَّ هذا الأمر أكثر من عقدين من الزَّمان.

وأعتقد أنَّ هذا العامل هو الأساس في انصراف النّاس عن المطالعة ولا سيّما مدّة الطفولة والشّباب فضلاً عن الكهولة، إضافة إلى ما نزل بالعراق من كوارث

وحروب استمرَّت أكثر من نصف قرن، وما مرَّ به من حصار اقتصادي اضطرّ كثيراً من المثقّفين بيع ما يملكون من كتب.

قال الدّكتور وليد السّامرّائيّ (دكتوراه في الأدب المعاصر- من جامعة ليدز-بريطانيا): «فيما يتعلّق بمستوى القراءة في العراق، فإنَّنا نعتقد أنَّ ما أصاب القطّاع الثّقافيّ لا يمكن فصله عمّا نزل بالعراق من كوارث على كافّة الأصعدة، فلم تعد متابعة الحركة الثّقافيّة من أولويّات المثقّف العراقيّ، فضلاً عن المواطن العاديّ الَّذي أصبح يخوض معركة البقاء في بلد مهدّد كلّ لحظة باحتراب طائفيّ، ويفتقر لمعظم الخدمات الأساسيّة، ويحتلّ مرتبة متقدّمة في سلّم الفساد الماليّ والإداريّ.

إنَّ العراق الَّذي كادت الأمّيّة تنعدم فيه إبّان العقود الماضية تراجع بشكل ملحوظ نتيجة للظُّروف السّيّئة، وازدادت أعداد الأمّيّين، وبدأت ظاهرة تسرّب الأطفال من المدارس وعزوفهم عن الدّراسة، جلّيّة في الشَّوارع ومواقع العمل المختلفة.

وممّا زاد في انكماش الحركة الثّقافيّة الَّتي تمثّل القراءة مظهراً من مظاهرها المهمّة، هو استهداف منابع العلم الَّتي جرت أيّام الاحتلال، من حرق للمكتبات العامّة، وغلق مكتبات أخرى بوجه العامّة، وإزالة الكثير من المراجع العلميّة والتّأريخيّة والفكريّة من مكتبات أخرى، لكونها لا تتطابق ومناهج وتوجّهات طبقة الأحزاب الحاكمة في العراق»[1].

ولو أنَّ الدّكتور السّامرائيّ أشار إلى ما فعله حزب البعث من منع المصادر والمراجع المهمّة من الكتاب لكان كلامه في غاية الصّحّة.

---

(١) من الشّبكة العنكبوتية.

٢- ولعلَّ من أهمّ العوامل الَّتي أسهمت في انصراف الشَّباب خصوصاً عن المطالعة هو نظام التَّعليم العقيم المبنيّ على حشو أدمغة التّلاميذ بكمّيّة معيّنة من المعلومات، بل في كثير من الأحيان يجبر الطّالب على الحفظ والتَّلقين بدل الإقناع والتَّفهيم لغرس قيم البحث العلميّ، والتّفكير الحرّ، والإبداع المنتج علماً أنَّ علماء التّربية والتّعليم والفلاسفة أكّدوا أنَّ طريقة الإجبار والتَّلقين عقيمة وبائسة؛ لأنَّها مناقضة لأصول التّعلّم والتّعليم، قال أفلاطون: «لا ينبغي فرض هذه العلوم على العقول الَّتي لا تتقبّلها، أو تستسيغها، لكي تسود حرّيّة الرّوح، يجب أن نقدّم عناصر التَّعليم.. إلى العقل في سنّ الطّفولة، ولكن بغير إكراه أو إرغام؛ لأنَّ الرّجل الحرّ ينبغي أن يكون حرّاً، أيضاً في حصوله على المعرفة، والمعرفة الَّتي يتمّ الحصول عليها بالإرغام لا تبقى في العقل؛ لذلك لا تستخدموا الإرغام، وارفقوا التَّعليم في المرحلة الأولى منه بنوع من التَّسلية، وهذا يُمكنكم بطريقة أفضل في العثور على ميل الطّفل ورغبته»[١].

٣- ومن الأسباب المهمّة النّظام التّعليميّ الجافّ والكتب المدرسيّة المنفّرة الَّتي تجعل من الكتاب ومن القراءة شيئاً مكروهاً بحيث يذهب كثير من الباحثين والمراقبين لواقع القراءة في العالم العربي إلى «أنَّ تدنّي هذه الظّاهرة يعود بشكل جوهري إلى مناهج التَّعليم الَّتي تعلّم التَّلقين والحفظ واستدعاء الذّاكرة عند ضرورة الامتحان، وعدم إشاعة حبّ القراءة كثقافة مهمّة في حياة الطّالب مدى الحياة»[٢].

٤- ومن الأسباب الَّتي لها دور في عدم إقبال النّاشئة على القراءة تركيز

(١) ول ديورانت، قصّة الفلسفة: ٣٧.

(٢) من الشّبكة العنكبوتية.

الأمّهات والآباء على النَّجاح بأعلى الدَّرجات في المدرسة بأيّة طريقة كانت حتّى ولو لم يفهم الطّالب الدّرس الَّذي تلقّاه بالحفظ والتَّلقين من دون التّأكيد على الفهم للموضوع، ومدى أثره في مسير الإنسان في حياته التّربويّة والعمليّة.

٥- ولعلَّ من الأسباب المهمّة كثافة المناهج التَّعليميّة، وحشد كثير من الدُّروس، وتكثير واجبات الطّالب البيتيّة والامتحانيّة بحيث تصل إلى حدّ الارتباك والضّيق والملل حتّى يعود الطّالب يكره الكتاب المفروض عليه فرضاً، وبالتّالي يصبح يكره الكتاب والمدرسة والمعلّم.

٦- الانغماس بالحياة المادّيّة الخارجة عن حاجة الإنسان، إذ إنَّ الإنسان عاد اليوم لا يكتفي بما يكفيه من وسائل، وإنَّما استغرق في الكماليّات.

٧- الخطأ الَّذي غرس في ذهن الفرد بأنَّ القراءة لأجل نيل الشَّهادة والامتحان، وإذا نال الشَّهادة فقد وصل درجة الكمال، وحقَّق جميع آماله، فلماذا يقرأ إذن؟!

٨- الخطأ في فهم التّطوّر التّكنولوجيّ، فبعضهم يتصوّر أنَّ حصوله على المعلومة بسهولة من الإنترنت أو التّلفزيون يكفي عن ذلك، ونسي أنَّ بحث الإنسان عن المعلومة، ومواصلة التّأمّل والتَّفكير هو الّذي يوسّع آفاقه العلميّة والفكريّة.

٩- ولعلَّ من أهمّ الأسباب عدم معرفة أهمّيّة القراءة والمغزى الأساسي منها، وهي بناء شخصيّة الإنسان بتوسيع آفاقه العمليّة والفكريّة والأخلاقيّة، وأنَّ القراءة لا تنحصر فقط بالحصول على الشَّهادة، وإنَّما الشَّهادة هي نتاج القراءة والدّراسة، وليس العكس، فحصول الشَّهادة بلا مواصلة القراءة والدّراسة يؤدّي إلى محو ما حصل عليه الطّالب أثناء دراسته.

سُبُلُ مُعالَجَةِ الْخِطابِ الْمُتَطَرِّفِ

قبل أن ندخل في صُلب البحث لا بدّ من بيان حقيقة التّطرّف، ومنابعه النّفسيّة والفكريّة، ومظاهره، وأخطاره، ونتائجه؛ لنبحث بعد ذلك سبل معالجته في الخطاب.

التَّطَرُّفُ لُغَةً وَاصْطِلاحاً:

التّطرّف لغةً مشتقٌّ من (الطّرف)، أي منتهى الشّيء مكانيّاً أو زمانيّاً، تقول: تطرّف «أي جاوَزَ حدَّ الاعتدال، ولم يتوسّط»(١)، فالتّطرّف في اللُّغة هو الوقوف في طرف الشَّيء، أي نهايته بعيداً عن الوسط، ويقصد به العدول عن الوسطيّة، والاعتدال، والتّوازن، وبكلمة أخرى: «هو منتهى الشّيء وآخر خطّ من الجسم، أو آخر نقطة من الخطّ»(٢).

أمّا اصطلاحاً؛ فالتّطرّف هو الميل والخروج عمليّاً عن الوسط إلى أحد الجانبين (الإفراط أو التّفريط)، وتجاوز الأسس والقواعد الفكريّة، أو المعايير الأخلاقيّة، أو الآداب الاجتماعيّة، أو الأساليب الإنسانيّة، أو تبنّي مفاهيم وقيم مختلفة عن الواقع السَّليم؛ وهكذا يكون التَّطرُّف عمليّاً وسلوكيّاً هو الخروج عن الاعتدال والتّوازن في شأن من شؤون الحياة سواء كانت فكريّة عقائديّة، أو

---

(١) المعجم الوسيط: ٥٥٥، (طرف).

(٢) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٧٨/٧، (طرف).

سياسيّة أو اقتصاديّة، فرديّة أو اجتماعيّة...

ثمَّ إنَّه يمكن القول: إنَّ التّطرّفَ حالةٌ مرضيّةٌ في النَّفس منبعثة عن القلق الزّائد الّذي يعاني منه المتطرّف لفراغ فكريّ يعيشه الإنسان، أو لنظرة تشاؤميّة، أو لمصلحة ذاتيّة، أو لشكوك فكريّة، أو لطاعة عمياء لقيادات دينيّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة، أو انبهار لظواهر حضاريّة تكنولوجيّة، أو محاولة لوضع حلول متسرّعة لحالات مرضيّة في المجتمع من دون دراسة لأسبابها، وما تنطوي عليه من سوابق فكريّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة...

وبالتّالي التّطرّف إفرازٌ سقيمٌ من إفرازات التّعصّب الأعمى لفكرة يراها، أو رأي يتبنّاه، أو عقيدة يعتنقها، أو عادة ألفها، سواء كانت دينيّة أو مذهبيّة أو وطنيّة أو قوميّة..

ومن هنا يمكن أن يكون التّطرّف قوميّاً، أو ثقافيّاً، أو سياسيّاً، أو دينيّاً، إسلاميّاً أو مسيحيّاً أو يهوديّاً، أو بوذيّاً، أو هندوسيّاً؛ لأنَّ التَّطرّف لا ينحصر في دين، أو وطن، أو مجتمع، أو عقيدة معيّنة، وإنَّما هو موجود منذ القديم في المجتمعات البشريّة كلّها، فلو تتبعّنا تاريخ الأديان والحضارات والدّول والثّقافات لوجدناها لا تخلو من متطرّفين شاذّين عن مبادئها الأساسيّة، وإنَّما هم موجودون في الأديان السَّماويّة كلّها، والمذاهب الدّينيّة، بل والقوانين والشّرائع الوضعيّة، ولم ينحصر في دين من الأديان كما يحلو لأعداء الإسلام أن ينسبوه إليه...

بل إنَّ هناك التّطرّف العلمانيّ الذي يُنَظّر لفصل الدّين عن الدّولة، ويسعى لحجز الدّين في المحاريب والتّكايا، إلا أنَّه لم يتوقّف عند هذا الحدّ، بل تحرَّك بشدّة إلى محاربة الدّين ومحاصرته بأقصى ما يمكن، حتّى وجدنا بعض الدّول

كانت تعدّ الالتزام بالدّين وإظهار شعائره، والدَّعوة إليه جريمة سياسيّة تعاقب عليها قوانينهم الّتي قنَّنوها لتقزيم دور الدّين في الحياة..

وأخذ هذا الاتّجاه صوراً أو أشكالاً مختلفة راح ضحيّتها أكابر العلماء والمفكّرين والفلاسفة والأدباء والخطباء وملايين الأبرياء لا لشيء إلا أنّهم يقولون ربّنا الله، ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[1].

وبناءً على ذلك أثبت بعضُ الباحثين خطأ ربط التّطرّف والأصوليّة في أيّ دينٍ من الأديان السَّماويّة السّليمة فقط؛ لأنَّ الدّين الحقَّ قبَّح التّطرّف، ودعا إلى الاعتدال والتّوازن، وحرّم استباحة الدّماء، واستحلال الأعراض، وسلب الأموال بالباطل، بل حرَّم كلَّ اعتداء على كرامة الإنسان سواء كان صريحاً أو مبطّناً؛ لأنَّ بني آدم صنفان؛ «**إِمّا أَخٌ لَكَ في الدّينِ، وَإِمّا نَظيرٌ لَكَ في الْخَلْقِ**»[2]؛ فكلُّ تجاوزٍ أو اعتداء يتعدّى فيه حدود العقل والشّرع فليس من الدّين في شيء، بل الدّين منه براء؛ ولهذا نؤكّد القول بأنَّ الأديان السّماويّة السّليمة قد نبذت التّطرّف والغلوّ، وحرَّمت الاعتداء على النَّفس البشريّة من دون النَّظر إلى دينها وعقيدتها..

مَنابِعُ التَّطَرُّفِ:

ينبثق التّطرّف من الغلوّ، والتّعمّق، والتّعصّب..

فالغلوّ هو: «التّجاوز عن القدر، والغالي هو الّذي يتجاوز في أمر الدّين عمّا عُدّل وبُيّنَ، قال تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾[3]، فالمبتدعة غلاة في الدّين

(1) البروج: 8

(2) نهج البلاغة، 450، كتاب: 53.

(3) النّساء: 171؛ المائدة: 77.

يتجاوزون في كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ عن المعنى المراد، فيحرّفونه عن جهته»[١]، وبالتّالي هو نوعٌ من التّصلّب والتّشدّد بدرجة يتجاوز فيها الحدود الشّرعيّة والعمليّة.

وأمّا التّعمّق؛ فهو شعبةٌ من شعب الغلوّ كما ورد في بعض كلمات أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَالْغُلُوُّ عَلى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلى التَّعَمُّقِ بِالرَّأْيِ، وَالتَّنازُعِ فيه، وَالزَّيْغِ، وَالشِّقاقِ، فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إلى الْحَقِّ، وَلَمْ يَزْدَدْ إلا غَرَقاً في الْغَمَراتِ، وَلَمْ تَنْحَسِرْ عَنْهُ فِتْنَةٌ إلا غَشِيَتْهُ أُخْرى، وَانْخَرَقَ دينُهُ، فَهُوَ يَهْوي في أَمْرٍ مَريجٍ**»[٢].

بل ورد في كلمة أخرى أنَّ التّعمّقَ دعامةٌ من دعامات الكفر، قال عليه السلام: «**وَالْكُفْرُ عَلى أَرْبَعِ دَعائِمَ: عَلى التَّعَمُّقِ، وَالتَّنازُعِ، وَالزَّيْغِ، وَالشِّقاقِ، فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إلى الْحَقِّ**»[٣].

وفي رواية أخرى عن رسول الله ﷺ: «**إِيّاكُمْ وَالتَّعَمُّقَ في الدّين، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَهُ سَهْلاً، فَخُذوا مِنْهُ ما تُطيقونَ؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ ما دامَ مِنْ عَمَلٍ صالِحٍ، وَإِنْ كانَ يَسيراً**»[٤].

ويقصد بالتّعمّق الاستقصاء في الأمور بالآراء الباطلة، «يقال: تعمّق في الأمر: أي بالغ في النَّظر فيه، والمراد به المبالغة المفضية إلى حدّ الإفراط، وبعد ظهور الحقّ كمن وصل في البئر إلى الماء، وقضى الوطر، ثمّ غاص في البئر

---

(١) الشّيخ الطّريحيّ، مجمع البحرين: ٣٧/٥، (حرف).

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١٥٤/٤، ح/٢٨٦٦.

(٣) نهج البلاغة: ٤٩١، قصار الحكم: ٢٧.

(٤) ابن بشران، الأمالي: ٤٩/١، ح/٦٧؛ وكنز العمّال للمتّقي الهنديّ: ٣٥/٣، ح/٥٣٤٨.

فغرق»[١]، وبالتّالي التّعمّق هو انغمار في الأهواء بحجّة كشف الأسرار، قال ابن ميثم البحرانيّ: «التّعمّق، وهو الغلوّ في طلب الحقّ، والتّعسّف فيه بالجهل، والخروج إلى حدّ الإفراط، وهو رذيلة الجور من فضيلة العدل، ويعتمد الجهل بمظانّ طلب الحقّ»[٢].

وأمّا التّعصّب، فهو تشدّدٌ، وعنادٌ، وإصرارٌ، وانغلاقٌ نفسيٌّ، وتزمّتٌ لأمر يراه المتعصّب هو الحقُّ من دون سواه إثباتاً لأنّيّته وأنانيّته من خلال ما تعصَّب له من دون وعي لحقيقة عقليّة أو شرعيّة كما وصف ذلك أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَما وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ الْعالَمينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الأَشْياءِ إلا عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْويهَ الْجُهَلاءِ، أَوْ حُجَّةٍ تَليطُ بِعُقولِ السُّفَهاءِ غَيْرَكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبونَ لأَمْرٍ ما يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلا عِلَّةٌ**»[٣].

فمن خلال هذه الخصال القبيحة المذمومة تنطلق روح التّطرّف، وتأخذ أشكالاً وألوان متعدّدة، وتترك آثاراً سيّئة في الفرد والمجتمع، ومنها نشأت مذاهب فكريّة وقوميّة منحرفة لاقت منها البشريّة الويلات كالنّازيّة، والفاشيّة، والصَّليبيّة، والصّهيونيّة، والوهّابيّة، وغيرها من المذاهب المنحرفة عن هدى الله تعالى.

مَظاهِرُ التَّطَرُّفِ:

للتّطرّف ظواهر تبرز في سلوك المتطرّفين؛ فمن هذه الظّواهر:

---

(١) المحدّث المجلسيّ، مرآة العقول: ١٤٧/١١.

(٢) ابن ميثم البحرانيّ، شرح نهج البلاغة: ٢٥٨/٥.

(٣) نهج البلاغة: ٣٢٤، خطبة: ١٩٢.

١- الانغلاق الفكريّ: وهي حالة تمحور على الذّات، وصدود وإعراض عن الآخر؛ تكبّراً، أو استعلاءً، أو خوفاً، أو عداءً؛ وكلّها ناتجة من سوء الفهم للآخر، والتّعصّب لفكرة أو عقيدة أو سياسة معيّنة، وهي تعبيرٌ عن التّزمّت والجمود والرّكود العقليّ، وعدم القدرة على مواجهة أفكار الآخرين وآرائهم، والعجز عن التّعبير بما يجول في خاطره، أو لافتقاره للحجّة والدّليل والبرهان على ما يتبنّى من أفكار وآراء؛ ولذا نجد المتطرّف منغلقاً على ذاته، متمحوراً على معتقداته؛ ولذلك تراه فضّاً غليظاً خشناً رافضاً لكلّ ما يخالف متبنّياته، بل قد يفقد القدرة على السّماع للآخرين، وهذه الحالة قد توجد في بعض الاتّجاهات السّياسيّة الحزبيّة، وبعض المعتقدات الدّينيّة المذهبيّة، وهي مخالفةٌ لصريح كتاب الله تعالى حيث يقول: ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾(١).

٢- عدم الاعتراف بآراء الآخرين، والوقوف منها موقف الازدراء والاستهانة والتّوهين، بل ربّما لا يستطيع سماع وجهة نظر الآخر، ولا يريد أن يفهمها مهما كانت، لأنَّ آراء الآخرين وأفكارهم خطأ على كلّ حال، فلا تستحقّ أن يسمعها، وما يحمله هو الصّحيح فقط من دون سواه.

٣- محاولة إلزام الآخرين بما لم يفرضه الله تعالى، والتّشديد عليها بعنوان المستحبّات؛ لا لشيء إلا لأنَّه يراها صحيحةً أو مطلوبةً على نحو الاستحباب، ورفض الرّخص الإلهيّة مع أنَّ السُّنَّة الشّريفة تؤكّد: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُه كَما يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُه**»(٢)، وفي رواية أخرى: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ**

---

(١) الزّمر: ١٧-١٨.

(٢) ابن بَلْبان الفارسيّ، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: ٦٩/٢، ح/٣٥٤.

تُؤتى رُخَصُه كَما يُكْرَه أَنْ تُؤْتى مَعْصيَتُه»[١].

٤- سوء الظَّنّ بالآخرين؛ لأنَّ المَتطرّف ينظر إلى الآخرين من منظاره الخاصّ الّذي تغلب عليه الشّكوك والارتياب، ومعلوم أنَّ من غلبت عليه الشّكوك ساء ظنّه، و«**مَنْ ساءَ ظَنُّهُ ساءَ وَهْمُه**»[٢]، و«**مَنْ ساءَ ظَنُّه ساءَتْ طَويَّتُه**»[٣]، و«**مَنْ غَلَبَ عَلَيْه سوءُ الظَّنِّ لَمْ يَتْرُكْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَليلٍ صُلْحاً**»[٤]، وحينئذ يصبح مستوحشاً من أقرب المقرّبين إليه، ويمسي أسوأ النّاس حالاً كما جاء في الحديث الشّريف: «**شَرُّ النّاسِ مَنْ لا يَثِقُ بأَحَدٍ لسوءِ ظَنِّه، وَلا يَثِقُ بِه أَحَدٌ لسوءِ فِعْلِه**»[٥].

مَوْقِفُ الإِسْلامِ مِنَ التَّطَرُّفِ:

شريعة السَّماء سهلةٌ سمحاء كما نصَّ على ذلك الكتاب الكريم، وجسّده الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله في سنّته الشَّريفة؛ ولهذا يمكن القول بضرس قاطع: إنَّ الإسلام والتّطرّف نقيضان لا يجتمعان، وضدّان متعاكسان، فقد صرَّح القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[٦]، اليسر والسّهولة في جميع جوانب الحياة الشّرعيّة بعيداً عن التّشدّد والتّزمّت، بل إنَّ

---

(١) مسند الإمام أحمد: ١٠/١٠٧، ح/٥٨٦٦.

(٢) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦٣، ح/٥٦٧٨.

(٣) المصدر نفسه: ٦٦، ح/٨٧٤.

(٤) المصدر نفسه: ٢٦٤، ح/٥٦٨٢.

(٥) المصدر نفسه: ٢٦٣، ح/٥٦٧٥.

(٦) البقرة: ١٨٥.

التّيسير هو إحدى وسائل الجذب الرّساليّ لغرض الهداية والإرشاد، فقد جاء في وصيّة رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن داعياً ومبلّغاً: «**يسِّرْ وَلا تُعَسِّرْ، وبَشِّرْ ولا تُنَفِّرْ، وإِنَّكَ سَتَقْدمُ على قَوْمٍ منْ أَهْلِ الْكتاب، يَسْأَلونَكَ: ما مِفْتاحُ الْجَنَّةِ؟ فَقُلْ: شَهادَةُ أَنْ لا إِلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ**»[١].

وكان ﷺ دائماً يؤكّد على أصحابه وسفرائه بالتّسامح والتّساهل في تعاملهم فيما بينهم وبين غيرهم، بل ومع أنفسهم، فيقول: «**لا تُشَدِّدوا على أَنْفُسكُمْ فَيُشَدِّدَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْماً شَدَّدوا على أَنْفُسهمْ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَتلْكَ بَقاياهُمْ في الصَّوامعِ وَالدِّيار،﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾**[٢]»[٣]؛ لأنَّ التّشدّد نتيجته الهلاك والبوار كما قال ﷺ: «**لا تُشَدِّدوا عَلى أَنْفُسكُمْ فَإِنَّما هَلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ بِتَشْديدهِمْ عَلى أَنْفُسهِمْ، وَسَتَجِدونَ بَقاياهُمْ في الصَّوامع وَالدِّيارات**»[٤].

بل استنكر رسول الله ﷺ بشدّة علَى بعض أصحابه الّذين قرّروا أن ينقطعوا عن حياتهم الطّبيعيّة، وينصرفوا إلى التّعبّد، ويهجروا عوائلهم، فقد رُوِيَ عن أنس بن مالك قال: «جاء ثلاثة رهط إلى أزواج النّبيّ ﷺ، يسألون عن عبادة النّبيّ ﷺ، فلمّا أُخبِروا بها كأنّهم تقالّوها[٥]، فقالوا: وأين نحن من النّبيّ

(١) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٢٤٦/٤.

(٢) الحديد: ٢٧.

(٣) سنن أبي داود: ٤٥٧/٢، ح/٤٩٠٤.

(٤) الهيثميّ، مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: ٦٢/١.

(٥) عدّوها قليلةً.

ﷺ، قد غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، قال أحدهم: أمّا أنا فأصلّي اللّيل أبداً، وقال الآخر: أنا أصوم الدّهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النّساء، فلا أتزوّج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: **أَنْتُمُ الَّذين قُلْتُمْ كذا وكَذا، أَما وَالله إنّي لأَخْشاكُمْ لله، وَأَتْقاكُمْ لَهُ لكنّي أَصومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصلّي وَأَرْقُدُ، وأَتزوَّجُ النّساءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتي فَلَيْسَ مِنّي**»(١).

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله عليه السلام: «**إنَّ ثَلاثَ نسْوَةٍ أَتَيْنَ رَسولَ الله ﷺ، فَقالَتْ إحْداهُنَّ: إنَّ زَوْجي لا يَأْكُلُ اللَّحْمَ، وَقالَتِ الأُخْرى: إنَّ زَوْجي لا يَشَمُّ الطِّيبَ، وَقالَت الأُخْرى: إنَّ زَوْجي لا يَقْرَبُ النّساءَ، فَخَرَجَ رَسولُ الله ﷺ يجرُّ رداءَهُ، حَتّى صَعدَ الْمنْبر، فَحَمدَ اللهَ، وَأَثْنى عَلَيْه، ثُمَّ قالَ: ما بالُ أَقْوامٍ منْ أَصْحابي لا يأكُلونَ اللَّحْمَ، وَلا يَشمّونَ الطّيبَ، وَلا يَأْتونَ النّساءَ، أَما إنّي آكُلُ اللَّحْمَ، وَأَشَمُّ الطّيبَ، وَآتي النّساءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتي فَلَيْسَ منّي**»(٢).

وفي قصّة عاصم بن زياد خيرُ دليلٍ على رفض كلّ أنواع التّشدّد والانقطاع للعبادة والاعتزال عن الحياة الطّبيعيّة الشّرعيّة الّتي شرعها الله لعباده؛ فعندما زار أمير المؤمنين عليه السلام العلاء بن زياد رأى سعة داره، فحثّه على اتّخاذها وسيلةً للتّقرّب لله تعالى في صلة الرّحم، والإصلاح بين النّاس، وإكرام الضَّيف، فانتهز العلاء الفرصة، فقال: «يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد»، قال: «**وَما لَهُ؟**»، قال: «لبس العباءة، وتخلّى من الدّنيا»، قال: «**عَلَيَّ بِه**»، فلمّا جاء

---

(١) صحيح البخاريّ: ١١٦/٦.

(٢) الكافي: ١٣٤/١١، ح/١٠١٢٥.

قال: «**يا عُدَيَّ**[١] **نَفْسه، لَقَدْ اسْتَهام بكَ الْخَبيثُ، أَما رَحِمْتَ أَهْلَكَ ووَلَدَكَ؛ أَتَرى اللهَ أَحَلَّ لكَ الطَّيِّبات، وهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَها؟ أَنْتَ أَهْوَنُ عَلى الله منْ ذلكَ**». قال: «يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك، وجُشوبة مأكلك»، قال: «**وَيْحَكَ، إنّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إنَّ اللهَ تَعالى فَرَضَ عَلى أَئمَّة الْعَدْل أَنْ يُقَدِّروا أَنْفُسَهُمْ بضعَفَة النّاس، كيلا يَتَبَيَّغَ بالْفَقير فَقْرُهُ**[٢]»[٣].

وهكذا أدلّة يسر الإسلام وسهولته أكثر من أن تحصى، وأكبر الظَّنّ أنَّ كثيراً من الهفوات الّتي يقع فيها البعض في حالات التّشدّد ناتجة من سوء فهم لمقاصد الشّريعة المقدّسة، فيحاول العامل بالإسلام أن يكون شديد التّمسّك والالتزام إلا أنَّه يخطئ المقصد فيقع بالمحذور، مثلاً رواية عبد الصّمد بن بشير، قال: «دخلت امرأة على أبي عبد الله عليه السلام، فقالت: أصلحك الله، إنّي امرأة متبتّلة، فقال: **وَما التَّبَتُّلُ عنْدَكِ؟** قالت: لا أتزوّج، قال : **ولَمَ؟** قالت: ألتمس بذلك الفضل، فقال: **انْصَرفي، فَلَوْ كانَ ذلكَ فَضْلاً لَكانَتْ فاطمَةُ عليها السلام أَحَقَّ به منْك، إنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَسْبقُها إلى الْفَضْل**»[٤].

كلّ ذلك دليلُ الاعتدال والوسطيّة في الإسلام، وفي أقدس المقدّسات وهي عبادة الله تعالى، ومن الاعتدال بالعبادة يمتدّ إلى الجوانب الأخرى في حياته المعيشيّة؛ ولذا أكّد الإسلام على التّوسّط في الالتزام والاعتدال فيه، وعدم

---

(١) عُديّ: تصغير عدوّ.

(٢) «يقدّروا أنفسهم» أي يقيسوا أنفسهم بالضّعفاء؛ ليكونوا قدوةً للغنيّ في الاقتصاد وصرف الأموال في وجوه الخير ومنافع العامّة، وتسلية للفقير على فقره حتّى لا يتبيّغ أي يهيج به ألم الفقر فيهلكه.

(٣) نهج البلاغة: ٣٥٢-٣٥٣، خطبة: ٢٠٩.

(٤) الكافي: ١١/١٦٨-١٦٩، ح/١٠١٧٧.

تحميل النَّفس المشقّات الزّائدة، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**مَرَّ بي أَبي، وأَنا بالطَّواف، وأَنا حدَثٌ، وقد اجْتَهَدْتُ في الْعبادَة، فرآني، وأَنا أَتَصابُّ عرَقاً، فَقالَ لي: يا جَعْفَرُ، يا بُنَيَّ، إنَّ اللهَ إذا أَحَبَّ عَبْداً أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، ورَضِيَ عَنْهُ بالْيَسير**»[1].

وفي رواية أخرى: «**اجْتَهَدْتُ في الْعبادَة وأَنا شابٌّ، فَقالَ لي أَبي: يا بُنَيَّ، دونَ ما أَراكَ تَصْنَعُ؛ فَإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ إذا أَحَبَّ عَبْداً رَضِيَ عَنْهُ بالْيَسير**»[2].

ولعلَّ السّرَّ في ذلك أنَّ الإسلام يريد أن يربّي معتنقيه على الاعتدال والتّوازن في كلّ مآرب الحياة كي لا يقع في الإفراط ولا في التّفريط؛ لأنَّ الإسلام يستوعب حياة الإنسان في كلّ مفرداتها الفرديّة والاجتماعيّة، وبناءً على ذلك يجب على الإنسان أن يتدرّج في التَّطبيق، ويُمَرحل مسيرته التّكامليّة في الحياة؛ لأنَّ السَّيْرَ والسّلوك إلى الله تعالى هو كدحٌ، والكدح يُتعب الإنسان ويُنهكه، وهذا ما أكَّد عليه رسول الله صلى الله عليه وآله لوصيّه عليّ عليه السلام ليسمع الآخرين من خلاله، فقال: «**يا عَليُّ، إنَّ هذا الدّينَ مَتينٌ، فَأَوْغلْ فيه برفْق، ولا تُبَغّضْ إلى نَفْسكَ عبادَةَ ربِّك، فَإنَّ الْمُنْبَتَّ - يَعْني الْمُفْرطَ - لا ظَهْراً أَبْقى ولا أَرْضاً قَطَعَ، فاعْمَلْ عَمَلَ مَنْ يَرْجو أَنْ يَموتَ هَرماً، واحْذَرْ حَذَرَ مَنْ يَتَخَوَّفُ أَنْ يَموتَ غَداً**»[3].

وهكذا يتّضح لنا أنَّ الإسلامَ دينُ الاعتدال والتّوسّط من خلال ما عرضناه

---

(١) الكافي: ٢٢٣/٣، ح/١٦٨٥.

(٢) المصدر نفسه: ٢٢٤/٣، ح/١٦٨٦.

(٣) المصدر نفسه: ٢٢٤/٣، ح/١٦٨٧.

من روايات شريفة صريحة في أنَّ من أبرز سمات الإسلام هي الوسطيّة، وهي الاعتدال والتّوازن في مسيرة الإنسان في الحياة بين (الإفراط والتّفريط)، أو بين اليمين والشّمال، بلا ميل أو ترجيح لأحدهما على الأخرى، وهذا هو شأن الأمّة الشّاهدة على الأمم الأخرى، يقول تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾[١].

ومن هنا أمر الإسلامُ بسلوك الطَّريق الوسط؛ ليضمن للإنسان سعادته، ونجاته في الدّنيا والآخرة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْيَمينُ وَالشّمالُ مَضلَّةٌ، وَالطَّريقُ الْوُسْطى هِيَ الْجادَّةُ**»[٢].

وخلاصة الكلام: «إنَّ الوسطيّة في مفهوم الإسلام منهجٌ أصيلٌ، ووصفٌ جميلٌ، ومفهومٌ جامعٌ لمعاني العدل والخير والاستقامة، فهي حقٌّ بين باطلين، اعتدالٌ بين طرفين، وعدلٌ بين ظلمين»[٣].

إذن في الاسلام: الاعتدال والتّوازن أمرٌ أساسيٌّ نَصَّ عليه الكتاب والسُّنّة في كلّ شأن من شؤون الحياة، نذكر منها:

أ- في الانفعالات والعواطف من الحبّ والبغض وغيره... قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَحْبِبْ حَبيبَكَ هَوْناً ما، عَسى أَنْ يَكونَ بَغيضَكَ يَوْماً ما**»[٤].

ومعنى هذا أن يكون الإنسان معتدلاً في حبّه، وبغضه ويتوسّط في انفعالاته بلا إفراط ولا تفريط؛ لأنَّ الاعتدال واجبٌ حتّى في حبّ أولياء الله تعالى، قال

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) نهج البلاغة: ٦٦، خطبة: ١٦.

(٣) تعريف الوسطيّة للعالم السّودانيّ محمد الحبر يوسف من صفحات الشّبكة العنكبوتيّة.

(٤) نهج البلاغة: ٥٣٢، قصار الحكم: ٢٥٩.

أمير المؤمنين عليه السلام: «**سَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلى غَيْرِ الْحَقِّ**»(١).

وقال عليه السلام: «**هَلَكَ فِيَّ رَجُلانِ: مُحِبٌّ غالٍ، وَمُبْغِضٌ قالٍ**»(٢).

ب- حالة الرّضا والغضب، فلا يكون بليداً ولا متهوّراً، قال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «**الْحِدَّةُ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنونِ؛ لأَنَّ صاحِبَها يَنْدَمُ، فَإِنْ لَمْ يَنْدَمْ فَجُنونُهُ مُسْتَحْكَمٌ**»(٣).

وأيضاً ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ثَلاثُ خِصالٍ مَنْ كُنَّ فيهِ اسْتَكْمَلَ خِصالَ الإيمانِ: إِذا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضاهُ في باطِلٍ، وَإِذا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ الْغَضَبُ مِنَ الْحَقِّ...**»(٤).

ج- التّوسّطَ في الإنفاق، فلا تقتير ولا إسراف، وإنّما اقتصاد، وهو التّوسّط في البذل، يقول تعالى في وصف عباد الرّحمن: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا** ﴾(٥).

﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾(٦).

---

(١) نهج البلاغة: ٢١٥، خطبة: ١٢٧.

(٢) المصدر نفسه: ٥٠٥، قصار الحكم: ١١١.

(٣) المصدر نفسه: ٥٢٦، قصار الحكم: ٢٤٦.

(٤) الكافي: ٣/٦٠٦، ح/٢٣٠٨.

(٥) الفرقان: ٦٧.

(٦) الإسراء: ٢٩.

د- في السّلوك الاجتماعيّ، في المشي أو الكلام، يقول تعالى: ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾(١).

ونتيجة لسلوك المجتمع البشريّ جانبي الإفراط، أو التفريط حادوا عن الجادة الوسطى، فبرزت في العالم جبهتان: جبهة اليمين المتمثّلة بأمريكا، وجبهة اليسار المتمثّلة بالكتلة الشّرقيّة، وهما نهجان متعاكسان تماماً - طبعاً إلا في حرب الإسلام فإنَّهما متّفقان -، فقد دعت الرّأسماليّة إلى صهر المجتمع في الفرد، ودعت الشّيوعيّة إلى صهر الفرد في المجتمع، وهذا ما وقع به النّظامان من خطأ شنيع حين أطلق الأوّل الحرّيّة الفرديّة، وجعلها عماد الدَّولة في الوقت الّذي أطلق الثّاني الحرّيّة الاجتماعيّة من دون حدود، كلّ ذلك منع الإسلامُ منه، وأمر بالتّوسّط؛ لأنَّ «**الْيَمِينُ وَالشِّمالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوُسْطى هِيَ الْجادَّةُ**»(٢).

ونختم هذا البحث بما ورد من أحاديث تؤكّد على الوسطيّة في التَّشريع:

عن الإمام الرّضا عليه السلام أنَّه قال: «**نَحْنُ آلَ مُحَمَّدٍ النَّمَطُ الأَوْسَطُ الَّذي لا يُدْرِكُنا الْغالي، وَلا يَسْبِقُنا التّالي**»(٣).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**خَيْرُ هذِهِ الأُمَّةِ النَّمَطُ الأَوْسَطُ يَلْحَقُ بِهِمُ التّالي وَيَرْجِعُ إِلَيْهِمُ الْغالي**»(٤).

---

(١) لقمان: ١٩.

(٢) نهج البلاغة: ٦٦، خطبة: ١٦.

(٣) الكافي: ٢٤٩/١، ح/٢٧٥.

(٤) ابن ميثم البحرانيّ، شرح نهج البلاغة: ١٣٥/٣؛ والفائق في غريب الحديث للزّمخشريّ: ٢٧/٤، (نمط).

وقال عليه السلام: «**أَلا إِنَّ خَيْرَ شيعَتي النَّمَطُ الأَوْسَطُ، إِلَيْهِمْ يَرْجِعُ الْغالي، وَبِهِمْ يَلْحَقُ التّالي**»[١].

وفي دعاء الإمام الصّادق عليه السلام: «**اللّهُمَّ، لا تَجْعَلْني مِمَّنْ تَقَدَّمَ فَمَرَقَ، وَلا مِمَّنْ تَخَلَّفَ فَمَحَقَ، وَاجْعَلْني مِنَ النَّمَطِ الأَوْسَطِ**»[٢].

سُبُلُ مُعالَجَةِ التَّطَرُّفِ في الْخِطابِ:

ممّا يؤسف له أنَّ بعض الباحثين والكُتّاب، ولا سيّما في وسائل التّواصل الاجتماعيّ يعدّون كلّ دعوة إلى الإسلام سواء كانت التزاماً بفرائضه وأحكامه، أو بياناً وطرحاً لمفاهيمه، أو نشراً لمبادئه وتعريفاً بأسسه وآدابه، وتوضيحاً لأحكامه الشّرعيّة، والتزاماته الأخلاقيّة هي تطرّف دينيٌّ، «إذ باسم التّصدّي للتّطرّف سمح البعض لأنفسهم بتجاوز الخطوط الحمراء ومحاولة تجريح التّديّن ذاته... وهي السّياسة الّتي ترى في التّديّن تربةً خصبةً ينمو فيها، ويتغذّى منها التّطرّف... ومن ثمّ فإنَّ دعاتها لا يرون بديلاً عن اقتلاع جذور التّديّن ذاته... وبذريعة مواجهة التّطرّف ظهرت في العقدين الأخيرين «ميلشيات» ضمّت نفراً من المثقّفين كانت مهمّتهم وما زالت، محاولة قطع الطّريق على تقدّم المسيرة الإسلاميّة بمختلف الوسائل المشروعة، وغير المشروعة، وبشكل أساسيّ فإنَّ الّذين انخرطوا في تلك الميلشيات كانوا خليطاً من غلاة العلمانيّين والماركسيّين»[٣].

---

(١) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٨٩٣؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ٣٨٧/٤، ح/٢٠٠٥.

(٢) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: ٣١٤/١١.

(٣) فهمي هويدي، المفترون، خطاب التّطرّف العلمانيّ في الميزان: ٦.

وهؤلاء عادة يحتجّون بخطابات بعض المتزمّتين، ودعاة الطّائفيّة المقيتة من ذوي العصبيّة العمياء المتحجّرين فكريّاً، والمتزمّتين سلوكيّاً، كشواهد على وجود التّطرّف في الإسلام، معرضين عمّا في الكتاب والسّنّة من براهين وأدلّة قاطعة على أنَّ الإسلام دين الاعتدال والتّوازن في منظومته العقائديّة والحكميّة والأخلاقيّة، وقد طبَّقها الرَّسول الأعظم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام عمليّاً في كلّ مراحل حياتهم، وتجاهلوا أنَّ هؤلاء المتطرّفين إمّا أن يكونوا قد اتّخذوا الخطابةَ مهنةً يعتاشون بها، فهم يعيشون على جهل النّاس؛ ولذا تراهم يروّجون القصص الخرافيّة، والأساطير الوهميّة، والأخبار الدَّخيلة[1] من الإسرائيليّات الَّتي دسَّها أعداءُ الإسلام في مصنَّفات الحديث، والمراجع التّأريخيّة والرّجاليّة الّتي يصعب التّمييز فيها بين الغثّ والسَّمين إلا لذوي الاختصاص في العلوم والمعارف الإسلاميّة، وإمّا أن يكون هؤلاء الخطباء والدّعاة مدفوعين من قبل أعداء الإسلام للطَّعن بمبادئه وعقائده وأحكامه وتشويه صورته، أو لتمزيق كلمة أهل القبلة، ونشر الفتن والحروب الطّائفيّة، وليس بعيداً عنّا ما نراه من قنوات فضائيّة تبثُّ سمومها من بعض العواصم الغربيّة، وتركّز على بعث الفرقة بين المسلمين، ونشر روح العنف والكراهية والتّشدّد لإعطاء صورة مشوَّهة للإسلام من خلال ما يثيره بعض المتزيّين بزيّ أهل العلم لخداع النّاس على أنَّهم يمثّلون مراجع المسلمين، لإبعاد النّاس عنه، وإيقاف امتداده في المجتمعات العالميّة بعد انتشار الصَّحوة الإسلاميّة في العالم؛ ولذلك لا بدَّ من بيان معنى التَّطرُّف من وجهة النّظر الإسلاميّة إضافةً لما تقدّم من بيان لمعناه لغةً واصطلاحاً، فنقول:

---

(١) راجع كتاب الأخبار الدّخيلة للشّيخ محمّد تقي التّستريّ.

إنَّ مفهوم التّطرّف في الإسلام هو الخروج عن لوازم ومقتضيات القواعد العقليّة، والأحكام الشَّرعيّة، والأصول الأخلاقيّة، والثّوابت المبدئيّة، والمصالح الاجتماعيّة، والضَّرورات الإسلاميّة، ومتطلّبات الظّروف الزّمانيّة المناسبة.

فإذا لم يراعِ الخطيبُ أو المحاضرُ أو الكاتبُ الإسلاميّ هذه الأسس، فإنَّه يكون قد وقع في هُوَّة التّطرّف، وانعكس ما يقصده من إصلاح وتغيير للواقع إلى إفساد وتخريب له...

أمّا مراعاة القواعد العقليّة؛ فعلى على الخطيب أن يزن كلامه بميزان العقل السَّليم، فيتأمّل بكلّ كلمة يتلفّظ بها من حيث صحّة كلامه، ومناسبته لمستوى سامعيه، وفائدته لهم، ودرجة قبولهم له، وانسجام أطراف حديثه، بحيث لا يتناقض أوّل الحديث مع آخره، بل يجب أن يكون نسيجاً واحداً يكمل آخره أوّله، قال أمير البلاغة والبيان الإمام عليّ عليه السلام:

«شَرُّ الْقَوْلِ ما نَقَضَ بَعْضُهُ بَعْضاً»(١).

«لا تُحَدِّثْ بما تَخافُ تَكْذيبَهُ»(٢).

«إيّاكَ وَالْكَلامَ فيما لا تَعْرِفُ طَريقَتَهُ، وَلا تَعْلَمُ حَقيقَتَهُ؛ فَإنَّ قَوْلَكَ يَدُلُّ عَلى عَقْلِكَ، وَعِبارَتَكَ تُنْبِئُ عَنْ مَعْرِفَتِكَ»(٣).

وأمّا مراعاة الأحكام الشَّرعيّة، فممّا لا شكَّ فيه أنَّه يجب على الخطيب الإسلاميّ أن يكون الحكم الشّرعيّ حاكماً على كلّ ما ينطق به، فلا يتكلّم ولو حرفاً واحداً مخالفاً لحكم الله تعالى، ما دام يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢١٢، ح/٤١٢٩.

(٢) المصدر نفسه: ٢١٣، ح/٤١٣٥.

(٣) المصدر نفسه: ٢١٠، ح/٤٠٦٠.

كإثارة العصبيّات الجاهليّة، وتَهْييج روح العنف والكراهيّة تجاه أيِّ مجتمع بشريّ، بل يجب أن لا يتكلّم بكلّ ما له آثارٌ سلبيّةٌ في الوسط الاجتماعيّ، ومن هنا يجب أن يتأمّل ويتدبّر ويفكّر جيّداً فيما يريد طرحه من حديث، لئلا يثير حديثه ردود فعل سلبيّة، ويجب أن يعلم أنَّه محاسب عليه يوم القيامة، ومسؤول عن قصده منه، فقد ورد في وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذر: «**يا أَبا ذَرّ، ما مِنْ خَطيبٍ إلا عُرِضَتْ عَلَيْهِ خُطْبَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَما أَرادَ بِها**»[1].

وأمّا رعاية الأصول والآداب الأخلاقيّة؛ فلا بد أن يُشْعِرَ مخاطبيه بالاحترام والودّ والمحبّة وإرادة الخير والصَّلاح لهم، وأن لا يتحدّث عن الأخطاء والمخالفات الشَّرعيّة الّتي يُريد أن ينهى عنها، ويحذّر منها بصورة مباشرة، وإنّما يُشير لها تلميحاً لا تصريحاً، وأنَّها قابلة للتَّصْحيح، وأن لا يذكر أسماء المخطئين والمذنبين على رؤوس الملأ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أُخبر عن مخالفات بعض المسلمين، وأراد أن يشير اليها، وينهى عنها بقوله: ما بالُ أَقْوامٍ يفعلون كذا، أو يقولون كذا[2]؛ وأن يطرح خطابه بصوت هادئ رقيق، فكلّما كان الصَّوتُ رقيقاً هادئاً خفيفاً على الأسماع واضحاً مختصراً بعيداً عن الحشو الفارغ، والتّكرار المملّ واللّفّ والدّوران بلغة أدبيّة مهذّبة مجانباً لإثارة المسائل الخلافيّة سواء كانت مذهبيّة أو سياسيّة، يكون أقرب لفتح القلوب، وتنوير العقول، وتزكية النُّفوس.

وأمّا رعاية الثّوابت المبدئيّة والعقائديّة، فيجب أن يجتنب التَّجريح

---

(١) الشّيخ الطّوسيّ، كتاب الأمالي: ٧٨٠؛ وترتيب الأمالي: ٣٣٠/٧، ح/٤١٥٥.

(٢) ينظر: الكافي: ١٣٤/١١، ح/١٠١٢٥؛ وتفصيل وسائل الشّيعة للحرّ العامليّ: ١٠٧/٢٠، ح/٢٥١٥٨؛ و٢٤٤/٢٣، ح/٢٩٤٨٦.

والتَّهوين بثوابت النّاس الّتي يعتقدون بحرمتها وقدسيّتها، وإن لم يكن يؤمن بها، وإذا كان يعتقد بعدم صلاحها فيمكن أن يطرح البديل الفكريّ بصورة غير مباشرة وفق قاعدة «اطرح الصَّحيح ليزيح الخطأ» من دون إشارة إلى ما يثير النّفور في النّفوس.

وأمّا رعاية المصالح الاجتماعيّة؛ فإنَّه من الأهمّيّة بمكان أن يكون الخطاب له مساساً بما يدور في المجتمع المُخاطَب من أمراض، ومشاكل، وعادات، وأعراف، وتقاليد؛ ليجد السّامع في خطابه غذاءً روحيّاً، أو فكراً تربويّاً، أو توجيهاً أخلاقيّاً، بحيث لا يخرج السّامع من جلسته إلا وفي نفسه أثرٌ إيجابيٌّ طيّبٌ، وشعورٌ بالمشاركة الوجدانيّة للآخرين، «فالكلام ليس ما يصفه العلم بأنَّه مجرّد صوت تشارك في إصداره الحبال الصّوتيّة فقط، بل هو عواطف تتدفّق، وأفكار توجّه، لها تأثيرها في نفس السّامع».

ومن هنا إذا أردنا أن نترك أثراً إيجابيّاً في من نختلف معه في جانب من جوانب الحياة لا بدّ من احترام خصوصيّاته الفكريّة والأخلاقيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة، ونتجنّب التّجريح والتّوهين، ونثير العواطف النّبيلة في نفسه لخلق روح التّفاعل الحضاريّ، والتّلاقح الفكريّ، والتّواصل الإنسانيّ، وممّا لا شكَّ فيه أنَّ منظومة الفكر الإسلاميّ طافحة بهذه المفاهيم الجذّابة الّتي تفتح القلوب لتنوّر العقول، وتغيّر الواقع السَّقيم إلى مناخ سليم.

وينبغي للخطيب أن يراعي متطلّبات الظُّروف الزّمانيّة ولوازمها وحاجاتها الفكريّة، والثّقافيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، وما يناسبها من أفكار ورؤى وحلول، ويتحدّث بلغة العصر بعيداً عن الخرافات والأساطير والأحلام والقصص الخياليّة الّتي لا تُسمن ولا تغني من جوع، وما إلى ذلك ممّا لا يناسب زمان

الحديث.

وأخيراً: لا بدَّ للخطيب، ولا سيّما صاحب المنبر الحسينيّ، أن يعي حقيقة الخطابة، وماهيّتها، وأهمّيّتها، ودورها في الإصلاح الاجتماعيّ، كما يجب أن يحيط معرفةً بشروطها وآدابها، ويدرك بدقّة عوامل النَّجاح فيها، ويتعرّف جيّداً على أساليب الطّرح الفنّيّ المؤثّر..

وبناءً على ما تقدَّم، ولأجل تجنّب الوقوع في مستنقع التّطرّف وتحصيل الحصانة من خطورة الإفراط أو التّفريط لا بدّ من بيان حقيقة الخطابة في معناها الرّساليّ، وأهمّيّتها الاجتماعيّة، وقواعدها العلميّة، وأساليبها الفنيّة، ولوازمها المعرفيّة، وأدواتها المسلكيّة؛ وممّا لا شكَّ ولا ريب فيه أنَّ من يحيط معرفة بذلك لا يمكن أن يكون متطرّفاً أبداً، وما سقط من سقط في هوّة التّطرّف إلا لجهله بذلك، إن لم يكن مصاباً بمرض التّعصّب والعناد، وإلا كيف يخرج عن الصّراط المستقيم مَن كان له عقلٌ متينٌ وذوقٌ سليمٌ.

وقد تبيَّن هذا الأمر كلّه في التّمهيد الّذي مهّدناه للكتاب، فهو السّبيل الأسلم لمعالجة التَّطرُّف في الخطابة فممّا لا شكَّ فيه أنَّ من يعي الحقائق الّتي ذكرناها المؤيَّدة بالنّصوص الصَّحيحة لآل محمّد ﷺ لا يمكن أن يقع في مستنقع الإفراط أو التَّفريط، وإنّما سيسلك الجادّة الوسطى، وينحو نحو عباد الله الصّالحين من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

الْحُرِّيَّةُ

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أيُّها النّـاسُ، إنَّ آدَمَ لَـمْ يَلِـدْ عَبْـداً ولا أَمَـةً، وَإنَّ النّـاسَ كُلَّهُـمْ أَحْرارٌ»[1].

«وَلا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ، وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً»[2].

الحرّيّة نغمة جميلة تداعب شغاف كلّ قلب حيّ، فهي ترتبط ارتباطاً وجدانيّاً[3] في كيان كلّ الإنسان، وهذا الأمر غريزيٌّ في الإنسان لما حباه الله بخاصيّة تَفرَّد بها، وهي الإرادة والاختيار، ومن هذا المنطلق العاطفيّ راحت الدَّعوات، ولا سيّما الحديثة منها تضرب على هذا الوتر الحسّاس في الإنسان؛ لتسيطر عليه باسم الحرّيّة والتّحرّر، فأخرجته من جانب التّعقّل والالتزام إلى جانب الفوضى والتّمرّد على الشَّرع والقانون، وهذا ما حدث فعلاً في عصرنا الحاضر حيث سمّوا التّمرّد، والتّهتّك، والخلاعة، والخروج على القيم الأخلاقيّة

---

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١٧٥/١٥، ح/١٤٨٤١.

(٢) نهج البلاغة: ٤٢٥، كتاب: ٣١.

(٣) الوجدان: مصدر وَجَدَ، ووِجْدَانُ الْمَرْءِ هو نَفْسُهُ وَقُوَاهُ الباطنيَّةُ، وهو مجموع الأحاسيس والانفعالات والعواطف والاتّجاهات والميولات الَّتي يتفاعل معها أو يَتَأَثَّرُ بها، مِنْ حبّ وكراهية وتعاطف ولَذَّة، أَوْ أَلَم وميل ونفور، إلى آخره من أحاسيس إنسانيّة مختلفة، من الشّبكة العنكبوتيّة.

باسم الحرّيّة...

ونحاول هنا أن نقف على معنى الحرّيّة، وحقيقتها في الإسلام، فقد عدّت بعض المدارس المادّيّة الحديثة الانفلات عن حدود العقل والشّرع حرّيّة، وأنَّ للإنسان أنْ يتصرّف كما يحلو له إلا أنَّ حرّيته تنتهي عندما تبدأ حرّيّة الآخرين، وسمّوا ذلك (الحرّيّة الشّخصيّة)، فللإنسان أنْ ينطلق بما يرغب من حرّيّة الفكر، والسّياسة، والاقتصاد... وبذلك «رفضت كلّ التَّحديدات الخلقيّة والرّوحيّة، وآثارها الخطيرة: في مجرى الحياة الاقتصاديّة أوَّلاً، وفي المحتوى الرّوحيّ للمجتمع ثانياً، وفي علاقات المجتمع الرّأسماليّ بغيره من المجتمعات ثالثاً، حتّى عاد الرَّأسماليّون أنفسهم يؤمنون بحاجة الرّأسماليّة إلى التَّعديل والتَّحديد»[(١)].

وقد عرّف برتراند راسل الفيلسوف البريطانيّ الحرّيّة بقوله: «إنَّ الحرّيّة بشكل عام يجب أنْ تعرّف على أنَّها غياب الحواجز أمام تحقيق الرَّغبات»[(٢)].

وأمّا مفهوم الحرّيّة في الإسلام، فيختلف كلّيّاً عن هذه المعاني الزّائفة، فليس الحرّيّة هي الفوضى والانطلاق بلا حدود ولا قيود، بل هي ثورة على كلّ العبوديّات النّفسيّة، والشّخصيّة، والاجتماعيّة، والسّياسيّة، وتحطيم القيود المخالفة للشَّرع والعقل، وبعبارة مختصرة: «إنَّها القدرة على الاختيار وتحديد الموقف»، فليست الحرّيّة تحلّلاً، وإباحيّة، واستغراقاً في الشَّهوات، وليست اتّباعاً أعمى للمذاهب والأشخاص، بل اتّباع للحقّ والتزام به، فالحرُّ هو الملتزم بحدود الشَّرع المقدّس، قال المحدّث المجلسيّ: «الحرّ ضدّ العبد، والمراد هنا من نجا

---

(١) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، اقتصادنا: ٣٠٠.

(٢) د.عبد الوهّاب الكيّاليّ، موسوعة السّياسة: ٢/٢٤٤.

في الدُّنيا من رقّ الشَّهوات النّفسانيّة، وأُعتق في الآخرة من أغلال العقوبات الرّبّانيّة، فهو كالأحرار عزيز غنيٌّ في جميع الأحوال»[١].

وإلى هذا المعنى ذهب بعض الباحثين في المشكلات الفلسفيّة، وسمّاها حرّيّة الحكيم، أو حرّيّة الكمال، وهي الصّفة الّتي تميّز بها ذلك الحكيم الَّذي استطاع أن يتحرّر من كلّ شرّ، ومن كلّ كراهية، ومن كلّ رغبة أعني حرّيّة الفيلسوف الَّذي قد تحرّر بالفعل من عبوديّة الأهواء والغرائز والجهل... وقد أخذ بعض الفلاسفة بهذا النّوع من الحرّيّة مثل الرّواقيّين، واسبينوزا، وليبنتس، وعدّوها هي الحرّيّة المطلقة إلا أنَّ بعضهم حصرها بالله دون خلقه[٢].

قال الرّاغب: «الحرّ خلاف العبد... والحرّيّة ضربان: الأوّل من لم يجر عليه حكم الشّيء[٣]، نحو: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾، والثّاني: من لم تتملّكه الصّفات الذّميمة من الحرص، والشّره على المقتنيات الدّنيويّة»[٤].

فالإسلام أراد أن يحرّر الإنسان من كلّ أنواع العبوديّات بصورة كلّيّة، وشعار التّوحيد الخالد (لا إله إلا الله) خير دليل على ذلك، فكلمة (لا إله) نفي مطلق لكلّ أنواع العبوديّات سواء كانت داخليّة أو خارجيّة، بأيّ شكل من الأشكال، وكلمة (إلا الله) تثبيت لعبوديّة الله الّتي تمثّل التّحرّر الكامل، فلا يكون الإنسان حرّاً حتّى يكون لله عبداً؛ لأنَّ العبوديّة لله تنفي سائر العبوديّات، قال السّيّد الشّهيد الصّدر رحمه الله: «ولئن كانت الحرّيّة في الحضارات الغربيّة تبدأ من

(١) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ٦٩/٧١.

(٢) ينظر: مشكلة الحرّيّة للدّكتور زكريّا إبراهيم: ٢١.

(٣) نقل المجلسيّ: «من لم يجرِ عليه حكم السّبي»، بحار الأنوار: ٦٩/٧١.

(٤) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ١٥٦، (حر).

التّحرّر لتنتهي إلى ألوان من العبوديّة، والأغلال، كما سنوضّح فإنَّ الحرّيّة الرَّحيبة في الإسلام على العكس؛ لأنَّها تبدأ من العبوديّة المخلصة لله تعالى؛ لتنتهي إلى التّحرّر من كلّ أشكال العبوديّة المهينة.

يبدأ الإسلام عمليّته في تحرير الإنسانيّة من المحتوى الدّاخليّ للإنسان نفسه؛ لأنَّه يرى أنَّ منح الإنسان الحرّيّة ليس أن يقال له: هذا هو الطَّريق قد أخليناه لك فَسِرْ بسلام، وإنَّما يصبح الإنسانُ حرّاً حقيقة، حين يستطيع أن يتحكّم في طريقه ويحتفظ لإنسانيّته بالرَّأي في تحديد الطَّريق ورسم معالمه واتّجاهاته، وهذا يتوقّف على تحرير الإنسان قبل كلّ شيء من عبوديّة الشَّهوات الَّتي تعتلج في نفسه؛ لتصبح الشّهواتُ أداةَ تنبيه للإنسان إلى ما يشتهيه، لا قوّةً دافعةً تسخّر إرادة الإنسان دون أن يملك بإزائها حولاً أو طَولا؛ لأنَّها إذا أصبحت كذلك خسر الإنسان حرّيّته منذ بداية الطّريق، ولا يغيّر من الواقع شيئاً أن تكون يداه طليقتين ما دام عقله وكلّ معانيه الإنسانيّة الَّتي تميّزه عن مملكة الحيوان معتقلةً ومجمّدة عن العمل»[1].

وضرب السّيّد الشَّهيد الصَّدر مثلاً واحداً، فقال: «ويكفينا مثل واحد؛ لنعرف النَّتائج الباهرة الَّتي تمخَّض عنها هذا التَّحرير، ومدى الفرق بين حرّيّة الإنسان القرآنيّ الحقيقيّة، وهذه الحرّيات المصطنعة الَّتي تزعمها شعوب الحضارات الغربيّة الحديثة، فقد استطاعت الأمّة الَّتي حرَّرها القرآن حين دعاها في كلمة واحدة إلى اجتناب الخمر أن تقول: لا، وتمحو الخمر من قاموس حياتها بعد أن كان جزءاً من كيانها، وضرورةً من ضروراتها؛ لأنَّها كانت مالكة

---

(١) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، المدرسة الإسلاميّة: ٩٥-٩٦.

لإرادتها، حرّة في مقابل شهواتها ودوافعها الحيوانيّة، وبكلمة مختصرة: كانت تتمتّع بحرّيّة حقيقيّة تسمح لها بالتّحكّم في سلوكها.

وأمّا تلك الأمّة الّتي أنشأتها الحضارة الحديثة، ومنحتها الحرّيّات الشّخصيّة بطريقتها الخاصّة، فهي بالرّغم من هذا القناع الظّاهريّ للحرّيّة، لا تملك شيئاً من إرادتها، ولا تستطيع أن تتحكّم في وجودها؛ لأنّها لم تحرّر المحتوى الدّاخليّ لها، وإنّما استسلمت إلى شهواتها ولذاذاتها تحت ستار من الحرّيّة الشّخصيّة حتّى فقدت حرّيّتها إزاء تلك الشّهوات واللّذاذات، فلم تستطع أكبر حملة للدّعاية ضدّ الخمر جنّدتها حكومة الولايات المتّحدة الأمريكيّة أن تحرّر الأمّة الأمريكيّة من الخمر، بالرّغم من الطاقات المادّيّة والمعنويّة الهائلة الّتي جنّدتها السّلطة الحاكمة، ومختلف المؤسّسات الاجتماعيّة في هذا السّبيل، وليس هذا الفشل المريع إلا نتيجة فقدان الإنسان الغربيّ للحرّيّة الحقيقيّة، فهو لا يستطيع أنْ يقول: لا، كلّما اقتنع عقليّاً»(١).

مَنْبَعُ الْحُرِّيَّةِ:

الإسلام دين الفطرة، وينطلق في تحرير الإنسان من داخله أوّلاً من خلال تحريره من ربقة الشّهوات الذّاتيّة، وتحكيم عقله في غرائزه، وهذا ما يعبّر عنه القرآن بالتّزكية النّفسيّة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾(٢)، فإذا تحرَّر الإنسان من داخله، فلا يمكن أنْ يسترقّه شيء، أو يستعبده أحد، وهذا

---

(١) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، المدرسة القرآنيّة: ٣٦١-٣٦٢.

(٢) الشّمس: ٩-١٠.

المعنى عكس المعنى الغربي الَّذي يقول: «إنَّ الحرّيّة هي رفع الموانع أمام تحقيق الرَّغبات الذّاتيّة»، ففي منظور الإسلام أنَّ الإنسان إذا خلي وشهواته؛ فإنَّه يصبح عبداً لها: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾(١)، فهو عبدٌ ذليلٌ أمام جحيم الشَّهوات، وأمّا عندما يتحكّم في غرائزه، ويخضعها لعقله؛ فإنَّه يصبح في منتهى الحرّيّة، وهذا المعنى ورد في الأحاديث الشَّريفة بشكل صريح، فقد جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: **«مَنْ تَرَكَ الشَّهَوات كانَ حُرّاً»**(٢).

«مَنْ زهد في الدُّنْيا أَعْتَقَ نَفْسَه، وَأَرْضى ربَّه»(٣).

«لا يَسْتَرِقَنَّكَ الطَّمَعُ، وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً»(٤).

ومن هنا إذا تحرّر الإنسان داخليّاً، أي أصبح مالكاً لنفسه، مسيطراً على أهوائه ورغباته، محكّماً فيها عقله، فلا يمكن أن تسيطر عليه الأحداث، أو تكسره المصائب ما دام مالكاً إرادته، متوكّلاً على ربّه، عَنْ أبي بصير، قالَ: «سَمِعْتُ أَبا عَبْد الله عليه السلام يَقولُ: **إنَّ الْحُرَّ حُرٌّ على جَميع أَحْواله، إنْ نابَتْهُ نائبَةٌ صَبَرَ لَها، وإنْ تَداكَّتْ عَلَيْه الْمَصائبُ لَمْ تَكْسِرْهُ، وإنْ أُسِرَ وَقُهِرَ وَاسْتُبْدلَ بالْيُسْر عُسْراً - كَما كانَ يوسُفُ الصِّدّيقُ الأَمينُ صَلَواتُ الله عليه - لَمْ يَضْرُرْ حُرِّيَّتَهُ أَن اسْتُعْبِدَ وَقُهِرَ وَأُسِرَ، وَلَمْ تَضْرُرْهُ ظُلْمَةُ الْجُبِّ وَوَحْشَتُه، وَما نالَهُ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْه؛ فَجَعَلَ الْجَبّارَ الْعاتيَ لَهُ عَبْداً بَعْدَ إذْ**

---

(١) الفرقان: ٤٣.

(٢) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٨٩

(٣) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٧٧، ح/٦١٠٠.

(٤) المصدر نفسه: ٢٩٨، ح/٦٧٤٣.

كانَ لَهُ مالكاً، فَأَرْسَلَهُ، وَرَحِمَ بِه أُمَّةً، وَكَذلكَ الصَّبْرُ يُعَقِّبُ خَيْراً، فَاصْبِروا وَوَطِّنوا أَنْفُسَكُمْ عَلى الصَّبْرِ تُوجَرُوا»[1].

فالحرّيّة إذن تنبع من داخل الإنسان حين يملك إرادته بالسَّيطرة على عواطفه وشهواته وغرائزه، واضعاً لها تحت حكم العقل والشّرع، ومن هنا نقول بضرس قاطع: إنَّ الحرّيّة لا تمنح للإنسان من خارج محتواه الدّاخليّ أبداً، وإنّما تنطلق من داخله الطّافح بعزمه وإرادته ومستوى وعيه لرسالته في تحديد دوره في الكون والحياة.

قِيمَةُ الْحُرِّيَّةِ:

لا يمكن أنْ نحدّد قيمة الحرّيّة بكلمات محدودة، فهي الحياة والحياة هي، ومن دونها تصبح الحياة لا معنى ولا قيمة لها؛ لأنَّ فاقد الحرية لا يستطيع أنْ يتصرّف وفق إرادته، وإذا ما فقد إرادته أصبح مكبّلاً بالقيود، فلا يستطيع أنْ يأخذ موقعه الطّبيعيّ من المجتمع أو الكون، وحينئذٍ تتوقّف عجلة تكامله... وماذا يملك من فقد حرّيّته؟

أَنْواعُ الْحُرِّيَّةِ:

ليس للحرّيّة أنواع، وإنَّما هي نوع واحد، ولكنَّ الباحثين أخذوا يفلسفونها بحسب توجّهاتهم وأفكارهم، فأعطوها مسمّيّات منها حرّيّة الفكر، والتّجارة، والإعلام، والسّياسة، والصحافة... وما إلى ذلك، ولكنَّهم ركّزوا على نوعين، كلّ بحسب توجّهاتهم:

---

(١) الكافي: ٣/٢٣٠-٢٣١، ح/١٦٩٥.

١- **الحرّيّة المطلقة:** ومعناها رفع القيود والحواجز أمام الإنسان؛ ليقول ما يحبّ، ويعمل ما يحلو له، ويتناول ما ترغب نفسه من دون حدود من عقل وشرع، وبعبارة أوضح: أنْ يتحلّل من القيود الأخلاقيّة والقوانين والنّظم، وهذا لا وجود له في الدّنيا إلا في خيال وأوهام المستكبرين الَّذين طبَّلوا باسم الحرّيّة الَّتي هم لا يؤمنون بها؛ وإنّما دعوا إليها وروَّجوها؛ ليخدعوا الشُّعوب، ويحلّلوها من أخلاقها ودينها؛ كي يمتصّوا خيراتها، ويصادروا إرادتها، وقد انخدع كثير من أبناء الشَّرق -ويا للأسف- بهذا الزّيف، فراحوا يطبّلون له من دون وعي، وإدراك لمخاطر ذلك.

وتحقّق ما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون القائلة: «إنَّ صيحتنا الحرّيّة والمساواة والإخاء قد جلبت إلى صفوفنا فرقاً كاملة من زوايا العالم الأربع عن طريق وكلائنا المغفّلين، وقد حملت هذه الفرق ألويتنا في نشوة، بينما كانت هذه الكلمات -مثل كثير من الدّيدان- تلتهم سعادة المسيحيّين، وتحطّم سلامهم واستقرارهم ووحدتهم، مدمّرة بذلك أسس الدّول»[(١)].

وفي نصّ آخر لهم: «إنَّ كلمة الحرّيّة ترج بالمجتمع في نزاع مع كلّ القوى حتّى قوّة الطّبيعة وقوّة الله، وذلك هو السَّبب في أنَّه يجب علينا -حين نستحوذ على السُّلطة- أن نمحق كلمة الحرّيّة من معجم الإنسانية باعتبار أنّها رمز القوّة الوحشيّة الَّذي يمسخ الشّعب حيوانات متعطّشة إلى الدّماء»[(٢)].

وحقّاً ما قاله الدّكتور زكريّا إبراهيم: «والواقع أنَّ الحرّيّة لا يمكن أن تُفهم إلا على ضوء نقيضها؛ لأنَّها لو كانت مطلقة لأصبحت كلمة جوفاء لا تعني شيئاً،

---

(١) محمّد خليفة التّونسيّ، الخطر اليهوديّ، بروتوكولات حكماء صهيون: ١١١.

(٢) بروتوكولات حكماء صهيون: ١١٩.

ولا تدلّ على أيّ شيء، إنّ الحرّيّة المطلقة - كما يقول "يسبرز" - هي في النّهاية أمر لا معنى له، فإنَّ الحرّيّة تصبح خاوية إذا لم تكن ثمّة شيء يضادّها»[1].

بل قرَّر الفيلسوف هيجل: «أنَّ الحرّيّة المطلقة سلبٌ محضٌ، أعني أنَّها عدم وموت، فالحرّيّة في نظره لا يمكن أن تكون شيئاً إلا بذلك الوجود الَّذي تصونه وتحافظ عليه»[2].

٢- الحرّيّة المحدّدة بحدود العقل والشّرع، وهذه هي الحرّيّة الَّتي أقرَّها العقلاء والشّرائع الإلهيّة الحقّة، وسارت عليها الحضارات والدّول في الأعمّ الأغلب على طول خطّ التّأريخ، فالإنسان حرٌّ في إطار العقل والشّرع، والحرّ من يتقيّد في مسيرته بما قرّره العقل والشَّرع؛ لأنَّ «العَقلُ شَرعٌ مِن داخل، وَالشَّرعُ عَقلٌ مِن خارجٍ»؛ ولهذا يتمسّك الحرُّ بما قرَّره العقل والشّرع من أحكام ودساتير، ولا يخرج عنهما، فنحن نشعر بحرّيّتنا حينما نعرف ما نريد، ولماذا نريد، «أعني حينما نعمل وفقاً لمبادئ أخلاقيّة يقرّها عقلنا، وتتقبّلها إرادتنا، فالفعل الحرُّ بهذا المعنى هو الفعل الصّادر عن رويّة، وتعقّل، وتدبّر»[3].

وبعبارة أخرى: الحرّيّة هي التّقيّد بحدود المنطق، والعقل، والشّرع؛ فإنَّ الحرَّ من عرف الحقَّ، وعمل على أن يطابق معه إرادته الحقيقة الواضحة، وهكذا تكون «الحرّيّة الحقيقيّة إنَّما تمثّل نضج الشّخصيّة، وتكامل القدرات الذّاتيّة، وتوافق الإنسان مع بيئته الدّاخليّة، وبيئته الخارجيّة على السّواء»[4] بمقدار معرفته

(١) مشكلة الحرّيّة: ٤٤.

(٢) المصدر نفسه: ٦٢.

(٣) المصدر نفسه: ٢١.

(٤) المصدر نفسه: ٦٨.

وقدرته، «ومعنى هذا أنَّ الحياة الإنسانيّة إنّما تبدأ حيث تنتهي الحياة الحيوانيّة، أي حيث يبدأ الشّعور بالذّات، أو التّجربة الباطنيّة الّتي تدرك الذّات نفسها على أنَّها قوّة فاعلة وإرادة حرّة».

الإِنْسانُ الْحُرُّ:

للإنسان الحرُّ خمس مزايا يجب أن يتَّصف بها:

١- زكاة النَّفس وطهارتها من الرّذائل الأخلاقيّة، والأدران العصيانيّة، فليس بحرّ من لوّث نفسه بالموبقات.

٢- أن يعرف ما له من حقوق، ويتمسّك بها، ويطالب بها، ويسعى لنيلها، ويعرف ما عليه من واجبات تجاه ربّه، ومجتمعه، ونفسه، سواء كانت هذه الحقوق سياسيّة، أو اجتماعيّة، أو اقتصاديّة، أو حقوقيّة.

٣- الإذعان للقانون الإلهيّ، فليس حرّاً من يتمرّد على رسالة الله تعالى بمخالفة أوامره وارتكاب نواهيه، «فإنَّ الفعل الحرّ ليس هو التّصرّف الأعمى الَّذي يصدر عن تعسّف أو اندفاع أو هوى أو إرادة هوجاء، بل هو هذا الفعل الواعي المستنير الَّذي يصدر عن فهم، وتدبّر، وتعقّل للأمور، وكثيراً ما يكون السّلوك الحرّ ثمرةً لوعي مستبصر يفهم صاحبه قوانين الأشياء. ويكيّف تصرّفاته مع الضَّرورات الخارجيّة»[1].

٤- عزّة النَّفس، وترفّعها عن كلّ ما يذلّها حتّى لو حقّقت رغباته الذّاتيّة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّة، وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِما تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً، وَلاَ تَكُنْ عَبْدَ**

---

(١) المصدر نفسه: ٧٠.

غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً»[١].

٥- القدرة على مواجهة مرارة المشاكل، فإنَّ الحرّ حرٌّ لا تكسره مصيبة، ولا تذلّه سيطرة مهما عتت.

لِماذا يَتَنازَلُ الإِنْسانُ عَنْ حُرِّيَّتِهِ؟

لمّا كانت الحرّيّة هي أثمن شيء في حياة الإنسان، ومن دونها تصبح الحياة فارغة من معناها ومحتواها، فلا يمكن أن يتنازل الإنسان عن حرّيّته إذا عرف قدره، وحدَّد دوره، ولكنّنا نرى أنَّ كثيرين يذلّون أنفسهم، والسَّبب في ذلك يرجع إلى أمرين كما قال السّيّد الشّهيد الصّدر قدس سره:

١- عبوديّة الشّهوة الّتي تجعله يتنازل عن كرامته إلى الصّنم الإنسانيّ الّذي يقدر على إشباع تلك الشّهوات وضمانها له، وفي هذا المعنى قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**عَبْدُ الشَّهْوَةِ أَذَلُّ مِنْ عَبْدِ الرِّقِّ**».

«**عَبْدُ الشَّهْوَةِ أَسيرٌ لا يَنْفَكُّ أَسْرُهُ**».

«**أَزْرى بِنَفْسِهِ مَنْ مَلَكَتْهُ الشَّهْوَةُ، وَاسْتَعْبَدَتْهُ الْمَطامِعُ**»[٢].

٢- جهله بدوره في الحياة والكون وبقيمة حياته في هذه الدُّنيا، وانخداعه بزخارف الدُّنيا الوهميّة، وعدم معرفته بما وراء تلك الأقنعة المزيّفة من نقاط ضعف، وعجز، وانحلال أخلاقيّ وفكريّ...

---

(١) نهج البلاغة: ٤٢٥، كتاب: ٣١.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٤-٣٠٥، ح/٦٩٦٥-٦٩٦٦-٦٩٧٥.

مَوْقِفُ الإِسْلامِ مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾(1).

هل وقف الإسلامُ من الحياة الدُّنيا موقفاً سلبيّاً؟ أي هل أمر برفضها، والتَّجافي عنها، وترك ما فيها، والانصراف إلى التّعبّد، والانقطاع عن اللَّذائذ المادّيّة الَّتي وهبها الله للإنسان كما هو معروف لدى بعض المذاهب الصّوفيّة؟ أم وقف منها موقف الموازنة؟

والجواب: إنَّ الإسلام لم يقف من الدُّنيا موقف الرَّفض والإعراض عنها كهدف بذاته، وإنَّما أراد أن يحرّر الإنسان من الاستغراق فيها؛ لئلا تستحوذ عليه الأطماع الدّنيويّة، وتصبح قطب الرُّحى في حياته يدور معها حيثما تدور؛ ولأجل تحصينه وحمايته من سيطرة أهوائه ونزواته وضع له مبادئ، ومفاهيم، وأحكاماً تحكم حركته، وتضعه على جادّة الصَّواب؛ لتوصله إلى سعادته التي لا تتحقّق إلا بالموازنة بين المطالب المادّيّة واللَّوازم المعنويّة؛ ولذلك لم يسمح الإسلام للمؤمن به أن يستغرق في الجوانب المادّيّة على حساب الجوانب المعنويّة أو بالعكس؛

---

(1) الحديد: 20.

ولذلك جاء هذا الأمر صريحاً واضحاً لا لبس فيه، فعن الإمام الصّادق عليه السلام: «**لَيْس منّا مَنْ تَرَكَ دُنْياه لآخرَته، ولا آخرَتَه لدُنْياه**»(١).

فالإسلامُ إذن لن يُجيزَ للمؤمن أن يترك الدُّنيا، أو يستغرق فيها، وإنَّما يجب أن يعيش فيها بتوازن بين لذّاته البدنيّة المشروعة، ومتعه العقليّة، والفكريّة، والرّوحيّة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لَيْسَ بخَيْركُمْ مَنْ تَرَكَ دُنْياهُ لآخرَته، ولا آخرَتَهُ لدُنْياهُ حتّى يُصيبَ منْهُما جَميعاً؛ فَإنَّ إحْداهُما بُلْغَةُ الأُخْرى، ولا تَكونوا كَلاًّ عَلى النّاس**»(٢).

وفي حديث آخر: «**وَاعْمَلْ لدُنْياكَ كَأَنَّكَ تَعيشُ أَبَداً، واعْمَلْ لآخرَتكَ كَأَنَّكَ تَموتُ غَداً**»(٣).

ومعنى الحديثين صريحٌ أنَّ المسلمَ ينبغي له أن يوازن بين المطالب المادّيّة المشروعة، وما فيها من لذائذ وشهوات نفسيّة، وبين المطالب الرّوحيّة، والفكريّة، وما فيها من متع عقليّة تقرّبه إلى الله، فإنَّ إحداهما معيَّنة على ما في الأخرى من عقبات ومزرعة لها، وممهّدة لنيل ما فيها، وقد أشارت بعض الرّوايات إلى هذ المعنى كما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**في حكْمَة آل داودَ عليه السلام: أَنّ عَلى الْعاقل أَنْ لا يَكونَ ظاعناً إلا في ثَلاث: تَزَوُّد لمَعاد، أَوْ مَرَمَّة لمَعاش، أَوْ لَذَّة في غَيْر مُحَرَّم**»(٤).

وهذا هو التّوازن والوسطيّة بين الجانب المادّيّ والجانب المعنويّ، ولعلَّ

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ١٥٦/٣، ح/٣٥٦٨.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ١٩٧/٦٥.

(٣) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ١٣٩/٤٤.

(٤) كتاب من لا يحضره الفقيه: ٢٦٥/٢، ح/٢٣٨٦.

هذا هو معنى «**إحْداهما بُلْغَةُ الأُخْرى**»، وفي تصوَّرنا أنَّه ليس هناك فصلٌ بين عمل الدُّنيا وعمل الآخرة؛ لأنَّ العمل الصّالح في الدُّنيا لأجل تكامل الإنسان باستثمار طاقاته الّتي وهبها الله له؛ ليكون معدّاً، ومهيّأً للانتقال إلى مرحلة أخرى أرقى وأطهر وأبقى، وهي دار الخلود والبقاء والسّعادة الدّائمة ﴿ **فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ** ﴾[١]... فعمل الدُّنيا إذن هو إعداد وتمهيد لما بعدها ومتاع للسّفر إلى دار الخلود، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّ الله سُبْحانَهُ قَدْ جَعَلَ الدُّنْيا لما بَعْدَها، وَابْتَلى فيها أَهْلَها؛ لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، ولَسْنا للدُّنْيا خُلِقْنَا، ولَا بالسَّعْيِ فيها أُمِرْنا، - وَإنَّما وُضِعْنَا فيها لنُبْتَلى بها**»[٢].

ومن هذا النَّصّ الشَّريف نفهم أنَّ الدُّنيا وسيلة للتّكامل البشريّ، الَّذي يحصل للمرء بمقدار سعيه وجهده في تسخير الطاقات الَّتي أودعها الله فيه لهذا الغرض؛ ليكون صالحاً لدخول دار رحمة الله تعالى، كما هي ممرٌّ وطريق للأخرى، وما أروع بيان أمير المؤمنين عليه السلام لهذه الحقيقة: «**أَيُّها النّاسُ، إنَّما الدُّنْيا دارُ مَجازٍ والآخِرَةُ دارُ قَرارٍ، فَخُذوا منْ مَمَرِّكُمْ لمَقَرِّكُمْ**»[٣].

قال المفكّر الإسلاميّ الشّهيد الشّيخ حسين معن رحمه الله: «فإنَّ للإسلام ثلاثة مواقف من الدُّنيا؛ موقف نظريّ، وموقف تشريعيّ، وموقف أخلاقيّ.. ويتمثّل الموقف النّظريّ في اعتبار الحياة الدُّنيا مرحلة من مراحل الحياة، وليست كلّ الحياة ﴿ **وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ** ﴾[٤]، وفي كونها داراً للفتنة والمسؤوليّة

(١) القمر: ٥٥.

(٢) نهج البلاغة: ٤٦٦، كتاب: ٥٥.

(٣) المصدر نفسه: ٣٤٨، خطبة: ٢٠٣.

(٤) الرّعد: ٢٦.

يؤكّد فيها الإنسان ذاته، واختياره بين الخير والشر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾(١)، وفي كون معانيها من مال وبنين ونساء.. نعماً إلهيّة تستحقّ الشُّكر، والحمد، والانفتاح النَّفسيّ، وفي كون العامل الدّنيويّ عاملاً رئيساً محرّكاً في التّأريخ... الخ.

وأمّا الموقف التّشريعيّ؛ فيتمثّل في السَّماح والحثّ على استغلال الخيرات والنّعم الإلهيّة انطلاقاً من مفهوم الخلافة عن الله، وفي تنظيم عمليّة استغلال النّعمة بالشّكل الَّذي ينسجم مع مصالح الإنسان العامّة، ودور الإنسان كعابد لله تعالى. ويتمثّل الموقف الأخلاقيّ في محاولة الإسلام تحرير الإنسان المسلم وجدانيّاً من الأهواء والشهوات وحب الدُّنيا»(٢).

وتأسيساً على ذلك فإنَّ الموقف النّظريّ يعدّ الحياة الدُّنيا مرحلةً من مراحل حياة الإنسان يفجّر فيها طاقته البدنيّة، والرّوحيّة، والفكريّة، ليستغلَّ ما وهبه الله من قدرات في تعبيد النّاس لله تعالى، وليس من حقّه أن يبقى كمّيّة مهملة، وإنَّما ينبغي أن يعرف موقعه في الحياة والكون، ويأخذ دوره كخليفة لله تعالى في الحياة؛ لأنَّه مسؤول عن نفسه وعن مجتمعه، وليس له أن يتنصّل عن هذه المسؤوليّة بحال، يقول تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾(٣).

وفي أدقّ بيان لأمير المؤمنين عليه السلام يتبيّن لنا سعة مسؤوليّة الإنسان في الدُّنيا،

---

(١) الملك: ٢.

(٢) الشّهيد الشّيخ حسين معن، نظرات في الإعداد الرّوحيّ: ١٧٥-١٧٦.

(٣) الزّخرف: ٤٣-٤٤.

قال عليه السلام: «**اتَّقوا اللهَ في عباده وبلاده، فإنَّكُمْ مَسْؤولونَ حتّى عَنِ الْبِقاعِ وَالْبَهائمِ، أَطيعوا اللهَ وَلا تَعْصوهُ، - وَإِذا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذوا به، وَإِذا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضوا عَنْهُ**»(١).

إذن لمّا كان الإنسان المسلم مسؤولاً في هذه الدُّنيا أمام الله تعالى لكونه خليفة عنه تعالى فكيف يتسنّى له أن يهملها، ويعتزل أهلها، والمسؤوليّة تقتضي أن يمارس دوره فيها، وهو تدعيم الحقّ والعدل، وإقامة كيان الإسلام الحقّ.

هذا من جانب ومن جانب آخر فإنَّ الدُّنيا لمّا كانت مرحلةً من مراحل حياة الإنسان يكسب فيها لما بعدها، فينبغي للإنسان إذن أن يعدّها دورةً تربويّةً يستعدّ فيها لمواصلة السير إلى الله تعالى لنيل رضوانه... سمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً يذمّ الدُّنيا، وهو مغرور بها، فأجابه عليه السلام بكلام طويل منه: «**إنَّ الدُّنْيا دارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَها، وَدارُ عافيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْها، وَدارُ غِنًى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْها، وَدارُ مَوْعِظَةٍ لِمَن اتَّعَظَ بِها، مَسْجِدُ أَحِبّاءِ اللهِ وَمُصَلّى مَلائكَةِ اللهِ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللهِ، وَمَتْجَرُ أَوْلياءِ اللهِ، اكْتَسَبوا فيها الرَّحْمَةَ وَرَبِحوا فيها الْجَنَّةَ**»(٢).

فالدُّنيا إذن في منطق الإسلام دار الصّدق، والعافية، والغنى، والموعظة، والعبادة، وهي متجرٌ يربح فيها قوم، ويخسر آخرون، والرّبح والخسارة متوقّفان على إيمان الإنسان، وإرادته، ونيّته، وعزمه، وهدفيّته في الحياة؛ «فالمؤثر في حسن الأشياء، وقبحها وذمّها ومدحها هو الإنسان؛ فإنَّه يقدر أن يستفيد من كلّ شيء أحسن استفادة إذا نظر إليه بالتّعقّل، والتّدبّر اللائق. فالدُّنيا وما فيها كتاب تُلقي

---

(١) نهج البلاغة: ٢٧٤، خطبة: ١٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ٥٠٨-٥٠٩، قصار الحكم: ١٢٤.

دروساً نافعةً للمتعلّم اللائق والطّالب الشّائق، ولكن الكسل الرّاغب عن الاستفادة يمقتها، ويعرض عنها، ويذمّها كالطّالب المدرسيّ اللاهي الملاعب المعرض عن تحصيل الدّروس المقرّرة في المدارس والمكاتب، فإنَّه ينظر إلى الكتب الدّرسيّة والتّعليمات المدرسيّة نظر النُّفور والعداوة، ويحسبها عدوّة لملاهيه، ومانعة عمّا يشتهيه، ويتّهمها بالجرم، ويحكم عليها بالعقوبة»[(١)].

وقد يقال: إذن لماذا وردت كثيراً من الرّوايات والآيات في ذمّ الدُّنيا، وبأنَّها لعبٌ، ولهوٌ، وزينةٌ، وتفاخرٌ، وأنَّها دار الغرور خَدّاعة غَرار، وإنَّ مثلها كمثل الحيّة مسُّها ناعم والسّمّ ناقع في جوفها، وإنّها دارٌ بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة... وغير ذلك من الأوصاف الَّتي وردت في الرّوايات الكثيرة، فبماذا تفسّرون ذلك؟

نقول: إنَّ النّاس في الدُّنيا صنفان: صنفٌ يملك الدُّنيا ولا تملكه، وصنف تملكه ولا يملكها، والمذموم منها هو الصّنف الثّاني هذا الصّنف الَّذي استولى حبُّ الدُّنيا على قلبه، فأصبحت قطب رحى حياته كلّها، نظر إليها، فانبهر بها، واستغرق فيها، فأغرقته إلى آذانه، ولم يعد يرى ما وراءها، فلا يطلب سواها حتّى استوعبت حياته كلّها، فأنسته مبادئ الحقّ والعدل، بل حين ينغمس في زخارفها، وتستحوذ عليه تنقلب لديه المقاييس الأخلاقيّة، وتتعطّل معها مواهب التّلقّي والهداية والرّشاد: قلبه، وبصره، وسمعه، وتنعكس مهمّاتها الَّتي منحت إليه لأجلها، وحينئذٍ ينسى حتّى إنسانيّته، فيصبح «**كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّها عَلَفُها، أَوِ**

---

(١) حبيب الله الخوئيّ، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ٢٠١/٢١.

الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُها»[١]، مستغرقةٌ في مرتعها، مغمورةٌ في شهواتها، فلا تفكّر فيما وراء ذلك حتّى أصبحت مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾[٢].

هذه هي الدُّنيا المذمومة في الإسلام؛ لأنَّ الإنسان عندما يصبح بتلك الصّورة؛ فإنَّه سيصبح كالأعمى لا يبصر غير زخارف الدُّنيا، أمّا القيم الإنسانيّة، والأخلاقيّة والمبدئيّة، فإنَّها تسحق تحت أقدامه بينما الإسلام أراد من الإنسان أن يتّخذ الدُّنيا وسيلةً لسيادة العدل، والحقّ، والخير، والجمال بين أبناء آدم.

إنَّ الإنسان إذا استوعب حبّ الدّنيا كلّ جوانب حياته ووجوده فإنّه ينغلق عليها، ويهيم فيها، ولا يرتوي منها، بل يزداد عطشاً كلّما ملك منها، فهو كشارب ماء البحر كلّما شرب ازداد عطشاً، وقد صوّر أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة النّفسيّة في كتاب له حيث قال: «**أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِها، وَلَمْ يُصِبْ صاحِبُها مِنْها شَيْئاً إلا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْها وَلَهَجاً بِها، وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ صاحِبُها بِما نالَ فِيها عَمّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْها**»[٣].

ولذلك «قيل في المثل: صاحبَ الدُّنيا كشارب ماء البحر، كلّما ازداد شرباً ازداد عطشاً، والأصل في هذا قول الله تعالى [في الحديث القدسيّ]: **لَوْ كانَ لابْنِ**

---

(١) نهج البلاغة: ٤٤١، كتاب: ٤٥، والتّقمّم: أكل الشّاة ما بين يديها بمقمّتها أي شفتها.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

(٣) نهج البلاغة: ٤٤٦، كتاب: ٤٩.

آدمَ واديانِ منْ ذَهَبٍ لابْتَغى لَهُما ثالثاً، ولا يَمْلأ عَيْنَ ابْنِ آدمَ إلا التُّرابُ»[١].

والتَّعليل النفسي لذلك أن حب الدنيا حين يأسر[٢] الإنسان يستحوذ عليه، فيقع تحت سيطرتها، فلا يعود يبصر ما وراءها شيئاً، وحينئذ يعمى عن سواها، ويتّخذها هدفاً وغايةً، ومعلوم أنَّ الوسيلة عندما تصبح غايةً بذاتها لا يمكن للمرء أن يتجاوزها إلى غيرها، وما أروع بيان أمير المؤمنين عليه السلام وأجمله وأدقّه لهذه الحالة حيث قال: «**وَإنَّما الدُّنْيا مُنْتَهى بَصَرِ الأَعْمى، لا يُبْصِرُ ممّا وراءَها شَيْئاً، وَالْبَصيرُ يَنْفُذُها بَصرُه، ويَعْلَمُ أَنَّ الدّارَ وراءَها، فَالْبَصيرُ منْها شاخصٌ، وَالأَعْمى إِلَيْها شاخصٌ، وَالْبَصيرُ منْها مُتَزَوِّدٌ، والأَعْمى لَها مُتزوِّدٌ»**[٣].

وفي نصٍّ آخر له عليه السلام يوضّح كيف يجب أن يتعامل الإنسان مع الدُّنيا لكي لا تستحوذ عليه، وتعمى بصيرته، فيقول: «**ومَنْ أَبْصَرَ بِها بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْها أَعْمَتْهُ**»[٤].

والفرق واضح بين من أبصر بها، ومن أبصر إليها، فالأوّل اتّخذها وسيلة وطريقاً؛ لتقرّبه من الله، والتّزوّد لسفره البعيد، والثّاني اتَّخذها غايةً وهدفاً لذاتها، وهذا معنى عجيب ذات آفاق بعيدة توحي للإنسان كيف يتعامل مع ما منحه الله من نعم ومواهب بالطُّرق الّتي توصله إلى سعادة الدُّنيا والآخرة، وقد أبهر هذا النَّصُّ العَلويّ فطاحل البلاغة والبيان لما فيه من أبعاد نفسيّة وفكريّة وأخلاقيّة، قال

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٤/١٧.

(٢) أقصد أن يصبح أسيراً.

(٣) نهج البلاغة: ٢٢٢، خطبة: ١٣٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٢٨، خطبة: ٨١

الشّريف الرّضيّ في تعليقته على هذا النَّصّ: «وإذا تأمَّل المتأمّل قوله عليه السلام: «**وَمَنْ أَبْصَرَ بِها بَصَّرَتْهُ**» وجد تحته من المعنى العجيب، والغرض البعيد، ما لا تُبلغ غايته، ولا يُدرك غوره، ولا سيّما إذا قُرن إليه قوله: «**وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْها أَعْمَتْهُ**»، فإنَّه يجد الفرق بين «**أَبْصَرَ بِها**»، و«**أَبْصَرَ إِلَيْها**» واضحا نيّراً وعجيباً باهراً»(١).

قال العارف الطّهرانيّ: «ورد ذمّ الدُّنيا في الكثير من الرّوايات، وعُدّ الابتعاد عن الدُّنيا، والإعراض عنها سبباً للسّعادة، كما عُدَّ الإقبال عليها سبباً للشَّقاء، ومعنى الدُّنيا: العيش على أساس التّخيّلات، والشّهوات، واللّذائذ الفانية، والغفلة عن البرنامج الحقيقيّ للإنسان، والجهل بالله، والغفلة عنه...»(٢).

وأخيراً أقول: إنَّ الغاية الأساسيّة من وجود الإنسان على هذا الكوكب أن تتكامل شخصيّته وفق برنامج تربويّ متكامل يقوده إلى معرفة الله، وعبادته، والتّحرّر من عبوديّة ما سواه؛ ليكون مؤهّلاً للخلود في دار رحمة الله تعالى ﴿ **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** ﴾(٣)؛ ولذا فإنَّ الله لم يخلق الإنسان عبثاً، ولم يتركه سدًى، بل جعل لوجوده هدفاً وغاية؛ ولأجل تحقيق هذا الهدف استخلفه في الأرض، «والخلافة تستبطن المسؤوليّة»، ولحمل مسؤوليّة هذه الخلافة وضع له نظاماً شاملاً كاملاً يستوعب جميع جوانب حياته، ويقوده إلى ساحل السَّعادة والنَّجاة في جميع مراحل حياته.

فالحياة الدُّنيا إذن لم توجد لذاتها وللَذّاتها الدّنيويّة المادّيّة وحسب، وإنَّما

---

(١) نهج البلاغة: ١٢٨، خطبة: ٨١

(٢) السّيّد محمّد الحسين الطّهرانيّ، معرفة المعاد: ٩٨/١.

(٣) القمر: ٥٥.

وُجِدَت لهدف أسمى، هذا الهدف هو الَّذي تتكامل فيه شخصيّة الإنسان، وتتحقّق فيه إنسانيّته الحقّة، ولا يتحقّق ذلك إلا بمعرفة الله كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

وقد صوَّر هذه الحقيقة سيّد الشُّهداء الإمام الحسين عليه السلام أبدع تصوير بقوله: **«أَيُّها النّاسُ، إنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ ما خَلَقَ الْعبادَ إلا ليَعْرفوهُ، فَإذا عَرَفوهُ عَبَدوهُ، فَإذا عَبَدوهُ اسْتَغْنَوا بعبادَتِه عَنْ عِبادَةِ مَنْ سِواهُ»**[2].

(١) الذّاريات: ٥٦.

(٢) الشّيخ الطّبرسيّ، علل الشّرائع: ٥٦.

شَهَواتُ الدُّنْيا السِّتُّ

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۞ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۞ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾[1].

الإسلام في منظومته الفكريّة العقائديّة، والنّظامية الحكميّة، والأخلاقيّة السّلوكيّة يهدف إلى صناعة الإنسان الحرّ بكلّ ما للكلمة من معنى، حرّ في فكره، وحرّ في تصرّفه وفق ما تمليه الشّريعة الغرّاء عليه، لا ما تمليه الأهواء النّفسيّة؛ والميول الغرائزيّة؛ لأنَّ الحرّ الواقعيّ الحقيقيّ هو الّذي فَلَتَ من أسر الشَّهوات فَتَحكَّمَ فيها - أي وجَّهها حيث أراد الله - ولم تتحكّم فيه، فهو يملك الدُّنيا، ولا تملكه، ولا يحصل هذا إلا إذا ملك الإنسان زمام نفسه، فهذَّبها، وزكّاها، وسيطر عليها، ووضعها تحت توجيه العقل والشَّرع.

وذلك أنّ في كيان الإنسان قوًى أربعاً: قوّةً عقليّةً ملكيّةً، وقوّة غضبيّةً سبعيّة،

---

(١) آل عمران: ١٤-١٧.

وقوّة شهويّة بهيميّة، وقوّة وهميّة شيطانيّة، ولكلّ من هذه القوى وظائف خاصّة بها، والثّلاث الأخيرة تصطرع فيما بينها، وكلّ منها ينازع العقل؛ لأنَّ العقل هو المميّز بين الصّالح والطّالح، وبين الخير والشَّرّ، فمتى غلبت إحدى القوى العقلَ تصوّر الإنسان بها، وصار منها، فإذا غلبت قوّة الغضب أصبح سبعاً ضارياً كاسراً، وإذا غلبت الشّهوات والأهواء أصبح بهيمة همّها علفها تجري وراءها، وإذا غلبت القوى الشّيطانيّة سلكت سبل المكر والخداع والحيل لتصل إلى أهدافها بالخدع والتَّلبيس[١].

وإذا اخضعت هذه الثَّلاث إلى حكم العقل تعادلت وتوازنت، وعاش الإنسان سعيداً، فاستقامة الإنسان وسعادته مشروطة بتحكيم العقل بقواه الثّلاث الأخرى، وبهذا تتحقّق قيمة السَّعادة الّتي تقوم في «سيطرة العقل على دوافع الشَّهوة، ونوازع الهوى، وردّ الإنسان إلى حياة الاعتدال»[٢].

وهذا ما جاء في الفلسفة اليونانيّة، وأكّده الإسلام في تعاليمه الأخلاقيّة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ رَكَّبَ في الْمَلائكَة عَقْلاً بلا شَهْوة، ورَكَّبَ في الْبَهائم شَهْوَةً بلا عَقْل، ورَكَّبَ في بني آدمَ كلَيْهما، فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ شَهْوَتَهُ فَهوَ خَيْرٌ منَ الْمَلائكَة، ومَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلَهُ فَهُوَ شَرٌّ منَ الْبَهائم**»[٣].

وفي حديث آخر: «**مَنْ غَلَبَ عَقْلُه شَهْوَتَهُ، وَحلْمُهُ غَضَبَهُ كانَ جَديراً**

(١) ينظر: جامع السّعادات للنّراقي: ٢٩/١.

(٢) الدّكتور محمود حمدي زقزوق، مقدّمة في علم الأخلاق: ٨٦

(٣) الشّيخ الصّدوق، علل الشّرائع: ٥١/١.

بِحُسْنِ السِّيرَةِ»(١).

«قاتِلْ هواكَ بعَقْلك تَمْلكْ رُشْدَكَ»(٢).

«داووا الْغَضَبَ بِالصَّمْت، وَالشَّهْوَةَ بالْعَقْل»(٣).

«الْحِلْمُ غطاءٌ ساترٌ، وَالْعَقْلُ حُسامٌ قَاطِعٌ، فَاسْتُرْ خَلَلَ خُلُقكَ بِحِلْمك، وَقاتِلْ هَواكَ بعَقْلك»(٤).

ولكن لا بدّ لهذا الأمر من جهد، ومجاهدة، وصبر، ومصابرة، ورياضة فكريّة، وروحيّة، وأخلاقيّة كما وصف أمير المؤمنين عليه السلام المتّقي بأنَّ **«نَفْسَهُ مِنْهُ في عَناء، وَالنّاسُ مِنْهُ في راحَة»**(٥).

وبهذه المعاناة والمقاومة للأهواء والرّغبات تصبح النَّفس الإنسانيّة منبعاً للخير، ومنطلقاً للفضيلة والسَّعادة، وتصبح «الغاية الَّتي يجب أن ينشدها كلّ إنسان ليست هي مجرّد الحياة، ولكنّها (الحياة الطّيّبة) أعني أنَّ واجب الإنسان أن يملأ حياته بالأعمال الصَّحيحة القويمة، وهذا هو التَّوليد أي استخراج الحقّ من النَّفس»(٦).

فالآيات الكريمة المتقدّمة تهدف إلى تحرير الإنسان من أسر هذه الشَّهوات؛ ليستطيع أن يتحرّك في ميدان الصّراع النّفسيّ والاجتماعيّ، ولينقل

(١) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٥٦، ح/٥٢٩.

(٢) المصدر نفسه: ٦٤، ح/٨١٨.

(٣) المصدر نفسه: ٢١٦، ح/٤٢٥٣.

(٤) نهج البلاغة: ٥٥٦، قصار الحكم: ٤١٢.

(٥) المصدر نفسه: ٣٣٤، الخطبة: ١٩٣.

(٦) الدّكتور قاسم الشّمّريّ، القيم الأخلاقيّة في الفلسفة الغربيّة المعاصرة: ٤٠.

المجتمع من عبوديّة العبيد إلى عبادة الله تعالى وعبوديّته.

وفي الآيات أبحاث عدّة:

البَحْثُ الأَوَّلُ: في مَعْنى تَزْيينِ الشَّهَواتِ:

فعل ﴿ زُيِّنَ ﴾ مبنيٌّ للمجهول، وقد وقع بين المُفَسّرين اختلاف واسع في فاعله أهو الله تعالى؟ أم هو الشَّيطان؟ أم هو جِبْلَةٌ جُبلت عليه فطرة الإنسان؟

فقيل: إنَّ الفاعل (الله)، اعتماداً على ظواهر بعض الآيات كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾، والقائلون هنا اعتمدوا على جزء من الآية من دون النَّظر إلى أنَّ هذا المقطع هو جزء واقع في سياق قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1].

فهذه الآية تشير أنَّ التَّزيينَ منسوب إلى الله تعالى بالإذن؛ «فإنَّ المُلك عامّ، والسّلطنة الإلهيّة مطلقةٌ، وحاشا أن يتأتّى لأحد أن يتصرّف في شيء من ملكه إلا بإذنه، فما يزيّنه الشَّيطان في قلوب أوليائه من الشّرك والفسق، وجميع ما ينتهي بوجه من الوجوه إلى سخط الله سبحانه، فإنما ذلك عن إذن إلهيّ تتمّ به سنّة الامتحان والاختبار الَّذي لا يتم دونه نظام التَّشريع، ومسلك الدَّعوة والهداية»[2].

فالنّسبة إلى الله بالمباشرة لا تصحّ، والصَّحيح أنَّ فاعل ﴿ زُيِّنَ ﴾ هو الشَّيطان لقوله تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[3].

---

(١) الأنعام: ١٠٨.

(٢) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٣١٧/٧.

(٣) الأنعام: ٤٣.

وقد دحض الشّريف الرّضيّ ﷺ نسبة التّزيين إلى الله، فقال: «إن كان الله تعالى هو المزيّن للنّاس حبّ هذه الأشياء المذكورة، وهي الدّاعية إلى كثير من المعاصي والشّاغلة عن كثير من الطّاعات، فذلك خلاف ما تقولونه، وإذا ثبت أنّه سبحانه هو المزيّن لها فلمَ زهّد فيها وذمَّ طالبيها؟ وفي ذلك ضروب من المناقضة!...

فالأَوْلى أن يُنْسَبَ التَّزيين إلى من عادته التَّزيين، وهو الشَّيطان، وينسب التَّزهيد إلى من عادته التَّزهيد، وهو الله تعالى، وأيّ تزهيد أعظم من قوله سبحانه عقيب هذا الكلام: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(١)، وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(٢)، فَخبّر سبحانه أنَّ الحياة الدّنيا ظلٌّ زائل، وسنان مائل، وخضاب ناصل»(٣).

وأدلّ من ذلك كلّه صريح قوله تعالى:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾(٤).

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٥).

وأمّا معنى الزّينة، فهي كلّ «أمر جميل محبوب يُضَمّ إلى الشّيء ضمّاً يجلب الرَّغبة إليه، ويحبّبه عند طالبه، فيتحرّك نحو الزّينة، وينتهي إلى الشّيء المتزيّن بها

(١) آل عمران: ١٤.

(٢) آل عمران: ١٨٥.

(٣) الشّريف الرّضيّ، حقائق التأويل: ٤٨-٥٠.

(٤) الأنفال: ٤٨.

(٥) الحجر: ٣٩.

كاللّباس المزيّن بهيأته الحسنة الذي يلبسه الإنسان لزينته فيصان به بدنه عن الحرّ والبرد»[١].

والتّزيين: «تصيير الشيء زيناً، أي حسناً، فهو تحسين الشّيء المحتاج إلى التَّحسين وإزالة ما يعتريه من القبح أو التّشويه، ولذلك سُمّي الحلاقُ مزيّناً... فالزّينة هي ما في الشّيء من المحاسن الّتي ترغّب الناظر في اقتنائه، قال تعالى: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٢]»[٣].

وخلاصة الكلام في التّزيين كما قال العلامة الطّباطبائيّ رحمه الله في تفسيره: «وبالجملة التَّزيين تزيينان: تزيين للتّوسّل بالدُّنيا إلى الآخرة، وابتغاء مرضاته في مواقف الحياة المتنوّعة بالأعمال المختلفة المتعلقة بالمال، والجاه، والأولاد، والنُّفوس، وهو سلوك إلهيٌّ حسن، نسبه الله تعالى إلى نفسه كما مَرَّ من قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾[٤]. الآيات، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[٥].

وتزيين لجلب القلوب، وإيقافها على الزّينة، وإلهائها عن ذكر الله، وهو تصرّف شيطانيٌّ مذمومٌ نسبه الله سبحانه إلى الشَّيطان، وحذَّر عباده عنه كما مرّ من قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٦]»[٧].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٣١٥/٧.

(٢) الكهف: ٢٨.

(٣) ابن عاشور، تفسير التَّحرير والتَّنوير: ٣٦/٣.

(٤) الكهف: ٧.

(٥) الأعراف: ٣٢.

(٦) الأنعام: ٤٣.

(٧) الميزان في تفسير القرآن: ٩٧/٣.

الْبَحْثُ الثّاني: الاعْتِدالُ في التّلَذُّذِ في الشّهَواتِ الشّرْعِيَّةِ:

إنَّ الآية الكريمة ذكرت نوعين من التّلذّذ في الزّينة، وأجرت مفاضلة بينهما، وهما: زينة الدُّنيا ولذّاتها، وزينة الآخرة ولذّاتها، وممّا يجدر الإشارة إليه أنَّ الآية لم تنفّر، ولم تمنع من الالتذاذ بهذه الشَّهوات السّتّة المذكورة فيها، وإنَّما حذَّرت من الاستغراق فيها، والانصراف اليها؛ لئلا تصبح قطب الرّحى في حياته هدفاً ووسيلةً «بحيث يؤدّي إلى التّولّه فيه، والولوع في الاشتغال به لا أصل تأثير الحبّ»(١)، فلم تحذّر من التّلذّذ الشّرعيّ فهو أمر طبيعيّ، ولكنّها حذّرت من الاستغراق فيه، والانقطاع إليه؛ ولذا لم تقل الآية: «لا تتلذّذوا فيها»، وإنَّما حذَّرت من الإفراط فيها، والرّكض وراءها، والصّراع من أجلها، وجَعْلها هدفاً قائماً بذاته؛ فالشَّهوة غير الحبّ؛ ولذا أضيفت الشَّهوات إلى الحبّ، والمضاف غير المضاف إليه.

وبناءً على ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام يصحّحون سوء الفهم في كثير من الأحاديث والوقائع، منها ما رُويَ عن عثمان بن مظعون «أنّه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال: غلبني حديث النَّفس، عزمت على أن أختصي.

فقال صلى الله عليه وآله: **مَهْلاً يا عُثْمانُ، إنّ خِصاءَ أُمّتي الصِّيامُ.**

قال: فإنّ نفسي تحدّثني بالتّرهّب.

قال صلى الله عليه وآله: **إنَّ تَرَهُّبَ أُمَّتي الْقُعودُ في الْمَساجِدِ لانْتظارِ الصَّلاةِ.**

فقال: تحدّثني نفسي بالسّياحة.

فقال صلى الله عليه وآله: **سِياحَةُ أُمَّتي الْغَزْوُ وَالْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ.**

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٠٤/٣.

فقال: إنَّ نفسي تحدّثني أن أخرج ممّا أملك.

فقال ﷺ: **الأَوْلى أَنْ تَكْفِيَ نَفْسَكَ وَعيالَكَ، وَأَنْ تَرْحَمَ الْيَتيمَ وَالْمِسْكينَ، فَتُعْطِيه أَفْضَلَ مِنْ ذلك.**

فقال: إنّ نفسي تحدّثني أن أطلّق خولة [زوجتي وأهجر].

فقال ﷺ: **إِنَّ الْهِجْرَةَ في أُمَّتي هِجْرَةُ ما حَرَّمَ اللهُ.**

قال: فإنَّ نفسي تحدّثني أن لا أغشاها.

قال ﷺ: **إِنّ الْمُسْلِمَ إِذا غَشِيَ أَهْلَهُ أَوْ ما مَلَكَتْ يَمينُهُ فَإِنْ لَمْ يُصِبْ مِنْ وَقْعَتِه تِلْكَ وَلَداً كانَ لَهُ وَصيفٌ في الْجَنَّة، وَإِذا كانَ لَهُ وَلَدٌ ماتَ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ كانَ لَهُ قُرَّةَ عَيْنٍ وَفَرَحٍ يَوْمَ الْقِيامَة، وَإِنْ ماتَ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ الْحِنْثَ كانَ لَهُ شَفيعاً وَرَحْمَةً يَوْمَ الْقِيامَة.**

قال: فإنّ نفسي تحدّثني أن لا آكل اللَّحم.

قال ﷺ: **مَهْلاً، إِنّي آكُلُ اللَّحْمَ إِذا وَجَدْتُهُ وَلَوْ سَأَلْتُ اللهَ أَنْ يُطْعِمَنيه كُلَّ يَوْمٍ فَعَلَهُ.**

قال: فإنّ نفسي تحدثني أن لا أمسّ الطّيب.

قال: **مَهْلاً، فَإِنّ جِبْريلَ أَمَرَني بِالطّيب غِبّاً، وَقالَ: لا تَتْرُكْهُ يَوْمَ الْجُمُعَة.**

ثمّ قال ﷺ: **يا عُثْمانُ، لا تَرْغَبْ عَنْ سُنَّتي؛ فَإِنَّ مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتي وَماتَ قَبْلَ أَنْ يَتوبَ صَرَفَتِ الْمَلائِكَةُ وَجْهَهُ عَنْ حَوْضي**»[1].

وقال الإمام عليّ ؑ: «**وَاعْلَموا عِبادَ اللهِ أَنَّ [الْمُؤْمنينَ] الْمُتَّقينَ ذَهَبوا**

---

(١) الفخر الرّازيّ، التفسير الكبير: ٦٣/١٤؛ وينظر: تفسير مقتنيات الدّرر للسّيّد مير علي الحائريّ الطّهرانيّ: ٤٠٠/٤.

بعاجل الْخَيْر وآجله، شاركوا أَهْلَ الدنّيا في دنْياهُم، ولَمْ يُشاركْهُم أَهْلُ الدُّنْيا في آخرتهمْ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(١)، سَكَنوا الدنّيا بأَفْضَل ما سُكنَتْ، وأَكَلوها بأَفْضَل ما أُكلَتْ، شاركوا أَهْلَ الدُّنّيا في دنْياهُمْ، أَكَلوا منْ أَفْضَل ما يأْكُلون، وشربوا منْ أَفْضَل ما يشْربونَ، ولَبسوا منْ أَفْضَل ما يلْبَسون، وسَكنوا بأَفْضَل ما يَسْكُنونَ، وتزوَّجوا منْ أَفْضَل ما يتزوَّجون، وركبوا منْ أَفْضَل ما يركَبون، أَصابوا لَذَّةَ الدنّيا مع أَهْل الدُّنّيا، معَ أَنَّهمْ غداً منْ جيران الله عزَّ وجلَّ، يتمنّونَ علَيْه فيُعْطيهمْ ما يتمنَّون، لا يردُّ لَهُمْ دعْوَةٌ، ولا ينْقص لَهُمْ [نَصيبٌ منْ] لَذَّة؛ فإلى هذا يَشْتاقُ منْ كانَ لَهُ عقْلٌ، ولا حوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله»(٢).

وعَنْ يوسُفَ بْن إبْراهيمَ، قالَ: «دخَلْتُ على أَبي عَبْد الله عليه السلام، وعَلَيَّ جُبَّةُ خزّ وطَيْلَسانُ خزّ، فنَظَرَ إليَّ، فقُلْتُ: جُعلْتُ فداكَ عَلَيَّ جُبَّةُ خزّ وطَيْلَساني هذا خزٌّ، فما تَقولُ فيه؟ فقالَ: وما بأْسٌ بالْخَزِّ، قُلْتُ وسَداهُ إبْريسَمٌ؟ قالَ: وما بَأْسٌ بإبْريسَم، فقَدْ أُصيبَ الْحُسَيْنُ عليه السلام، وعلَيْه جُبَّةُ خزٍّ، ثُمَّ قالَ: إنَّ عَبْدَ الله بْنَ عبّاس لَمّا بعثَهُ أَميرُ الْمُؤْمنينَ عليه السلام إلى الْخَوارج، فواقفَهُمْ(٣)، لَبسَ أَفْضَلَ ثيابه، وتَطيَّبَ بأَفْضَل طيبه، وركبَ أَفْضَلَ مراكبه، فخرَجَ، فواقفَهُمْ، فقالوا: يا ابْنَ عبّاس، بيْنا أَنْتَ أَفْضَلُ النّاس إذْ أَتيْتَنا في لباس الْجَبابرة ومراكبهمْ، فتَلا علَيْهمْ هذه الآيَةَ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ

---

(١) الأعراف: ٣٢.

(٢) الثّقفيّ، الغارات: ١/٢٣٥-٢٣٦.

(٣) المواقفة: أن تقف معه ويقف معك في حرب أو خصومة.

ٱلرِّزْقِۚ ﴾[١]، فَالْبَسْ وَتَجَمَّلْ؛ فَإِنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الْجَمالَ، ولْيَكُنْ مِنْ حلال»[٢].

وعن محمد بن عليّ رفعه قال: «مرَّ سفيان الثّوريّ في المسجد الحرام، فرأى أبا عبد الله عليه السلام، وعليه ثياب كثيرة القيمة، حسان، فقال: والله لآتينّه ولأوبّخنّه، فدنا منه، فقال: يا ابن رسول الله، والله ما لبس رسول الله صلى الله عليه وآله مثل هذا اللّباس، ولا عليٌّ، ولا أحد من آبائك.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: كانَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله في زَمان قَتْر مُقْتِر، وكانَ يَأْخُذُ لقَتْره وَإِقْتاره، وَإِنَّ الدُّنْيا بَعْدَ ذلكَ أَرْخَتْ عَزالِيَها[٣]، فَأَحَقُّ أَهْلِها بها أَبْرارُها، ثمَّ تلا: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ ﴾[٤]، فَنَحْنُ أَحَقُّ مَنْ أَخَذَ مِنْها ما أَعْطاهُ اللهُ، غَيْرَ أَنّي يا ثَوْرِيُّ ما تَرى عَلَيَّ مِنْ ثَوْبٍ إِنَّما لَبِسْتُهُ لِلنّاسِ، ثمّ اجتذب يد سفيان، فجرَّها إليه، ثمَّ رفع الثَّوب الأعلى، وأخرج ثوباً تحت ذلك على جلده غليظاً، فقال: هذا لَبِسْتُهُ لِنَفْسي، وَما رَأَيْتَهُ لِلنّاسِ، ثمّ جذب ثوباً على سفيان، أعلاه غليظ خشن، وداخل ذلك ثوب ليّن، فقال: لَبِسْتَ هذا الأَعْلى لِلنّاسِ، وَلَبِسْتَ هذا لِنَفْسِكَ تَسُرُّها؟!»[٥].

---

(١) الأعراف: ٣٢.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١٣/١٧-١٨، ح/١٢٤٤٨.

(٣) «عزالى - بفتح اللام وكسرها -: جمع عزلاء وهي مصبّ الماء من الراوية ونحوها، وإرخاؤها إطلاقها ليكثر صبّ الماء منها والكلام استعارة لتوسّع النّعم»، كتاب الوافي للفيض الكاشانيّ: ٧٠٤/٢٠.

(٤) الأعراف: ٣٢.

(٥) الكافي: ١٣/١٨-١٩، ح/١٢٤٤٩.

فإذن المحذور هنا هو أن تسيطر هذه الشّهوات على مشاعر الإنسان وأحاسيسه، وتدفعه بقوّة للحصول عليها، وتصبح همَّه الوحيد في حلبة الصّراع؛ لأنَّ هذه اللَّذائذ السّتّة الَّتي أشارت الآية الكريمة إليها أراد الله تعالى أن نتّخذها وسائل مؤقّتة، وليس غايات ثابتة، والخطورة تكمن فيما إذا تحوَّل الحصول على هذه الشَّهوات إلى غاية بذاتها، فلا يليق بالإنسان أن يصرف كلّ همّه من أجلها، بل ينبغي أن يصرف همّه إلى اللّذّات المعنويّة الَّتي تنتهي بالإنسان إلى السَّعادة في الدُّنيا والآخرة، سعادة غير منقطعة، الَّتي وصفتها بعض الأحاديث بأنَّ فيها «**ما لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ**»[١].

ولطيف ما قاله بعض فلاسفة الغرب: «قيمة سعادة الإنسان هي ليس الجري وراء اللّذّة، وإنّما في تحقيق طبيعة العاقلة، والّتي تقتضي إخضاع كلّ غرائزه، وميوله وانفعالاته، وعواطفه لعقله؛ السَّعادة هي لمنطق العقل الموجّه للغرائز والانفعالات، وليس الجري وراء اللّذّة»[٢]؛ لأنَّ اللّذّات الحسّيّة لذّات مادّيّة، وجميعها مؤقّتة فانية منقطعة زائلة؛ لأنَّها أعراض وليست جواهر، ومع ذلك تبقى تبعاتها السّلبيّة على الجسد، والنَّفس، والعقل؛ وأمّا اللّذّات المعنويّة الَّتي تنال بالأعمال الصّالحة الّتي تؤدّى بنيّة خالصة لله فباقية خالدة لا تزول، ولا تنتهي، بل سيجدها العامل لها محضرة له لتزيد في سعادته:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾[٣].

---

(١) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٢٨١، ح/٣١٠.

(٢) القيم الأخلاقيّة في الفلسفة الغربيّة المعاصرة: ٦٣.

(٣) آل عمران: ٣٠.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[١].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[٢].

ومن هنا يتّضح الفرق الجوهريّ بين اللّذّات المادّيّة واللّذّات المعنويّة، وهذا أمرٌ لا يستهان به.

وأمّا الشّهوات المادّيّة السّتّة الّتي أشارت إليه الآية الكريمة والّتي يحصل الإنسان باقتنائها ونيلها شيئاً من اللّذّات فهي: النّساء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة، (وهي تعبير عن كثرة الأموال)، والخيل المسوّمة (وهي تعبير عن وسائل النّقل)، والأنعام وهي (الإبل والبقر والغنم)، والحرث (وهو الزَّرع)، فنلاحظ أنَّ تعدادها تَسَلْسَلَ من الأشدّ إلى الأضعف، ممّا يشير أنَّ أقلَّ نعيم في الآخرة أفضلُ من أكبر شهوات الدُّنيا.

ثمَّ وصفت الآية أنَّ هذه الأمور ما هي إلا متاعٌ، والمتاع هو ما يأخذه الإنسان المسافر معه في سفره من الزّاد والنَّفقة، وكأنَّ الآية تشير إلى أنَّ هذه الأمور هي عَرض يزول سريعاً، وهي «لا تمثّل القيمة الكبيرة الّتي يجعل منها الإنسان هدفاً عظيماً لحياته، بحيث تتحوّل إلى ما يشبه الرّسالة التي يكافح من أجلها، ويموت في سبيلها، بل هي مجرّد متاع للحياة الدُّنيا لا يعني للإنسان إلا كما تعني الحاجة الطّبيعيّة»[٣].

ووَصْفُ هذه الأمور بالمتاع هو من ألطف النّكات الدّقيقة في الآية، فتأمّل فيها؛ فالتَّعبير بأنَّ الدُّنيا متاعٌ هو بيانٌ لعدم قيمة هذه اللّذّات، فلا تستحقّ أن يصرف

(١) البقرة: ١١٠.

(٢) الزّلزلة: ٧.

(٣) السّيّد محمّد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن: ٥٦/٣.

الإنسان لها كلّ طاقاته فهي لذّات قصيرة الأمد، كما وصفها تعالى بقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[١]، «تنبيهاً أنَّ ذلك في جنب الآخرة غير معتدّ به، وعلى ذلك: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٢]»[٣].

ولا أظنّ أنَّ هناك تعبيراً أدقَّ، ولا ألطفَ، ولا أوضحَ، ولا أصدقَ من هذا التَّعبير في وصف ضآلة هذه الشَّهوات المؤقّتة، فهي متاع يستعين به لمواصلة السَّير والسّلوك إلى الله، وتحمّل خطوات الكدح للقاء الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[٤].

ولبيان أهمّيّة مقاومة الرَّغبة إزاء هذه الشَّهوات أوعد تعالى بمقابلها نعيم الآخرة الخالد ببيان مختصر مفيد: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[٥].

فهناك جنّات الخلد الَّتي فيها الأزواج المطهرة، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[٦]، ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[٧]، وفيها الولدان المخلّدون كأنّهم

---

(١) النّساء: ٧٧.

(٢) التّوبة: ٣٨.

(٣) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٦٣٧، (متع).

(٤) الانشقاق: ٦.

(٥) آل عمران: ١٥.

(٦) الرّحمن: ٥٦.

(٧) الصّافّات: ٤٩.

لؤلؤ مكنون يطوفون، ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠﴾[١].

وفوق ذلك كلّه رضوان من الله أكبر: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[٢].

كلّ هذا للمؤمنين الَّذين تتوفّر فيهم صفات عديدة، وهي الصّدق في القول، وفي الفعل، والنّيّة الصّادقة مع الله، ومع النَّفس، ومع النّاس، والصَّبر في البأساء والضّرّاء، وفي المصيبة والبلاء، والصّبر على الطّاعة، والصَّبر عن المعصية والقانتين لله تعالى[٣]، والمنفقين أموالهم في سبيل الله، والمستغفرين الله في الأسحار، وفي سكون اللّيل: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾[٤].

---

(١) الإنسان: ١٥.

(٢) التّوبة: ٧٢.

(٣) تعدّدت الأقوال في معنى القنوت، ولكن اختصرها الزّبيديّ في تاجه بقوله: «فتحصَّل لنا ممّا تَقَدَّمَ من كلام المُؤلّف في معنى القنوت مَعانٍ تسْعَة، وهي: الطّاعَةُ، والسُّكوتُ، والدُّعاءُ، والقيامُ، والإمْساكُ عن الكلام، وطولُ القيَامُ، وإدامةُ الحَجّ، وإطَالةُ الغَزْو، والتَّواضُعُ. وممّا زيد عليه: العبادَةُ، والصَّلاةُ، وقد تقدَّم شاهدُهُما. والإِقْرَارُ بالعُبوديَّة، والخُشُوعُ، هذا عن مجاهد»، تاج العروس: ٤٧/٥، (قنت).

(٤) آل عمران: ١٧.

لَعبوا بِها وَلَعِبَتْ بِهِمْ

قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[1].

الشّروع بفعل ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ ﴾ إشارة لأهمّيّة الأمر الّذي يراد بيانه، والكشف عنه، أو التّحذير منه، أو الحثّ عليه بحسب مقتضى الأمر، وقد جاء هذا الفعل في آيات أخر كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[3].

وقد ورد هذا الفعل بصيغة الأمر في ٢٧ موضعاً من القرآن الكريم، كقوله تعالى:

---

(١) الحديد: ٢٠.

(٢) المائدة: ٩٨.

(٣) الحديد: ١٧.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(١).

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢).

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(٣).

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٤).

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(٥).

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(٦).

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾(٧).

إلى غيرها من الآيات الكريمة الَّتي جاءت بصيغة الأمر، وهو دلالة قاطعة على أهمّيّة جميع الأمور الَّتي أتت بعد فعل ﴿اعْلَمُوا﴾ الَّتي لا تقبل التّراخي فيها أبداً فضلاً عن عدم الالتفات إليها أو عدم الالتزام...

والآية المتقدّمة تشير إلى مراحل حياة الإنسان من الطّفولة إلى الشَّيخوخة، «فضرب مثل الحياة الدُّنيا لأطوار ما فيها من شباب وكهولة وهرم ففناء، ومن جدّة

(١) البقرة: ١٩٦.

(٢) البقرة: ٢٣١.

(٣) البقرة: ٢٣٥.

(٤) البقرة: ٢٤٤.

(٥) البقرة: ٢٦٧.

(٦) الأنفال: ٢٤.

(٧) الأنفال: ٤١.

وتبدّل وبلى، ومن إقبال الأمور في زمن إقبالها ثمّ إدبارها بعد ذلك، بأطوار الزَّرع، وكلّها أعراض زائلة وآخرها فناء»[١].

وهذا المعنى ورد عن الشّيخ البهائيّ ﵀: «أنَّ الخصال الخمس المذكورة في الآية مترتّبة بحسب سنيّ عمر الإنسان ومراحل حياته، فيتولّع أوّلاً باللّعب وهو طفل أو مراهق، ثمَّ إذا بلغ واشتدّ عظمه تعلَّق باللَّهو والملاهي، ثمّ إذا بلغ أشدّه اشتغل بالزّينة من الملابس الفاخرة والمراكب البهيّة والمنازل العالية وتولَّه للحسن والجمال، ثمَّ إذا اكتهل أخذ بالمفاخرة بالأحساب والأنساب، ثمَّ إذا شاب سعى في تكثير المال والولد»[٢].

لَعِبٌ وَلَهْوٌ:

ورد وصف الدُّنيا بأنَّها لعبٌ ولهوٌ في القرآن الكريم ثلاث مرّات، ففي سورة الأنعام: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٣].

وفي سورة محمّد: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾[٤]، وكذلك الآية الَّتي افتتحنا بها البحث.

ففي هاتين الآيتين تقابل بين حياة اللّعب واللّهو، وبين حياة التَّقوى والإيمان، ومن هنا يتّضح لنا أنَّ اللّعب واللّهو هما الانصراف النّفسيّ والسّلوكيّ عن العمل

(١) ابن عاشور، تفسير التَّحرير والتّنوير: ٣٦٥/٢٧.

(٢) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ١٦٤/١٩.

(٣) الأنعام: ٣٢.

(٤) محمّد: ٣٦.

النّافع للإنسان في دنياه وآخرته، فأمّا أن يكون الإنسان مستغرقاً في الشّؤون الدّنيويّة حتّى تصبح قطب الرّحى في حياته، فلا يعد يفكّر بعواقبها، بل تصرفه إلى حدّ تجعله ينسى ربّه ونفسه، ويتحوّل كلّ شيء في حياته إلى لعب ولهو وانشغال مطلق ناسياً ما وراءها من عواقب سيّئة بمبرّرات واهية، ومصداق ذلك ما قاله المخلّفون من الأعراب: ﴿**شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا**﴾(١)، فترى هؤلاء المتخلّفين عن مسيرة الرّسالة يعتذرون بانشغالهم بالأموال والأهل عن الجهاد في سبيل الله، وهذا هو حقيقة اللّعب واللّهو في الحياة الدُّنيا.

وأدقُّ وصف لهذه الصّورة من الاستغراق في الدّنيا ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام في وصف عبّاد الدُّنيا: «**سَلَكَتْ بهمُ الدُّنْيا طَرِيقَ الْعَمى، وَأَخَذَتْ بِأَبْصارِهِمْ عَنْ مَنارِ الْهُدى، فَتاهوا في حَيْرَتِها، وَغَرِقوا في نِعْمَتِها، وَاتَّخَذوها رَبّاً فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبوا بِها، وَنَسوا ما وَراءَها**»(٢).

وببيان آخر: إنَّ اللّعب هو الانشغال بما لا يعود على الإنسان بنفع أو خير مادّيّ أو معنويّ في الدّنيا ولا في الآخرة، واللهو كلّما أشغل الإنسان عن سرّ وجوده وعلّة إيجاده، وأنسته ما وراءها من خلال الاستغراق بلذائذها ومقتنياتها، وهي أمور تميل إليها النّفس والأوهام والخيالات المنطلقة في حبّ البقاء والتّملّك والظّهور والسّيطرة وغيرها من الأهواء والرّغبات النّفسيّة، وكلّ تلك الأمور الّتي

---

(١) الفتح: ١١.

(٢) نهج البلاغة: ٤٢٤-٤٢٥، كتاب: ٣١.

تميل لها النَّفس هي أمور زائلة لا بقاء لها مهما ملك منها مع أنَّه يمكن للإنسان أن يكتفي بأقلّ ما يمكن كما ينسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّما الدُّنْيا ستَّةُ أَشْياء: مَطْعومٌ، ومَشْروبٌ، ومَلْبوسٌ، ومركوبٌ، ومَنْكوحٌ، ومَشْمومٌ؛ فَأَشْرَفُ الْمَطْعومات الْعَسَلُ وهو مذْقَةُ ذُبابَة، وأَشْرَفُ الْمَشْروبات الْماءُ؛ يَسْتَوي فيه الْبَرُّ وَالْفاجِر، وأَشْرَفُ الْمَلْبوسات الْحَرير؛ وَهو نَسْجُ دودَة، وأَشْرَفُ الْمَرْكوبات الْخَيْلُ؛ وعَلَيْها يُقْتَلُ الرِّجالُ، وأَشْرَفُ الْمَنْكوحات النِّساءُ؛ وَهيَ مَبالٌ في مَبال، وإِنَّ الْمَرْأَةَ لَتُزَيِّنُ أَحْسَنَ ما فيها، ويُرادُ أَقْبَحَ ما فيها، وأَشْرَفُ الْمَشْمومات هُوَ الْمسْك، وَهُوَ بَعْضُ دَم**»(١).

وخلاصة الكلام: إنّ الآيات المتقدّمة وغيرها تريد أن تحذّر الإنسان من الاستغراق في المطالب النَّفسيّة كالأهواء والرَّغبات والشَّهوات، فكلّ ما زاد عن حاجة الإنسان، وأشغله عن التَّفكير في أسرار الحياة، وأهدافها، ووسائلها الشَّريفة، فهو لعب ولهو ينافي هدفيّة وجود الإنسان، ولعلَّ مصداق ذلك الَّذين اتّخذوا دينهم لعباً ولهواً أي استغرقوا فيها، فأنستهم أنفسهم كما في موضعين من كتاب الله تعالى، يقول تعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾(٢).

إذن اللَّهو واللَّعب المقصود في الآيات المتقدّمة هو الرّضا بالدُّنيا، والاستغراق بها، وتفضيلها بالحبّ من أعماق النَّفس على العمل الأخرويّ، كما في

---

(١) ورّام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر: ٣٩١/١، ح/١١٠٥؛ وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٥/١٧.

(٢) الأنعام: ٧٠.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾(١).

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾(٢).

ولعلَّ معنى حبّهم للدّنيا في هذه الآية هو استغراقهم بحبّها وعشقهم لها وهيامهم بها، فأصبحت قطب الرّحى في وجودهم فملكتهم، ولم يملكوها، وهذا هو شأن الغافلين والمغرورين والجهلة، فهؤلاء هم الَّذين لا يرجون لقاء الله، ورضوا بالحياة الدُّنيا هدفاً وغاية ومستقرّاً نهائيّاً اطمئنّوا به، وجهلوا ما وراءه، والسّرّ في ذلك: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾(٣)؛ فعلمهم منحصر في ما تراه أعينهم، وتسمعه آذانهم، وتمسّه أيديهم وظنّوا أن لا شيء وراء ذلك ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾(٤).

وهكذا بقيّة الأمور الّتي ذكرتها الآية من الزّينة، والتّفاخر، والتّكاثر، كلّها ترتبط بالتّكوين النّفسيّ للإنسان، وميل النَّفس الإنسانيّة لتلك الأمور، ولا يعني ذلك أنَّ الإسلام يحرّم على الإنسان التّمتّع بطيّباتها، فإنَّ الله خلق الدُّنيا للإنسان، لتكون مرحلة تكاملٍ وبناء؛ لينتقل إلى مرحلة أخرى أسمى وأدوم وأبقى، ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ

(١) يونس: ٧.

(٢) إبراهيم: ٣.

(٣) الرّوم: ٧.

(٤) النّجم: ٣٠.

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[١].

ومن هنا ما تقدَّم من أوصاف ليست مطلقة، وإنَّما «يفهم من هذا أنَّ ما كان من أحوال الحياة مقصوداً لوجه الله فإنَّه من شؤون الآخرة، فلا يدخل تحت هذا التَّمثيل إلا ظاهراً، فأعمال البرّ ودراسة العلم ونحو ذلك لا يعتريها نقص ما دام صاحبها مقبلاً عليها، وبعضها يزداد نماء بطول المدّة»[٢].

عَنْ عَبْد الله بْن أَبي يَعْفور، قالَ: «قالَ رَجُلٌ لأَبي عَبْد الله عليه السلام: وَالله، إنّا لَنَطْلُبُ الدُّنيا، ونُحبُّ أَنْ نُؤْتاها، فَقالَ: **تُحبُّ أَنْ تَصْنَعَ بها ماذا؟** قالَ: أَعودُ بها عَلى نَفْسي وَعيالي، وَأَصِلُ بها، وأَتَصَدَّقُ بها، وأَحُجُّ وأَعْتَمِرُ، فَقالَ عليه السلام: **لَيْسَ هَذا طَلَبَ الدُّنْيا، هَذا طَلَبُ الآخِرَةِ**»[٣].

ذلك هو حقيقة المثل الَّذي ضربه الله في الآية الكريمة: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾.

فالمثال يرسم صورة لمراحل حياة الإنسان، فكما يظهر الزَّرع، وينبع من الأرض خضراً جميلاً يسرّ النّاظرين كذلك مرحلة الطّفولة والصّبا والشّباب، ثمَّ يبدأ العدُّ العكسيّ، فالإنسان متحوّل من القوّة إلى الضَّعف، ومن جمال الصّبا والشَّباب إلى هزال ووهن، إلى أن ينتهي به إلى الموت.

(١) الأعراف: ٣٢.

(٢) تفسير التَّحرير والتَّنوير: ٣٦٦/٢٧.

(٣) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٥٢٦/٩، ح/٨٣٦٥.

الحَياةُ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[1].

هل كان النّاس أمواتاً قبل أن يدعوهم الله تعالى إلى ما يحييهم؟

وبعبارة أخرى: هل كان النّاس موتى قبل هبوط الوحي على رسول الله صلّى الله عليه وآله، ليدعوهم إلى استجابة أمره؟

والجواب على ذلك: لا بدَّ أن نحدّد أنواع الحياة في القرآن، وهي[2]:

١- الحياة النّباتيّة: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[3].

٢- الحياة الحيوانيّة: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4].

٣- الحياة الخالدة في الآخرة: ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾[5].

---

(١) الأنفال: ٢٤.

(٢) ينظر: الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣٦١/٥.

(٣) الحديد: ١٧.

(٤) فصّلت: ٣٩.

(٥) الفجر: ٢٤.

٤- الحياة الفكريّة والعقليّة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

٥- حياة الواحد الأحد الَّتي لا بداية لها ولا نهاية: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾[٢].

إذا عرفنا أصناف الحياة في القرآن، فأيّ حياة يدعونا إليها الله ورسوله؟

والجواب: إنَّ الحياة الَّتي يتحدَّث عنها القرآن الكريم ليس المظاهر (البيولوجيّة) كحركة القلب والدَّم والشَّرايين فهذه هي الحياة الحيوانيّة.

وقد تجاوز القرآن الكريم هذه المظاهر التّكوينيّة الَّتي لا إرادة للإنسان فيها، وتحدّث عن حياة أخرى، ونوع آخر يجب أن يتزوّد بها الإنسان؛ لكي يتمتّع بالحياة الإنسانيّة الحقيقيّة، «فهذه الآية تقول بصراحة: إنّ دعوة الإسلام هي دعوةٌ للعيش والحياة، الحياة المعنويّة، الحياة المادّيّة، الحياة الثّقافيّة، الحياة الاقتصاديّة، الحياة السّياسيّة، بالمعنى الصّحيح، الحياة الأخلاقيّة والاجتماعيّة، وفي النّتيجة الحياة والعيش على جميع الأصعدة، وهذه أقصر وأجمع عبارة عن الإسلام و رسالته الخالدة، إذا سأل أحد عن أهداف الإسلام، و ما يمكن أن يقدّمه، فنقول جملة قصيرة: إنّ هدفه هو الحياة على جميع الأصعدة، وهذا ما يقدّمه لنا»[٣].

---

(١) الأنعام: ١٢٢.

(٢) الفرقان: ٥٨.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٥/٣٦٠-٣٦١.

تلك هي الحياة الَّتي إذا افتقدها الإنســـان هبط من ذروة الإنســـانيّة إلى حضـــيض الحيوانيّة، وإن كان يتمتّع بكلّ مظاهر الحياة (البيولوجيّة) يقول تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[1]، أي إنَّ الإنذار الإلهيّ إنّما يتعقّله ويتقبّله من كان يتمتّع بالحياة الفكريّة العقليّة الّتي تُركّز إنسانيّته، وهذا التّعبير يوحي بأنّ النّاس ينقسمون إلى فئتين: أحياء وأموات، والدَّعوة الإلهيّة إنَّما تأخذ طريقها إلى القلوب الَّتي لا زال فيها شـــيئاً من الحياة، وأمّا الَّتي افتقدت الحياة فلا يمكن أن تتجاوب مع الإنذار الإلهيّ، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾[3]، فلا يســـتجيب للإنـذار الإلهيّ من عـاش الحيـاة الحيوانيّة الصَّـــرفة، وأمات قلبه بشـــهوة أو غفلة، أو ارتكس في الذُّنوب فهؤلاء أنزلهم القرآن الكريم منزلة الميّت: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾[4].

فالآية الكريمة إذن تدعو الإنســـان أن يعيش الحياة الحقيقيّة المتمثّلة بحياة القلوب، والنّفوس، والضّـــمائر، ليعيش الحياة الإنســـانيّة بكلّ أبعادها المعنويّة والماديّة بشكل متوازن، وفي مختلف المجالات: الثّقافيّة، والاقتصاديّة، والسّياسيّة السّـــليمة، والأخلاقيّة، ويبعث في النُّفوس والقلوب الحركة التّكامليّة من خلال العلم، والإيمان، والعمل، ويعمّق فيها الشُّعور بالمسؤوليّة أمام الله تعالى.

---

(١) يس: ٧٠.

(٢) فاطر: ٢٢.

(٣) النَّمل: ٨٠

(٤) الأنعام: ٣٦.

فالآية إذن تدعو للحياة الحقيقيّة بأبعادها كلّها؛ «لأنَّ الإسلامَ هو دعوةٌ إلى الحياة، في ما أراده للإنسان من حركة، ووحي، ونموّ، وانطلاق، من خلال مفاهيمه الواسعة الشّاملة الّتي تفتح آفاقه على الكون كلّه، ليكون ساحةً لفكره، ومنطلقاً لعمله، وتجربةً لمسؤوليّته، ما يجعل منه طاقة حيّة متحرّكة في أكثر من اتّجاه، ومن خلال شريعته الّتي تنظّم له حياته في ما يأكل ويشرب ويستمتع، وفي ما يعيش من علاقات، فيتحقّق له التّوازن في ذلك كلّه، فلا تنحرف حياته إلى خطّ السّلبيّة الّتي تهمل كلّ شيء حولها، ولا تتطرّف في خطّ الإيجابيّة حتّى تغلق على نفسها كلّ باب للحرّيّة..»[1].

إنَّ الحياة الحقيقيّة هي الَّتي تهتدي بهدى الله، وتتمسّك بأحكام الله، وتتّخذ الإسلام منهجاً شاملاً للحياة، عقيدةً ونظاماً، يرسم له طريقه للكمال والسّموّ المادّيّ والمعنويّ لإسعاده في الدُّنيا والآخرة، فهي دعوة إلى اعتناق العقيدة الحقَّة الَّتي تحدّد دور الإنسان في الحياة والكون... تحيي القلوب، وتثير العقول، وتحرّرها من قيود الشَّهوات، وأوهام الخرافات، ومن الخضوع للظُّلم وتنقلها من عبوديّة العبيد إلى عبوديّة الله تعالى.

ويدلّ على ذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾[2]؛ فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**مَن اسْتَخْرَجَها مِنَ الْكُفْرِ إِلى الإيمانِ**»[3].

(١) السّيّد محمّد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن: ٥١/٨.

(٢) المائدة: ٣٢.

(٣) العيّاشيّ، التّفسير: ٣٨/٢، ح/١٢٤٨.

وعن فُضَيل بن يسار، قال: «قلتُ لأبي جعفر عليه السلام: قول الله في كتابه: ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ قال: **منْ حَرْق أَوْ غَرق**، قلتُ: فمن أخرجها من ضلال إلى هدى؟ فقال: **ذلكَ تأويلُها الأَعْظَم**»(١).

فالحياة الحقيقيّة إذن هي الّتي تقوم على أساس الإيمان، والعلم، والعمل، وتوافق الفطرة الإنسانيّة السَّليمة، وتتحرّك نحو الارتقاء والكمال في جميع المجالات، وتوازن بين متطلّبات الرّوح، ومتطلّبات البدن.

مَظاهِرُ الْمُجْتَمَعِ الْحَيِّ:

وبعد هذا لنقف على مظاهر المجتمع الحيّ كما ذكرها الشَّهيد مرتضى مطهّري رحمه الله(٢)، وهي:

١- الوعي والتّحرّك: كلّما ازداد المجتمع وعياً لرسالته كلّما ازداد حركة نحو الازدهار والتّقدّم، وبالعكس كلّما هبط الوعي فيه مال إلى الرُّكود، والسُّكون، والارتخاء، والخدر، ورضي بالذّلّ والهوان، ليحافظ على حياته الحيوانيّة.

٢- التّرابط والتّضامن: من علامات التّقدّم، والازدهار، والتّحضّر في المجتمع: التّضامن الاجتماعيّ، والتّكافل، والتّكامل، والتّعاون، والتّرابط العضويّ حتّى يعود بمثابة البدن الواحد الّذي يتأثّر سلباً إذا مرض منه عضو من أعضائه كما وصف رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَثَلُ الْمُؤْمنينَ في تَوادِّهِمْ، وَتَراحُمِهِمْ،**

(١) البرقيّ، المحاسن: ١/٣٦٢-٣٦٣، ح/٧٨٢.

(٢) ينظر: بين المنبر والنّهضة الحسينيّة للشّهيد مطهّري: ٥١١-٥١٥.

وتَعاطُفهمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إذا اشْتَكى مِنْهُ شَيْءٌ تَداعى لَهُ سائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمّى»(١).

٣- تكريم شخصيّاته الفكريّة من خلال الارتباط بهم روحيّاً وأخلاقيّاً وعلى مختلف المستويات؛ ليستمدّ منهم روحاً متوثّبة، وليأخذ بما يرشدونه إليه من العلم والعمل.

(١) مسند الإمام أحمد: ٣٠/٣٢٣، ح/١٨٣٧٣.

أَخْطَرُ الْمَزالِقِ في طَريقِ الْكَدْحِ إلى اللّٰهِ

في نفس الإنسان أهواء، ورغبات، ونوازع مختلفة ومتنوّعة، فيها أهواء مادّيّة كبيرة، وأهواء معنويّة عريضة... فمن مصاديق الأهواء المادّيّة الحرص على جمع المال والعقار، والمراكب، والأولاد، والنّساء... وما إلى ذلك من عناوين مادّيّة، وأمّا الأهواء المعنويّة فهي حبُّ الجاه، والمقام، والسُّمعة الطّيّبة، والشُّهرة الواسعة، والعلم الغزير، والسُّلطة المطلقة... وهلمّ جرّى.

ومن خلال غريزة حبّ الذّات يحرص الإنسان بشدّة على تحصيل كلا الجانبين المادّيّ والمعنويّ، وفي كثير من الأحيان تحاول النَّفس الأمّارة بالسّوء أن تسخّر الأمور المعنويّة، وتجعلها وسيلةً لنيل الأهداف المادّيّة، فتسخّر الاعتبارات المقدّسة كالعقيدة الصَّحيحة، والأخلاق الرَّفيعة، والأحكام الإلهيّة، والعلوم الإنسانيّة، والأعمال الصّالحة وسيلةً للحصول على المطالب المادّيّة، فنراها تدرس وتتعلّم، وتترقّى في مراتب العلوم؛ لتنال بها ثروة ضخمة، وسلطة قويّة، وشهرة واسعة، وتتخلّق بالخلق الحسن؛ لتستحوذ على قلوب النّاس، وتتظاهر بالزُّهد والقداسة والورع؛ لتنال الشُّهرة والسُّمعة الطّيّبة في الوقت الَّذي تخفي أبشع الصّفات وأرذلها وأحطّها، وتفعل في السّرّ جرائم فظيعة تهتزّ منها الجبال الرّواسي، ورحم الله السيد عباس شبر إذ قال: [من البسيط]

بعداً لقوم يرون الدّين قنطرة ... لما يسدّ فراغ البطن والكيس
باتوا يحوطون دنياهم بحيطته ... وهم على دخل منه وتدليس[1]

---

(١) السّيّد جواد شبّر، أدب الطّفّ: ٢٦٢/١٠.

وهكذا تجد في «كلّ عصر مجموعة من أتباع هذا الدّين، أو ذاك تلجأ إلى تأويل بعض النّصوص الدّينيّة، وتقدّم اجتهادات شخصيّة، وتفسيرات ذاتيّة تمكّنها من الوصول إلى السُّلطة، فتكون لها مقاليد الأمور، وهي تَستخدم في الأعمّ الأغلب أحطّ السُّبل: كالدَّسائس، والقتل، والرّشوة، واستمالة الأشخاص بالمال، أو الإرهاب، والنّفاق، والكذب على الله»[1] ورسوله وأهل بيته عليهم السلام.

ولمّا كان التّمسّك بدين الله تعالى يمنح الإنسان في الوسط الاجتماعيّ مكانةً كبيرةً ورصيداً اجتماعيّاً عريضاً يحقّق له إشباع غرائزه وأهوائه؛ لذلك نجد كثيراً من النّاس يتلبّس بثوب الدّين، ويظهر التّديّن؛ لينال في قلوب الآخرين مساحة واسعة، ويكون له تأثير كبير باسم الدّين، فيتّخذ الدّين وسيلة لنيل المراتب العليا في ذلك الوسط سواء كانت مادّيّة أو معنويّة؛ ولهذا نرى طالب الدُّنيا بالدّين دائماً وأبداً يلهث وراء العناوين البرّاقة؛ لينال الجاه، والمقام، والسُّمعة، والشُّهرة، والمال، أو القوّة باسم الدّين كما وصف الإمام زين العابدين عليه السلام ذلك بقوله: «**فَنَصَبَ الدّينَ فَخّاً لَها** [للدُّنيا]»[2]؛ ليخدع النّاس، ويستحوذ على قلوبهم، ويمتصّ أموالهم وجهودهم.

وقد وصف أمير المؤمنين عليه السلام هذا الصّنف من الناس بقوله: «**وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيا بِعَمَلِ الآخرَةِ، وَلا يَطْلُبُ الآخرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيا، قَدْ طَأْمَنَ**[3] **مِنْ شَخْصِه، وَقارَبَ مِنْ خَطْوِه، وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِه**[4]**، وَزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِه للأَمانَةِ،**

---

(١) د. إمام عبد الفتّاح، الطّاغية: ٢١.

(٢) الشّيخ الطّبرسيّ، الاحتجاج: ٣٦٤/٢؛ وبحار الأنوار للمحدّث المجلسيّ: ٨٤/٢.

(٣) طأمن مقلوب طمأن، أي سكن، وطأمن منه أي سكنه.

(٤) شمّر ثوبه، أي رفعه عن ساقيه للتّنزّه والاحتراز من النَّجاسة والقذارة.

وَاتَّخَذَ سرَّ الله تَعالى ذَريعَةً إلى الْمَعْصيَة»[١].

وفي نصّ آخر قال عليه السلام: «**وَآخَرُ قَدْ تَسَمّى عالماً وَلَيْس به، فَاقْتَبَس جَهائلَ منْ جُهّال، وَأَضاليلَ منْ ضُلال، وَنَصَبَ للنّاس أَشْراكاً منْ حبال غُرور، وَقَوْل زور، قَدْ حَمَلَ الْكتابَ عَلى آرائه، وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلى أَهْوائه، يُؤْمّنُ النّاسَ من الْعَظائم، وَيُهَوِّنُ كَبيرَ الْجَرائم، يَقولُ: أَقفُ عنْدَ الشُّبُهات، وَفيها وَقَعَ، وَيَقولُ: أَعْتَزلُ الْبدَعَ وَبَيْنَها اضْطَجَعَ، فَالصّورَةُ صورَةُ إنْسان، وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوان، لا يَعْرفُ بابَ الْهُدى فَيَتَّبعَهُ، وَلا بابَ الْعَمى فَيَصُدَّ عَنْهُ، فَذلكَ مَيِّتُ الأَحْياء»**[٢].

إنَّ طلاب الدُّنيا بالدّين يتظاهرون بالتّديّن، ويتباهون بالعلم، قد جعلوا النّاموس الديني شبكة لاقتناص الدُّنيا، «يريدون أن يتوسّلوا بأشرف الأشياء، وهو العلم بالله وأحكامه، إلى أخسّ الأشياء، وهو الجاه والمنزلة في الدُّنيا، والتّفاخر بما فيها، والرّكون إلى زخارفها، والإخلاد إلى الأرض، وهذه أمور وهميّة باطلة كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ**﴾[٣]»[٤].

ولخطر هؤلاء على الإسلام والمسلمين طالما شكا أمير المؤمنين عليه السلام، وتحسَّر بشدّة من هؤلاء، قال عليه السلام: «**إنَّ هاهُنا** - وأشار بيده إلى صدره - **لَعلْماً**

---

(١) بحار الأنوار: ٥/٧٨.

(٢) نهج البلاغة: ١٤٢-١٤٣، خطبة: ٨٦

(٣) العنكبوت: ٦٤.

(٤) صدر المتألّهين، تفسير القرآن الكريم: ٢١٠/٦.

جمّاً، لَوْ أَصبْتُ لَهُ حَمَلَةً! بلى، أَصَبْتُ لَقناً غَيْرَ مَأمون، يَسْتَعْمِلُ آلَةَ الدّين في الدُّنْيا، ويَسْتَظْهِرُ بحُجَجِ الله عَلى خَلْقه، وبنعَمه عَلى عباده، ليَتَّخذَهُ الضُّعَفاءُ وَليجَةً[(١)] مِنْ دون وَلِيِّ الْحَقِّ»[(٢)].

وقد علق المحدّث المجلسيّ على الحديث المتقدّم بقوله: «لعلَّ المراد بالحجج والنّعم أئمّة الحقّ، أي يستعين بهؤلاء، ويأخذ منهم العلوم؛ لِيُظهر هذا العلم للنّاس، فيتّخذه ضعفاء العقول بطانة ووليجة، ويصدّ النّاس عن وليّ الحقّ ويدعوهم إلى نفسه، ويحتمل أن يكون المراد بالحجج والنّعم العلمَ الَّذي آتاه الله، ويكون الظّرفان متعلّقين بالاستظهار، أي يستعين بالحجج للغلبة على الخلق، وبالنّعم للغلبة على العباد، وغرضه من هذا الاستظهار إظهار الفضل؛ ليتّخذه النّاس وليجة»[(٣)].

نعم، رأينا - فضلاً عمّا قرأنا - في عصرنا هذا لمّا راج سوق العلم والدّين، وصار للعلماء دورٌ فعّال، ومكانة مرموقة في السّاحة العالميّة ببركة الثّورة الإسلاميّة العظيمة بقيادة العارف بالله الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ راح كثيرٌ من النّاس يتزيّا بزيّ أهل العلم، وصار يدّعي بما هو أكبر من حجمه آلاف المرات، لاهثاً وراء المسمّيات الفارغة من المحتوى الرّوحيّ والفكريّ، وصار شأن بعضهم شأن بعض طلاب الشّهادات العليا الَّذين يسعون بكل سبيل لنيل الشُّهرة مهما كلّفته من انتحالات

---

(١) «الوليجة: كلّ ما يتّخذه الإنسانُ معتمداً عليه، وليس من أهله، من قولهم فلان وليجةٌ في القوم إذا لحق بهم وليس منهم، إنساناً كان أو غيره، قال [تعالى]: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ (التّوبة: ١٦)»، مفردات ألفاظ القرآن للرّاغب الأصفهانيّ: ٧٤٨، (ولج).

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ١٨٦/١-١٨٧؛ وبحار الأنوار: ١٨٨/١.

(٣) بحار الأنوار: ١٩٢/١.

ومدّعيات لا حقيقة لها، ولا يقرّها عقل ولا شرع؛ ولهذا وغيره اهتزَّت قداسة أهل العلم، والَّتي كانت توضع في قمّة الاعتبارات الرّوحيّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة، وهان أهل العلم في بعض الأوساط؛ لسوء تصرّف بعضهم، وقد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين بصورة غير مباشرة عليه السلام بقوله: «**لَوْ أَنَّ حَمَلَةَ الْعِلْمِ حَمَلُوهُ بِحَقِّهِ لَأَحَبَّهُمُ اللهُ، وَمَلائِكَتُهُ، وَأَهْلُ طاعَتِه مِنْ خَلْقِه، وَلكِن حَمَلُوهُ لِطَلَبِ الدُّنْيا، فَمَقَتَهُمُ اللهُ، وَهانوا عَلى النّاسِ**»(١).

وحَمْلُ العلم بحقّه هو العمل به قبل الحديث فيه؛ ثمّ نشره بين النّاس لتعبيدهم لله تعالى بتذكيرهم، وإرشادهم، ووعظهم، وهدايتهم، وتفقيههم امتثالاً لأمر الله، وطاعةً له، ورغبةً في نيل رضوانه، من دون ميل إلى طلب مال، ولا جاه، ولا سمعة، ولا رياء، وإنّما يَتعلّم ويُعَلّم لله، وفي الله، وفي سبيل الله تعالى، فهذا الَّذي يرفع اللهُ شأنه في خلقه بالعلم، ويمنحه العظمة في ملكوته فضلاً عن ملكه، فعن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال: «**مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَمِلَ بِه، وَعَلَّمَ لله**(٢)**، دُعِيَ في مَلَكوتِ السَّماواتِ عَظيماً، فَقيلَ: تَعَلَّمَ لله، وَعَمِلَ لله، وَعَلَّمَ لله**»(٣).

وأمّا حَمله للدنيا فهو اكتسابه، أو نشره بقصد التّنعّم بالدُّنيا، والتّوصّل إلى الجاه الواسع، والمنزلة الرَّفيعة، والقبول الاجتماعيّ، ونيل الثّروة والعزّة للتّقدّم على الأقران باسم العلم والدّين، وما يتفرّع عنهما، فقد ورد عن نوف البكاليّ، وكان

(١) الدّيلميّ، أعلام الدّين في صفات المؤمنين: ٨٣؛ وبحار الأنوار: ٣٧/٢.

(٢) وروي: «**مَنْ تَعَلَّمَ لله عَزَّ وَجَلَّ، وَعَمِلَ لله، وَعَلَّمَ لله**» كتاب الأمالي للشّيخ الطّوسيّ: ٨٢؛ وروي: «**مَنْ تَعَلَّمَ، وَعَلَّمَ، وَعَمِلَ بِما عَلِمَ**» تفسير القمّيّ: ٧٦٨/٢.

(٣) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٨٦/١ ح/٦٦.

ممّن يقرأ الكتب قال: «إنّي لأجد صفة ناس من هذه الأمّة في كتاب الله المنزّل، قوم يحتالون الدُّنيا بالدّين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرُّ من الصَّبر، يلبسون لباس مسوك الضّأن[١]، وقلوبهم قلوب الذّئاب، فعليَّ يجترؤون، وبي يغترّون؟ حلفْتُ بنفسي لأبعثَنَّ عليهم فتنة تترك الحليم فيهم حيرانَ»، قال القُرَظيّ: «تدبّرتها في القرآن فإذا هم المنافقون، فوجدتُها: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ** ﴾[٢] ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ** ﴾[٣]»[٤].

وفي حديث آخر عن رسول الله صَلَّىٱللهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**وَيْلٌ للَّذينَ يَجْتَلبونَ الدُّنْيا بالدّين، يَلْبَسونَ للنّاس جُلودَ الضَّأْن منْ لين أَلْسنَتهم، كَلامُهُمْ أَحْلى من الْعَسَل، وَقُلوبهُمْ قُلوبُ الذِّئاب، يَقولُ اللهُ تَعالى: أَبي يَغْتَرّونَ؟ أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِؤونَ؟ فَوَعِزَّتي وَجَلالي لأَبْعثَنَّ عَلَيْهِمْ فتْنَةً تَذَرُ الْحَليمَ منْهُمْ حَيْرانَ**»[٥].

وأدقّ وصف لهذا الصّنف من المتصنّعين بالدّين ما جاء عن أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ أنَّه قال: «**يا حَمَلَةَ الْقُرْآن، اعْمَلوا به؛ فَإنَّما الْعالمُ منْ عَلمَ، ثُمَّ عَملَ بما عَلمَ، وَوافَقَ علْمُهُ عَمَلَهُ، وَسَيَكونُ أَقْوامٌ يَحْملونَ الْعلْمَ لا يُجاوزُ تَراقيهمْ، يُخالفُ سَريرَتَهُمْ عَلانيَتَهُمْ، وَيُخالفُ عَمَلُهُمْ علْمَهُمْ، يَجْلسونَ حَلَقاً، فَيُباهي**

(١) المَسْك: الجلد، وجمعه: مُسوك، ينظر: المعجم الوسيط: ٨٦٩

(٢) البقرة: ٢٠٤.

(٣) الحجّ: ١١.

(٤) تفسير الطّبريّ: ٥٧٥/٣؛ وينظر: عمدة القاري للعينيّ: ٦/١٣.

(٥) بحار الأنوار: ١٧٣/٧٧.

بَعْضُهُمْ بَعْضاً، حَتّى أَنَّ الرَّجُلَ يَغْضَبُ عَلى جَليسه أَنْ يَجْلسَ إِلى غَيْره ويَدَعَهُ، أُولئكَ لا تَصْعَدُ أَعْمالُهُمْ في مَجالسهِمْ تلْكَ إِلى الله»[١].

خُطورَةُ هذا الْمَسْلَكِ:

مما لا شكَّ فيه أنَّ طلب الدُّنيا بالدين من أخطر المسالك وأشنعها وأقبحها في حياة الإنسان، وأخطر من ذلك أنَّ هذا المسلك أخطر على الإسلام من جيوش الأعداء والمخالفين.

أمّا على الفرد، فإنّه يُعرّضُه لمقت الله وغضبه؛ فإنَّ الله لا يحبّ إلا المخلص، ولا يقبل إلا العمل الخالص لوجهه مهما بلغت نتائج ذلك العمل؛ لأنَّ «الإسلام يهتم بدوافع العمل لا بمنافعه»[٢]، وبالتّالي يخسر الدّنيا والآخرة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«عاملُ الدّين للدُّنيا جَزاؤُهُ عنْدَ الله النّارُ»**[٣].

وقال صلى الله عليه وآله: **«مَنْ تَعَلَّمَ علْماً ممّا يُبْتَغى به وَجْهُ الله عَزَّ وَجَلَّ، لا يَتَعَلَّمُهُ إلا ليُصيبَ به غَرَضاً منَ الدُّنْيا، لَمْ يَجدْ عَرْفَ الْجَنَّة يَوْمَ الْقيامَة»**[٤].

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام: **«بِئْسَ الْقَوْمُ قَوْمٌ خَتَلوا[٥] الدُّنْيا بِالدّين،**

---

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ٥٠٩/٤٢-٥١٠؛ ونهج السّعادة في مستدرك نهج البلاغة للمحموديّ: ٩٠/٣.

(٢) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، المدرسة القرآنيّة: ٣٣٩.

(٣) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ١٣٠، ح/٢٢٢٥.

(٤) الشّهيد الثّاني، منية المريد: ١٣٤؛ بحار الأنوار: ٣٨/٢.

(٥) في الحديث: «منْ أَشْراط السّاعَة... وَأَن تُختَلُ الدُّنْيا بالدّين»: أي تُطلب الدُّنيا بعمل الآخرة. يقال: خَتَلَه يَختِلُه: إذا خَدَعَهُ وراوغَهُ؛ النّهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ٩/٢، (ختل).

وبِئْسَ الْقَوْمُ قَوْمٌ عَملوا بأَعْمالٍ يَطْلبونَ بها الدُّنْيا»[١].

ثمّ إنّ طالب الدُّنيا بالدّين لا بد أن تكتشف حقيقته للنّاس، وحينئذٍ يسقط اعتباره، وتسقط قيمته ومكانته الاجتماعيّة الَّتي أتعب نفسه من أجلها، ويصبح موضع احتقار وازدراء؛ لأنه تلبَّس بالفضيلة، وأخفى تحتها الرَّذيلة، وبذلك تسلب منه الثّقة الاجتماعيّة، ويخسر الدّين والدّنيا في آن واحد، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«**إنْ جَعَلْتَ دينَكَ تَبعاً لدُنْياكَ أَهْلَكْتَ دينَكَ ودُنْياكَ، وكُنْتَ في الآخرَةِ منَ الْخاسرينَ**».

«**طالبُ الدُّنْيا بالدّينِ مُعاقَبٌ مَذْمومٌ**»[٢].

وأمّا خطورة هذا المسلك على الإسلام، فإنَّ الطّالب للدُّنيا بالدّين يتّخذ الإسلام والإيمان جسراً يعبر به إلى أهدافه الدّنيويّة، فهو يُسَخّر أقدس المقدّسات؛ لأجل أهداف زائلة وضيعة، وبتعبير الإمام السّجّاد عليه السلام: «**فنَصَبَ الدّينَ فَخّاً لها** [للدُّنيا]»[٣]؛ فهو لا يهمّه أمر الدّين والإسلام، فتراه يلوّن الدّين، ويصوّره بكلّ صورة تنسجم مع الهدف الَّذي يسعى لتحقيقه، فلا يبالي ما فات من دينه إذا سلمت له دنياه؛ «**فَهُوَ يُحلُّ ما حَرَّمَ اللهُ، وَيُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ، لا يُبالي ما فاتَ منْ دينه إذا سَلمَتْ لَهُ رئاسَتُهُ الَّتي قَدْ شَقيَ منْ أَجْلها، فَأُولئكَ الَّذينَ غَضبَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَلَعَنَهُمْ، وأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهيناً**»[٤]، يتحايلون على الشّرع المقدّس؛ ليبرّروا سوء تصرّفهم؛ وليجعلوا الدّين ذريعة وستراً لأعمالهم، فيصونون الدُّنيا

---

(١) تاريخ اليعقوبيّ: ٢/٣٠٤.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ١٣٠، ح/٢٢٢٠-٢٢٢٤.

(٣) الاحتجاج: ٢/٣٦٤؛ وبحار الأنوار: ٢/٨٤.

(٤) من حديث طويل للإمام السّجّاد عليه السلام، ينظر في المصدرين السّابقين.

الدّنيئة بالدّين المقدّس السّامي، وقد حذَّر أمير المؤمنين عليه السلام من هذا المسلك الوبيء، فقال عليه السلام:

«صُنْ دينَك بدُنْياكَ تَرْبَحْهُما، ولا تَصُنْ دُنْياكَ بدينكَ فتَخْسَرْهُما».

«صُنِ الدّينَ بالدُّنْيا يُنْجِكَ، ولا تَصُنِ الدُّنْيا بالدّينِ فتُرْديكَ».

«مِنَ الشَّقاءِ أَنْ يَصونَ الْمَرْءُ دُنْياهُ بدينِه»[١].

وتأسيساً على ذلك نستطيع القول وبضرس قاطع: إنَّ ما تعرَّض له الإسلام والمسلمون من نكبات ومصائب من روّاد هذا المسلك أشدّ وأنكى وأفظع ممّا تعرض له من جيوش الشّرك والكفر المطلق... فما حورب أهل البيت المعصومون عليهم السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا من طلاب الدُّنيا بالدّين، وما قضوا صلوات الله عليهم وسلامه بين مقتول ومسموم، ومسجون، ومشرّد إلا بيد هؤلاء الّذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، ويتظاهرون بالصّلاح، وهم منبع الفساد والإفساد، ورحم الله السّيّد الإمام الخمينيّ قدس سره حين قال: «فمن كانت له ملكة الاستطالة والتّرفّع وحبّ الرّئاسة، والتّزوير، وخداع النّاس كانت لها علامات وآثار ظاهريّة أيضاً، حيث ذكر بعضها الإمام الصّادق عليه السلام، وهي: الخدعة والاحتيال على النّاس، فإنَّه يجعل نفسه من أهل الصَّلاح في حين أنَّه لم يكن في الحقيقة منهم، وهؤلاء النّاس ذئاب في زيّ الأغنام، وشياطين في هيكل الإنسان، وإنَّهم أسوأ خلق الله، وإساءتهم إلى دين النّاس أكثر من إساءة جيوش المخالفين الأعداء»[٢].

ولهذه الخطورة الفظيعة على الإسلام من طلاب الدّنيا المتسترين بثياب

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ١٣٠، ح/٢٢٢٣-٢٢٢٤-٢٢٣٠.

(٢) الإمام الخمينيّ، الأربعون حديثاً: ٣٤٥-٣٤٦.

الدّين والعلم ممّن يبذلون أقصى جهودهم؛ لتطويع الإسلام لمصالحهم الذّاتيّة حذَّر الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرون عليهم السلام من هؤلاء تحذيراً شديداً من حيث الأخذ منهم، والتّعامل معهم، أو حبّهم والميل إليهم؛ فعن السّكونيّ، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: الْفُقَهاءُ أُمَناءُ الرُّسُلِ ما لَمْ يَدْخُلوا في الدُّنْيا، قيلَ: يا رَسولَ الله، وَما دُخولُهُمْ في الدُّنْيا؟ قالَ: اتّباعُ السُّلْطانِ، فَإذا فَعَلوا ذلكَ فاحْذَروهُمْ عَلى دينِكُمْ**»(١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إذا رَأَيْتُمُ الْعالِمَ مُحِبّاً لِدُنْياهُ، فاتَّهِموهُ عَلى دينِكُمْ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحِبٍّ لِشَيْءٍ يَحوطُ ما أَحَبَّ**»(٢).

وقال عليه السلام: «**أَوْحى اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إلى داودَ عليه السلام: لا تَجْعَلْ بَيْني وَبَيْنَكَ عالماً مَفْتوناً بالدُّنْيا، فَيَصُدَّكَ عَنْ طَريقِ مَحَبَّتي، فَإِنَّ أُولئكَ قُطّاعُ طَريقِ عِبادِيَ الْمُريدينَ، إِنَّ أَدْنى ما أَنا صانِعٌ بِهِمْ أَنْ أَنْزِعَ حَلاوَةَ مُناجاتي مِنْ قُلوبِهِمْ**»(٣).

صِفاتُ طُلابِ الدُّنْيا بِالدّينِ:

قلنا إنَّ هؤلاء يُسَخِّرون الدّين، ويطوّعون أحكامه؛ لتحقيق أهدافهم، فهم يتظاهرون بكلّ ما يكسبهم الدُّنيا، ولو كان كذباً وزوراً وخداعاً وحيلةً، بل تراهم يلهثون وراء ذلك، ويبذلون غاية جهدهم؛ لنيل السُّمعة والجاه... وأدقّ وصف لهذه

---

(١) الكافي: ١/١١٤، ح/١٢٢.

(٢) المصدر نفسه: ١/١١٣، ح/١٢١.

(٣) المصدر نفسه: ١/١١٣، ح/١٢١.

الحالة ما جاء في وصف بلعم بن باعوراء حيث وصفه تعالى في كتابه الكريم: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

وهذه الآية وإن نزلت في شخص معيّن إلا أنَّ دلالتها لا يمكن أن تنحصر به، وإنّما تمتدّ لكلّ زمان، وكلّ مكان؛ لأنَّ «المورد لا يخصّص الوارد»؛ ولأنّ «العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب» كما قال الأصوليّون.

وفي تفسير الآية الكريمة ورد عن الإمام أبو جعفر عليه السلام قوله: «**فِي الأَصْلِ بَلْعَم، ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلاً لِكُلِّ مُؤْثِرٍ هَوَاهُ عَلَى هُدَى الله تَعَالَى مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ**»(٢).

ويمكن أن نحصر صفات أصحاب هذا المسلك بالنّقاط الآتية:

١- الادّعاء العلميّ: وهذا يبرز في سلوكهم بأشكال مختلفة، فمرّة يدّعي بأنّه من أعلم النّاس وأدقّهم في العلوم العقليّة والنّقليّة، ويحاول أن يفرض آراءه على الآخرين، وإن كان خطأً، ويسفّه آراءهم، وإن كانت صحيحة، وقد تنبأ رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك، فقال: «**يَظْهَرُ هذا الدِّينُ حَتَّى يُجَاوِزَ الْبِحارَ، وَحَتَّى تُخاضَ الْبِحارُ بِالْخَيْلِ فِي سَبِيلِ الله تَبارَكَ وَتَعالى، ثُمَّ يَأْتِي أَقْوامٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، فَإِذا قَرَؤُوهُ قالُوا: مَنْ أَقْرَأُ مِنَّا؟ مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟**» ثمّ التفت إلى أصحابه، فقال: «**هَلْ تَرَوْنَ فِي أُولئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟**» قالوا: «لا»، قال: «**أُولئِكَ مِنْكُمْ، وَأُولئِكَ مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ، وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**»(٣).

---

(١) الأعراف: ١٧٦.

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، التّبيان في تفسير القرآن: ٣٢/٥.

(٣) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: ١٨/١؛ منية المريد: ١٣٧؛ كنز العمّال للمتّقي الهنديّ: ٢١٢/١٠، ح/٢٩١٢١؛ ومجمع الزّوائد للهيثميّ: ١٨٥/١-١٨٦؛ وبحار الأنوار: ١١١/٢.

أو يحاول أن يثبت ادّعاءه في غرائب الأمور، وفي دقائق بعيدة عن حاجة النّاس، وإثارتها لجلب الأنظار إلى نفسه، قال الفيلسوف الإسلاميّ العظيم صدر المتألّهين: «وأمّا علماء الدُّنيا فأكثر اهتمامهم بتتبّع غرائب التَّفريعات في الأقضية والحكومات، والتّعب في استنباط الصّور الدّقيقة، والاحتمالات البعيدة الَّتي تنقضي الدّهور، ولا يقع مثلها، وإن وقع كان لغيرهم لا لهم، ومع ذلك لا يخلو الأرض عمّن يقوم باستنباطه، والشّغَف بتحصيله طلباً للجاه والشُّهرة حسبما قدّره الله، وأودع في غريزة كلّ أحد ما يناسبه، وينتظم به أمور غيره في عالمه - وما أبعد عن السَّعادة من باع مهمّ نفسه اللازم بمهمّ غيره النّادر إيثاراً لخدمة الخلق، وقبولهم على القرب من الله، وحضوره عنده، وتهالكاً على أن يسمّيه البطّالون فاضلاً عالماً بالدّقائق، وجزاؤه من الله تعالى ما ذكره بقوله: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ**﴾[1]»[2].

٢- التّهالك في طلب الشُّهرة: وهذه السّمة من أبرز صفات طلاب الدُّنيا بالدّين، حيث يحاول بشتّى السُّبل أن ينال شهرة واسعة، إمّا بمخالفة العلماء بالله، والتّوهين بهم، ومعاكسة آرائهم، ومناقشتها، والطّعن بها، أو الجدّ في نيل الألقاب العلميّة العالية ممّا تطلق على أهل العلم الحقيقيّين، وحملة الشَّهادات العالية وتسطيرها على كتبه إن كان له تأليف، ويغضب أشدّ الغضب إن لم تذكر في مخاطبته، ومن هؤلاء من يتفانى في جمع الثّروات الواسعة من المال والعقار، أو البروز بلباس أقرب ما يكون إلى لباس الجبابرة، قال أحد الزُّهّاد: «إنَّ كثيراً من

---

(١) آل عمران: ٧٧.

(٢) تفسير القرآن الكريم: ٢١٦/٦-٢١٧.

علمائكم زيّه أشبه بزيّ كسرى وقيصر منه لمحمّد صلى الله عليه وآله، إنَّ محمّداً لم يضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، لكن رفع له علم، فسموا إليه»[١].

إنَّ التّظاهر بصفات الكمال، والتّصنّع بها سواء كان علماً، أو عبادة، أو زهداً أو عملاً صالحاً من دون نيّة خالصة لله من أيّ شائبة من شوائب الرّياء لهي أخطر على دين المسلم من النّار في الهشيم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ما ذئْبان ضاريان أُرْسلا في زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَكْثَرِ فَساداً فيها مِنْ حُبِّ الْمالِ وَالْجاهِ في دينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ**»[٢].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**ما ذئْبان ضاريان في غَنَمٍ، قد فارَقَها رعاؤُها - واحدٌ في أَوَّلِها، وَهذا في آخِرِها - بِأَفْسَدَ فيها مِنْ حُبِّ الْمالِ وَالشَّرَفِ في دينِ الْمُسْلِمِ**»[٣].

وعن معمّر بن خلاد، عن أبي الحسن عليه السلام أنّه ذكر رجلاً، فقال: «إِنَّهُ يُحِبُّ الرِّئاسَةَ»، فقال عليه السلام: «**ما ذئْبان ضاريانِ في غَنَمٍ قَدْ تَفَرَّقَ رِعاؤها بِأَضَرَّ في دينِ الْمُسْلِمِ مِنَ الرِّئاسَةِ**»[٤].

ولعلَّ السّرّ في ذلك أنَّ حبّ الجاه والسّمعة ينشأ من حبّ المدح والثّناء والسَّيطرة، والتّقدّم على الأقران، والتّعالي على الأخوان، بل حتّى إذا اقتضى ذلك ظلم المؤمنين، والتّجاوز على حقوقهم، وهتك حرماتهم إذا وقفت عقبة في طريق انتشار الشّهرة والسّمعة؛ والأخطر من ذلك كلّه أنَّ الانشغال بذلك ينسي الإنسان

(١) أبو نعيم الأصبهانيّ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ٩٢/٨.

(٢) ورّام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر: ٤٢١/١، ح/١١٥٢؛ ومنية المريد: ١٤٥.

(٣) الكافي: ٧٧٢/٣، ح/٢٥٩٥.

(٤) المصدر نفسه: ٧٢٦/٣-٧٢٧، ح/٢٥٠٥.

ربّه، فإنَّ من جعل همّه الاستحواذ على قلوب الآخرين؛ لينتشر ذكره[1] انشغل بالتّصنّع بمختلف الوسائل حتّى يستغرق في ذلك، ويفقد توازنه، وينسى الله تعالى، وهنا الطّامّة الكبرى والكارثة العظمى ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2].

ومن هنا نجد أئمّة الحقّ الّذين أذهب الله عنهم الرّجس، وطهَّرهم تطهيراً يتوسّلون بالله تعالى كي يعينهم على تجاوز عقبات الذّات والإنّيّة والأنانيّة، وما تجرّ إليه من أمراض نفسيّة خطيرة كالعجب والتّكبّر، ولنستمع بتأمّل دعاء سيّد السّاجدين عليه السلام حين قال: «**اللّهُمَّ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وآله، وَلا تَرْفَعْني في النّاسِ دَرَجَةً إلا حَطَطْتَني عِنْدَ نَفْسي مِثْلَها، وَلا تُحْدِثْ لي عِزّاً ظاهِراً إلا أَحْدَثْتَ لي ذِلَّةً باطِنَةً عِنْدَ نَفْسي بِقَدَرِها**»[3].

وقد أوجز السّيّد علي خان المدنيّ رحمه الله أغراض الدّعاء في أربعة أمور:

«الأوّل: وقايته وحفظه من الكبر والعجب، اللّذين كثيراً ما ينشآن عن حصول الرّفعة والعزّ الظّاهرين فيما بين النّاس...

الثّاني: تحليته بالتواضع عند حصول الرّفعة والعزّ له، فإنّ أحسن التَّواضع ما كان عن رفعة، كما أنّ أحسن العفو ما كان عن قدرة؛ ولذلك قال صلى الله عليه وآله: «**طوبى**

---

(١) وفي زماننا هذا، بل في أيّامنا هذه، انتشرت ظاهرة وضع الصّور للمتصدّين للمرجعيّة من دون استحقاق في الشّوارع العامّة، وكتابة الألقاب العلميّة الكبيرة عليها: كالمفكّر، والأستاذ الدّكتور، والمفسّر، والمؤرّخ، والفقيه فضلاً عن كتابة آية الله وحجّة الإسلام، ولا أدري ماذا يقصدون من ذلك؟ فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

(٢) الحشر: ١٩.

(٣) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ٨٢ دعاء: ٢٠، دعاء مكارم الأخلاق.

لِمَنْ تواضَعَ في غَيْرِ مَنْقَصَةٍ، وَذَلَّ في نَفْسِه عَنْ غَيْرِ مَسْكَنَةٍ»[١]....

الثّالث: حفظ تلك الدَّرجة الرَّفيعة، والعزّ الظّاهر من الزّوال، بل زيادتهما؛ فإنّ التَّواضع عند حصول الرّفعة كالشُّكر عند حصول النّعمة، قال أبو القاسم النّيسابوريّ في كتاب خلق الإنسان: واجب على كلّ ذي منزلة رفيعة أن يشفق عليها حتّى لا يسقط عنها، وذلك باستعمال التّواضع واعتياد الرّفق، وهذا ممّا اجتمع على قبوله العقل والشَّرع، واتّفق عليه الاعتبار والاختبار، فكم من أناس لهم منازل رفيعة عالية، انحطّوا عنها بعدم التّواضع، وزالت عنهم بسبب الكبر، وفي قوله تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾[٢] دلالة ظاهرة على أنّ الانحطاط عن رفيع الدَّرجات إنّما يكون بالتكبّر...

الرّابع: إلهامه المعرفة بنقصان ذاته، وذلّ نفسه، وفاقته، وخضوعه في رقّ الحاجة إليه تعالى؛ ليعلم أنّ تلك الفضيلة من الرّفعة والعزّ، لم تحصل له عن استحقاق وجب عليه بسعيه وكدّه أو بخته وجدّه، مع قطع النّظر عن واهب النّعم ومفيضها.

وإنّما سأل عليه السلام أن يكون حطّه وإذلاله في نفسه بمقدار تلك الرّفعة والعزّ؛ ليكون تواضعه مساوياً لدرجته ومرتبته، حتّى لا يكون زائداً عليها، فيحمل على التّملّق والضّعة، ولا ناقصاً عنها، فتشوبه شائبة تكبّر وتجبّر، والله أعلم بمقاصد أوليائه»[٣].

هكذا يعلّمنا إمام الهدى عليه السلام كي نحفظ توازننا في حالة إظهار الله لنا مكانة

---

(١) ابن أبي الدّنيا، التواضع والخمول: ١٣٤-١٣٥، ح/٧٦؛ وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ٣٤٩/٥٨.

(٢) الأعراف: ١٣.

(٣) السّيّد علي خان المدنيّ، رياض السّالكين: ٣٠٤/٣-٣٠٧.

مرموقة أو ذكراً كريماً؛ لئلا نقع في شباك الغرور والإعجاب والتّكبّر، قال رسول الله ﷺ: «**بِحَسْبِ الْمَرْءِ من الشَّرِّ - إلا مَنْ عَصَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يُشيرَ النّاسُ إِلَيْهِ بالأَصابِعِ في دينِهِ ودُنْياهُ، إنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ، ولكنْ يَنْظُرُ إلى قُلوبِكُمْ وأَعْمالِكُمْ**»[1].

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**تَبَذَّلْ ولا تُشَهَّرْ، وأَخْفِ شَخْصَكَ؛ لئلا تُذْكَرَ وتُعْلَمَ، واكْتُمْ، واصْمُتْ تَسْلَمْ**»[2].

ولا يقتصر طلب الشُّهرة في جانب العلم والمال والجاه، وإنّما قد يأخذ شكلاً آخر كالتّظاهر بالقداسة، والتّشدّد في الاحتياط فوق المعتاد والمتعارف ليجلب الأنظار إليه، وهذا ما أوضحه إمام الأمّة السّيّد الخمينيّ قدس سره بجلاء ودقّة حيث وصف هؤلاء بقوله: «إنَّ عدّة من المتظاهرين بالقداسة والرَّجعيّين كانت تعتبر كلّ شيء حراماً، ولم يكن يجرؤ أحد على مواجهة أمثال هؤلاء.. إنَّ الآلام الّتي تجرّع مرارتها والدكم العجوز بسبب هذه الفئة المتحجّرة لم يواجه مثلها مطلقاً من ضغوط ومضايقات الآخرين»[3].

وأكّد الإمام الخمينيّ قدس سره خطر هؤلاء على الإسلام بوضوح ودقّة، ووصفهم بالأفاعي الرّقطاء النّاعمة الملمس، والسّمّ ناقع في أجوافها، قال قدس سره: «إنَّ

---

(١) التّواضع والخمول: ١١٧، ح/٣١؛ والمحجّة البيضاء للفيض الكاشانيّ: ١٠٨/٦.

(٢) الشّيخ المفيد، الأمالي: ٢٠٩؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ٢٣٨/٧، ح/٤٠٢٨.

(٣) صحيفة الإمام، تراث الإمام الخميني قدس سره: ٢٥٤/٢١؛ من البيان التّأريخيّ الّذي وجّهه سماحة الإمام الخمينيّ قدس سره إلى المراجع والعلماء والحوزات العلميّة في (١٥/رجب/١٤٠٩هـ) الموافق (٢٢/٢/١٩٨٩م).

خطر المتحجّرين والمتظاهرين بالقداسة الحمقى غير قليل في الحوزات العلميّة، وعلى الطّلبة الأعزّاء أن لا يغفلوا لحظة واحدة عن هذه الأفاعي الرّقطاء، إذ إنّها تروّج للإسلام الأميركي، وأعداء رسول الله... إنَّ الضّربات الّتي ألحقها رجال الدّين الجهلة والواعين المرتبطين، كانت ولا زالت أكثر تأثيراً من ضربات الأغيار»[1].

ثمّ أشار قُدِّسَ سِرُّهُ إلى الصَّدمات الخطيرة الَّتي وجَّهها هؤلاء إلى الحركة الإسلاميّة على طول التّأريخ الإسلاميّ قائلاً: «إنَّ الإساءة الّتي ألحقها بالإسلام أمثال هؤلاء المتظاهرين بالقداسة والمتلبّسين بزيِّ رجال الدّين، لم يتلقّها من أيّة فئة أخرى. ولعلَّ مظلوميّة أمير المؤمنين عليه السلام وغربته الصّارخة في التّأريخ نموذج بارز لذلك»[2].

٣- التّصنّع والتّظاهر بالمظاهر الدّينيّة: من أقبح الخصال أن يتزيّا الإنسان بغير زيّه، ويدّعي ما ليس له، ويتظاهر بشيء هو خال منه، كما وصف الإمام الصّادق عليه السلام بعض طلاب العلم بقوله: «**قَدْ تَسَرْبَلَ بِالْخُشُوعِ، وَتَخَلّى مِنَ الْوَرَعِ**»[3].

فرغم تظاهره بالخشوع، وتماوته في منطقه، وتخاضعه في حركاته إلا أنَّه خالٍ من تقوى الله تعالى، وتلك حقيقة طالب الدُّنيا بالدّين؛ ليستولي على قلوب النّاس ويخدعهم، ولكنَّ المسكين نسي أو تناسى أنَّ الإنسان مهما حاول إخفاء جوهره لا بدَّ أن تنكشف شخصيّته على حقيقتها...

---

(١) صحيفة الإمام: ٢١/٢٥٣-٢٥٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢١/٢٥٥.

(٣) الكافي: ١/١٢٠، ح/١٣٢.

ومنشأ هذه الآفة هو الشُّعور بالنَّقص والذِّلّة الدّاخليّة، أو ما يعبّر عنه علماء النّفس بـ«عقدة الحقارة»[١]؛ ولذلك يحاول المبتلى بها أن يسدّ هذا النّقص بالتّصنّع والتّظاهر بالخصال الحميدة، أو بالأخلاق الرّفيعة، أو بالأعمال الصّالحة علّه يظفر بمراده الكامن في نفسه، والّذي أخفاه عن النّاس، ونسي أنّ الله تعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السَّماء، فقد روى الإمام الصّادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام: **«إنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالى أَنْزَلَ كتاباً منْ كُتُبه على نَبيٍّ منْ أَنْبيائه، وفيه: إنّه سَيَكونُ خَلْقٌ منْ خَلْقي، يَلْحَسون الدُّنْيا بالدّين، يَلْبَسونَ مُسوكَ الضَّأْن على قُلوب كَقُلوب الذِّئاب، أَشَدُّ مَرارةً منَ الصَّبْر، أَلْسنَتُهُمْ أَحْلى منَ الْعَسَل، وَأَعْمالُهُمُ الْباطنَةُ أَنْتَنُ من الْجيَف، أَبي يَغْتَرّونَ؟! أَمْ إيّاي يَخْدَعونَ؟ أَمْ عَلَيَّ يَتَجَبَّرونَ؟ فَبعزَّتي حَلَفْتُ لأَبْعَثَنَّ لَهُمْ فتْنَةً تَطَأُ في خطامها[٢] حَتّى تَبْلُغَ أَطْرافَ الأَرْض، تَتْرُكُ الْحَكيمَ فيها حَيْرانَ»**[٣].

٤- حبّ المدح والإطراء: ولو بصفات لم يتّصف بها، وبأعمال لم ينجزها... إنَّ من خصال هذا الصّنف حبّ المدح حتّى أنّه يحبّ أن يمدح على كلّ عمل يقوم به، بل على عمل لم يعمله بمجرد أن تبرز به شخصيّته، وتلك صفة يهوديّة أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى:

---

(١) «إنَّ عقدة الحقارة في مدرسة التّحليل النّفسيّ الفرويديّ مسألة قابلة للانتباه، فإنَّ المصابين بهذه العقدة، والّذين يحسّون بالحقارة في نفوسهم تظهر فيهم ردود الفعل المختلفة. فما أكثر سكون النّاس، وانزواءهم، وتكبّرهم، وتواضعهم، ونصائحهم، واستدلالاتهم الّتي تنبع من عقدة الحقارة. لكن تظهر بالمظاهر الآنفة الذّكر»، الطّفل بين الوراثة والتّربية للشّيخ محمّد تقي فلسفيّ: ٢٧٢.

(٢) الخطام: الزّمام، وهو ما وضع على أنف الجمل ليُقاد به؛ ينظر: المعجم الوسيط: ٢٤٥، (خطم).

(٣) الحميريّ، قرب الإسناد: ٢٨-٢٩، ح/٩٣.

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[(١)].

والرَّغبة في حبّ المدح والثّناء ناشئ من حبّ النّفس، قال العارف الكبير الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ: «علينا أن ندرك أنَّ منشأ ارتياحنا للمدح والثَّناء، واستيائنا من الانتقاد، ونشر الشّائعات إنّما هو «حبّ النّفس» الّذي تعد من أخطر الشّراك الَّتي ينصبها إبليس اللّعين»[(٢)].

ولهذا منع الإسلام أشدّ المنع من كثرة المدح، أو الفرح به، بل والارتياح إليه، وأمر بحَثّ التّراب في وجوه المدّاحين، فقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**أَحثّوا في وُجوه الْمَدّاحينَ التُّرابَ**»[(٣)]؛ لأنَّه «**منْ أَوْثَق فُرَص الشَّيْطان**»، و«**يُحْدثُ الزَّهْوَ، ويُدْني منَ الْغرَّة**[(٤)]»[(٥)].

وسأل رجلٌ الإمامَ الحسن المجتبى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يعظه، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إيّاكَ أَنْ تَمْدَحَني، فَأَنا أَعْلَمُ بنَفْسي منْكَ**»[(٦)].

وقال الإمام أبو الحسن الثّالث عَلَيْهِ السَّلَامُ لرجل وقد أكثر من إفراط الثَّناء عليه: «**أَقْبلْ على شَأْنك، فَإنَّ كَثْرَةَ الْمَلَق يَهْجمُ عَليَّ الظّنَّةَ، وَإذا حَلَلْتَ منْ أَخيكَ**

---

(١) آل عمران: ١٨٨.

(٢) الإمام الخمينيّ، موعد اللّقاء: ١١٤-١١٥.

(٣) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٥١٢، ح/٧٠٧؛ وترتيب الأمالي: ٥١٧/٧، ح/٤٣٠٥.

(٤) غرّ الرَّجل غرّةً: جهل الأمور وغفل عنها، المعجم الوسيط: ٦٤٨، (غرّ)؛ ورُويَ: «العزّة» بدل «الغرّة».

(٥) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٦٦، ح/١٠٧٢٧-١٠٧٣٣.

(٦) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٢٣٦.

في مَحَلِّ الثِّقَة، فَاعْدلْ عَن الْمَلَق إلى حُسْن النِّيَّة»(١).

وفي بعضَ الرّوَايات نَفى أئمَّة الهدى عليهم السلام حقيقة الولاء ممّن يفرح ويسْتَرّ بمدح المادحين، قال الإمام الباقر عليه السلام في وصيّته لجابر الجعفيّ: «**وَاعْلَمْ بأَنَّكَ لا تكونُ لَنا وَلِيّاً حَتّى لو اجْتَمعَ عَلَيْكَ أَهْلُ مصْرِكَ، وَقالوا: إنَّكَ رَجُلُ سوءٍ لَمْ يَحْزُنْكَ ذلكَ، وَلَوْ قالوا: إنَّكَ رَجُلٌ صالحٌ لَمْ يَسُرَّكَ ذلكَ**»(٢).

وحبّ المدح نابع من حبّ الظّهور والبروز الاجتماعيّ الَّذي يكسب الإنسان شهرة وسمعة واسعة؛ ولذلك ترى طلاب الدُّنيا يُضْفون على أنفسهم وعلى ألسن المتملّقين أسمى الألقاب، وأرفع المراتب سواء كانت حقيقة، أو وهميّةً، وأمّا الصّالحون وأولياء الله المقرّبون فإنَّهم يمقتون ذلك أشدّ المقت، ويفرّون منه فرارهم من الحيّة الرَّقطاء، ويستنكرون على المدّاحين ويوبّخونهم، بل ويخافون ممّا قيل فيهم خشية الوقوع في الاغترار والإعجاب، قال السّيّد الإمام الخمينيّ قدس سره: «إنّ أولئك المادحين يبعدوننا بمدائحهم عن جوار الله، وهم أصدقاء إلا أنّهم يؤذوننا بصداقتهم»(٣).

هكذا يعدّ أولياء الله المدح لهم ضرراً، وأذيّة وعذاباً لأنفسهم، وأدقّ صورة لتلك الحقيقة ما نطق به أمير المؤمنين عليه السلام في صفة المتّقين حيث قال: «**إذا زُكِّيَ أَحَدٌ منْهُمْ خافَ ممّا يُقالُ لَهُ، فيَقولُ: أَنا أَعْلَمُ بنَفْسي منْ غَيْري، وَرَبّي أَعْلَمُ مِنّي بِنَفْسي، اللّهُمَّ، لا تُؤاخذْني بما يَقولونَ، وَاجْعَلْني أَفْضَلَ مِمّا يَظُنّونَ،**

(١) بحار الأنوار: ٢٩٥/٧٣.

(٢) تحف العقول: ٢٨٤؛ وبحار الأنوار: ١٦٢/٧٨-١٦٣.

(٣) موعد اللّقاء: ١١٦.

واغْفرْ لي ما لا يَعْلَمونَ»[١].

٥- مخالفة أعمالهم لأقوالهم ومدّعياتهم: إنَّ طالب الدُّنيا بالدّين كثير الكلام قليل العمل، يقول ما لا يعمل، وهو أصدق مصاديق الّذين يقولون ما لا يفعلون في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٢]، فتراه يتحدّث عن الإسلام وعظمته، ودوره في حياة المجتمع البشريّ، ويبدي حرصه الشَّديد في الحفاظ على مبادئه وأحكامه، ولكنّك تجده أوّل من يخالف أحكامه، ويتجاوز حدوده عندما يتضارب مع مصالحه الذّاتيّة.

٦- التَّبرير لمخالفاته الشّرعيّة: حيث يحاول أن يلبسها ثوباً شرعيّاً، ويدافع عن آرائه ومواقفه بمختلف الأساليب، ويمنحها صيغة فكريّة، «والمعنى السّائد في الفكر التّبريريّ الّذي يحاول التَّغطية على الانحراف، والتّوفيق بين الأوضاع المنحرفة المائعة، وبين الدّين هو «تغيير الرّسالة» وتحريفها؛ لتنسجم مع واقع الانحراف، والانحلال.. ومن خلال الفكر التّبريريّ هذا يغيّر الإنسان الرّسالة السّماويّة، ويحرّفها، بدلاً عن أن يتغيّر بها.. ويشوّهها... وينزل بها إلى واقعه، بدلاً من أن يصعد بها ويتنمّى»[٣].

ولقد رأينا اليوم مسلكاً عجيباً من مسالك هؤلاء خلاصته العمل على إسقاط العاملين للإسلام، والاستهانة بهم، وتوجيه التُّهم إليهم، وإثارة الشّائعات حولهم باسم الدّين والإسلام، وولاية أهل البيت عليهم السلام؛ فإذا ما اعترضه قال: إنّي أرى أن

(١) نهج البلاغة: ٣٣٣، خطبة: ١٩٣.

(٢) الصَّفّ: ٢.

(٣) الشّهيد الشّيخ حسين معن، نظرات في الإعداد الرّوحيّ: ٢٢٢.

هذا واجب شرعيٌّ ملقًى على عاتقي، ورحم الله الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّه حيث قال: «فما أكثر ما يبتعد الإنسان عن الله باسم الله، واسم الخدمة لخلق الله، ويُساق نحو نفسه وآمالها»[(١)].

أرأيْتَ كيف يُسَخِّر طلاب الدُّنيا الشَّرع المقدّس لأهوائهم ونزواتهم وينزلون به إلى مستوى أنفسهم المنحطّة؛ ولهذا ليس من خطورة على الإسلام أكبر من هذا السُّلوك؛ قال العارف الكبير الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّه: «وإنّي قد قلْتُ من قبل أنَّ المتلبّس بلباس العلماء الَّذي لا يكون مهذّباً، ويسير في غير خطّ الإسلام؛ فإنَّه أخطر على الإسلام والجمهوريّة الإسلاميّة من (السّافاكيّ)[(٢)]»[(٣)].

٧- يُحْسن التّملّق والتّسلّق للصّعود إلى المراتب المتقدّمة، والمواقع المهمّة؛ ففي سبيل مصلحته يتلوّن تلوّن الحرباء، ولو على حساب كرامته، فإذا ما وصل إلى تلك المواقع استعملها أسوأ استعمال يضرّ بالإسلام والمسلمين.

٨- والخصلة الجامعة لكلّ الخصال، وهي أسوأها وأحطّها وأقذرها هي سيطرة الأهواء النّفسيّة والغرائز الشّهوانيّة على عقولهم، حتّى يصلوا حدّاً يصبح دينهم تبعاً لدنياهم؛ لأنَّهم اتّخذوا الدّين لعباً ولهواً كما وصف تعالى ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾[(٤)].

---

(١) موعد اللّقاء: ٩١.

(٢) مصطلح فارسيّ كان يطلق على رجال الأمن في زمان شاه إيران.

(٣) موعد اللّقاء: ١٠٥.

(٤) الأنعام: ٧٠.

قال العلامة الطّباطبائيّ قدس سره في تفسير هذه الآية: «عدّ تديّنهم بما يدعوهم إليه هوى أنفسهم لعباً وتلهّياً بدينهم... اتّخذوه لعباً ولهواً يقلّبونه كيف شاءوا من حال إلى حال، ويحوّلونه حسب ما يأمرهم به هوى أنفسهم من صورة إلى صورة»[١].

ولا يقال إنَّ هذه الآية تخص الكافرين فقط، «بل هي تشمل جميع الَّذين يتّخذون من الأحكام الإلهيّة، ومن المقدّسات وسائل للتّلهّي، وملء الفراغ، وبلوغ الأهداف الماديّة الشَّخصية، أولئك الَّذين يجعلون الدّين آلة الدُّنيا، والأحكام الإلهيّة ألعوبة أغراضهم الخاصّة»[٢].

هذه بعض خصال طلاب الدُّنيا بالدّين، وبقي كثير منها، وهي بعدد أهواء الإنسان ونزواته النّفسيّة، فما ذكرناه فيه كفاية فلا نطيل.

عاقِبَةُ طُلابِ الدُّنْيا بِالدّينِ:

لمّا كان هؤلاء قد اتّخذوا دين الله تعالى وسيلة رخيصة لإشباع أهوائهم ونزواتهم، وقنطرة يعبرون بها، ويحاولون تسخير مبادئ السَّماء الخالدة لمصالح قصيرة المدى، وشَرَوْها بثمن بخس، فإنَّهم مهما تلبَّسوا وتستّروا بثياب الدّين لا بدَّ وأن يُكشف مرادهم لدى النّاس، ويفتضح أمرهم، ومن ثَمّ يحترقون ويُرْفَضُون عند جميع من حاولوا نيل إعجابهم، وكسب قلوبهم طلباً للسُّمعة والشُّهرة؛ ولذا قيل: «إنّما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلبت بهما الدّنيا»، وكان يقال: «يا أصحاب العلم، قصوركم قيصريّة، وبيوتكم كسرويّة، وأثوابكم ظاهريّة،

---

(١) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ١٤٢/٧.

(٢) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣١٣/٤.

وأخفافكم جالوتيّة، ومراكبكم قارونيّة، وأوانيكم فرعونيّة[١]، ومآثمكم جاهليّة، ومذاهبكم شيطانيّة، فأين الشّريعة المحمّديّة؟ قال الشّاعر: [من الوافر]

وراعي الشّاة يحمي الذّئب عنها ... فكيف إذا الرّعاة لها ذئاب

وقال الآخر: [من الرّجز]

يا معشر القرّاء، يا ملح البلد ... ما يصلح الملح إذا الملح فسد»[٢]

وكذلك قيل[٣]: [من الرّجز]

يا علماء السّوء، يا ملح البلد ... ما يصلح الزّاد إذا الملح فسد؟!

ونحن إذا تتبّعنا أحاديث أهل بيت العصمة والطهارة صلوات الله عليهم نجد أنَّها تذكر ظواهر تبرز في حياة هؤلاء تؤدّي بهم إلى أسوأ العواقب، نذكر منها ما يأتي:

أ- الحرمان من لذّة المناجاة لله تعالى: لمّا كانت قلوبهم شاردة عن الله تعالى ومشغولة بغيره؛ فإنَّ الله تعالى يسلبهم لذّة مناجاته؛ لأنَّ من اشتغل بشيء، وشغف به، انصرف إليه بكلّه، ولها به عن غيره، ﴿ **مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ** ﴾[٤]، وقد ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام أنَّه قال: «**أَوْحى اللهُ تعالى إلى**

(١) قيصريّة: نسبة إلى قيصر ملك الرّوم، وكسرويّة: نسبة إلى كسرى ملك الفرس، وطالوتيّة: نسبة إلى طالوت، وجالوتيّة: نسبة إلى جالوت، وقارونيّة: نسبة إلى قارون؛ كلّ ذلك كناية عن كثرة التّنعم، والاختلاف والفرقة.

(٢) الغزاليّ، إحياء علوم الدّين: ٦١/١؛ والمحجّة البيضاء: ١٣١/١؛ وينظر: حياة الحيوان الكبرى للدّميري: ٥١٨/١.

(٣) نقض رسالة الحبل الوثيق، السّيّد حسن آل المجدّد الشّيرازيّ، مجلّة تراثنا، العدد المزدوج (٤٣-٤٤): ٨٩.

(٤) الأحزاب: ٤.

داودَ عليه السلام: **إنَّ أَهْوَنَ ما أَنا صانعٌ بعالمٍ غَيْر عاملٍ بعلْمه أَشَدُّ منْ سَبْعين عُقوبَة باطنيَّة أَنْ أُخْرِجَ منْ قلْبه حلاوةَ ذكْري**»(١).

وفي أَخبار داود عليه السلام أَيضاً: «**إنَّ أَدْنى ما أَصْنَعُ بالْعالمِ إذا آثَرَ شَهْوَتَهُ عَلى مَحَبَّتي أَنْ أَحْرِمَهُ لَذيذَ مُناجاتي**»(٢).

وما أجمل ما صوّره لنا ابن مسعود لهذه الحقيقة حين قال: «إذا مالت قلوب العلماء إلى حبّ الدّنيا، وإيثارها على الآخرة، فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة، ويطفئ مصابيح الهدى من قلوبهم، فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنّه يخشى الله بلسانه، والفجور ظاهر في عمله، فما أخصب الألسن يومئذ، وما أجدب القلوب، فوالله الّذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأنَّ المعلّمين علَّموا لغير الله تعالى، والمتعلّمين تعلّموا لغير الله تعالى»(٣).

ب- عدم التّأثير في قلوب عباد الله: لمّا كان طالب الدُّنيا بعمل الآخرة يصدر عن دوافع ذاتيّة يبتغي من ورائها سمعة أو شهرة... فلا يمكن أن يؤثّر كلامه وموعظته في قلوب سامعيه؛ لأنَّ ظاهره لله تعالى، وباطنه للدُّنيا؛ وبذلك تزلّ موعظته عن القلوب؛ فعن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام قال: «**إنَّ الْعالمَ إذا لَمْ يَعْمَلْ بعلْمه زَلَّتْ مَوْعظَتُهُ عَنِ الْقُلوبِ كَما يَزِلُّ الْمَطَرُ عَنِ الصَّفا**»(٤).

ولهذا نرى اليوم كثيراً من الخطباء والبلغاء ممّن يصكّون الإسماع برنين كلماتهم إلا أنَّها لا تتجاوز الآذان إلى القلوب، وبالعكس قد نرى كلمة تصدر من

---

(١) مصباح الشّريعة: ١٤؛ والمحجّة البيضاء: ١٣٥/١.

(٢) الغزاليّ، إحياء علوم الدّين: ٦٠/١؛ والمحجّة البيضاء: ١٣١/١.

(٣) إحياء علوم الدّين: ٦٤/١؛ والمحجّة البيضاء: ١٣٤/١.

(٤) الكافي: ١٠٩/١، ح/١١٣.

إنسان بسيط، طاهر القلب، نقيّ السَّريرة، صادق النّيّة، تؤثّر في النُّفوس تأثيراً بليغاً، وحقّاً ما قيل: «الكلمة الخارجة من القلب تدخل إلى القلب، والكلمة الخارجة من اللّسان لا تتجاوز الآذان».

ج- ومن عواقبهم في الدُّنيا أنَّهم يقعون في فتن تحير عقولهم، وتذهل ألبابهم، وتجعلهم يتخبّطون تخبّطاً عشوائيّاً، وقد تقدّمت الأحاديث عن رسول الله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وعترته أنَّه ستأتي فتنة تذر الحليم والحكيم منهم حيران.

وأمّا عاقبة طلاب الدُّنيا بالدّين في الآخرة، فأمرها أفظع وأشنع وأشدّ، ولا يحيط به تصوّرنا، ولا تصل إليها إدراكاتنا المحدودة، والأحاديث والرّوايات الواردة في ذلك أكثر من أن تحصى؛ نذكر منها:

عن أبي عبد الله عَلَيْهِالسَّلَامُ قال: **«مَنْ أَرادَ الْحَديثَ لِمَنْفَعَةِ الدُّنْيا لَمْ يَكُنْ لَهُ في الآخِرَةِ نَصيبٌ، وَمَنْ أَرادَ به خَيْرَ الآخِرَةِ أَعْطاهُ اللهُ خَيْرَ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ»**[١].

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ عن النّبيّ صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنَّه قال في كلام له: **«الْعُلَماءُ رَجُلان: رَجُلٌ عالِمٌ آخِذٌ بِعِلْمِه فَهذا ناجٍ، وَعالِمٌ تارِكٌ لِعِلْمِه فَهذا هالِكٌ، وَإنَّ أَهْلَ النّارِ لَيَتَأَذّونَ بِريحِ الْعالِمِ التّارِكِ لِعِلْمِه، وَإنَّ أَشَدَّ أَهْلِ النّارِ نَدامَةً وَحَسْرَةً رَجُلٌ دَعا عَبْداً إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَاسْتَجابَ لَهُ، وَقَبِلَ مِنْهُ، وَأَطاعَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ، وَأَدْخَلَ الدّاعِيَ النّارَ بِتَرْكِه عِلْمَهُ، وَاتِّباعِهِ الْهَوى»**[٢].

---

(١) الكافي: ١/١١٣، ح/١١٩.

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ١/٥١.

وُجوبُ التَّحَرُّزِ مِنْ هذِهِ الأَخْطارِ:

ونختم هذا البحث بما قاله العارف بالله تعالى، وأعرف العارفين بخطورة هذا المسلك الإمام الخمينيّ قدّس الله روحه ونوّر ضريحه، قال رحمه الله:

«ويجب على طلاب العلوم الدّينيّة، والسّالكين لهذا السَّبيل المحفوف بالمخاطر، أن يكون أوّل ما يضعونه بعين الاعتبار، إصلاح أنفسهم أثناء الدّراسة، ويقدّموه مهما أمكن على كلّ شيء؛ لأنَّه أوجب كلّ الواجبات العقليّة والفرائض الشّرعيّة وأصعبها.

فيا طلاب العلوم الإسلاميّة، والكمالات والمعارف، استيقظوا من نومكم واعلموا أنَّ الله قد أتمَّ الحجّة عليكم أكثر، وسيحاسبكم أشدّ، ويكون ميزان أعمالكم وعلومكم مغايراً كلّيّاً لميزان كافّة العباد، وصراطكم أرقّ وأدقّ، ومحاسبة الله لكم أعظم»[1].

---

(١) الأربعون حديثاً: ٣٤٧.

أنموذجان متلبّسان بالدّين

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[1].

تعرض لنا هاتان الآيتان صورة دقيقة، ومعبّرة عن أنموذجين متلبّسين بدين الله، وكلّ منهما يدّعي الإيمان، والصّلاح، إلا أنّ الأوّل يتناقض ظاهره مع باطنه، ويخفي خلفه مآرباً، وأهدافاً دنيئة، فهو يظهر بمظهر المخلص، الطّيّب، التّقيّ الصّادق، النّظيف، ويقدّم شخصه للآخرين بكلمات معسولة، وأسلوب ناعم، ومواثيق مؤكّدة «يحاول من خلالها أن يوحي للنّاس بأنّه يحمل في قلبه كلّ النّوايا الخالصة، والأفكار الخيّرة الّتي تبني للنّاس حياتهم، وتوجّهها إلى الطّريق الحقّ والسّعادة الكبيرة... ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ بالإيمان المغلّظة، والتّأكيدات الحاسمة؛ ليخضع النّاس له من باب قداسة الشّهادة، وعظمة الميثاق»[2].

---

(١) البقرة: ٢٠٤-٢٠٧.

(٢) السّيّد محمّد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن: ١٦٦/٢-١٦٧.

قال ﷺ: «**إنّي لا أتخوَّفُ على أُمَّتي مُؤْمناً، ولا مُشْركاً؛ فأَمّا الْمُؤْمنُ، فيَحْجزهُ إيمانُهُ؛ وأَمّا الْمُشْرِكُ، فيقْمعه كُفْره، ولكنْ أتخوَّفُ عَلَيْكُمْ مُنافقاً عَليمَ اللِّسان، يَقولُ ما تَعْرفون، ويَعْمَلُ ما تُنْكرونَ**»(١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**قَطَعَ ظَهْري رَجُلان من الدُّنْيا، رَجُلٌ عَليمُ اللِّسان فاسقٌ، ورَجُلٌ جاهلُ الْقَلْبِ ناسكٌ، هذا يَصُدُّ بلسانه عَنْ فسْقه، وَهذا بنُسْكه عَنْ جَهْله، فاتَّقوا الْفاسقَ من الْعلَماء، والْجاهلَ من الْمُتَعبِّدين، أولئكَ فتْنَةُ كُلِّ مَفْتون فإنّي سَمعْتُ رَسولَ الله ﷺ يَقولُ: يا عَليُّ، هَلاكُ أُمَّتي عَلى يَدَي [كُلِّ] مُنافقٍ عَليمِ اللِّسان**»(٢).

ومن خلال هذه الأحاديث المستفيضة يتبيّن لنا خطورة هذا الأنموذج على الإسلام والمسلمين فهو ضالٌّ مضلٌّ؛ لأنَّه مفسد يظهر بمظهر المصلح يدسّ السّمّ في العسل، ولمّا كان تميّز هذا النَّوع، وكشفه صعب مستصعب على كثير من النّاس يتعالى خطره ويزداد، والأخطر من هذا أنَّ هذا الأنموذج لا يُكْشَف إلا بعد تنفيذ مآربه، فيهلك الحرث والنَّسل، وينشر بذور الفساد، وقد يبقى بعض النّاس مؤيّداً له من دون علم ولا معرفة.

تلك هي صورته الظّاهريّة، وأخطاره المدمّرة، أمّا إذا تحرّك فهو ﴿**أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ**﴾ «أي شديد الجدال والعداوة للمسلمين وللحقّ؛ ذلك هو واقعه في منطلقاته الفكريّة والرّوحيّة الّذي لن يتعرّف النّاس عليه إلا من خلال التَّجربة المُرّة الّتي تُظهر كلّ ما يحمله من المعاني السّيّئة الشّريرة الّتي تختبئ خلف قناع

---

(١) الشّهيد الثّاني، منية المريد: ١٣٦-١٣٧.

(٢) الشَّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٦٩/١.

الوجه الذي يمثّل الصّدق والوداعة، أو الكلمة الَّتي تمثّل الحقّ والبراءة؛ ليتوصّل من خلال ذلك إلى ما يريده من جاه ومال وشهوة، حتّى إذا استقام له الأمر، وانفصل عن جوّ التَّمثيل، انطلق بعيداً عن كلٍّ ما كان يقوله، ويؤكّده، ويظهر به، ليتحرّك في الأجواء الحاقدة الطّاغية الباغية الّتي يهلك فيها الحرث والنَّسل... بما يثيره في المجتمع من المشاكل والمنازعات والوسائل المدمّرة الَّتي تحطّم كلّ ما في الحياة من ثروة، ومن بشر... وينطلق في المجالات الَّتي تفسد واقع النّاس الأخلاقيّ والسّياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، ويمتدّ في طغيانه بعيداً عن رضا الله ومحبّته»(١).

ثمَّ يستمرّ القرآن في بيان مواقف هذا الأنموذج عندما تنكشف مخادعاته وأحابيله، ويتوجّه إليه الآخرون بالنَّقد أو النّصيحة؛ ليبيّنوا له خطأ منهجه، أو يعظوه، ويُذَكّروه برقابة الله، ليرجع إلى منهج التَّقوى، ثار في وجوههم، وكشّر عن أنيابه، وأخذته العزّة بالإثم اعتزازاً بمواقفه، فلا يسمع لنصيحة، ولا يأخذ بموعظة، بل يتمادى في طغيانه، ويستعلي ويستكبر، ويوجّه التُّهم للآخرين، ويحاول أن يبرّر أفاعيله، ويخرج خططه بأساليب مقبولة حتّى يوحي للآخرين أنَّه فوق النَّقد والشُّبهات؛ لأنّه الصّالح المصلح!! يريد أن يصلح الآخرين، فلا حقَّ لأحد بنقده أو نصحه أو وعظه... وبعد كلّ هذا ما هي النَّتيجة الَّتي ينتهي إليها، إنَّها جهنّم وبئس المهاد، الَّتي أسَّسها بنفسه ومهَّد لها بفعله.

واختلف المفسّرون في كلمة ﴿تَوَلَّىٰ﴾، فقال بعضهم: إنَّها الإعراض والإدبار في مقابل إقباله على النّاس لكلامه المعسول، وقال بعضهم: إنَّها الولاية،

---

(١) تفسير من وحي القرآن: ١٦٧/٢.

وقال بعضهم: أي إذا كان والياً أو حاكماً فعل ما يفعله ولاة السّوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنّسل؛ هذا هو الأنموذج الأوّل.

أمّا الأنموذج الثّاني، فهو على العكس من ذلك هو الَّذي نذر نفسه لله تعالى، وسخّر كلّ طاقاته، وإمكاناته الفكريّة، والأخلاقيّة، والسّياسيّة؛ لابتغاء مرضاة الله تعالى، فهو يشعر بأنَّ نفسه الَّتي بين جنبيه لم تكن ملكاً له يتصرّف بها حيث يشاء، وإنَّما هي ملك لله، فلا حريّة له في التّصرّف كما يشاء، وإنَّما يتصرّف بها كما أراد الله في تشريعه بالالتزام به، وتطبيقه على نفسه، والدَّعوة إليه، والتَّخطيط لتحكيمه في الوسط الاجتماعيّ، ينطلق في ذلك كلّه من خلال الشُّعور بالمسؤوليّة أمام الله وَجلاً قلبه شاعراً بالتَّقصير والقصور مهما قدَّم، ومهما بذل؛ ولذلك تراه في وقته كلّه يعيش الهم الرّساليّ، فلا يُضيع لحظة من عمره من دون أن يعطي للحقّ شيئاً من حياته، فإذا ما قصّر أكل النَّدم قلبه، وراح يستغفر الله تعالى على تقصيره.

وخلاصة الكلام: إنَّ الأنموذج الثّاني يعيش لله في كلّ حركة من حركاته وسكنة من سكناته، ويحمل رسالته في الخط المستقيم، فلا ينحني أمام محاولات الإغراء، ولا يستسلم لكلّ عوامل الضَّغط، بل يظلّ ثابتاً مستقيماً على شريعة الله مهما كلَّفه ذلك غالياً، فحياته: عطاء، وتضحية، وفداء، وصبر، ومواصلة لا توقفه اعتراضات الآخرين، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وممّا لا شكَّ فيه أنَّ هؤلاء تُفتح بهم كنوز رحمة الله، فتغمرهم رأفة الله تعالى، ويجزل لهم الثَّواب في دار رحمة الله تعالى.

وجاء في أسباب نزول هذه الآيات أنَّها نزلت في الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام حين بات في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة الهجرة، قال الحاكم الحسكانيّ:

«لمّا أُسري بالنّبيّ ﷺ يريد الغار بات عليّ بن أبي طالب على فراش رسول الله ﷺ، فأوحى الله إلى جبرئيل وميكائيل: **إنّي قدْ آخيْتُ بيْنكُما، وجعلْتُ عُمْرَ أَحَدِكُما أَطْوَلَ منَ الآخَر، وأَيُّكُما يُؤْثِرُ صاحبَهُ بالْحَياة؟** فكلاهما اختاراها، وأحبّا الحياة، فأوحى الله إليهما: **أَفَلا كُنْتُما مثْلَ عَلَيِّ بْنِ أَبي طالب، آخَيْتُ بَيْنَهُ وبَيْنَ نَبيّي مُحَمَّد، فَباتَ عَلى فِراشه يَقيه بنَفْسه، اهْبِطا إلى الأَرْضِ، فَاحْفَظاهُ منْ عَدُوِّه**، فكان جبرئيل عند رأسه، وميكائيل عند رجليه، وجبرئيل ينادي: **بَخٍ بَخٍ، مَنْ مِثْلُكَ يا ابْنَ أَبي طالبٍ؟ اللهُ عزَّ وَجَلَّ يُباهي بِكَ الْمَلائكَةَ!** فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ** ﴾[1]»[2].

مِنْ وَحْيِ الآيَتَيْنِ:

استوحى المفسّر الكبير آية الله العظمى السّيّد محمّد حسين فضل الله ﵀، من الآيتين دروساً عدّة نذكرها، وهي:

«أ- أن نتعلّم كيف نمنح الآخرين الثّقة والتّأييد والدّعم من خلال المواقف، لا من خلال الكلمات والمظاهر؛ لأنَّ الكلمات قد تخدع، والمظاهر قد تغشّ، ولكنّ المواقف الّتي تتحرّك من خلال التّجربة المريرة الصّعبة لا تنطلق إلا من قاعدة الحق والإخلاص...

---

(١) البقرة: ٢٠٧.

(٢) الحاكم الحسكانيّ، شواهد التّنزيل لقواعد التّفضيل: ١/١٤٥-١٤٦، ح/١٣٤؛ وينظر: التّفسير الكبير للفخر الرّازيّ: ٥/٢٢١؛ والفصول المهمّة في معرفة الأئمّة لابن الصّبّاغ: ١/٢٩٤-٢٩٥.

ب- إنَّ علينا أن نلاحق هذين النَّموذجين في حركة الواقع، من أجل أن نتابع الأوّل بالرَّفض والمواجهة؛ من أجل إزاحته من واجهة الصّورة في الحياة؛ لتخليص النّاس من فساده، وبغيه، وطغيانه، واستكباره...

ج- أن نتمثّل في وعينا المبادئ السّلبيّة من الإفساد في الأرض، وإهلاك الحرث والنَّسل؛ لنجعل منها أساساً للتّعامل السّلبيّ مع كلّ البرامج السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والعسكريّة والإعلاميّة؛ لنجابهها في ما نملكه من مواقع المجابهة، كما نتمثّل المبادئ الإيجابيّة الَّتي تتلخَّص في أن يبيع الإنسان نفسه لله ابتغاء مرضاته، لنؤكّد الخطّ الإيجابيّ في الحياة السّائر على هذا النَّهج في عمليّة تقوية وتأييد وتنمية، مهما كانت الصُّعوبات الَّتي تتحدّانا، والمشاكل الَّتي تحتوينا، فإنَّ ذلك هو الَّذي يحقّق لنا معنى الالتقاء برضا الله في ما يحبه، والابتعاد عن سخطه فيما يكرهه؛ حتّى نفهم من معنى الحبّ وعدم الحبّ، الجانب العمليّ الإيجابيّ والسّلبيّ من خطّ العمل، لا الجانب الوجدانيّ الدّاخليّ الَّذي لا يلتقي إلا بالعاطفة الذّاتيّة الواقعة في خطّ الانفعال»[1].

(١) تفسير من وحي القرآن: ٢/١٧١-١٧٢.

الَّذي انسَلَخَ مِنْ آياتِ اللهِ

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

إنَّ الأمر في هاتين الآيتين تكرَّر مرَّتين في أوّلهما، وفي ختامهما، والأمر يفيد الوجوب، ولعلَّ السرّ في التّأكيد: ﴿ وَاتْلُ ﴾، ﴿ فَاقْصُصِ ﴾ أنَّ هذا النَّبأ يعبر عن أمر خطير له دور مهمٌّ في حياة المجتمع البشريّ، وإلا ما معنى أن يأمر الله نبيّه ﷺ أن يتلو هذا الخبر بتلك الصّورة الإلزاميّة؟

إذن لا ريب ولا شكَّ في أهمّيّة هذا النّبأ، وأنَّ الله خاطب به النّبيّ ﷺ؛ ليحذّر النّاس من الوقوع في شباك من اتّخذ العلم والدّين وسيلة للدّنيا، ولئلا ينخدعوا بهم، وليتفكّروا في عاقبة من استهوتهم الشّهوات؛ ولا يسقطوا كما سقط غيرهم في بؤرة الهوى، فما هذا الخبر إذن؟

اختلف المفسّرون في اسم صاحب هذه القصّة، وهي قصة واقعيّة مرَّت في غابر الزّمن، فقيل: هو (بلعم بن باعوراء) في عصر موسى عليه السلام، وقيل: هو أميّة بن أبي صلت، وقيل: هو عامر الرّاهب الَّذي لقَّبه رسول الله ﷺ بالفاسق، وعلى كل

---

(١) الأعراف: ١٧٥-١٧٦.

حال فـ«**الأَصْلُ في ذلكَ بَلْعَمُ، ثُمَّ ضَرَبَهُ اللهُ مَثَلاً لكُلِّ مُؤْثِرٍ هَواهُ عَلى هُدى اللهِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَة**»[١] كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام، وهو بعد ذلك «كمثل للانحراف عن سواء الفطرة، ونقض لعهد الله المأخوذ عليها، ونكوص عن آيات الله بعد رؤيتها، والعلم بها.. ذلك الَّذي أتاه الله آياته، فكانت في متناول نظره وفكره، ولكنّه انسلخ منها، وتعرّى عنها، ولصق بالأرض، واتّبع الهوى، فلم يستمسك بالميثاق الأوّل، ولا بالآيات الهادية، فاستولى عليه الشَّيطان، وأمسى مطروداً من حمى الله، لا يهدأ ولا يطمئنّ، ولا يسكن إلى قرار»[٢].

فمقدار ما نعرفه من قصّة هذا النّبأ أنّه يحكي لنا قصّة رجل آتاه الله علماً وبراهين على توحيده تعالى، ودلالات ترشد إلى سبيل الله تعالى، وهي علائم وآثار تهدي إلى الرّشد، وقد فهمها حتّى صار بها عالماً معروفاً بين النّاس، ولكنَّ هذا الرّجل بعد أن تلبَّس بآيات الله، وتَحَمّل مسؤوليّاتها أراد أن يستعملها كآلة لخدمة مصالحه الدّنيويّة، وإشباع شهواته، ونزواته الحيوانيّة، في الوقت الَّذي أراد الله تعالى له أن يتحرّر بالمعرفة والعلم من قيود الأهواء مادّيّة أو معنويّة، ويرتفع به على الشّهوات الحيوانيّة، فخالف إرادة الله تعالى، وتعدّى حدوده؛ ولذا تصف الآية الكريمة عمليّة خروجه بـ(الانسلاخ)، وهي كلمة توحي بأنّه كان متلبّساً بها، وهي ساترة وحافظة له من كيد الشَّيطان، وتُصَوّر حالة الجهد والمشقّة الَّتي عاناها عندما خرج منها، وأصبح عارياً لم يحصّنه من الشَّيطان شيء، وعمليّة الخروج هذه لا تعني أنَّه نسي ما تعلّمه إلا أنَّها تفيد أنَّه خرج عن ما يفرضه العلم عليه، فعلمه

(١) الشّيخ الطَّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٦٩/٤.

(٢) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٦٧٦/٣.

شيء، وعمله شيء آخر، فكره يناقض سلوكه، فهو لم يطبّق ما أراد الله منه عندما آتاه هذا العلم، فهو عالم، ولكنّه ضالٌّ غاوٍ مضلّ، حتّى أصبح علمه هذا مُبعداً له عن الله تعالى ورد في الحديث الشَّريف: «**مَنِ ازْدادَ عِلْماً، ولَمْ يَزْدَدْ هُدًى، لَمْ يَزْدَدْ منَ الله إلا بُعْداً**»(١).

وعَنْ عَلَيّ بْن هاشم بْن الْبَرِيد، عَنْ أَبيه، قالَ: «**جاءَ رَجُلٌ إلى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْن** عليه السلام، **فَسَأَلَهُ عَنْ مَسائل، فَأَجاب، ثُمَّ عادَ لِيَسْأَلَ عَنْ مِثْلِها، فَقالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْن** عليه السلام: **مَكْتوبٌ في الإِنْجيل: لا تَطْلُبوا عِلْمَ ما لا تَعْلَمونَ، ولَمّا تَعْمَلوا بما عَلِمْتُمْ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ إِذا لَمْ يُعْمَلْ بِه لَمْ يَزْدَدْ صاحِبُهُ إلا كُفْراً، ولَمْ يَزْدَدْ منَ الله إلا بُعْداً**»(٢).

قال السّيّد الإمام الخمينيّ قدس سره: «وكذلك رأينا في طلاب العلوم النّقليّة الشّرعيّة أفراداً أثّر فيهم العلمُ الأثر السّيّئ، وزاد في المفاسد الأخلاقيّة لهم، والعلم الّذي لا بدَّ أن يكون موجباً للفلاح والنّجاح لهم صار سبباً لهلاكهم، ودعاهم إلى الجهل والمماراة والاستطالة»(٣).

فَسَبَبَ بُعْده من الله أنّه أراد باسم العلم وشرفه أن ينال الدُّنيا، ويصعد على رقاب النّاس به، فلم يرد بعلمه وجه ربّه، ولكنّه أراد الرّفعة والسّمعة والشُّهرة.

وقد حذّر أئمّة الهدى عليهم السلام من أمثال هؤلاء العلماء؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام: «**إذا رَأَيْتُمُ الْعالِمَ مُحِبّاً لِلدُّنْيا، فَاتَّهِموهُ عَلى دينِكُمْ، فَإِنَّ كُلَّ مُحِبٍّ يَحُوطُ**

---

(١) ورّام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر: ١/٥٤٠، ح/١٣٦٢.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١/١٠٩-١١٠، ح/١١٤.

(٣) الإمام الخمينيّ، الآداب المعنويّة للصّلاة: ٥٤.

بما أَحَبَّ»(١).

وقال روح الله عيسى عليه السلام: «**الدّينارُ داءُ الدّين، والْعالمُ طَبيبُ الدّين، فَإذا رَأَيْتُمُ الطَّبيبَ يَجُرُّ الدّاءَ إلى نَفْسه فاتَّهموهُ، واعْلَموا أنَّهُ غَيْرُ ناصحٍ لغَيْره**»(٢).

والسّرُّ في هذا التَّحذير أنَّ الضّالّ غير العالم لا يضلّ إلا نفسه، وأمّا العالم الضّالّ فهو يضلّ النّاس معه؛ ولذلك نجد أمير المؤمنين عليه السلام شكى من صنفين من النّاس: العالم الفاجر، والجاهل المتنسّك، قال عليه السلام: «**قَطَعَ ظَهْري رَجُلان من الدُّنْيا: رَجُلٌ عَليمُ اللِّسان فاسقٌ، وَرَجُلٌ جاهلُ الْقَلْب ناسكٌ، هذا يَصُدُّ بلسانه عَنْ فسْقه، وَهذا بنُسْكه عَنْ جَهْله، فَاتَّقوا الْفاسقَ منَ الْعُلَماء، وَالْجاهلَ منَ الْمُتَعَبِّدينَ، أولئكَ فتْنَةُ كُلِّ مَفْتون، فَإنّي سَمعْتُ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله يَقولُ: يا عَليُّ، هَلاكُ أُمَّتي عَلى يَدَيَّ [كُلِّ] مُنافقٍ عَليم اللِّسان**»(٣).

ثمّ ما الّذي حدث بعد انسلاخه من آيات الله، وخروجه عنها؟ إنّه وقع فريسة بيد إبليس يعبث به كيف يشاء، ولم يستطع أن يفلت من شباكه إلى أن أصبح من الغاوين الضّالّين المُضلّين، وهذا هو مصير كلّ إنسان يخرج عن حدود الله، فإنّه يقع لا محال في مستنقع مكائد إبليس، ويصبح آلة بيده يتصرّف به كيف يشاء.

ثمّ تبيّن الآية سبب عدم رفعه وخلاصه ممّا وقع فيه، وهما أمران اختارهما بنفسه:

---

(١) الشّيخ الصّدوق، علل الشّرائع: ٥٣٤/٢.

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ١١٣/١.

(٣) المصدر نفسه: ٦٩/١.

الأَوَّلُ: الإِخْلادُ إِلى الدُّنْيا:

الإخلاد هو ركون الإنسان إلى الدُّنيا، والإقبال على زخارفها بكلّه، والرّضا بها، والانغماس بلهوها ولعبها، والاطمئنان بها، والغفلة عمّا وراءها حتّى تصبح قطب الرّحى في حياته ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴾(١).

وهو تعبير مجازيٌّ يصوّر حالة الانشداد النَّفسيّ للدُّنيا حيث استقطب كلّ مشاعر الإنسان، وأحاسيسه، وتصوّراته، وحركاته حتّى تصبح همّه الأوّل والآخر الَّذي يشغله على مدار السّاعة، ولا شكَّ أنَّ هذه الحالة تؤدّي بالإنسان إلى نسيان ربّه حتّى ينسى نفسه، ويقع في بؤرة الغرور، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَيُّها النّاسُ، إِنَّ الدنّْيا تَغُرُّ الْمُؤَمِّلَ لَها، والْمُخْلدَ إِلَيْها**»(٢).

فالإخلاد إلى الأرض، والالتصاق بترابها يمنع الإنسان أن يرتفع إلى نور السَّماء؛ ولذا ورد في الأثر أنَّ الله أوحى إلى الدّنيا: «**اخْدُمي مَنْ خَدَمَني، وأَتْعبي مَنْ خَدَمَك**»(٣)؛ فالإنسان لا يمكن أن تسمو روحه، وتتوسّع آفاقه النّفسيّة والفكريّة ما لم يتحرّر من ثقل المادّة، وأوضار الطّين، فالدُّنيا وسيلة لغاية، فإذا تحوَّلت إلى غاية لذاتها، فلا يستطيع أن يبصر ما وراءها؛ ولذا عبَّر أمير المؤمنين عليه السلام عن المخلّد إليها بالأعمى، إذ قال: «**وَإِنَّما الدنُّيا مُنْتَهى بَصَرِ الأَعْمى، لا يُبْصِرُ ممّا وَراءَها شَيْئاً**»(٤).

(١) يونس: ٧.

(٢) نهج البلاغة: ٢٨٨، خطبة: ١٧٨.

(٣) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٣٦٣/٤، ح/٥٧٦٢.

(٤) نهج البلاغة: ٢٢٢، خطبة: ١٣٣.

ومن الأوصاف الرّائعة الَّتي وصف بها أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة حيث قال: «**وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ**»(١).

قال الشّريف الرَّضيّ رحمه الله معلّقاً على هذه العبارة: «وإذا تأمَّل المتأمّل قوله عليه السلام: «**مَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ**»، وجد تحته من المعنى العجيب، والغرض البعيد ما لا تبلغ غايته، ولا يدرك غوره، لا سيّما إذا قُرِنَ إليه قوله: «**وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ**»؛ فإنَّه يجد الفرق بين «أبصر بها»، و«أبصر إليها» واضحاً نيّراً عجيباً باهراً»(٢).

وهذه هي علّة عدم رفعه بعلمه؛ لأنَّه أبصر إلى الدُّنيا فأعمته، ولم يبصر بها لتُبَصِّرَه في سرّ وجودها، وعلّة إيجادها، وما يجب عليه فيها، وهل وجوده وسيلة أم غاية؟ ومثال هذا كمن يحدّق في قرص الشَّمس في رائعة النّهار؛ فإنّه لا يستطيع أن يبصر سواها، ولسطوع نورها تفقده توازنه، فيفقد بصيرته لانقطاعه إليها، فلا يرى ما وراءها، فتستحوذ عليه حتّى تنسيه خالقها، وهذا عكس من يدير ظهره لها، ويستضيء بنورها فإنَّها تضيء له الطَّريق، ويتمتّع بخيراتها ويتّخذها وسيلة إلى حياة الخلود والبقاء والسَّعادة في العيش في دار رحمة الله تعالى، وهكذا يستثمرها ويعبرها بسلام وأمان وإيمان.

ثانياً: اتِّباعُ الْهَوى:

ومعناه: «ميل النَّفس إلى الشَّهوة، ويقال ذلك للنّفس المائلة إلى الشَّهوة، وقيل: سُمّي بذلك؛ لأنَّه يهوى بصاحبه في الدُّنيا إلى كلّ داهية، وفي الآخرة إلى

(١) نهج البلاغة: ١٢٨، خطبة: ٨١

(٢) المصدر نفسه.

الهاوية، والهُوِيُّ سقوط من علو إلى سفل»[١].

فالهوى إذن عبارة عن مجموعة قيود داخليّة تشدّ الإنسان إلى الأرض، وتمنعه عن الرّقيّ والسّموّ والقرب من معارج الكمال، والتّخلّص من هذه القيود أمر يحتاج إلى جهد كبير، وصبر عظيم، وأصعب من مقاومة الأهواء المادّيّة مواجهة الأهواء المعنويّة الّتي غالباً ما يبتلي بها العلماء، من هنا جعل الله تعالى مخالفة الهوى أساس فوز الإنسان في يوم القيامة، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[٢]؛ ولذا جاءت تعاليم الكتاب والسّنّة صريحة في بيان مخاطر الهوى على الإنسان، ومن تلك المخاطر:

١- إنّ اتّباع الهوى يضلّ الإنسان، ويصدّه عن سبيل الحقّ، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[٣]، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: **«أَيُّها النّاسُ، إنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتان: اتِّباعُ الْهَوى، وَطولُ الأَمَلِ، فَأَمّا اتِّباعُ الْهَوى، فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمّا طولُ الأَمَلِ فَيُنْسي الآخِرَةَ»**[٤].

«فإذا اجتمعت العلّتان في المرء، فصدّه الهوى عن اتّباع الحقّ، ونسي الآخرة لطول أمله، لم يؤمّل فيه خير، ولم يرجَ له صلاح»[٥].

(١) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٧١٧، (هوى).

(٢) النّازعات: ٤٠.

(٣) ص: ٢٦.

(٤) نهج البلاغة: ١٠١-١٠٢، خطبة: ٤٢.

(٥) الشّيخ محمّد أمين زين الدّين، كلمة التقوى: ٣٣١/٢.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «**احْذَروا أَهْواءَكُمْ كما تَحْذَرونَ أَعْداءَكُمْ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْدى لِلرِّجالِ مِنِ اتِّباعِ أَهْوائِهِمْ، وَحَصائِدِ أَلْسِنَتِهِمْ**»[١].

٢- إنَّ اتّباع الهوى يحوّل العابد من عابد لله إلى عابد لهواه، يقول تعالى: ﴿ **أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا** ﴾[٢]، و«إنّما سمّي الهوى إلهاً من حيث أنَّ العاصي يتّبع هواه، ويرتكب ما يدعوه إليه، ولم يرد أنَّه يعبد هواه، أو يعتقد أنَّه يحقّ له العبادة؛ لأنَّ ذلك لا يعتقده أحد»[٣].

فمتّبع هواه يتحوّل من عبادة الله إلى عبادة ذاته من حيث لا يشعر، «والإله هو الّذي يعبده الإنسان، يعني يطيعه في أوامره ونواهيه، ويجعل غاية حركاته وسكناته الّتي يسمّيها عبادة رضاه، ولمّا كان الإنسان ما لم يصر بالنّسبة إلى الله والشّيطان كالمدارك بالنّسبة إلى النّفس ذا وجهين وجه إلى نفسه، ووجه إلى عقله، ووجهه النّفسانيّ يأمره بمهويّات النّفس الّتي فيها هلاكه وضلاله، ووجهه العقلانيّ يأمره بمرضيّات العقل الّتي هي مرضيّات الله ومأموراته، وبعبارة أخرى: ما لم يخرج الإنسان من حكم نفسه، ولم يتمكّن في اتّباع الرَّحمن أو الشَّيطان كان عليه حاكمان: حاكم إلهيٌّ عقلانيٌّ، وحاكم شيطانيٌّ نفسانيٌّ هذا يزجره، وذاك يغويه، فإذا اتّبع الشّيطان في إغوائه، والنَّفس في هواها وإراداتها ومهويّاتها، تدرّج في المحكوميّة للشَّيطان والنَّفس بحيث تمكّن في ذلك، ولم يبقَ فيه مدخل، ومخرج للعقل والملك والرّحمن، ولا يقبل حكم الله بتوسّط الملك والعقل، ولا يحبّ مرضيّات العقل، ولا يطلبها، بل يطيع الشَّيطان في أمره بطلب المهويّات،

---

(١) الكافي: ٣٤/٤، ح/٢٦٧٦.

(٢) الفرقان: ٤٣.

(٣) الشّيخ الطّوسي، التّبيان في تفسير القرآن: ٢٥٩/٩.

والمهويّات في جذبها الّذي هو أمرها التّكوينيّ، والإرادات في تسخيرها له الّذي هو أمرها، فيكون الشَّيطان معبوداً له أوّلاً كما قال تعالى حكاية لقول الملائكة: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[1]، لكن من حيث لا يشعرون، بل يحسبون أنَّ الله يعبدون، ثمّ المهويّات ثانياً، ثمّ الأهوية والإرادات ثالثاً»[2].

٣- اتّباع الهوى يخرج الإنسان من ولاية الله إلى ولاية الشَّيطان، أي يرفع الله عنه أستاره وحمايته، ويخلّي بينه وبين الشَّيطان، فيتولّى الشَّيطان أمره، ويقوده إلى كلّ مهلكة، فلا ينصره الله عزَّ وجلّ، وبذلك يصبح مَلْعَباً للشَّيطان، يعبث به كما يشاء يقول تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[3].

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾[4].

٤- ولمّا كانت الأهواء لا تخضع لضوابط قانونيّة، أو التزامات أخلاقيّة، أو أحكام شرعيّة؛ لاختلافها، وتعدّدها، وتضاربها، وتصارعها، وميلها إلى الشّرّ والفساد؛ لذلك لا يمكن للحقّ - سواء قلنا إنَّ الحقّ هو الله، أو الإسلام على مختلف التّفاسير - أن يتّبعها أو يتوافق معها أو يرضى بها؛ لأنَّ ذلك يفسد الأرض والسّماء ومن فيهنّ، يقول تعالى:

---

(١) سبأ: ٤١.

(٢) الحاج سلطان محمد الجنابذيّ، تفسير بيان السَّعادة: ١٤٢/٣.

(٣) البقرة: ١٢٠.

(٤) الرّعد: ٣٧.

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾(١).

وإنَّما يفسد الهوى كلّ ذلك؛ لأنَّ أكثر النّاس يصبحون للحقّ كارهين، إضافة إلى تعارض الأهواء وتكاثرها بعدد بني آدم، فلكلّ إنسان أهواء ورغبات وشهوات تختلف عن الآخرين، وعند الاختلاف يقع النّزاع والصّراع فيما بينهم، فيتغلّب القويّ على الضّعيف ويظلمه، وبذلك يخرج عن حدود العقل والشَّرع، ويعمّ الفساد، ولا يتوقّف عند حدّ، ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٢).

ولذا وضع الله دستور السَّماء؛ ليكون موجّهاً وحاكماً على الأهواء والرّغبات؛ ليضعها على جادّة الصَّواب والنّجاة، وقد أبدع العلامة الطّباطبائيّ قدس سره في بيان تلك الحقيقة بأروع بيان وأدقّه قائلاً: «وبتقرير آخر أدقّ وأوفق لما يعطيه القرآن من حقيقة الدّين القيّم أنَّ الإنسان حقيقة كونيّة مرتبطة في وجودها بالكون العامّ، وله في نوعيّته غاية هي سعادته، وقد خطّ له طريق إلى سعادته وكماله، ينالها بطيّ الطَّريق المنصوب إليها، نظير غيره من الأنواع الموجودة، وقد جهَّزه الكون العام وخلقته الخاصّة به من القوى والآلات بما يناسب سعادته، والطَّريق المنصوب إليها، وهي الاعتقاد والعمل اللّذان ينتهيان به إلى سعادته.

فالطريق الَّتي تنتهي بالإنسان إلى سعادته أعني الاعتقادات والأعمال الخاصّة المتوسّطة بينه وبين سعادته، وهي الَّتي تسمّى الدّين، وسنّة الحياة متعيّنة

---

(١) المؤمنون: ٧١.

(٢) الرّوم: ٤١.

حسب اقتضاء النّظام العامّ الكونيّ، والنّظام الخاصّ الإنسانيّ الَّذي نسمّيه الفطرة وتابعة لذلك، وهذا هو الَّذي يشير تعالى إليه بقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

فسنّة الحياة الَّتي تنتهي بسالكها إلى السَّعادة الإنسانيّة طريقة متعيّنة يقتضيها النّظام بالحقّ، وتكشف عنها تجهيزات وجوده بالحقّ، وهذا الحقُّ هو القوانين الثّابتة غير المتغيّرة الَّتي تحكم في النّظام الكونيّ الَّذي أحد أجزائه النّظام الإنسانيّ، وتدبّره وتسوقه إلى غاياته، وهو الَّذي قضى به الله سبحانه، فكان حتماً مقضيّاً.

فلو اتّبع الحقُّ أهواءهم، فاقتضى لهم من الشّرع ما تجازف به أهواؤهم لم يكن ذلك إلا بتغيّر أجزاء الكون عمّا هي عليه، وتبدّل العلل والأسباب غيرها، وتغيّر الرّوابط المنتظمة إلى روابط جزافيّة مختلّة متدافعة توافق مقتضياتها مجازفات أهوائهم، وفي ذلك فساد السَّماوات والأرض، ومن فيهنّ في أنفسها، والتَّدبير الجاري فيها؛ لأنَّ كينونتها وتدبيرها مختلطان غير متمايزين، والخلق والأمر متّصلان غير منفصلين. وهذا هو الَّذي يشير إليه قوله: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ ﴾[2]»[3].

ولذا رأينا صاحب هذا النّبأ العجيب الخطير خرج من ولاية الله إلى ولاية الشَّيطان، فأصبح هائماً على وجهه كالكلب المسعور، إن تحمل عليه يلهث، وإن

---

(١) الرّوم: ٣٠.

(٢) المؤمنون: ٧١.

(٣) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ١٥/٤٦-٤٧.

تتركه يلهث، وهكذا كلُّ إنسان تصبح الدُّنيا غايته وهواه؛ فإنَّه لا يرى الرّاحة ولا يستقرّ له قرار أبداً، يصف هذه الحالة الإمام الصّادق عليه السلام بقوله: «**مَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بالدُّنْيا تَعَلَّقَ قَلْبُه بِثَلاثِ خِصالٍ: هَمٍّ لا يَفْنى، وأَمَلٍ لا يُدْرَكُ، وَرَجاءٍ لا يُنالُ**»(١).

ويبقى يلهث وراء متطلّبات الهوى حتّى يموت غمّاً، ولا يحقّق ما يروم أبداً، وأروع وصف لذلك ما جاء عَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قالَ: «**قالَ أَبو جَعْفَر** عليه السلام: **مَثَلُ الْحَريصِ عَلى الدُّنْيا كَمَثَلِ دودَةِ الْقَزِّ كُلَّما ازْدادَتْ عَلى نَفْسِها لَفّاً، كانَ أَبْعَدَ لَها مِنَ الْخُروجِ حَتّى تَموتَ غَمّاً**»(٢).

ورُوِيَ عن الإمام الكاظم عليه السلام: «**مَثَلُ الدُّنْيا مَثَلُ ماءِ الْبَحْرِ، كُلَّما شَرِبَ مِنْهُ الْعَطْشانُ ازْدادَ عَطَشاً حَتّى يَقْتُلَهُ**»(٣).

فعابد هواه يصبح ويمسي لا يهدأ له بال أبداً، فحاله كحال الكلب اللاهث سواء بسواء، فهو يلهث أبداً وراء شهواته ونزواته، وهو كشارب ماء البحر كلّما شرب منه ازداد عطشاً.

وهذا المثال، وإن كان قد نزل في حقّ شخص معيّن إلا أنَّه عامٌّ يشمل كلّ إنسان يقع في بؤرة الهوى؛ لأنَّ المورد لا يحدّد الوارد - كما يقول الأصوليّون - وكلّ إنسان معرض لذلك إذا لم يتسلّح بسلاح العلم والإيمان والعمل، وإذا لم تتوازن هذه الأركان الثّلاثة في شخصيّة الإنسان فسيكون عرضة للسّقوط والانحراف والعياذ بالله عزَّ وجلَّ.

---

(١) الكافي: ٧٧٧/٣، ح/٢٦٠٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣٤٧/٣، ح/١٩١٢.

(٣) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٣٩٦.

وخلاصة الكلام: إنَّ العلم وحده لا يكفي في بناء شخصيّة الإنسان، بل لا بدّ أن يَنْضمّ إليه الإيمان والهداية، ولنعم ما قال الشَّهيد مطهّري قُدِّسَ سِرُّهُ: «العلم يمنحنا التّنوّر والقدرة، والإيمان يعطي العشق والحرارة والأمل، والعلم يصنع وسائل الإنتاج والإيمان يوجّه مقاصدها، العلم يبني الطَّبيعة، والإيمان يبني الإنسان، وكلّ من العلم والإيمان يعطي الإنسان قوّة، إلا أنَّ القوَّة الَّتي يمنحها العلم منفصلة عن الإنسان، والقوّة الَّتي يمنحها الإيمان متّصلة بذاته، وفي كليهما طابع جمالي إلا أنَّ جمال العلم العقل، والإيمان جمال الرّوح، والعلم يواجه خطر الأمراض والسّيول والزّلازل والفيضانات، والإيمان يواجه الاضطراب والوحشة في الوحدة والشّدّة»[1].

مِثالُ العِلْمِ بِلا إيمانٍ:

وصف الفيلسوف الشّهيد الشّيخ مطهّري رَحِمَهُ الله العلم بلا إيمان بسيف مسموم في يد مجنون أهوج، أو كمصباح بيد سارق في نصف اللَّيل؛ ليختار من وسائل النّاس ما يطيب له... ليس هناك أصغر تفاوت بين إنسان اليوم العالم العديم الإيمان، وبين إنسان الماضي السَّحيق من ناحية السّلوك الطّبيعيّ المشترك بينهما، ما هو الفرق بين تشرشل ونيكسون وستالين، وغيرهم اليوم، وبين فرعون، ونمرود، وچنگيز خان؟

وموجز القول نلخصه في نقاط:

١- إنَّ الإنسان إذا خرج على حدود الله، فسيصبح عرضة للشَّيطان وفريسة يعبث به كيف يشاء، وأنّى شاء.

---

(١) من كتاب جهان بيني إسلامي للشّهيد مرتضى مطهّري بالفارسيّة.

٢- إنَّ العلم إذا اقترن بالإيمان يكون وسيلة لسموّ الإنسان، ورقيّه، وتقدّمه، وسعادته، وإذا تجرّد من الإيمان يصبح سيفاً مسموماً ذات حدّين يُعَرّض البشريّة بل الكون إلى الدّمار والفناء كما نراه اليوم في دول الاستكبار العالميّ الّتي استحوذت على مقدّرات الشعوب بما تملكه من قدرات عسكريّة وسياسيّة وإعلاميّة، وأصبحت نتائج العلم اليوم تهدّد العالم بالدَّمار والفناء بما يسمّى أسلحة الدَّمار الشّامل حتّى قال أحد العلماء الألمان أنَّهم يستطيعون أن يفنوا الكرة الأرضيّة بخمسة قنابل هيدروجينيّة، وما فعلوه في هوريشيما وناكازاكي في القرن الماضي لا يمحى من ذاكرة التّأريخ، وما فعله فرعون العراق في حلبچة وغيرها من أنحاء العراق ليس ببعيد، وأنا أخطُّ هذه السّطور، وأستمع إلى تهديدات الطّاغوت الأمريكيّ بتدمير العراق؛ لأجل أن يثبت وجوده، في المجتمع الأمريكيّ، ويفوز في انتخابات الرّئاسة، وحجَّته أنَّ العراق أصبح يهدّد السّلام الأمريكيّ بل العالميّ، كلّ ذلك كذباً وزوراً، والكلُّ يعلم أنَّ طاغوت العراق الحقير صدام لعبة بأيديهم هم نصبوه ونصروه، ولمّا انتهت حاجتهم إليه قرّروا أن يزيلوه؛ ليستحوذوا على مقدّرات العراق الباقية بعده.

٣- إنَّ الإنسان إذا لم يقطع حبال الهوى فسيبقى مرتكساً في أوحال الأرض ولا يرتفع إلى نور السَّماء.

«إلهي، إلَيْكَ أَشْكو نَفْساً بالسّوء أَمّارَةً، وَإلى الخَطيئَة مُبادرَةً، وَبمَعاصيك مولعَةً، وَبسَخَطك مُتَعَرِّضَةً، تَسْلُكُ بي مَسالكَ المَهالكَ، وَتَجْعَلُني عنْدَكَ أَهْوَنَ هالك، كَثيرَةَ العلَل، طَويلَةَ الأَمَل، إنْ مَسَّها الشَّرُّ تَجْزَعُ، وإنْ مَسَّها الْخَيْرُ تَمْنَعُ مَيّالَةً إلى اللَّعب وَاللَّهْو، مَمْلُوَّةً بالْغَفْلَة وَالسَّهْو، تُسْرِعُ بي إلى الحَوْبَة، وَتُسَوِّفُني بالتَّوْبَة»(١).

(١) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ١٤٣/٩٤، (مناجاة الشّاكين).

دُروسٌ وَعِبَرٌ مِنْ قِصَّةِ قارونَ

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ۝ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ۝ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[1].

النَّصّ الشّريف يكشف أسرار النَّفس الإنسانيّة، ويبيّن كيف تتلاعب فيها زخارف المال، وزبارج الدُّنيا، وكيف يسيطر الغرور عليها حتّى تنسى سرَّ وجودها، وعلّة إيجادها، بل تنسى موجدها تعالى، وتنسب تلك النّعم إلى نفسِها مستقلّة عن

---

(١) القصص: ٧٦-٨٢.

بارئها تعالى.

قصّة قارون مع قومِه، ومع كليم الله موسى عليه السلام تمرّ بثلاث مشاهد رئيسة:

الْمَشْهَدُ الأَوَّلُ:

إنَّه كان من قومِ موسى، وهم بنو إسرائيل، آتاه اللهُ العلمَ، فاستغلّ هذا العلم منفصلاً عن الإيمان بجمع الأموال وكنزها، حتّى أصبحت بمقادير عظيمة أعيا ثقل مفاتحها العصبة[1] من الرّجال أن يحملوها، وملكت هذه الكنوز نفسه، واستحوذت عليها حتّى استغرقت نفسه فيها، وأصبحت قطب الرّحى في نفسه، فصار لا يرى في الوجود غيرها، وهكذا سيطر عليه الإعجاب، والغرور، والبطر، والاستعلاء على بني قومه، لا لشيء سوى أنَّه جمع المال، واكتنزه، وفي هذا المشهد تتجلّى لنا حقائق عدّة:

أ- إنَّ العلمَ إذا أخذ منفصلاً عن الإيمان، فسوف يُسْتَغَلّ للمصالح النّفسيّة الخاصّة، ويتحوّل إلى وسيلة فساد وإفساد وتدمير للنَّفس وللمجتمع.

ب- إنَّ الإنسانَ إذا شعر بالاستقلال الذّاتيّ عن الله، فسوف يصاب بالغرور، والاستعلاء، والإعجاب، والتّكبّر...

ج- إنَّ موقفَ المؤمنين الواعظين والهداة الصّالحين من هذه الظّواهر هو التَّذكيرُ، والإنذارُ، والتَّخويفُ من العواقب الوخيمة؛ ولذا جاءت مواعظ قومه له مُرَكّزَة، وواضحة، ودقيقة جدّاً، فقالوا له:

---

(١) «اختلف في معنى العصبة، فقيل: ما بين عشرة إلى خمسة عشر، وقيل: ما بين عشرة إلى أربعين، وقيل: أربعون رجلاً، وقيل: ما بين الثّلاثة إلى العشرة، وقيل: إنَّهم الجماعة يتعصّب بعضهم لبعض»، بحار الأنوار للمحدّث المجلسيّ: ٢٥٢/١٣.

١- لا تفرح بهذا المال، ولا تبطر؛ فإنَّ اللهَ لا يحبّ «فرح الزّهو المنبعث من الاعتزاز بالمال، والاحتفال بالثّراء، والتّعلّق بالكنوز، والابتهاج بالملك والاستحواذ.. لا تفرح فرح البطر الَّذي يُنسي المُنعم بالمال، ويُنسي نعمته، وما يجب لها من الحمد والشُّكران، لا تفرحْ فرحَ الَّذي يستخفّه المال، فيشغل به قلبه، ويطير له لبّه، ويتطاول به على العباد»(١)، هذه هي الموعظة الأولى.

٢- الموعظة الثّانية: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي إنَّ اللهَ أعطاك هذا المال؛ ليكون سبباً لك إلى نيل دار الرَّحمة والرّضوان، فالمال مال الله، يجب أن ينفقَه الإنسانُ حيثما أَمَرَ اللهُ، وبذلك ينالُ السَّعادة في الدُّنيا، لتكون وسيلة لك الى دار الخلودَ الأبديّ، فالمال وسيلةٌ لا غايةٌ، وسيلة لتحقيق إرادة الله في أرضه، فقد جعل الله هذا المال تحت تصرّفك، فتَصَرّفْ به تصرّفاً تحقّق به سعادتك في الدُّنيا والآخرة، وهذا يذكّرنا بدخول أمير المؤمنين عليه السلام على العلاء بن زياد الحارثيّ، وهو من أصحابه يعوده، فلمّا رأى سعة الدّار، قال له: «**ما كُنْتَ تَصْنَعُ بسعَةِ هذه الدّار في الدُّنْيا، [أَما] أَنْتَ إلَيْها في الآخرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ! وبَلى، إنْ شئْتَ بَلَغْتَ بها الآخرَةَ: تَقْري فيها الضَّيْفَ، وتَصلُ فيها الرَّحِمَ، وتُطْلِعُ منْها الْحُقوقَ مَطالعَها، فَإذا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بها الْآخرَةَ**»(٢).

٣- الموعظة الثّالثة: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، وهنا إشارةٌ جليلةٌ لمنهجِ السّماءِ العظيم، وهو بأنَّ للإنسانِ أن يتمتّعَ بملاذّ الدُّنيا في حدودٍ معتدلة لا

---

(١) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٣٧٤/٦.

(٢) نهج البلاغة: ٣٥٢، خطبة: ٢٠٩.

تدخله حدّ الإفراط، ولا تخرجه إلى حد التّفريط، ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾[(١)].

وهكذا «يحقّق هذا المنهج التّعادل، والتّناسق في حياة الإنسان، ويُمكّنه من الارتقاء الرّوحيّ الدّائم من خلال حياته الطّبيعيّة المتعادلة، الّتي لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقوّمات الحياة الفطريّة البسيطة»[(٢)].

٤- الموعظة الرّابعة: ﴿ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ﴾ لمّا جعل الله هذا المال بيديك، وأحسن إليك بعطائه وتسخيره ذلك، فلا بدّ أن تحسن أنت، وتقابل الإحسان من الله تعالى بالإحسان إلى خلقه، «فهذا المال هبةٌ من الله وإحسان، فليقابل بالإحسان فيه، إحسان التّقبّل، وإحسان التّصرّف، والإحسان به إلى الخلق، وإحسان الشّعور بالنّعمة، وإحسان الشّكران»[(٣)].

٥- الموعظة الخامسة: ﴿ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ لا تجعلْ المالَ وسيلةً للإفساد، فقد أعطاك اللهُ المال؛ لتصلح به دنياك وآخرتك، فالمال إذن يمكن أن يكون وسيلةَ إصلاحٍ أو وسيلةَ إفساد، والمطلوب من الإنسان أن يسخّر هذا المال للإصلاح، ومن يستعمله في مسالك الفساد، فقد خرج عن الجادّة الشّرعيّة، وعرَّض نفسه للهلاك؛ لأنَّ ﴿ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾[(٤)].

بعد هذه المواعظ البليغة ماذا كان ردّ قارون على قومه الواعظين؟ إنَّه ردّ

---

(١) الفرقان: ٦٧.

(٢) في ظلال القرآن: ٦/٣٧٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المائدة: ٦٤.

المغرور المتغطرس الَّذي فتنه المال، وأعماه الثّراء حتّى عاد يعتقد أنَّ هذا المال إنّما حصل عليه بقوّته، وعلمه، وعمله، وسعة حيلته، وإنَّ اللهَ لا دخل له به؛ ولهذا أجاب ذلك الجواب المختصر بكبرياء «وعنجهيّة» قائلاً: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾، واضح من جوابه بـ(إنّما) الَّتي تفيد الحصر أنَّه اعتقد أنَّ كلّ ما حصل عليه حصره بحوله وقوّته، ولا تَدْخُّل ليد الغيب بها... فهو يشعر بالاستقلال عن الله تعالى.

إنَّه نسي أو تناسى بأنَّ اللهَ قد أهلك من هو أكثر منه مالاً وجبروتاً وقوّة؛ ولذا سخَّر العلم لجمع الثَّروة، وعاش السّاعات الَّتي هو فيها، فلم ينظر إلى الوراء؛ ليستذكر سنن الله تعالى في خلقه إذ يستدرج عباده بالمال، ويمتحنهم به، فإذا أحسنوا التّصرّف فيه نمى تلك الأموال، وأسعد النُّفوس به، وإلا حوَّله إلى عذاب قاتل حتّى زهوق النّفس، ورجوعها إلى خالقها.

﴿ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾[1].

﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾[2].

فالَّذي يستحوذ حبّ الأموال والأولاد على نفسه، ويصبح محور حياته وغايته، فلا يسعد بالمال، بل يزده شقاءً؛ لأنَّ المال هو الَّذي ملكه، ولم يملك المال

(١) التّوبة: ٨٥

(٢) التّوبة: ٥٥.

هو، فيصبح بذلك عبداً ذليلاً لماله الَّذي جعله الله تعالى تحت يده؛ لأَنَّه أخطأ التَّقدير والحساب ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾[١]، فيعيش عيش الفقراء، ويحاسب حساب الأغنياء.

«وأمّا من اشتغل بالدّنيا وجذبته زيناتها من مال وبنين إلى نفسها، وغرَّته الآمال والأماني الكاذبة الَّتي تتراءى له منها، واستهوته الشَّياطين، فقد وقع في تناقضات القوى البدنيّة، وتزاحمات اللَّذائذ المادّيّة، وعذّب أشدّ العذاب بنفس ما يرى فيه سعادته ولذّته، فمن المشاهد المعاين أنَّ الدُّنيا كلّما زادت إقبالاً على الإنسان، ومتَّعته بكثرة الأموال والأولاد أبعدته عن موقف العبوديّة، وقرَّبته إلى الهلاكة وعذاب الرّوح، فلا يزال يتقلّب بين هذه الأسباب الموافقة والمخالفة، والأوضاع والأحوال الملائمة والمزاحمة، فالَّذي يسمّيه هؤلاء المغفّلون سعة العيش هو بالحقيقة ضنكٌ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[٢]»[٣].

ثمَّ «إنَّ الأموال والأولاد قد تكون نعمة يسبغها الله على عبد من عباده، حين يوفّقه إلى الشّكر على النّعمة، والإصلاح بها في الأرض، والتّوجّه بها إلى الله، فإذا هو مطمئن الضَّمير، ساكن النّفس، واثق من المصير، كلّما أنفق احتسب، وشعر أنَّه قدَّم لنفسه ذخراً، وكلّما أصيب في ماله أو بنيه احتسب، فإذا السَّكينة النّفسيّة تغمره، والأمل في الله يسري عنه.. وقد تكون نقمة يصيب الله بها عبداً من عباده؛ لأنَّه يعلم من أمره الفساد والدّخل، فإذا القلق على الأموال والأولاد يحوّل حياته

(١) الهمزة: ٣.

(٢) طه: ١٢٤.

(٣) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٩/٣٠٩.

جحيماً، وإذا الحرص عليها يؤرقّه، ويتلف أعصابه، وإذا هو ينفق المال حين ينفقه فيما يتلفه، ويعود عليه بالأذى، وإذا هو يشقى بأبنائه إذا مرضوا، ويشقى بهم إذا صحوا، وكم من النّاس يعذّبون بأبنائهم لسبب من الأسباب»(١).

الْمَشْهَدُ الثّاني:

يخرج قارون بزينته على قومه زينة الدُّنيا بأبعادها كلّها يطفح عليه غرور المال، وطغيان القوّة، وكثرة الأتباع... وهنا ينقسم النّاس على قسمين، فالَّذين يريدون الحياة الدُّنيا قد فتنهم لمعان الذّهب، وبريق الدُّنيا، وجاذبيّة القوّة، فراحوا يتمنّون ذلك مبهورين متعجّبين قائلين: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، «وفي كلّ زمان ومكان تستهوي زينة الأرض بعض القلوب، وتبهر الَّذين يريدون الحياة الدُّنيا، ولا يتطّلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها؛ فلا يسألون بأيّ ثمن اشترى صاحب الزّينة زينته؟ ولا بأيّ الوسائل نال ما نال من عرض الحياة؟ من مال أو منصب أو جاه، ومن ثَمَّ تتهافت نفوسهم وتتهاوى، كما يتهافت الذُّباب على الحلوى ويتهاوى! ويسيل لعابهم على ما في أيدي المحظوظين من متاع، غير ناظرين إلى الثَّمن الباهظ الَّذي أدّوه، ولا إلى الطَّريق الدّنس الَّذي خاضوه، ولا إلى الوسيلة الخسيسة الَّتي اتّخذوها»(٢).

وأمّا الَّذين أوتوا العلم بالله، والمعرفة بحقيقة الدُّنيا وزخارفها، فلم يتأثّروا بهذا المنظر المزخرف الَّذي يطغى على ظاهره الكبرياء والغرور والإعجاب، بل استهانوا به، وبمن انبهر بها!! نعم، استهانوا بالقيم الزّائفة والغرور الطّائف، فردّوا

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٣٨/٤.

(٢) المصدر نفسه: ٣٧٦/٦.

على المنبهرين ردّاً حاسماً فيه تهديد وإنذار، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾[1].

نعم، لا يستطيعون أن يتجاوزوا فتنة المال والجاه والسّلطان إلا «الصّابرون على معايير النّاس ومقاييسهم، الصّابرون على فتنة الحياة وإغرائها، الصّابرون على الحرمان ممّا يتشهّاه الكثيرون»[2]؛ ولهذا رأينا كثيرين قد سقطوا أمام إغراء المال، وفتنة الأولاد والنّساء، وخسروا خسراناً مبيناً.

الْمَشْهَدُ الثَّالِثُ:

بلغت الفتنة ذروتها، وسُحِرت النُّفوسُ بها، وتهاوت على أعتابها تأتي المفاجئة الكبرى الَّتي قلبت المقاييس، وغيَّرت الموازين، ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾.

وهكذا تتدخّل يد الغيب؛ لتوقف تيّار الفتنة عندما يصبح خطراً على النّاس، ويسحر عقولهم ونفوسهم... نعم، جاءت المفاجئة الكبرى حاسمة؛ لتوقف تيّار الانحراف، ولتوقظ النّفوس الغافلة الَّتي أذهلتها زخارف المال، إنَّها ضربةٌ قاضية هزَّت النُّفوس، وأيقظتها من سكرتها، وأرجعت النّاس إلى رشدهم هؤلاء الَّذين غبطوا قارون بالأمس، أصبحوا يشكرون الله تعالى أن أنجاهم من هذه الهلكة الكبرى.

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن

---

(١) القصص: ٨٠

(٢) في ظلال القرآن: ٣٧٧/٦.

﴿يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

هكذا يعطي اللهُ تعالى عبادَه؛ ليمتحنهم، ويكشف حقيقة نفوسهم؛ وليبيّن للنّاس أنَّ المالَ لا ينجي صاحبه، ولا يسعده إلا مع الإيمان الخالص، والعمل الصّالح، وتزول الأموال، ويهلك أصحابها، وتبقى قيم السّماء ثابتة، ويبقى الإيمانُ المشعلَ الهادي إلى سعادة الدّارين في الدُّنيا والآخرة، ولا ينال الآخرة من أراد العلوّ والفساد في الأرض، ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[1]، ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2]، ولا ينال ذلك إلا ذو حظّ عظيم.

ونختم هذا البحث بما رُويَ عن أمير المؤمنين عليه السلام في قصّة فيها موعظة عظيمة، قال الإمام الصّادق: «**حَدَّثني مُحَمَّدُ بْنُ عليٍّ بْنُ الْحُسَيْن عليهما السلام، قال: لَمّا تجَهَّزَ الْحُسَيْنُ عليه السلام إلى الْكوفة أتاه ابْنُ عبّاس، فناشَدَهُ اللهَ والرَّحم أنْ يَكونَ هُوَ الْمَقْتول بالطَّفِّ، فَقالَ: أَنا أَعْرَفُ بمصْرَعي منْك، وما وُكْدي[3] منَ الدُّنْيا إلا فراقُها، أَلا أُخْبرُكَ يا ابْنَ عبّاس بحَديث أَمير الْمُؤْمنينَ وَالدُّنْيا؟ فَقالَ لَهُ: بَلى لَعَمْري، إنّي لأَحبُّ أَنْ تُحَدِّثَني بأَمْرها، فَقالَ أَبي: قالَ عَليُّ بْنُ الْحُسَيْن عليهما السلام: سَمعْتُ أَبا عَبْد الله الْحُسَيْن عليه السلام يَقول: حَدَّثني أَميرُ الْمُؤْمنينَ عليه السلام قالَ: إنّي كُنْتُ بفَدَك في بَعْض حيطانها، وَقَدْ صارَتْ لفاطمَةَ عليها السلام، قال: فَإذا أَنا بامْرَأَة قَدْ قَحَمَتْ عَلَيَّ، وَفي يَدَيَّ مسْحاةٌ، وَأَنا أَعْمَلُ بها؛ فَلَمّا نَظَرْتُ**

---

(١) القصص: ٨٣.

(٢) النّحل: ٤٢.

(٣) يقال: ما زال ذلك وُكْدي – بضمّ الواو –: أي فعلي ودأبي وقصدي.

إلَيْها طارَ قَلْبي ممّا تَداخَلَني منْ جَمالها، فَشَبَّهْتُها ببُثَيْنَةَ بنْت عامر الْجُمَحيِّ، وَكانَتْ منْ أَجْمَلِ نساء قُرَيْش، فَقالَتْ: يا ابْنَ أبي طالب، هَلْ لَكَ أَنْ تَتَزَوَّجَ بي، فَأُغْنيكَ عَنْ هذه الْمَسْحاة، وَأَدُلُّكَ عَلى خَزائن الأَرْض، فَيَكونُ لَكَ الْمُلْكُ ما بَقيتَ، ولعَقَبكَ منْ بَعْدكَ؟ فَقالَ لَها عليه السلام: منْ أَنْت حَتّى أَخْطُبَكِ منْ أَهْلك؟ فَقالَتْ: أَنا الدُّنْيا، قالَ لَها: فَارْجعي واطْلُبي زَوْجاً غَيْري، وَأَقْبَلْتُ عَلى مسْحاتي، وَأَنْشَأْتُ أَقولُ: [من الطّويل]

لقد خاب من غرّته دنيا دنيّةٌ	وما هي إن غرَّت قروناً بطائل
أتتنا على زيّ العزيز بثنية	وزيّنتها في مثل تلك الشَّمائل
فقلتُ لها: غرّي سواي؛ فإنّني	عزوف عن الدُّنيا، ولستُ بجاهل
وما أنا والدّنيا فإنَّ محمّداً	أحلَّ صريعاً بين تلك الجنادل
وهَبْها أتتني بالكنوز ودورها	وأموال قارون وملك القبائل
أليس جميعاً للفناء مصيرها؟	ويطلب من خزّانها بالطّوائل
فغرّي سواي، إنَّني غير راغب	بما فيك من ملك وعزّ ونائل
فقد قنعت نفسي بما قد رزقته	فشأنك يا دنيا وأهل الغوائل
فإنّي أخاف الله يوم لقائه	وأخشى عذاباً دائماً غير زائل»[1]

(١) موسوعة الشّهيد الثّاني (كشف الرّيبة في أحكام الغيبة): ٢/٧٧-٧٨.

السِّياسَةُ وَالسِّياسِيّونَ بَيْنَ الإِسْلامِ وَالْمَبادِئ الأُخْرى

سأل رجلٌ الإمام الحسن عليه السلام عن السّياسة، فقال عليه السلام: «هيَ أَنْ تَرْعى حُقوقَ الله، وَحُقوقَ الأَحْياء، وَحُقوقَ الأَمْوات؛ فَأَمّا حُقوقُ الله: فَبأَداء ما طَلَبَ، وَالاجْتناب عمّا نهى؛ وأَمّا حُقوقُ الأَحْياء: فَهي أَنْ تَقومَ بواجبك نَحْوَ إخْوانك، ولَا تَتأَخَّرَ عَنْ خدْمَة أُمَّتكَ، وأَنْ تُخْلصَ لوليِّ الأَمْر ما أَخْلَصَ لأُمَّته، وَأَنْ تَرْفَعَ عَقيرَتَكَ في وَجْهه إذا ما حادَ عَنِ الطَّريق السَّويِّ؛ وأَمّا حُقوقُ الأَمْوات: فَهي أَنْ تَذْكُرَ خيراتهمْ، وتَتَغاضى عَنْ مَساوئهمْ، فَإنَّ لَهُمْ رَبّاً يُحاسبُهُمْ»[1].

تَعْريفُ السّياسَةِ:

السّياسة لغةً: «القيام على الشَّيء بما يصلحه، والسّياسة: فعل السّائس، يقال: هو يسوس الدّوابّ إذا قام عليها وراضها، والوالي يسوس رعيّته»[2].

وأمّا اصطلاحاً فقد اُختلف في تعريفها بحسب المبادئ، والمذاهب، والأذواق، والنَّظريّات، والمصالح، والأهواء... فقيل هي:

١- سقراط: «السياسة فن الحكم، والسياسي هو الذي يعرف فن الحكم».

---

(١) أقوال في السّياسة، مجلة العرفان: ج٣، مجلد ٤٠، ١٩٥٣م: ص٢٥٥؛ وينظر: موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام للشّيخ القرشيّ: ١٠/١٢٦؛ وسيرة الأئمّة الاثني عشر لهاشم معروف الحسنيّ: ١/٥٢٥.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ٦/ ١٠٨، (سوس).

٢ - أفلاطون: «فن تربية الأفراد في حياة جماعة مشتركة، وهي عناية بشؤون الجماعة، أو فن حكم الأفراد برضاهم، والسياسي هو الذي يعرف هذا الفن».

٣- أرسطو: «السياسة علم السلوك الجماعي فهي أعم من علم الأخلاق باعتباره علم السلوك الفردي؛ لذا وجب أن يندرج علم الأخلاق تحتها؛ لأن الخاص يتبع العام».

٤- تروتسكي: «هي النشاط الاجتماعي المرتبط على نحو وثيق بالكفاح من أجل السلطة».

٥- الدّكتور بَدَوي: «السياسة مجرد صراع من أجل السلطة باعتبارها أداة للسيطرة على المجتمع تحقيقاً لمصالحهم».

٦- سويل: «إن السياسة هي دراسة النفوذ والنافذين».

٧- بروتيتو: «إن السياسة (بولتيك) تشتمل بصورة عامة على جميع الفنون التي تشبع حاجات المجتمع الإنساني».

٨- ميكافيلي: «فن الإبقاء على السلطة، وتوحيدها في قبضة الحكام».

٩- ديزرائيلي: «فنّ حكم البشر عن طريق خداعهم».

١٠- جوليان فروند: «الفعالية الاجتماعية التي تأخذ على عاتقها تأمين السلامة الخارجية، والوفاق الداخلي كوحدة سياسية خاصة؛ لصيانة النظام وسط الصراعات الناجمة عن تنوع واختلاف».

١١- «تعني رعاية شؤون الدّولة الدّاخليّة والخارجيّة، وتعرف إجرائيّاً حسب هارولد لاسويل بأنّها دراسة السّلطة الّتي تحدّد من يحصل على ماذا (المصادر المحدودة)، متى، وكيف، أي دراسة تقسيم الموارد في المجتمع عن طريق السّلطة».

١٢- عرّف الشّيوعيّون السّياسة: «بأنَّها دراسة العلاقات بين الطَّبقات».

١٣- عرف الواقعيّون السّياسة بأنَّها: «فنّ الممكن، أي دراسة وتغيير الواقع السّياسيّ موضوعيّاً».

١٤- «وتعبّر السّياسة عن عمليّة صنع قرارات ملزمة لكلّ المجتمع، تتناول قيماً ماديّة ومعنويّةً، وترمز لمطالب وضغوط، وتتمّ عن طريق تحقيق أهداف ضمن خطط وأفراد، وجماعات ومؤسسات، ونخب بحسب أيدولوجيا معيّنة على مستوى محلّيّ أو إقليميّ أو دوليّ».

١٥- «والسّياسة هي علاقة بين حاكم ومحكوم، وهي السُّلطة الأعلى في المجتمعات الإنسانيّة، حيث السُّلطة السّياسيّة تعني القدرة على جعل المحكوم يعمل أو لا يعمل أشياء سواء أراد أو لم يرد، وتمتاز بأنَّها عامّة، وتحتكر وسائل الإكراه كالجيش والشُّرطة، وتحظى بالشَّرعيّة»[1].

يتّضح من خلال هذه التّعريفات - كما ترى - أنَّ كلاً ينظر من زاويته المبدئيّة، أو الفكريّة، أو الفلسفيّة، أو المصالح والغايات والأهواء التّسلّطيّة... بين تعريف السّياسة بالمساومة، أو السَّيطرة، أو التّربية، أو المقاومة، أو إدارة الصّراع، وهذا ما ذهب إليه أكثر محترفي السّياسة ومنظريها؛ فنظريّاتهم «لا تنهض على أُصول ومرتكزات قيميّة. فهذا (شينفلر) أحد منظّري السّياسة وفق هذا المبنى، يقول: "لا شأن للسّياسيّ المحترف في أن تكون الأُمور حقّاً أم باطلاً".

على المستوى ذاته حلّل (برتراند راسل) أيضاً الدّوافع والألاعيب السّياسيّة، وتعاطى وإيّاها من خلال المنظار نفسه، وهو يقول: "يتمثّل الحافز السّياسيّ عند

(١) التّعريفات الخمسة الأخير مستفادة من شبكة الانترنت، موقع ويكيبيديا.

أكثر الناس بالنّفعيّة والأنانيّة، والتّنافس، وحبّ السّلطة. على سبيل المثال: يكمن مصدر جميع الأعمال الإنسانيّة في الممارسة السياسيّة بالعوامل المذكورة آنفاً؛ فالقائد السّياسيّ الَّذي يستطيع إقناع النّاس بقدرته على تلبية هذه الاحتياجات وإشباعها، تصل قدرته في احتواء جماهير النّاس وضمّها إلى سلطته حدّاً تؤمن فيه أنّ اثنين زائد اثنين يساوي خمسة، أو أنّ جميع هذه الصلاحيّات قد فُوّضت إليه من قِبل الله ! أمّا القائد السّياسيّ الَّذي يُغضي عن مثل هذه الدَّوافع، ويهملها فهو لا يحظى عادة بتأييد الجماهير المستضعفة وحمايتها، وبذلك يدخل علم نفس القوى المحرّكة للجمهور كجزء من أهمّ أجزاء إعداد القادة السّياسيّين النّاجحين، وكشرط في طليعة شروط تأهيلهم وتربيتهم"»[١].

وتأسيساً على هذا الفهم المصلحيّ أصبحت السّياسة في مسالكهم النّفعية «قائمة على الدَّجل، والنّفاق، والغدر، والقسوة، والعناد، ومبنيّة على البراعة في السَّلب، والنَّهب، والاغتصاب، والتَّدمير، وعلى تجريد الإنسان من صفاته الرّوحيّة، وفضائله الخلقيّة، حتّى فَقَد العالم الأمن والاستقرار، وسادت فيه الأزمات والاضطرابات، وانهارت فيه المقاييس الصَّحيحة»[٢].

ثمّ هي من وجه آخر دين يرعى خَلق الله تعالى بما يصلحهم، ويرشدهم، ويهديهم إلى طريق السّعادة المنجي من شقاء الدّنيا، وعذاب الآخرة؛ وقد جسَّد ذلك رسول الله وخليفته صلوات الله عليهما في حكومتهما؛ إذ «إنَّ سياسة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في جميع شؤونها قد عبَّرت عن جميع القيم السّياسيّة الخَيّرة الَّتي أعلنها الإسلام، فهي لا تقرّ الغدر، ولا المكر، ولا الخداع، ولا تؤمن بأيّ

---

(١) محمّد الرّيشهريّ، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ١١/٤-١٢.

(٢) الشّيخ باقر شريف القرشيّ، مناهج الأنظمة الإسلاميّة (النّظام السّياسيّ): ٤٧/٤.

وسيلة من وسائل النّفاق الاجتماعيّ، وإن توقَّف عليها النَّجاح السّياسيّ المؤقّت؛ لأنَّ الخلافة الإسلاميّة من أهمّ المراكز الحسّاسة في الإسلام، فلا بدَّ لها من الاعتماد على الخُلق الرَّصين، والإيمان العميق بحقّ المجتمع والأمّة»[١].

ويمكن أن نستخلص النَّتيجة النّهائيّة وهي: أنَّ السّياسة رعاية شؤون الإنسانيّة بما يصلحها، ويقوّمها، ويضعها على الصّراط السَّويّ، ويأخذ بيدها؛ لتحقيق العدل، والحقّ، والحرّيّة، والمساواة؛ لتربية البشريّة عموماً، وقيادتها في طريق الهدى، ووضعها على مدرج التّكامل الإنسانيّ؛ لتعبيدها لله تعالى.

وقيل: «والسّياسات ثلاث: سياسة السُّلطان لنفسه، وسياسته لخاصّته، والثّالثة لرعيّته؛ فالسّائس الفاضل إنّما يُصْلِح نفسه أوَّلاً، ثمّ يصلح بسياستها خاصَّته، وما يحملها عليه من الآداب الصّالحة لرعيّته، فينشأ الصَّلاح على تدريج، وتسود الاستقامة على تدريج»[٢].

وجاء في كتاب الحكمة الخالدة: «السّياسة صنفان، وأغراضها اثنان، ولوازمها حالتان؛ فأحد صنفي السّياسة هو الإمامة، وغرضها تكميل الخليقة، ولازمها نيل السَّعادة؛ وأمّا الصّنف الآخر فالتّغلّب، وغرضه استعباد الخليقة، ولازمه الشّقاء والمذمّة، ومتى ألزم السّائس نفسه التّمسّك بالشّريعة، وجعل رعيّته أصدقاء له، فبالحقّ الواجب يملأ مدينته بالخيرات العامّيّة: كالسُّكون، والسَّلامة، والتّوادّ، والأمنة، والعدل، والعفاف، ومتى جعل نفسه عبداً لشهوته، وجعل رعيّته خَوَلاً فبالحقّ الواجب يملأ مدينته بالشّرور العامّيّة: كالغدر، والخيانة، والعسف، والرّعونة، والتّمسخر، والسّخافات.

---

(١) مناهج الأنظمة الإسلاميّة (النّظام السّياسيّ): ٤/٧٠.

(٢) الحسين بن عليّ المغربيّ، كتاب في السّياسة: ٥٦.

إنَّ الله عدلٌ، ولا يحبّ إلاّ العدل، والله طاهرٌ، ولا يحبُّ إلا الطّاهر، وكلّ من جار، أو تدنّس فقد عاند موالاته، وصار في عداد من سلب البهاء والجودة، وحرم النَّعماء والمحمدة، وشقى بالمقت والمذلّة، واستوجب الهوانَ والخسأة»[1].

إذن يمكن القول أنَّ السّاسة نمطان: نمط صاحب رسالة مبدئيّة، ورؤية فكريّة معيّنة، يحاول أن يصوغ البشريّة، ويقودها وفق رؤيته الَّتي يتبنّاها عقيدةً ونظاماً في الحياة؛ ونمط لديه حبّ التّسلّط، والسَّيطرة، والاستعلاء على الآخرين، واستغلال خيرات الشُّعوب؛ لأجل إشباع شهواته ونزواته.

وبناءً على وجود هذين النَّمطين لا بدَّ من أن نفرّق بين من يعمل عملاً سياسيّاً هادفاً، وبرؤية رساليّة بنّاءة ضمن قواعد إلهيّة، وأهداف إنسانيّة ثابتة؛ وبين من يلعب على حبال السّياسة يراوغ، ويخادع، ويساوم، ويخون، ويمكر، ويغدر؛ لكي يحتلّ المناصب الرّفيعة، ويستولي على مقدرات النّاس؛ رغبة في السَّيطرة والتّحكّم، والاستعلاء.

ومنبع ذلك شهوة حبّ الظّهور، والتّسلّط، والاستكبار على الآخرين، واذا استحكمت هذه الحال المرضيّة في النَّفس تحوَّلت إلى مرض خطير، هو الشّعور بالعظمة، أو ما يعرف بجنون العظمة[2]، وهي حالة مرضية فتاكة بالفرد المصاب

---

(١) أبو عليّ مسكويه، الحكمة الخالدة: ٣٥٧-٣٥٨.

(٢) جاء فى موقع ويكبيديا عن جنون العظمة: مصطلح تأريخىّ مشتقّ من الكلمة الإغريقيّة (ميغالومانيا Megalomania) وتعنى وسواس العظمة، لوصف حالة من وهم الاعتقاد، إذ يبالغ الإنسان بوصف نفسه بما يخالف الواقع، فيدّعى امتلاك قابليّات استثنائيّة، وقدرات جبّارة، أو مواهب مميّزة، أو أموال طائلة، أو علاقات مهمّة ليس لها وجود حقيقىّ... وبالتّالى: فهى حال نفسيّة مرضيّة يملك المصاب بها جهازاً عقائديّاً معقّداً وتفصيليّاً يتمركز حول أوهام واقعيّة لها، هذه الأوهام تقنعه بأنّه مضّطهد من الآخرين، وبأنّ السَّبب الرَّئيس لاضطهاده منهم هو كونه شخصاً عظيماً ومهمّاً للغاية.

بها وافتك من ذلك اذا تسلط واصبحت ازمة الامر بيده فانه لا يبالي أن يهلك الحرث والنسل وكل من يتوهم أنه عقبة في طريق تسلطه ولعل هذا مصداق قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[١].

أُمُّ الْكَوارِثِ وَالْبَلايا:

لو تتبّعنا الصّراعات بين الدّول والشّعوب والقبائل والأشخاص لوجدنا سبباً واحداً مشتركاً بين الجميع قديماً وحديثاً؛ ذلك السَّبب هو حبّ التّرؤّس على الآخرين، وهذا نابعٌ من حبّ الظّهور والتّسلّط، فما حارب نمرودُ خليلَ الرَّحمن إبراهيم عليه السلام إلا من أجله، وما حارب فرعونُ موسى عليه السلام إلا بسببه، وما حارب أبو جهل وأبو سفيان رسولَ الله صلى الله عليه وآله إلا خوفاً من انتزاع الزَّعامة منهم، وهكذا قس على ذلك، وحتّى في عصرنا الحديث، فما انقلب رعديد قطر على أبيه وسجنه في المنافي إلا لكي يترأّس ويتسلّط، وقد أوضح هذه الحقيقة هارون العبّاسيّ لولده المأمون قائلاً: «والله لو نازعتني هذا الأمر، لأخذت الّذي فيه عيناك؛ فإنَّ الملك عقيم»[٢]، وهذا في مختلف المجالات السّياسيّة، والاجتماعيّة، والدّينيّة، والعشائريّة...

ولذلك عدَّ الإسلام مخالفة هذه الرَّغبة من التَّواضع، أي عدم الانصياع لحبّ التّرؤّس، والصَّدارة في المجالس، قال الإمام الصَّادق عليه السلام: «**مَنْ رَضيَ بدونِ الشَّرَفِ منَ الْمَجْلسِ لَمْ يَزِلِ اللهُ وَمَلائكتُهُ يصلّونَ علَيْهِ حتّى يَقومَ**»[٣].

---

(١) البقرة: ٢٠٥.

(٢) الشّيخ الصّدوق، عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ١/١١٧، ح/٨٩.

(٣) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٤٨٦.

هذا في جانب وفي جانب آخر ورد في الأحاديث الشَّريفة اللَّعن على من طلبها بغير استحقاق، قال أبو عبد الله عليه السلام: «**مَلْعونٌ مَنْ تَرَأَّس، مَلْعونٌ مَنْ هَمَّ بها، مَلْعونٌ مَنْ حَدَّثَ بها نَفْسَه**»[١]، والملعون هنا هو من غصب الرّئاسة غصباً، ولم ينتخبه أبناء الشَّعب، وتسلَّط عليهم بالإكراه والظّلم، فهذا هو الملعون، وأمّا من ترأّس بانتخاب سليم صحيح واعٍ، وسلك مسلك العدالة الإلهيّة فهو مرحوم، والعكس بالعكس، والسّرّ في ذلك:

أوّلاً: أنَّ محبّ الرّئاسة والطّالب لها في الأعمّ الأغلب يريد أن يتّخذ مال الله دولاً، وعباد الله خولاً؛ ولذلك حذّر الإسلام من العالم المحبّ لذلك فضلاً عن الحاكم، ورد في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قالَ: «**إذا رَأَيْتُمُ الْعالمَ مُحبّاً لدُنْياه، فَاتَّهموهُ عَلى دينكُمْ؛ فَإنَّ كُلَّ مُحبٍّ لشَيْءٍ يَحوطُ ما أَحَبَّ**»[٢].

ثانياً: لأنَّ حبّ الرّئاسة يؤدّي في أغلب الأحيان إلى تقدّم المفضول على الفاضل، وهو قبيح عقلاً ونقلاً لقوله تعالى: ﴿**أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾[٣]، وأنَّ الإسلام عدَّ المتقدّم للرّئاسة من دون استحقاق خائناً ملعوناً، كما جاء في الحديث الشَّريف: «**مَنْ تَقَدَّمَ عَلى قَوْمٍ منَ الْمُسْلمينَ، يَرى أَنَّ فيهمْ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ منْهُ، فَقَدْ خانَ اللهَ وَرَسولَهُ وَالْمُسْلمينَ**»[٤]، فلا عجب إذا تمَّت تحالفات بين الأحزاب أو الأشخاص خلافاً

---

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٧٢٨/٣، ح/٢٥٠٨.

(٢) الكافي: ١١٣/١، ح/١٢٠.

(٣) يونس: ٣٥.

(٤) الباقلانيّ، كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدّلائل: ٤٧٤.

للمبادئ الإسلاميّة والأحكام الشَّرعية؛ لأنَّ الملك عقيم.

مِنْ مَظاهِرِ حُبِّ الرِّئاسَةِ:

لا يتوقّف حبّ الرّئاسة على أهل السّياسة كما قد يظنّ البعض، بل هو يشمل كلّ من يحبّ أن يتميّز على الآخرين، ويتقدّم عليهم سواء عالم دين، أو شيخ عشيرة، أو قائد عسكريّ، وهي ملكة نابعة من حبّ الظّهور، وهي من الأمراض الفتّاكة في الفرد والمجتمع، وما أصيب بها أحد إلا عرَّض نفسه للهلكة؛ ولذا سأعرض بعض مظاهرها كي يقف منها من يريد أن يرتقي إلى مستوى الإنسانيّة الحقّة، وليتجنّبها العقلاء على المستويات كلّها، فمن مظاهرها:

١- حبّ الصَّدارة في المجالس العامّة والمواقع السّياسيّة، وقد سمعت من أحد البرلمانيّين أنَّه جاء له وزير يرى أنَّ الصَّدر من المجلس يجب أن يكون له ولأمثاله، وقال له: هذا المكان ليس لك، فزجره ورجع خائباً.

٢- من مظاهرها أنَّ المصاب بها لا يبادر إلى عمل إلا إذا كان هو المترئّس فيه.

٣- من مظاهرها النَّظر إلى الجوانب السّلبيّة في الآخرين، والتّغاضي عن الجوانب الإيجابيّة؛ لأنَّه لا يريد أن يتقدّم عليه آخر بشيء؛ ولذلك تراه يكره أن يذكر النّاس عنده بخير.

٤- وكذلك المريض بحبّ الرئاسة إذا ترأَّس موقعاً معيّناً يريد أن يبقى إلى الأبد، ومهما كان الَّذي خلفه من العلم والعمل والإيمان يبقى يفتّش عن ثغرات ليسقطها عليه.

٥- من أسوأ مظاهر حبّ الرّئاسة عند بعض المتزيّين بزيّ أهل الدّين ممّن

يحبّ الشّهرة بين النّاس، فيحبّ أن يتصدّر المجالس على قاعدة (يسع يسع) فيقيم غيره ليجلس مكانه، ونسي أنَّ رسول الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِه كان يجلس حيثما ينتهي به المجلس، ويفرح أن تطلق عليه الألقاب العلميّة الكبيرة: (آية، حجّة، علامة، مجاهد)، وإن كان خالياً منها مطلقاً... بل ويحتجّ إذا لم يُدْعَ بها كما حدث لأحد (الآيات الجدد) عندما نوديَ بـ(العلامة)، فقام واحتجَّ بأنَّ هذا دون حقّه واستحقاقه، ونسي أنَّ عملاق الفكر الحلّيّ هو الَّذي أطلق عليه العلامة، ولم يدعَ بـ(آية الله العظمى).

وأخيراً: أذكر هذه القصّة عن أعظم شخصيّة عرفها القرن العشرين العارف الزّاهد، الزّعيم العالميّ والإسلاميّ، وهو الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّه إذ طبع أحد الطَّلبة الباكستانيّين ألف صورة بعد وفاة الإمام الحكيم قُدِّسَ سِرُّه ليوزّعها في باكستان، وحين جاء بنسخة منها للإمام رَحِمَهُ الله أمره أن يأتي بجميعها، وحين جاء بها أمر الإمام أن تحرق في موقد الحمام...

مَهَمَّةُ رَجُلِ السِّياسَةِ:

إذا كان السّياسيّ رجل مبدأ وعقيدة يريد أن يروّجها، ويُحكّمها يختلف عمّن اتَّخذ السّياسة حرفةً ومهنةً يعتاش بها، ويصعد على أكتاف النّاس بها؛ ولذلك فرجل السّياسة العقائديّ إذا كان يريد تغيير المجتمع وفق أهداف رسالته فإنَّه يحتاج إلى تفهّم علل المجتمع وأمراضه تفهّماً دقيقاً، ومعرفة الجوانب السّلبيّة والإيجابيّة فيه، ورد عن الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: **«الْعالِمُ بِزَمانِهِ لا تَهْجُمُ عَلَيْهِ اللَّوابِسُ»**(١).

---

(١) الكافي: ٦١/١، ح/٢٩.

لأنّ لكلّ مجتمع بشريّ أعراضاً وأمراضاً مشتركة، ولذا يختلف التَّحليل والتَّوصيف والعلاج، وإن كان هناك نحو تشترك فيه البشريّة كالغرائز والفطر إلا أنَّها تختلف من حيث العادات، والأعراف، والتّقاليد الاجتماعيّة، والقوانين الدّوليّة.

والغاية الرَّفيعة من علم السّياسة وفنّه هي خلق الإنسان الصّالح من وجهة نظر الإسلام، وهذا لا يحصل بالدّراسة والمحاضرات والمطالعات فقط، ولا يحصل بالمناقشة والملاحظة والتَّحليل فقط، وإنَّما يتمّ ذلك بأمرين معاً:

١- إنَّ السّياسيّ الرّساليّ لا بدَّ من أن يفكّر تفكيراً نقديّاً، وعليه أن يتجنّب التَّقليد، والتَّلقين.

٢- يحتاج إلى الرَّغبة، والإعداد، والتَّطبيق، والموازنة بين النّظريّات السّياسيّة وفحصها وانتقادها بدقّة علميّة، ورؤية سليمة بعيدة عن التّعصّب، وردود الفعل؛ فإنَّ حفظ النّظريّات السّياسيّة وتلقينها لا يخلق شخصيّة سياسيّة؛ لأنَّ الهدف من السّياسة الشّرعية هي إيجاد الإنسان اليقظ المتحفّز الَّذي يحسن المراقبة، والتَّفكير، والتّحليل، والتّطبيق، والحكم، لمواجهة مشكلات العصر كمشكلة التّسلّح، والسَّلام، والتّحرّر، ومقاومة الاضطهاد في الشُّعوب المحرومة.

وبعبارة مختصرة: السّياسة الشَّرعيّة في الإسلام هي تقوية دوافع الخير في الفرد، وفي المجتمع؛ لمواجهة تحدّيات الواقع الَّذي تعيشه الإنسانيّة، ومن هنا يمكن أن نعرف أنَّ ما يُعرف اليوم بفنّ السّياسة من خداع، ومراوغة، وتلاعب في الألفاظ، ولفّ ودوران، وكذب إعلاميّ، وبهتان، وتزوير للحقائق، وتعتيم على جرائم الطُّغاة هي نوع من السّياسة الغاشمة، وهي سياسة الَّذين يريدون أن يستعبدوا الشُّعوب، ويمتصّوا دماءهم، ويسيطروا على مقدّرات الأمم باسم "الدّبلوماسيّة"، وهي كما عرّفوها: «إدارة الصّراع، بمعنى عمليّة تطويع المتغيّرات والقوى في نطاق

التّعامل الدّوليّ، قديمة، ولكنّها كانت تنبع من النّبوغ في الممارسة، والحسّاسيّة، والقدرة على تلمّس نواحي النَّقص في الخصم بالكرّ والفرّ، وبهذا المعنى تعوّدنا الحديث عمّا يسمّى بالقائد الدّبلوماسيّ: قائد يمتاز بالمرونة، سعادته في أن يتلاعب بالأفراد والمواقف، مظهره لا يعكس باطنه، ولغته لا تعبّر عن أفكاره، بعيد النَّظر، واقعيّ وعمليّ لا يتردّد في أن يتعامل مع عدوّ الأمس، وأن يضحّي بصديق اليوم»(١).

وإذا تأمَّلنا في هذا التَّعريف لا نجد فرقاً بين **الدّبلوماسيّ**(٢) بهذا المعنى(٣)، والمنافق القحّ الَّذي اتّخذ النّفاق مسلكاً في حياته كما وصف الإمام علي عليه السلام أهل النّفاق بقوله:

«أوصيكُمْ عبادَ الله بتَقْوى الله، وأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفاق؛ فَإِنَّهُمُ الضّالّونَ الْمُضلّونَ، وَالزّالّونَ الْمُزلّونَ، يتلوَّنونَ أَلْواناً، ويفْتَنّونَ افْتناناً، ويَعْمدونَكُمْ بكُلِّ عمادٍ، ويرْصُدونَكُمْ بكُلِّ مرْصادٍ؛ قُلوبهُمْ دويَّةٌ، وَصفاحُهُمْ نَقيَّةٌ، يَمْشونَ الْخفاءَ، ويدبّونَ الضَّراءَ؛ وَصْفُهُمْ دَواءٌ وقَوْلُهُمْ شفاءٌ، وفعْلُهُمُ الدّاءُ الْعَياءُ، حَسَدَةُ الرَّخاءِ، ومُؤَكِّدو الْبَلاءِ، ومُقْنطو الرَّجاءِ؛ لَهُمْ بكُلِّ طَريقٍ صَريعٌ، وَإِلى كُلِّ قَلْبٍ شَفيعٌ، ولِكُلِّ شَجْوٍ دُموعٌ، يَتَقارَضونَ الثَّناءَ، ويَتَراقَبونَ الْجزاءَ، إِنْ

---

(١) الدّكتور حامد ربيع، الحرب النّفسيّة في الوطن العربيّ: ٣١٥.

(٢) ولا يعني أنَّ الدّبلوماسيّين كلّهم ينطبق عليهم هذا التَّعريف.

(٣) وهناك معنى معقول ومقبول لكلمة الدّبلوماسيّة، وهي: «الفنّ والعلم في إدارة التّواصل بين الدّول، وعادة ما يقوم بعمليّة الحوار وعقد الصّــفقات التّجاريّة العالميّة، وتوقيع المعاهدات الدّوليّة طاقمٌ محترفٌ يتكوّن من **الدّبلوماسيّين**، وبتعبير مبسّط ترمز الدّبلوماسيّة إلى فنّ الحوار والمخاطبة في التّوصّل إلى أكبر قدر من المكاسب لاستراتيجيّة على حساب الفريق»، موقع ويكيبيديا.

سَأَلوا أَلْحفوا، وَإنْ عَذلوا كَشَفوا، وَإنْ حَكَموا أَسْرَفوا، قَدْ أَعَدّوا لكُلِّ حَقٍّ باطلاً، وَلكُلِّ قائمٍ مائلاً، وَلكُلِّ حَيٍّ قاتلاً، وَلكُلِّ باب مفْتَاحاً، وَلكُلِّ لَيْلٍ مصْباحاً، يَتَوَصَّلُونَ إلى الطَّمَعِ بالْيَأْس؛ ليُقيموا به أَسْوَاقَهُمْ، وَيُنْفِّقوا به أَعْلاقَهُمْ(١)؛ يَقولونَ فَيُشَبِّهونَ، وَيَصفونَ فَيُمَوِّهونَ، قَدْ هَيَّأوا الطَّريقَ، وَأَضْلَعوا الْمَضيقَ(٢)، فَهُمْ لُمَةُ(٣) الشَّيْطان، وَحُمَةُ(٤) النّيران، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾(٥)»(٦).

السِّيَاسَةُ فِي الإِسْلامِ:

«إنَّ السّياسة في الإسلام تعني إدارة شؤون الحكم، وتربية الإنسان على القيم والمبادئ الإسلاميّة، وتعني المعارضة، ومقاومة الحاكم الظّالم، وتقديم الخدمات، وإعمار البلاد، وتطويرها كما تعني توجيه شؤون الاقتصاد، وترشيدها وحفظ أموال الأمّة، وإنمائها كما تعني الانتصار للمظلوم، والوقوف بوجه الظّالم في علاقة يدخل فيها الحاكم والمحكوم... فالسّياسة إذن من وجهة نظر الإسلام كلّ عمل اجتماعيّ يستهدف توجيه الحياة السّياسيّة، وتكاملها ضمن علاقات الحاكم والمحكوم»(٧)؛ لأنَّ الإسلام كما قال الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ: «هو دين المجاهدين

(١) أعلاقهم: أمتعتهم.

(٢) أضلعوا المضيق: أمالوه وجعلوه ضلعاً، أي معوّجاً.

(٣) اللُّمَة: الجماعة.

(٤) الحمة: السّمّ.

(٥) المجادلة: ١٩.

(٦) نهج البلاغة: ٣٣٥-٣٣٦، خطبة: ١٩٤.

(٧) السّيّد هاشم الموسويّ، الثّقافة السّياسيّة الإسلاميّة: ١٣.

الَّذين ينشدون الحقَّ والعدل، دين الَّذين يطالبون بالحرّيّة والاستقلال، والَّذين لا يريدون أن يجعلوا للكافرين على المؤمنين سبيلاً»[١].

تَصَوُّرٌ خاطِئٌ خَطيرٌ:

لقد صوَّر أعداءُ الإسلامِ الإسلامَ بأنَّه دينُ عبادةٍ فرديّةٍ بين العبد وربّه، ولا علاقة له بشؤون المجتمع البشريّ من سياسة واقتصاد وتربية ومقاومة للظُّلم ودفاع عن المظلومين، وردَّدوا «أنَّ الإسلامَ دينٌ، وليس اقتصاداً، وأنَّه عقيدةٌ وليس منهجاً للحياة، وأنَّه علاقةٌ بين الإنسان وربّه، ولا يصلح أن يكون أساساً لثورة اجتماعيّة في إيران، وقد فات هؤلاء أنَّ الإسلام ثورة لا تنفصل فيها الحياة عن العقيدة، ولا ينفصل فيها الوجه الاجتماعيّ عن المحتوى الرّوحيّ، ومن هنا كان ثورةً فريدةً على مرّ التّأريخ»[٢].

وهذا التّصوّر أخطر ما واجه الإسلام في حركته السّياسيّة؛ لأنَّه أريد له أن يُبْعَد عن الحياة، ويعزل في المساجد والمحاريب؛ ليُفسح المجال أمام الطغاة لاستغلال الشُّعوب، وقد كشف الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّه هذه المؤامرة على الإسلام، وحذَّر منها قبل عقود عدّة[٣].

---

(١) الإمام الخمينيّ، الحكومة الإسلاميّة: ٢٦.

(٢) السّيّد الشَّهيد الصّدر، الإسلام يقود الحياة: ٣٢.

(٣) كقوله قُدِّسَ سِرُّه: «ولكنَّ الأعداء أظهروا الإسـلام بغير هذا المظهر؛ فقد رسـموا له صـورة مشـوَّهة في أذهان العامّة من النّاس، وغرســوها حتّى في المجامع العلميّة، وكان هدفهم من وراء ذلك إخماد جذوته، وتضييع طابعه الثّوريّ الحيويّ، حتّى لا يفكّر المسلمون في السَّعي لتحرير أنفسهم، وتنفيذ أحكام دينهم كلّها، عن طريق تأسيس حكومة تضمن لهم سعادتهم في ظلّ حياة إنسانيّة كريمة، فقالوا عن الإسلام: أن لا علاقة له بتنظيم الحياة والمجتمع، أو تأسيس حكومة من أيّ نوع، بل هو يعني فقط بأحكام الحيض والنّفاس، وقد تكون فيه أخلاقيّات، ولا يملك بعد ذلك من أمر الحياة وتنظيم المجتمع شيئاً»، الحكومة الإسلاميّة: ٢٦-٢٧.

ومن خلال هذا الفهم لا يشكُّ إنسان منصف فَهمَ الإسلامَ على حقيقته أنَّ الإسلامَ دينُ سياسة، وعمل سياسيّ، ومهمّة الإسلام الأساسيّة هي سياسة الإنسان، أي تربيته، ورعايته، وتقويمه، وقيادته في طريق الهدى والصَّلاح.

وأبلغ عبارة تحدّد السّياسة الإسلاميّة ما قاله الشَّهيد السّيّد حسن المدرّس قُدِّسَ سِرُّهُ: «**سياستنا دين، وديننا سياسة**».

إذن فالسّياسة في الإسلام هي إدارة شؤون المجتمع وفق مبادئ الإسلام، لتربيته وتعبيده لله تعالى.

وقد ورد هذا المعنى في بعض كلمات الأئمّة الأطهار عليهم السلام، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**يَحْتاجُ الإمامُ إلى قَلْبٍ عَقول، ولِسانٍ قؤول، وجَنانٍ على إقامَة الْحَقِّ صؤول**».

«**حُسْنُ السِّياسَة قَوامُ الرَّعيَّة**».

«**حُسْنُ السِّياسَة يَسْتَديمُ الرِّياسَةَ**».

«**مَنْ حَسُنَتْ سياستُه دامَتْ رياستُه**».

«**مَنْ قَصُرَ عَنِ السِّياسَة صَغُرَ عَنِ الرِّياسَة**».

«**ملاكُ السِّياسَة الْعَدْلُ**».

«**آفَةُ الزُّعَماء ضَعْفُ السِّياسَة**»[١].

هذا هو المعنى الدَّقيق للسّياسة في الإسلام، وأمّا إذا كان معنى السّياسة الخداع، والمساومة، واللّفّ، والدّوران، والمكر، والدّهاء، والغدر؛ فإنَّ الإسلام بريء منها، ومن أهلها؛ وهذه السّمات الّتي تعدّ من أحابيل السّياسة تفسد الفرد

---

(١) ينظر: الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٣١-٣٤٧، ح/٧٧٨٠-٧٦١٦-٧٦١٧-٧٦٢١-٧٦٢٥-٧٦٢٧-٧٩٩٥.

والمجتمع، وهذا ما أجاب به الإمام محمّد الحسين آل كاشف الغطاء رحمه الله عندما قيل له: أنَّ التّدخّل في السّياسة لا يتناسب مع مركزه الدّينيّ الرّوحانيّ، فقال: «أمّا التّدخّل بالسّياسة، فإن كان المعني بها هو الوعظ، والإرشاد، والنّهي عن الفساد، والنَّصيحة للحاكمين، بل لعامّة العباد، والتَّحذير من الوقوع في حبائل الاستعمار والاستعباد، ووضع القيود، والأغلال على البلاد، وأبناء البلاد. إن كانت السّياسة هي هذه الأمور... فأنا غارق فيها إلى هامتي، وهي من واجباتي، وأراني مسؤولاً عنها أمام الله والوجدان، وهي من وظائفي ووظيفة آبائي الّذين كانت لهم الزّعامة الدّينيّة... وهي النّيابة العامّة، والزَّعامة الكبرى، والخلافة الإلهيّة العظمى: ﴿ **يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ** ﴾[1]، وفي بعض زيارات الأئمّة الجامعة: "**وأنتم ساسةُ العبادِ وأركانُ البلاد**"[2]»[3].

أمّا إذا رجعنا إلى المعنى اللّغويّ نجد أنَّ السّياسة - كما تقدّم - هي القيام على الشّيء بما يصلحه، أو كما جاء في كلّيّات أبي البقاء: «السّياسة هي استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطّريق المنجي في العاجل والآجل... والسّياسة البدنيّة: تدبير المعاش مع العموم على سنن العدل والاستقامة»[4].

ولذا فإن مهمة السّياسيّ الإسلاميّ كما هو واضح من سلوك أهل البيت عليهم السلام هي:

١- العمل على صيانة الإسلام كعقيدة ونظام شامل للحياة من التّحريف

---

(١) ص: ٢٦.

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٦١٠/٢، ح/٣٢١٣.

(٣) الإمام محمّد الحسين آل كاشف الغطاء، المثُل العليا في الإسلام لا في بحمدون: ٩٨-٩٩.

(٤) أبو البقاء، الكلّيّات: ٤٢٨.

والتَّزييف، والاحتواء، والجدّ في نشره بين النّاس، وإيصاله إلى الملل والشّعوب كلّها.

٢- العمل على حفظ الأمّة من الانحراف، ومحاولة تثقيفها واستقامتها على خطّ الإسلام الأصيل، وتربيتها وإعدادها؛ لتحمّل مسؤوليّتها التّأريخيّة.

٣- السّيطرة على أَزِمَّة[1] الحكم؛ لنشر رسالة الله تعالى، وتعبيد الخلق له تعالى، يقول تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ** ﴾[2].

إنَّ للحكم في الإسلام أهدافاً أساسيّة على رجل الدّولة السّياسيّ أن يعمل على تحقيقها[3]؛ ولذا يجب أن يكون هدف المسلم من عمله السّياسيّ ليس السَّيطرة والظّهور والاستعلاء، وإنّما الهدف هو حفظ رسالة الله، وبناء الإنسان بناءً إسلاميّاً سليماً، وليس تحقيق المكاسب السّياسيّة والظّهور السّياسيّ بأيّة وسيلة كانت، وليس العمل السّياسيّ وفق النّظريّة الإسلاميّة إلاّ عملاً تعبّدياً يستهدف رعاية الإنسان، وقيادته إلى طريق الهدى والصّلاح.

جاء في كلام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**اللَّهُمَّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّه لَمْ يَكُنِ الَّذي كانَ مِنّا مُنافَسَةً في سُلْطان، وَلا الْتِماسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطامِ، وَلكِنْ لِنَرِدَ الْمَعالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الإِصْلاحَ في بِلادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومونَ**

(١) أزمّة: جمع زمام، وهو المقود.

(٢) الحجّ: ٤١.

(٣) سيأتي الكلام في وظائف الدّولة الإسلاميّة في غضون البحث عند طرح نظريّة السّيّد الشّهيد الصّدر قدس سره لها.

مِنْ عِبادِكَ، وتُقامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدودِكَ»(١).

ولذلك عدَّ الإسلام الأَساس في العمل السّياسيّ: طهارة الوسيلة، والالتزام الأخلاقيّ، وسموّ الأهداف؛ فلا يجوز التّوصّل إلى غاية سامية بأسلوب منحطّ؛ لأن الله لا يطاع من حيث يعصى.

ومن هنا نعرف الفرق بين العمل السّياسيّ الرّساليّ في الإسلام، واللّعب السّياسيّ المصلحيّ باسم الإسلام، وما الإسلام فيه إلا كواجهة للتّوصّل إلى أغراض شخصيّة مصلحيّة.

مُرْتَكَزاتُ التَّفْكيرِ السِّياسِيِّ في الإِسْلامِ(٢):

١- إنَّ العمل السّياسيّ في الإسلام واجب كفائيٌّ، ومسؤوليّةٌ شرعيّةٌ عباديّة لإصلاح البشر، يقول تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣).

وقال الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّته»(٤).

وورد في الأثر: «إنَّ الله لَيَزَع بالسّلطان ما لا يزع بالقرآن»(٥).

فالسّياسيّ المسلم ينطلق في تفكيره السّياسيّ من أساس ومسؤوليّة في تحمّل

(١) نهج البلاغة: ٢٢٠، خطبة: ١٣١.

(٢) هذا القسم من البحث مقتبس من كتاب ثقافة الدّعوة الإسلاميّة بتصرّف، نقلناه لأهمّيّته ودقّته وعمقه.

(٣) آل عمران: ١٠٤.

(٤) مسند الإمام أحمد: ١٥٦/٩، ح/٥١٦٧.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ١١١/٥؛ ويزع: أي يمنع.

العمل والمهامّ والمسؤوليّات كواجب شرعيّ، وتكليف عباديّ ينهض به، ويكافح من أجله؛ فالسّياسة رعاية، وتدبير لشؤون الأمّة وجهاد من أجل الحق، وبذا يفترق في حساباته السّياسيّة عن السّياسة النَّفعيّة والمنهج المادّيّ في العمل السّياسي... ولذلك يُخضع تفكيره، ونشاطه، ومشاريعه للموازين، والقيم الشّرعيّة؛ لأنّه يعلم أنَّه: «**لا يُطاعُ اللهُ من حَيْثُ يُعْصى**»، ويجعل همّه وحسابه خدمة المبادئ الخيّرة، والمصالح الإنسانيّة، على ضوء الشَّريعة وقيمها؛ لذلك قد يضحّي السّياسيّ المسلم بمنافع مادّيّة ومصالح، يعطيها غيرُه الأولويّة في الخيارات من أجل مبادئ وقيم ومثل إنسانيّة عليا؛ فقد يضحّي بحياته وماله وراحته وموقعه السّياسيّ من أجل قيمة عليا مستهدياً بقوله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[1].

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾[3].

---

(١) التّوبة: ٢٤.

(٢) القصص: ٨٣.

(٣) الأنبياء: ٧٣.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[١].

فهدف السّياسة الإسلاميّة والعمل السّياسيّ الإسلاميّ خلق مجتمع إسلاميّ، وبناء الإنسان المسلم الَّذي يتعالى على المادّية؛ لأنَّ ربط الإنسان بالنّفعيّة السّياسيّة والمصالح المادّيّة المجرّدة عن القيم يحوّله إلى إنسان يبيع المبادئ والقيم، ويتنازل عنها، ولا يصمد أمام المحن والشّدائد والشّهوات ونوازع التّسلط فضلاً عن أنَّ الهدف الأساس من السّياسة الإسلاميّة هو تربية الإنسان تربية ربانيّة، وهدايته، وإنقاذه، وما المنافع المادّيّة إلا قضايا تدور ضمن هذا الفلك ووفق هذه الغاية، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾[٢].

٢- **الالتزام الأخلاقيّ**: جاءت الشّريعة المقدسة لتتميم أخلاق الإنسان؛ ولذلك من أهمّ سمات رجل السّياسة في الإسلامِ العدلُ، والصّدقُ، والشّجاعةُ، والأمانة، والعفّة، وإذا تجرّد عن ذلك فقد خرج من جوهر سياسة الإسلام إلى مستنقع سياسة الشَّيطان؛ فإنَّ الأخلاق السّامية، أو الملكة الإنسانيّة الخيّرة تشكّل الباعث والمحرّك الدّاخليّ للإنسان على الالتزام بالمبادئ، والقيم الحياتيّة النّبيلة؛

---

(١) المائدة: ٤٨.

(٢) البيّنة: ٥.

فالأخلاق كما نفهم قضيّة أساسيّة في بناء الصّرح الرّساليّ للإسلام، وهي قاعدة أساسية في بناء الفرد والمجتمع فقد ورد في الحديث الشَّريف: «**إِنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاقِ**»[١].

فهدف الإسلام هو بناء الذّات الإنسانيّة، وتصحيح المحتوى الدّاخليّ للنّفس البشريّة من دوافع ونزعات وشهوات، وتنظيمها وفق رؤية عقائديّة وعقليّة سليمة؛ لئلا تطغى، وتتحوّل إلى أداة هدم ووسيلة فناء للبشريّة.

ومن الطّبيعيّ أنَّنا حينما ندرس الأخلاق الفاضلة بصورة عامّة نقصد بها كلّ الملاكات، والقيم الأخلاقيّة الَّتي تبني الاستقامة والفضيلة في نفس الإنسان، ومن مصاديقها الصّدق والأمانة، والعدل، والشَّجاعة، والصَّبر، والحكمة، والتَّواضع، والكرم، والعفو... الخ.

ولكنّنا حينما ندرس الأخلاق في جانبها السّياسيّ نجد أنَّ أهمّيّتها وقيمتها العمليّة في حياة القائد، ورجل السّياسة، والمشتغل بها أكبر وأعظم من أهميتها في مجال الممارسة الفرديّة في الإنسان..

وتعظم الخطورة إذا عرفنا أَن للسّياسة والقيادة، وللعمل السّياسيّ أمراضه وأخطاره الأخلاقيّة الَّتي يبتلي بها.. ولهذه الظَّواهر الأخلاقيّة المرضيّة نتائجها السّلبيّة ومردوداتها على حياة المجتمع البشريّ، وعلى أمنه واستقراره، ومجمل حقوقه الإنسانيّة الَّتي وهبها الله له.

فمن أمراض العمل السياسي والقيادة السّياسيّة: حبّ الظّهور، والاستعلاء والتّسلّط، والعجب، والغرور، والجبن، والجور، والأنانيّة، والانفراديّة، والتّوجّه الفئويّ، والنّفاق، والغدر، والرّياء، والكذب، والتَّضليل.

(١) الطّبرسي، مكارم الأخلاق: ٨؛ وبحار الأنوار للمحدّث المجلسيّ: ٣٨٢/٧١.

ولا يخفى على أحد ما لهذه النَّزعات الأخلاقيّة المريضة من أخطار تهدّد كرامة الإنسان وحقّه الطّبيعيّ في الحياة؛ لذا فإنَّ التَّربية السّياسيّة الإسلاميّة يجب أن تضع في حسابها الأوَّل أنَّها تُعدّ حَمَلَةً لرسالة الله فلا بدّ من أن يكون أولئك ربّانيّين وحركيّين رساليّين، لا سياسيّين محترفين ينادون بشعارات الإسلام، ويمارسونه بمنهج علمانيّ منفصم عن القيم والأخلاق الإسلاميّة؛ لذا يجب أن تقوم التّربية السّياسيّة في الحركات الإسلاميّة، وفي مؤسّسات الدّولة الإسلاميّة وفي المعاهد والدّراسات السّياسيّة الإسلاميّة على أساس القيم الأخلاقيّة، فهي الفاصل الحاكم بين المنهج السّياسيّ الإسلاميّ والمنهج السّياسيّ الجاهليّ بشتّى مدارسه الرَّأسماليّة والماركسيّة والاشتراكيّة وأمثالها من المبادئ والنّظريّات، فلا يصحّ للسّياسيّ المسلم أن يقع في هاوية السُّقوط الأخلاقيّ، فيمارس الغدر والنّفاق، أو نقض العهد، أو يبتلي بالجور، والغرور، والفرديّة، والاستعلاء كما يفعل غيره من السّياسيّين والطّامعين بالتّسلّط والاستعلاء، فإن ابتلي بهذه الأمراض فَقَدَ عدالته (استقامته)، وحرم عليه أن يمارس عملاً سياسياً، ويحرم على أبناء الأمّة والعاملين الإسلاميّين أن يسمعوا له ويطيعوا إلا أن يتوب ويصحّح مساره ووجهته العمليّة في الحياة.

لذلك عَرَّف علماء الإسلام العدالة بأنَّها: «عبارة عن ملكة راسخة باعثة على ملازمة التَّقوى من ترك المحرّمات وفعل الواجبات»[1].

من هنا كان التزامنا بالقيم الأخلاقيّة في الأساليب ووسائل العمل، وكان الحرص على تربية الأمة - ولا سيّما حملة الرّسالة ومبلّغيها - تربية أخلاقيّة نظيفة وبعيدة عن الوسائل والأساليب غير المشروعة الَّتي يتّبعها العاملون في الحركات

---

(١) الإمام الخمينيّ، تحرير الوسيلة: ١/١٠.

السّياسيّة ومجالات العمل السّياسيّ غير الإسلاميّ...

بعد أن آمنّا أنَّ الهدف الأساسيّ هو بناء الإنسان بناءً إسلاميّاً سليماً، وليس تحقيق المكاسب السّياسيّة بأيّة وسيلة كانت، فلا قيمة للمكسب السّياسيّ الَّذي يأتي عن طريق المعصية والانحراف الأخلاقيّ؛ لأنَّه ممارسة هدّامة لذات الإنسان، وتخريب لبنائه النَّفسيّ الدّاخليّ، وتشويه لعلاقته مع بارئه الَّتي هي غايته من عمله السّياسيّ.. «فليس العمل السّياسيّ وفق النّظريّة الإسلاميّة إلا عملاً تعبّدياً يستهدف رعاية الإنسان وقيادته في طريق الهدى»؛ لذلك جاء في قول الإمام عليّ عليه السلام: «**ما ظَفرَ مَنْ ظَفرَ الإثْمُ به، والْغالبُ بالشَّرِّ مَغْلوبٌ**»[١].

«**ولَوْلا كَراهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهى النّاسِ**»[٢].

والسّياسيّ المسلم إن انحرف عن القيم والأخلاق الإسلاميّة تحوّل هدفه من خدمة القيم والمبادئ الإلهيّة الخيّرة، وعبادة الله تعالى إلى عبادة ذاته وهواه: ﴿ **أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا** ﴾[٣]، فيتحوّل إلى طاغية متسلّط يستعبد النّاس، ويسوقهم وفق هواه، ويسخّرهم لخدمة مصالحه، فيصدق عليه قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**اتَّخَذوا عبادَ الله خَوَلاً، ومالَهُ دُوَلاً**»[٤].

وما جاء الإسلام، وما وجبت السّياسةَ في الإسلام إلا لإنقاذ الإنسان، وتحريره وهدايته ورعاية شؤونه وتنمية حياته:

﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى**

(١) نهج البلاغة: ٥٤١، قصار الحكم: ٣١٨.

(٢) المصدر نفسه: ٣٤٦، خطبة: ٢٠٠.

(٣) الفرقان: ٤٣.

(٤) التّفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام: ٥٣؛ خولاً: أي خدماً وعبيداً.

ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

وهكذا تساهم القيم والمبادئ الأخلاقيّة في التَّفكير، والتَّخطيط، وصنع القرار السّياسيّ، فتدخل في صميم المنهج، وتشكّل أحد أبعاده الأساسيّة؛ فالسّياسيّ المسلم إذا أراد أن يفكّر، أو يخطّط، أو يقرّر عليه أن يحافظ على طهارة الوسيلة والالتزام الأخلاقيّ، كما يحافظ على تحقيق الهدف، وسموّ الغاية، مستبعداً كلّ أثر أخلاقيّ ذميم... فلا تَوَصُّلَ إلى غاية شريفة بأسلوب منحطّ كالخداع والتَّضليل والنّفاق والغدر؛ إذ «**لا يطاع الله من حيث يعصى**»؛ وعليه أن يحافظ على سلامة البناء والتّوجّه الباطني لديه، فيستبعد كلّ البواعث الأخلاقيّة المنحطّة كالغرور والأنانيّة وحبّ الاستعلاء.. الخ.

٣- الصَّلابة المبدئيّة والمرونة الطّريقيّة: التَّعامل مع الأحداث السّياسيّة قد يتطلّب مرونة سياسيّة بغية تجاوز الموقف الصَّعب، أو الارتفاع بالواقع المتدنّي إلى مستوى الصّيغة المطلوبة... إلا أنَّ هذه المرونة لا يصحّ في أيّة حال من الأحوال أن تكون على حساب المبادئ وهدرها، ومعنى **المرونة هو تأجيل عمل معيّن لمصلحة معيّنة، أو تجزئة الموقف إلى مواقف متدرّجة،** كما حدث في سياسة الرَّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسننه الحكيمة من المرونة والتّدرّج في بعض المواقف؛ إذ ليس من السَّهل أن نصنع الواقع في الأحوال كلّها وفق تصوّرنا

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

وتحديدنا للمصلحة الإسلاميّة ورؤيتنا السّياسيّة دفعة واحدة... ومن هنا يأتي العمل المرحليّ والتّعامل الطّارئ وفق القواعد الشّرعيّة القائلة: «ما لا يُدرك كله لا يُترك جلّه»، «لا يُترك الميسور بالمعسور»، «اختيار أهون الضررين».

فقد تواجه الحركة الإسلاميّة موقفاً، ويُفرَضُ عليها دورٌ يتّضح من خلاله أن ليس بوسع العاملين أن يحقّقوا المصلحة، وأنَّ السّلبيّة في الموقف قد تجلب مفسدة وضرراً للعمل الإسلاميّ وللقضية الإسلامية؛ لذلك لا بدَّ من اللّجوء إلى الإيجابيّة كي تدرأ المفسدة، وهذا الدّرء يشكّل في الحساب النّهائيّ مصلحةً، ويحقّق قيمة سياسيّة يعتدّ بها، أو قد يواجه العاملون الإسلاميّون محيطاً وظرفاً سياسيّاً صعباً لا تستطيع الحركة الإسلاميّة أن تحتلَّ فيه موقعها الطَّبيعيّ، أو تحقّق كلّ أهدافها الإسلاميّة المشروعة، ويتّضح من خلال العمل والتَّقويم أن ليس بالإمكان في ذلك الظَّرف المعيّن إنجاز الأهداف وتحقيقها كاملة، بل بالإمكان تجزئة الهدف، وتحقيق جزء ميسور من الهدف الكامل... فعندئذ لا بدَّ من اللّجوء إلى العمل بالميسور، ومواصلة السَّعي؛ لتحقيق المتعذّر في مراحلٍ، أو ظروف زمنيّة أخرى يسعى العاملون لصنعها، وتهيئتها كشروط ومقدّمات للإنجاز الكامل، وليس معنى العمل بالميسور هو أن يكون بديلاً للمتعذّر على امتداد المسيرة، بل يكون العمل به إلى حين توفّر المتعذّر فحسب، وفي كلّ الأحوال لا بدَّ من دراسة دقيقة وموازنة محسوبة وفق فهم سياسيّ ومنطق شرعيّ سليم يقرّر، ويختار، ويحدّد الأولويّات في المواقف والخيارات المتعدّدة.

٤- النّظر لما يصدر من الحركات والكيانات والشّخصيات غير الإسلاميّة، أو المجهولة الهويّة، أو الّتي لها سابقة غير مطمئنة بعين الحذر والشّكّ المسبق، فالأصل في غير الإسلاميّين أن يتّهموا، ولا يُحْمَلوا في عملهم على الصّحّة،

والأصل في التّعامل مع من يشكّ بهويّتهم ومقاصدهم ممّن يعملون تحت عنوان الإسلام، أو يطلبون التّعاون تحت هذا العنوان الحذر والاحتياط في ظروف نخشى فيها الاندساس والتَّضليل والخداع السّياسيّ مع عدم وجود أدلّة تثبيت سلامة القصد ونقاء الهويّة...

فقد قيل: «إذا انتشر الفساد، فلا يحل لأحدّ أن يحمل أحداً على خير حتّى يعلمه منه»، فليس الادّعاء أو مقبوليّة المظهر الشّكليّ للأطروحة، ومشروع العمل أو الشّخصيّة أو الحركة بكافٍ للقبول والاطمئنان، بل يجب الدّراسة والفحص والتّأكّد من سلامة الشَّخصيّات أو الحركات أو المشاريع... الخ، قبل التعامل معها والقاعدة في ذلك ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام:

وقال عليه السلام: «**إذا اسْتَوْلى الصَّلاحُ عَلى الزّمان وَأَهْله، ثُمَّ أَساءَ رَجُلٌ الظَّنَّ برَجُلٍ لَمْ تَظْهَرْ منْهُ خزْيَةٌ فَقَدْ ظَلَمَ، وَإذا اسْتَوْلى الْفَسادُ عَلى الزَّمان وَأَهْله، فَأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ برَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ**[١]»[٢].

أمّا القوى والحركات والشّخصيّات الإسلاميّة الَّتي ثبت فيها الإخلاص للمبادئ، وسلامة القصد في التّعامل، ونقاء الهويّة نحمل عملها، وتصرّفها على الصّحّة، ولا نشكّ في نواياها، أو أطروحاتها إلا إذا وجدنا ما يبعث على الشّكّ؛ لذلك فالتَّعاون والتَّعامل معها يقوم على حسن الظّنّ، ويتّسم بروح الأُخوّة والاستهداف الرّساليّ المشترك.

٥- جَعْل المصلحة الإسلاميّة فوق كلّ شيء، فليست الحركة الإسلاميّة أو

---

(١) قال ابن منظور: «غرّر بنفسه وماله تغريراً وتَغرّةً: عرّضهما للهلكة من غير أن يعرف، والاسم: الغرر، والغرر: الخطر»، لسان العرب: ١٣/٥، (غرر).

(٢) نهج البلاغة: ٥٠٥، قصار الحكم: ١٠٨.

الدّولة الإسلاميّة إلا مؤسّسة لأجل الّدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، هدفها تحكيم الإسلام، والدّفاع عنه، ونشره بكلّ السّبل والوسائل الّتي حدَّدتها المبادئ والقيم الشّرعيّة.

وانطلاقاً من هذه المبادئ يجب التّفكير والتّخطيط، وارتياد العمل السّياسيّ، فليس العمل السّياسيّ غايةً ولا هدفاً، بل هو أسلوب ووسيلة لخدمة القيم والمبادئ الإسلاميّة النَّبيلة، وشأنه في المجتمع الإسلاميّ شأن أيّة مؤسّسة أو جهاز عمل سياسيّ أو جهاديّ أو ثقافيّ... لذا فإنَّ السّياسيّ يجب أن يضع كلّ إمكاناته وقدرته؛ لخدمة الإسلام والدّفاع عنه، فلا يصح أن ينطلق السّياسيّ المسلم من منطلق أنانيّ تجعل فيه المصلحة الشّخصيّة فوق مصلحة الرّسالة؛ وذلك لأنَّ المؤسّسات الإسلاميّة جميعاً أداة لخدمة الرّسالة والأمّة، فإذا اقتضى الأمر أن تضحّي المؤسّسة، وتقدّم كلّ ما بوسعها من أجل الدّفاع عن الإسلام وتثبيت مبادئه، وتصحيح المسار المنحرف، فعليها أن لا تتوانى، وليس من حقّ أصحاب القرار فيها أن يفكّروا بمصلحة شخصيّة تفوت مصلحة الأمّة... فلا يبخلوا بأنفسهم، ولا بأموالهم، ولا بمواقعهم السّياسيّة، ولا بعناوينهم الاجتماعيّة.. جرياً على المبدأ الإسلاميّ الّذي قرّره القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[1].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

---

(١) التّوبة: ١١١.

(٢) آل عمران: ١٨٨.

فالعاملون للإسلام والمجاهدون يجب أن يكونوا هم الطّليعة والرّواد في الطّريق الصَّعب... فلا يسمح أن تكون غير ذات الشّوكة لهم: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(١).

والمتجرّدون لله سبحانه وتعالى بعيدون عن حبّ المغانم والمكاسب والمال والجاه والرّئاسة، فيجب أن يكون نتاجاً طبيعيّاً للعمل أوّلاً، وأداة ووسيلة لخدمة الإسلام، وليس هناك غاية ثانية... فها هو القرآن يذمّ طُلاب المغانم، وهواة الدّنيا، الفارّين من الزَّحف والمواجهة، والمدبرين عن البأس والشّدّة: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٢).

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(٣).

وإذا كان هذا موقفهم المتجرّد عن المصلحة الشّخصيّة، فيجب أن لا تختلط المفاهيم والمواقف من جانب آخر، فيتخلى العاملون الإسلاميّون عن دورهم

---

(١) الأنفال: ٧.

(٢) القصص: ٨٣.

(٣) الفتح: ١٥-١٦.

الطَّليعي ومسؤوليّتهم في حراسة المسيرة الإسلاميّة، ومراقبتهم لها والتّصدّي للتّحمّل...

يجب ألا يقع التّخلّي تحت عنوان التّجرّد، فيختلّ توازن الموقف، بل عليهم أن يعرفوا أنَّ تحمّل المسؤوليّات، وتسديد المسيرة، ومراقبتها وتقويم الأخطاء، وممارسة النّقد البنّاء، وإسداء النّصح لولاة الأمور، ومقاومة الانحراف يقع في مقدّمة حماية المصلحة الإسلاميّة، فعليهم أن يتحمّلوا هذه المسؤوليّة بكلّ جدارة وإقدام، وأن يكونوا جريئين في كلمة الحقّ يقولونها دون أن تأخذهم في الله لومة لائم: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

ولقد مارس أئمّة الهدى عليهم السلام التَّضحية والإيثار بأرقى صورة، وقدّموا مصلحة الإسلام على كلّ مصلحة، فرضوا أن تسفك دماؤهم، وتهتك حرماتهم، وتنهب أموالهم، ويخرجوا من ديارهم، ويتحمّلوا السّجون والتّعذيب والإرهاب والقتل والتّضحية بكلّ غالٍ ونفيس في هذا الطّريق.. طريق الهدى والإيمان على أيدي طغاة عصورهم.

﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾(٢).

كما ضحّت كلّ الطَّلائع، وكلّ العاملين الإسلاميّين على امتداد مساحة الزَّمان والمكان من أجل المبادئ الحقّة، ومن أجل أن تكون كلمة الله هي العليا،

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

(٢) الأحزاب: ٢٣.

وكلمة الَّذين كفروا هي السُّفلى.

٦- الإيمان بالسّببيّة والقانونيّة التّأريخيّة في عمليّة الصّراع السّياسيّ، وإخضاع الصّراع، والعمل السّياسيّ للمنطق التّأريخيّ العامّ الَّذي تحرّكه الإرادة البشريّة ضمن قدر ومشيئة ربّانية عادلة حكيمة، وأنَّ الصّراع البشريّ ظاهرة طبيعيّة في التّأريخ الإنسانيّ، وعلى الإنسان أن يؤدّي دوره التّأريخيّ ضمن منطق القوانين التّأريخيّة، والتّغيير الاجتماعيّ؛ لذلك يجب التَّخطيط والتَّنظيم؛ لينساق العمل وفق المنطق القانونيّ؛ لسير الأحداث والتّاريخ البشريّ، معتمدين على حقائق أساسيّة هي أنَّ هناك قوانين، وأسباب يتحرّك وفقها التّأريخ البشري: من قوّة وضعف، وميلاد حضارات ودول، وقوّتها وانتصارها، وفشلها وسقوطها... ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

فالخارطة السّياسيّة لا تعرف الثّبات، فالتّحوّل والتّغيّر السّياسيّ في حياة البشر هو القانون المسيطر... فقد حدَّثنا التّأريخ الماضي والمعاصر عن أمم ودول وحكام وحضارات سادت وانقرضت وبادت، أو ضعفت وخضعت، وأصبحت تابعةً لغيرها بعد أن كانت لها السّيادة واليد العليا، كما حصل العكس أيضاً في مسار التّأريخ السّياسيّ.

وإذن فطريقة تفكيرنا وتعاملنا مع الأفكار والنّظريّات والظواهر والأحداث السّياسيّة تقوم على أساس تنسيق منطقيّ موحّد يستوعب نظرة الإسلام لمسيرة الإنسان، وصيغة الحياة، وغائيّة المسيرة البشريّة، فالتّأريخ البشريّ يسير وفق مشيئة

---

(١) آل عمران: ١٤٠.

وقدر ربّاني، واختيار إنسانيّ، هو جزء من هذا القدر، وأنَّ الإيمان بالقانون لا يعني الجبر التّأريخيّ؛ فللإنسان أن يجعل نفسه موضوعاً للرّقيّ الحضاريّ، كما له أن يجعل نفسه موضوعاً للانحطاط، فالقانون ثابت ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾[1].

وصيغة الحياة ينبغي أن تكون حركيّة حيّة متنامية، وغاية المسيرة هي الوصول إلى عالم أسمى هو عالم الآخرة: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[2]، وأنَّ ما يجري من وقائع وأحداث وصراع ومستجدّات اجتماعيّة هي جزئيّات، ومظاهر التّجلّي لحقيقة أعمق تنظّم الحركة التّأريخيّة، وهي الاختبار والابتلاء، فنحن ننظر للحياة وما فيها من صيغة حضاريّة، وبُنية تأريخيّة على أنَّها يجب أن تجري وفق المنهج الرّبّانيّ، وتستهدف غائيّة الإعداد لعالم الآخرة.

وبذا يفترق منهج تفكيرنا، وطريقة فهمنا، وتحليلنا عن المناهج والطّرق العلمانية، فمفهومنا للحياة والموت والصّراع وغاية الوجود على هذه الأرض أنَّها حقيقة يجب أن تكون وفق مشيئة الله وإرادته، وعلى الإنسان أن يحتلّ موقعه التّأريخيّ، ويتحمّل مسؤوليّته كاملة، فعندما نتناول الصّراع الدّوليّ في الخليج وحدوث الثّورة الإسلاميّة في إيران، والظُّلم والجور الَّذي يعانيه حملة الإسلام في كلّ بقاع الأرض يجب أن لا تنفصل هذه الأحداث عن حركة التّأريخ الكلّيّة وعن القانون العامّ الَّذي ينظّمها، والَّذي تمثّل فيه الإرادة والمسؤوليّة البشريّة دورها الطَّبيعيّ.

(١) الكهف: ٥٩.

(٢) النّجم: ٤٢.

وقد حدد القرآن الكريم هدف الصّراع السّياسي والعقائديّ، ووضّح نتائجه النّهائيّة بقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾(١).

وعلى أساس هذا الفهم نستطيع أن نحدّد موقعنا، ونعرف قيمة جهادنا، وهو توجيه حركة التّأريخ توجيهاً إراديّاً باتّجاه هذا الهدف، وبذا نكون قوّة ممهّدة، وحركة سببيّة تساهم مع بقيّة القوى السّببيّة الفاعلة في هذا الميدان، والدّافع باتّجاه هذه الغاية، وعلى هذا الأساس نشخّص معنى الوحدة والائتلاف مع الحركات والقوى الإسلاميّة، ونفهم معنى دور الفرد في القانونيّة التّأريخيّة، والأخلاقيّة الغائيّة.

فمثلاً يجب أن يكون مفهومنا للوحدة والائتلاف السّياسيّ عبارة عن ضمّ القوى السّببيّة المتحرّكة باتّجاه تأريخيّ واحد يستهدف غاية تأريخيّة واحدة وهي ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾؛ ليُوَحَّد الله ويُعْبَد.

ويجب على هذا الأساس أيضاً أن نكتشف الأثر السّلبيّ للصّراع الأنانيّ والخلاف والتّمزّق في صفوف المسلمين على أنَّه نشوزٌ ومعاكسةٌ وعرقلةٌ لمسيرة التّأريخ القانونيّة، وبذا تحكم هذه الظّواهر النّاشزة على نفسها بالإلغاء، وبذا تقتلع الأنانية (هوى النَّفس) الفرديّة والجماعيّة، ويحلّ محلّها مفهوم السّببيّة التّأريخيّة والغائيّة التّعبّديّة؛ ولذا أكَّد القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(٢).

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

(٢) الأنفال: ٤٦.

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1].

ومن هذا المنطلق أيضاً نعرف عالميّة الثّورة الإسلاميّة، وبذا نشخّص سرّ التّكالب الموحّد للقوى الشّرّيرة ضدّ الثّورة والدّولة الإسلاميّة في إيران باعتبارها منطلق الحركة التّأريخيّة والسّبب المحرك باتّجاه المشيئة الرّبّانيّة: ﴿ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾.

وهكذا ندخل الحدث السّياسيّ ضمن الحركة التّأريخيّة الشّاملة؛ لنتمكّن من تكوين فهم وتحليل متكامل ورؤية واضحة.

وهكذا يتصاغر دور الصّغائر والاهتمامات الصّغيرة للمجاهد، والدّاعي إلى الله تعالى، ويتّجه نظره إلى هدف أعظم، وهو الضّرورة التّاريخيّة الكبرى ﴿ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ تلك الضّرورة الّتي يشكّل هو الجزئيّة السّببيّة فيها، وقوّة مسؤولة للوصول إليها، وبذا تتسامى شخصيّته واهتماماته وأهدافه وتتسامى نفسه، وتتجرّد ذاته عن كلّ غرض سوى توحيد الله وعبادته، وتحقيق مشيئته مشيئة الحقّ والعدل ومصدر الخير والسّعادة لبني الإنسان على هذه الأرض تمهيداً؛ لنيل رضوانه والفوز بالقرب والنّعيم الأبديّ.

والإيمان بالسّببيّة وربط الحوادث والقرارات بأسبابها وشروطها الموضوعيّة يشكّل ركناً أساساً في التّفكير والعمل السّياسيّ الإسلاميّ الّذي يقوم على أساس

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

من فلسفة الإسلام الاجتماعيّة، وتفسيره للنَّشاط والحوادث الاجتماعيّة والتّأريخيّة، فالتَّفكير الإسلاميّ ينطلق من الإيمان بسببيّة الحوادث والوقائع السّياسيّة الَّتي تدور في عالمنا من مواقف، وأحلاف، وصراعات، وسيطرة، وفشل سلطة أو حزب أو نجاحهما في تسلّم زمام الأمور، أو تغيير نظام سياسيّ وحلول نظام آخر بديلاً عنه... فكلّ ذلك يخضع لقانون السّببيّة بنفس المنطق الفيزيائيّ للسّببيّة... فكما تعمل القوانين الطّبيعيّة الَّتي تحكم المادّة الجامدة أو الحيّة، فكذلك هناك قوانين وأسباب تحكم العمل السّياسيّ والمجتمع السّياسيّ...

فالعقيدة والتَّركيب النّفسيّ للإنسان، ووجود المنظّمات والكيانات الاجتماعيّة، وإشباع الحوائج المادّيّة للإنسان وعدمها، ووجود الهزّات والاضطرابات الاجتماعيّة والامتداد التّأريخيّ للأمّة، والتّبدّلات الحضاريّة المحلّيّة والعالميّة والأخطار الأمنيّة... ووجود أداة التَّحريك والتّغيير كالحزب والتَّنظيم المسلّح والقيادات القوّيّة المعارضة، ونوع العلاقة بين السُّلطة والأمّة، وطبيعة القانون والنّظام، أو أجهزة القمع والجهل والثّقافة وطبيعتها، ووجود القوى والكيانات العالميّة، وأمثال ذلك، كلُّها أسباب لها دور الفاعليّة القانونيّة في سير الحياة السّياسيّة، وإحداث التّغييرات السّياسيّة في السُّلطة والنّظام والفلسفة والتَّفكير السّياسيّ، أو استقرار الحياة السّياسيّة واستمرارها.

والعاملون الإسلاميّون عندما يعملون وسط مجتمع تتفاعل فيه أسباب وعوامل عديدة، يجب أن يأخذوا كلّ هذه الأسباب والعوامل بعين الاعتبار، ويتعاملوا معها على أنَّها قوى فاعلة ومؤثّرة... فبعضها يعملون على تغييره وضمّه وتحريكه لاتّجاه المسيرة، وبعضها يعملون على استئصاله، وبعضها يعملون على استثمار آثاره السّياسيّة لإحداث التَّغيير، كالوضع الاقتصاديّ المضطرب،

وكالظُّلم، والإرهاب، والهزّات الاجتماعيّة... الخ.

فتوجّهها كأسباب مؤثّرة في عمليّة الصّراع، وهدم الأنظمة الجائرة المنحرفة، وبعضها توظّف أثر فاعليّتها لصالح المسيرة الإسلاميّة، وإن لم نستطع تغييرها وضمّها للصّف الإسلاميّ، كالقوى الّتي تعمل على هدم الأوضاع السّياسيّة القائمة، وتشتبك في صراع سياسي مع النّظم الجائرة، وتشكّل جزءاً من المعارضة السّياسيّة، وتحمل أفكاراً وتوجّهات غير منسجمة مع الخط الإسلاميّ.. فمثل هذه القوى من الخطأ أن نلغي دورها بإخراجها من ساحة الصّراع، أو نشتبك معها، فتستهلك جهداً ووقتاً لخدمة الوضع المنحرف.. بل لا بدَّ من فسح المجال أمامها؛ لتساهم في هدم الأوضاع المنحرفة، والبنية السّياسيّة للنُّظم الجائرة؛ لتسهّل علينا عمليّة التّغيير الإسلاميّ.

إنَّ العمل السّياسيّ يجب أن يتَّسم بالوعي والتَّحليل الدَّقيق للمجتمع ولعوامل الصّراع والتَّأثير... ولا بدَّ من التَّخطيط، وإدخال كلّ الحسابات الّتي يمكن أن تساهم في الحساب...

فقبل تقرير أيّ موقف، أو اتّخاذ أيّ قرار يجب دراسة الظُّروف والشُّروط الموضوعيّة اللازمة؛ لصنع القرار وتنفيذه؛ ليكون العمل السّياسيّ عملاً قائماً على أسس واقعيّة بعيداً عن العفويّة، والارتجال والوهم السّياسيّ، أو التّأثّر بالشّعارات والانفعالات العائمة، وبذلك يشكل هذا المفهوم - مفهوم السّببيّة الحدثيّة في العمل السّياسيّ - بُعداً أساسيّاً في منهج التّفكير السّياسيّ الإسلاميّ.

فليس للسّياسيّ والمخطّط الإسلاميّ أن يتغافل عن العوامل والأسباب السّياسيّة، بل عليه أن يعطيها دورها المؤثّر ومساحتها الطَّبيعيّة، فنحن نؤمن أنَّ لله سبحانه مشيئةً وإرادةً وحكمةً بالغة في خلقه، وهذه المشيئة هي قوّة قاهرة، وهي

السَّبب الحقيقيّ الفاعل والمؤثّر في مجرى الوجود الطَّبيعي والاجتماعيّ إلا أنَّ الله سبحانه ربط عالم الإنسان بالإرادة الإنسانيّة، وجعل لكيانه الاجتماعيّ القانونيّة والسَّببيّة المتحرّكة ضمن المشيئة والتَّقدير الإلهي، لخَّصها القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[١].

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

وتناول الحديث الشَّريف جانباً من هذه السّببيّة، فثبّت قانون العلاقة بين الوضع الفكريّ والنّفسيّ والإراديّ للأمّة وبين نوع السّلطة، فقال: «**كَما تَكونوا يُوَلّى عَلَيْكُمْ**»[٣]، أي أنَّ السُّلطة وجهاز الحكم هو إفراز طبيعيٌّ لنوع المجتمع وتركيبه.

٧- اعتبار الصّراع السّياسيّ جزءاً من الاختبار الإلهيّ: تدور فلسفة الوجود الإنسانيّ في هذه الحياة - في نظر الإسلام - على محور الابتلاء والاختبار الإلهيّ للإنسان.. فما خلق الإنسان إلا ليعرف الله - وإلا ليعبده، جاء في الحديث القدسيّ الشَّريف: «**كُنْتُ كَنْزاً مَخْفياً، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ، فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لأُعْرَفَ**»[٤].

فالاختبار والابتلاء يشكّل البُعْد الأساسيّ في وجود الإنسان على هذه

---

(١) الرّعد: ١١.

(٢) البقرة: ٢٥١.

(٣) المتّقي الهنديّ، كنز العمال: ٨٩/٦ ح/١٤٩٧٢.

(٤) صدر المتألّهين، شرح أصول الكافي: ١١٩/٣.

الأرض؛ ليعرف الخيّر من الشّرّير، والصّالح من الطّالح:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾(١).

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾(٢).

﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۞ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾(٣).

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾(٤).

﴿ الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۞ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٥).

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا

---

(١) الملك: ٢.

(٢) محمّد: ٣١.

(٣) محمّد: ٤-٥.

(٤) الحجّ: ٤٠.

(٥) العنكبوت: ١-٦.

مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

فالإيمان بالصّراع بين الحقّ والباطل، وأنَّه جزء من الاختبار والابتلاء جعل ليكشف للإنسان عن محتواه الدّاخليّ، وتتجسّد هويّته على شكل مواقف وسلوك وقرارات، إنَّ هذا الإيمان يشكّل ركناً أساساً في العمل السّياسيّ الإسلاميّ.

فرجل السّياسة المسلم والمشتغلون في حقل السّياسة أو جماهير الأمّة وأبناؤها يجب أن يعرفوا أنَّهم يبتلون بقادة، وحكّام، وفئات، وقوى، ودول وأحزاب جاهليّة، أو منافقة، أو محرّفة للإسلام ومشوّهة لحقيقته، وأنَّ عليهم مسؤوليّة الدُّخول في ملحمة الصّراع، وإسقاط هذه القوى، واجتثاث جذور الظُّلم والجاهليّة، والفساد، والانحراف، وقيادة البشريّة في طريق الهدى.

فَحَمَلة الإسلام لا يرون غرابة ولا عجباً في خوض الصّراع، وما يستتبع هذا الصّراع من قتل وتشريد وهجرة وسجون وتعذيب وظلم وحيف وغبن وتهم وتشويه وقلب للحقائق.. فتلك الظّواهر كلّها وسائل وأدوات يستعملها الخصم في

(١) البقرة: ٢٤٩-٢٥١.

عمليّة الصّراع ضدّ القوى الإسلاميّة النّزيهة والخيّرة؛ لذلك فإنَّ المؤمن لا يمكن أن يتصوّر عملاً سياسيّاً بدون صراع، وبدون فتنة واختبار.. فمحرّك التّأريخ وقوّة الدَّفع فيه قوى الصّراع بين الحقّ والباطل، وتأريخ الدَّعوات الإلهيّة عبر مراحل وجودها وتاريخ الهداة الإسلاميّين يكشف هذه الحقيقة، وينطق لسانها ويدوّنها القرآن الحكيم، ويتلوها آيات خالدة على مسامع الأجيال كي لا يتبرّم أحد منهم، أو يستوحش من السير في طريق الهدى.. طريق الصّراع والاختبار.. وإن قلَّ سالكوه، وهكذا نخلص إلى مبادئ أساسيّة في التَّفكير السّياسيّ الإسلاميّ، وهي أنَّ العمل السّياسيّ يقوم على أساس من:

الإيمان بالسّببيّة الحدثيّة، والوجهة الأخلاقيّة والرّبّانيّة في الدَّعوة إلى الإسلام والعمل به: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾[١]، ووجوب العمل السّياسيّ، وخضوعه لقانون الاختبار والابتلاء الإلهيّ والحفاظ على مصالح الأمّة وخير الإنسانيّة جمعاء.. فما بعث نبيّ الإسلام إلا ليكون رحمة للعالمين ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[٢]، وضرورة اختيار أفضل الأساليب، وأجداها، وأكثرها ملائمةً للواقع والتّأثير به، وأقدرها على إحداث عمليّة التَّغيير الاجتماعيّ على أساس الإسلام[٣].

النِّظامُ السِّياسِيُّ في نَهْجِ الْبَلاغَةِ:

إنَّ إلقاء نظرة تأمّليّة دقيقة في نهج البلاغة يمكن أن تبرز معارف مختلفة

---

(١) البقرة: ١٤٨.

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

(٣) البحث مقتبس بتصرّف من كتاب ثقافة الدّعوة الإسلاميّة، القسم السّياسيّ: ٤٨/١-٧٤.

سياسيّة، واجتماعيّة، وأخلاقيّة، وفكريّة..

ولا بدَّ من أن نشير إلى حقيقة مهمّة أشار إليها القرآن والسّنّة، وهي ما يمكن أن نطلق عليها (الوحدة الرّساليّة)، أي أن ننظر إلى تعاليم الكتاب والسُّنّة أنّها وحدة مترابطة يكمل بعضها البعض، ولا يمكن التَّجزئة، والانتقاء للبعض دون البعض الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[1].

من هنا نقول: لا يمكن فصل الفكر السّياسيّ، والعمل السّياسيّ عن الفكر العقائديّ، والحراك الاجتماعيّ؛ لأنَّ المنظومة الفكريّة في الإسلام في مختلف فروعها العقديّة والنّظاميّة والأخلاقيّة مترابطة يكمل بعضها البعض الآخر، ولا تكتمل شخصيّة الإنسان إلا بوعيها جميعاً، والالتزام بها جميعاً... ولذا نحن عندما نتحدّث عن الفكر السّياسيّ، والحراك السّياسيّ، أو الوعي السّياسيّ في نهج البلاغة لا نفصل بينه وبين المفاصل الأخرى في الإسلام.

فلو ألقينا نظرة إجماليّة على البحوث السّياسيّة في نهج البلاغة، فسنجد فيها جميع المفاصل الإداريّة والسّياسيّة في الحكومة والإدارة، والظُّروف المحيطة بها، والمؤثّرة في الحراك السّياسيّ والإداريّ، كتعيين الولاة، والوزراء، والمستشارين، والقضاة، والقادة العسكريّين بمختلف مراتبهم، والسُّفراء، والجباة، ومسؤوليّة القائد، وأهداف الحكم، ودوافعه، والأمور العسكريّة، والجيش، والبيعة، والحرّيّة، والانضباط الإداريّ، واختيار معاوني الحكومة، والعلاقة بين الحكومة والشَّعب،

---

(١) البقرة: ٨٥.

والأمور الاقتصاديّة، وما يخصّ السّوق والزّراعة والإعمار، ومسؤوليّة الشَّعب تجاه الحكم، والعدل والقسط، والحرب والسّلم وغيرها من الأمور... كلّ ذلك يمكن استخراجه وتنظيمه والاستدلال عليه بأدلّة عقليّة أو نقليّة.

السِّياسَةُ في مَنْطِقِ أميرِ الْمُؤْمِنينَ عليه السلام:

لو تتبّعنا كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في مختلف المواقف والأحداث والوقائع نجد شذرات من كلماته عليه السلام صدرت لبيان أسس العدل السّياسيّة مختصرة، كأنَّها أمثال جارية، كقوله عليه السلام:

«آفَةُ الزُّعَماء ضَعْفُ السِّياسَة».

«حُسْنُ السِّياسَة يَسْتَديمُ الرِّياسَةَ».

«فَضيلَةُ الرِّياسة حُسْنُ السِّياسَة».

«الْعَدْلُ أَفْضَلُ السِّياسَتَيْن».

«جَمالُ السِّياسَة الْعَدْلُ في الإمْرَة، وَالْعَفْوُ مَعَ الْقُدْرَة».

«مِلاكُ السِّياسَةَ الْعَدْلُ».

«سِياسَةُ الْعَدْلِ ثَلاثٌ، لينٌ في حَزْمٍ، وَاسْتِقْصاءٌ في عَدْلٍ، وَإِفْضالٌ في قَصْدٍ».

السّياسة هي التَّدبير:

«سوءُ التَّدْبير سَبَبُ التَّدْمير».

«مَنْ ساءَ تَدْبيرُهُ تَعَجَّلَ تَدْميرُهُ».

«مَنْ ساءَ تَدْبيرُهُ كانَ هَلاكُهُ في تَدْبيرِهِ».

«حُسْنُ التَّدْبيرِ يُنْمي قَليلَ الْمالِ، وَسوءُ التَّدْبيرِ يُفْني كَثيرَهُ».

السّياسة رفق:

«رَأْسُ السِّياسَةِ اسْتِعْمالُ الرِّفْقِ».

«نِعْمَ السِّياسَةُ الرِّفْقُ».

«الاحْتمالُ زَيْنُ السِّياسَةِ».

«مَنْ لَمْ يَحْتَمِلْ مَؤونَةَ النّاسِ، فَقَدْ أَهَّلَ قُدْرَتَهُ لانْتقالها»(١).

الْحُكومَةُ ضَرورَةٌ لا بُدَّ مِنْها:

من الأمور البديهيّة الّتي يقرّها العقل والدّين والواقع الاجتماعيّ قديماً وحديثاً أنَّه لا يمكن أن تسير حياة المجتمع البشريّ، ويعيش مطمئنّاً هادئاً محفوظ المال والعرض والنّفس بدون قيام حكومة تدير أمور المجتمع الاجتماعيّة، والسّياسيّة، والفكريّة، والاقتصاديّة... وعند عدم وجود حكومة مهيمنة على جميع المفاصل الاجتماعيّة تتحوّل حياة الإنسان إلى غابة يأكل القويّ فيها الضّعيف، هذه الحقيقة أكّدها أمير المؤمنين عليه السلام، وقرّر حقيقتها، عندما سمع الخوارج يرفعون شعارهم المعروف (لا حكم إلا لله)، فقال: «**كَلِمَةُ حَقٍّ يُرادُ بها باطلٌ! نَعَمْ، إنَّهُ لا حُكْمَ إلا لله، ولَكنْ هؤلاء يَقولونَ: لا إمْرَةَ؛ فَإنَّهُ لا بُدَّ للنّاس منْ أَميرٍ برٍّ أَوْ فاجرٍ، يَعْمَلُ في إمْرَته الْمُؤْمنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فيها الْكافرُ، وَيُبَلِّغُ اللهُ فيها الأَجَلَ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ، وَيُقاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ**

(١) ينظر: تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٣١-٣٧٢، ح/٧٩٩٥-٧٦١٧-٧٦١٩-٧٧٣٢-٧٧٣٧-٧٦٢٧-٧٧٤٧-٨٠٨٩-٨٠٩١-٨٠٩٤-٨٠٨١-٧٨٣٠-٧٦٢٩-٧٦١٥-٨٤٢٠.

للضَّعيف منَ الْقَويِّ، حَتّى يَسْتَريحَ بَرٌّ، ويُسْتَراحَ منْ فاجر»، وفي رواية أنَّه عليه السلام لمّا سمع تحكيمهم قال: «**حُكْمَ الله أَنْتَظِرُ فيكُمْ**»، وقال: «**أَمّا الإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فيها التَّقيُّ، وأَمّا الإِمْرَةُ الْفاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فيها الشَّقيُّ، إلى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُه، وتُدْرِكَه مَنيَّتُه**»[(١)].

ومعنَى لا حَكم إلا لله «أنّه ليس للعبد أن يحكم بغير ما نصّ كتاب الله عليه، فإنّ أكثر الأحكام الفروعيّة غير منصوص عليها مع أنّها أحكام الله، بل تكون منتزعة بحسب الاجتهاد وساير طرقها لمن كان أهلا لذلك، ويجب على من ليس له أهليّة الاجتهاد امتثالها»[(٢)].

وهنا برزت ظاهرة التّخلّف الفكريّ لدى الخوارج، وجمودهم، وأخذهم الحكم من غير أهله؛ ولذا نادوا: «الحكم لله، لا لك يا عليّ، ولا لأصحابك»[(٣)].

وهذا المنطق المتخلّف ينمّ عن جمود فكريّ، وتحجّر عقليّ، فحكم الله حقيقةٌ موضوعيّةٌ، ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ الناس في غنى عن قَيّمٍ وحاكم يتّبع أوامر الله، ويحكم بما أنزل الله.

وهذه الحقيقة أيّدها القرآن الكريم في آيات عدّة كقوله تعالى:

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾[(٤)].

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا

---

(١) نهج البلاغة: ٩٩-١٠٠، خطبة: ٤٠.

(٢) ابن ميثم البحرانيّ، شرح نهج البلاغة: ١٠٢/٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التّأريخ: ٣٩٠/٣.

(٤) ص: ٢٦.

عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ﴾[١].

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾[٢].

ليس للعبد أن يحكم بغير ما نصّ ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾[٣].

هذه الآيات الأربعة تدلّ على وجوب قيام الحكومة؛ لتنشر العدل بين النّاس، فتأخذ حقّ الضّعيف من القويّ، وتردع المعتدي، وتوزّع الثَّروات بين النّاس، وتؤمّن السّبل للمجتمع، وتنشر الأمن والأمان، وتوفّر أجواء التَّربية والتَّعليم، وتحمي رعاياها من الاعتداءات الخارجيّة... الخ، ولولا وجود القوّة الَّتي تؤمّن ذلك لفُقدَ الأمنُ، وانتشرت الفوضى، واجتُثّت معالم الحضارة الإنسانيّة كلّها، وتحوّل الوسط الاجتماعيّ إلى غابة يحكم فيها الظّفر والنّاب، يقول تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[٤].

ونستنتج من هذه الآيات التّلازم بين الدّين والسّياسة، وأنَّ الإمامة الإلهيّة شرطٌ أساسيّ لقيام العدل والقسط، واستقرار أمر النّاس بإحقاق الحقّ، وإزهاق الباطل، وتأديب المتجاوزين على حقوق الآخرين، وطرد المعتدين، وبناء صرح

---

(١) المائدة: ٤٨.

(٢) الحجّ: ٤١.

(٣) الحديد: ٢٥.

(٤) الحجّ: ٤٠.

الدّين والدّولة، بالتّعاضد بينهما، فالدَّولة تنشر مبادئ الدّين، وتنَّور عقول رعاياه بأنواره، والدّين يحميها من الانحراف بتقنين الأحكام والتَّشريعات؛ لتسير حياة النّاس بما يضمن سعادتها، وما أروع قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**صَيِّرِ الدّينَ حِصْنَ دَوْلَتِكَ، وَالشُّكْرَ حِرْزَ نِعْمَتِكَ، فَكُلُّ دَوْلَةٍ يَحُوطُها الدّينُ لا تُغْلَبُ، وَكُلُّ نِعْمَةٍ يَحْرُزُها الشُّكْرُ لا تُسْلَبُ**»(١).

وبذلك يثبت فساد نظريّة فصل الدّين عن السّياسة، ومنشأ هذه النّظريّة هو عدم فهم الدّين والسّياسة معاً، أو قل: الفهم المعكوس عن رسالة الله تعالى، والعجيب أن يتبنّى نظريّة فصل الدّين عن السّياسة: الطّواغيت وعشّاق التّسلّط على رقاب الشّعوب من جانب، ومن جانب آخر المتلبّسون بلباس الدّين الَّذين اتَّخذوا من الدّين متجراً لبضاعتهم، وضماناً لأرباحهم، وحفظاً لمصالحهم، فصاروا مصداقاً لقول أمير المؤمنين عليه السلام: «...**لَقِناً غَيْرَ مَأْمونٍ عَلَيْه، مُسْتَعْمِلاً آلَةَ الدّينِ لِلدُّنْيا، وَمُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ اللهِ عَلى عِبادِه، وَبِحُجَجِه عَلى أَوْلِيائِه**»(٢).

والأعجب من ذلك أن يتبنّى مسلك الخوارج المشؤومين بعض المتزيّنين بزيّ الدّين، وهؤلاء قد يكونون فهموا الدّين فهماً مقلوباً، أو تلبّسوا به فلبسوه «**لُبْسَ الْفَرْوِ مَقْلوباً**»(٣)، أو اتّخذوه مهنةً ومصلحة لمعيشتهم، أو وقعوا في خديعة أعداء الإسلام الَّذين لم يعلنوا عداءهم له بصورة صريحة مباشرة؛ لئلا يستفزّوا عواطف المسلمين، ويثرونهم، فخطَّطوا لعزل علماء الإسلام ودعاته الحقيقيّين في الزّوايا والتّكايا لئلا يضرّ بمصالحهم.

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٤٣، ح/٧٨٦٣.

(٢) نهج البلاغة: ٥١١، قصار الحكم: ١٣٧.

(٣) نهج البلاغة: ١٨٦، خطبة: ١٠٧.

واليوم اتُّخذَ سلاح فصل الدّين عن السّياسة الَّذي أشاعوه في المناهج المدرسيّة، وأوهموا النّاس بعدم أهلّيّة علماء الإسلام للتّدخّل في شؤون السّياسة والمجتمع[1]، واتّخذوه سلاحاً ضدّ التّحرّك المنظّم لإقامة دولة الإسلام، وتذرّعوا بموقف بعض الحمقى المتلبّسين بلباس القداسة... أو ما يرفعه الطّغاة ضد دعاة الإسلام بأنَّهم سياسيّون، بل ابتدعوا اليوم مصطلح «الإسلام السياسيّ» زوراً وبهتانا؛ ليطعنوا الإسلام من الخلف بتغيير مفاهيمه، وصاروا يتكلّمون بمنطق فرعون القائل لبني إسرائيل: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾[2].

وهكذا اتّخذ بعض الطّغاة ذريعة فصل الدّين عن الدّولة، وبدعة الإسلام السّياسيّ، وعدم تدخّل علماء الدّين في الشّؤون السّياسيّة ذريعة لضرب الدّين بالدّين تطبيقاً لقاعدتهم السّرّيّة المشهورة بينهم «حاربوا الدّين بالدّين»؛ ليتجنّبوا حسّاسيّة الأمّة من خططهم وأساليبهم؛ لتحريف الحقائق، وإخفاء أهدافهم لتمريرها على المسلمين من دون إثارة مشاعرهم السّلبيّة تجاههم، ويمكن القول أنَّ هذا أخطر الأسلحة وأفتكها بالإسلام، ولو وعى المسلمون الإسلام الحقيقيّ كما هو في الكتاب الكريم، والسّنّة الشَّريفة لعرفوا بطلان كلّ هذه المدّعيات الزّائفة، ولرفضوها منطلقين من سُنّة الرّسول الأعظم، وسيرة أوصيائه الطّاهرين، ولا سيّما أمير المؤمنين عليه السلام وما أصدره من بيانات في أيام حكومته خير برهان على زيف مقولة فصل الدّين عن الدّولة بقوله: «**فَإِنَّهُ لا بُدَّ للنّاسِ منْ أَميرٍ برٍّ أَوْ فاجِرٍ، يَعْمَلُ في إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، ويَسْتَمْتِعُ فيها الْكافِرُ، ويُبَلِّغُ اللهُ فيها الأَجَلَ،**

(١) ينظر: الحكومة الإسلاميّة للإمام الخمينيّ: ٤٠-٤١.

(٢) غافر: ٢٦.

وَيُجْمَعُ به الْفَيْءُ، ويُقَاتَلُ به الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ به السُّبُلُ، ويُؤْخَذُ به للضَّعيف مِنَ الْقَوِيِّ، حَتّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، ويُسْتَرَاحَ مِنْ فاجِرٍ»(١).

وخطابه في بيان الحقوق المتبادلة بين الحاكم ورعيّته قائلاً: «**أَيُّها النّاسُ، إنَّ لي عَلَيْكُمْ حَقّاً، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ؛ فَأَمّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالنَّصيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْليمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا، وَتَأْديبُكُمْ كَيْما تَعْلَموا، وأَمّا حَقّي عَلَيْكُمْ: فَالْوَفاءُ بالْبَيْعَةِ، وَالنَّصيحَةُ في الْمَشْهَدِ والْمَغيبِ، وَالإِجابَةُ حينَ أَدْعوكُمْ وَالطّاعَةُ حينَ آمُرُكُمْ**»(٢).

وهكذا يتّضح من خلال كلام أمير المؤمنين عليه السلام أنَّ الحكومة في الإسلام أمرٌ لا يستغنى عنه أبداً، ومن دونه يحصل فراغ سياسيّ ودستوريّ -بحسب التّعبير السّياسيّ اليوم -، وتعمّ الفوضى، ويبغي القويّ على الضّعيف، وتسود الفوضى، وتعمّ البلوى كما يتّضح من خطابه عليه السلام.

نَظَرِيَّةُ السَّيِّدِ الشَّهيدِ الصَّدْرِ في الدَّوْلَةِ:

قبل أن ندخل في صلب البحث لا بدَّ من أن نشير إلى الواقع الاجتماعيّ، والسّياسيّ، والدّينيّ في المؤسّسة الدّينيّة آنذاك...

أمّا الواقع الاجتماعيّ؛ فقد كان يمثّل قمّة التّخلّف لدى النّاس، فليس الدّين آنذاك إلا طقوساً تقليديّةً، وحركات جامدة، وعادات وأعرافاً ابتدعها النّاس، ونُسبَت إلى الدّين جهلاً أو تجاهلاً...

وأمّا الواقع السّياسيّ؛ فقد كان المجتمع الإسلاميّ يعيش في أحطّ درجات

---

(١) نهج البلاغة: ٩٩-١٠٠، خطبة: ٤٠.

(٢) المصدر نفسه: ٩٥، خطبة: ٣٤.

التّخلّف السّياسيّ هذا من جانب، ومن جانب ثانٍ هجوم التّيّارات السّياسيّة المعاكسة للإسلام بأصرح صور علمانيّتها؛ فقد أُعلن الإلحادُ صراحةً وعلى صفحات الجرائد آنذاك إضافةً إلى التّيّارات العنصريّة الّتي تلبَّست بأثواب مختلفة، فمرّة قوميّة، وأخرى اشتراكيّة، وثالثة ديمقراطيّة، ورابعة ليبراليّة، وهلمّ جرّاً من ألفاظ ومصطلحات لا عهد لنا بها؛ ولكي تتلافى حسّاسيّة الأمّة تجاه ما يخالف دينها راحت تلبسها أثواباً قريبة إلى أذواق الأمّة؛ ولذا وصفت الاشتراكيّة بالعربيّة[1]، وألبست القوميّة العنصريّة ثوب الإسلام حين قالت: «كان محمّدٌ كلّ العرب، فليكن كل العرب اليوم محمّداً»[2].

أمّا واقع المؤسّسة الدّينيّة آنذاك بالنّسبة للعمل السّياسيّ في الإسلام؛ فقد كان «التّصوّر الرّاسخ في الذّهنيّة العامّة في الوسط الحوزويّ في السّلبيّة المطلقة تجاه العمل السّياسيّ، من جهة، وتجاه التَّفكير بإقامة حكومة إسلاميّة، من جهة أخرى، فالّذي ينتمي إلى حزبٍ إسلاميّ، محكومٌ عليه بالانحراف عن خطّ الإسلام الصّحيح، وبالارتباط بالاستعمار الكافر، والحكم نفسه صادر سلفاً بدرجة أكبر بحقّ من يدّعي ضرورة إقامة الحكم الإسلاميّ»[3].

بل كانت هناك مظاهر، وعادات، وتقاليد، وأعراف، ورسوم ليس من الإسلام في شيء، محكوم لها العالِم الدّينيّ في ملبسه، وحركته، وقراءته، ودراسته، وتدريسه، بل ونمط تفكيره، يتابعها ذلك الوسط بدقّة، والخروج عليها يعني الانتحار، والتّعرّض إلى محن تصل به حدّ المقاطعة، والتَّكفير، والرَّمي

---

(١) ينظر: السّيّد الشّهيد الصّدر، اقتصادنا: ٢١.

(٢) ميشيل عفلق، في سبيل البعث: ١٤٤/١.

(٣) صائب عبد الحميد، محمّد باقر الصّدر تكامل المشروع الفكريّ والحضاريّ: ١٦٢-١٦٣.

بالانحراف، والزَّندقة، بل مجرّد أنَّ الحديث في المجال السّياسيّ يعدُّ خروجاً من الإسلام، وولاية أهل البيت عليهم السلام، وهلمّ جرّاً من ضغوط باسم الدّين.

فأغلب المفاهيم حرّفت عن معانيها القرآنيّة والنّبويّة كمفهوم الدّين، والإسلام، والتّقوى والصّبر، والحكمة... فأصبح الدّين عبارةً عن علاقة فرديّة جامدة بين الإنسان وربّه، والإسلام طقوساً وتقاليد، وبحثاً في المصطلحات الجامدة على حدّ قولهم إن قلتَ قلتُ...

ولقساوة الظّرف الاجتماعيّ والسّياسيّ، وشدّة تخلّف الأمّة، وانتشار المفهوم السّلبيّ للدّين في الحياة انحصر اهتمام أغلب العلماء بالفتاوى المتعلّقة بالمشكلات الفرديّة والابتعاد والإعراض عن الفقه الاجتماعيّ والسّياسيّ، وبذلك انحصرت البحوث العالية في الحوزة العلميّة بالمسائل العقليّة الافتراضيّة الّتي لا مساس لها بواقع الحياة، بل كانت في كثير من الأحيان تمثّل التّرف الفكريّ الّذي لا يعود على الإسلام وعلى الأمّة بنفع، وقد سمعْتُ من أحد فضلاء الحوزة أنَّ مسألةً عقليّة مجرّدة استمرَّ بها البحث بين علمين من أعلامها اللّذين يشار لهم بالبنان أكثر من سنة، ولم يستقرّ بهما الحال فيها...

هذا من جانب، ومن جانب آخر ضرب بعض العلماء بينه وبين الفكر السّياسيّ فضلاً عن العمل السّياسيّ حجاباً غليظاً لا يمكن اختراقه... فالعمل السّياسيّ حرامٌ مطلقاً، وطرح الفكر السّياسيّ انحراف عن جادّة الصّواب، وتدخّل فيما لا يعنينا لا من بعيد ولا من قريب. فالدّين لأهله، والسّياسة لأهلها، وكلّ يعمل على شاكلته، فإمّا أن يكون الإنسانُ متديّناً أو سياسيّاً، أمّا أن يكون متديّناً سياسيّاً، فذلك شذوذ وانحراف...

بمثل هذا الجوّ انطلق السّيّد الشّهيد الصّدر لِيُنَظّر للدّولة الإسلاميّة، وليضع

البُنى التّحتيّة لتغيير المجتمع، وبناء الدّولة الإسلاميّة بصورتها المحمّديّة الأصيلة... ولهذا بدأ من نقطة الصّفر في أواخر النّصف الأوّل من القرن العشرين... فانطلق إشعاعة نور في ظلام حالك، فبدأ بتغيير المفاهيم السّلبيّة عن الإسلام في ذهنيّة الأمّة، ليهيّئ الأرضيّة الصّالحة، ولو على المدى الطَّويل...

فطّرح للدّين مفهوماً يختلف كلّ الاختلاف عمّا ألفه النّاس من أنَّه علاقةٌ فرديّةٌ بين العبد وربّه إلى أنَّه عقيدةٌ ونظامٌ شاملٌ لجميع نواحي الحياة، فقال: «الدّين ليس كلمات جامدة تردّدها الشّفاه، ولا طقوساً تقليديّةً تؤدّيها العضلات، وإنّما هو عقيدة، وكيان، ومنهج في التّفكير»[1]، وقصد بكلمة كيان هو الكيان السّياسيّ، وبعد حين قصير طرح مفهوماً أوضح وأركز، فقال: «هو ثورةٌ لقلب الواقع الفاسد، وتحويله إلى واقع سليم»[2].

ثمّ راح يؤسّس لبعث الرّوح الحركيّة الفاعلة المغيّرة في الفكر والسُّلوك الاجتماعيّ والسّياسيّ والاقتصاديّ، وأعطى بذلك للإسلام بعداً رساليّاً مغّيراً، قال: «وهذا هو الإسلام في أخصر عبارة وأروعها، فهو عقيدة معنويّة وخلقيّة، ينبثق عنها نظام كامل للإنسانيّة، يرسم لها شوطها الواضح المحدّد، ويضع لها هدفاً أعلى في ذلك الشَّوط، ويعرّفها على مكاسبها منه»[3].

وهكذا راح يفجّر الوعي الرّساليّ الحركيّ في ذهنيّة أبناء الأمّة، فخلق تيّاراً روحيّاً وفكريّاً حركيّاً دعويّاً مغيّراً، وبطرح رساليّ مركز بليغ، يهزّ الوجدان، ويحرّك الضَّمير، ويبعث في النّفوس الأمل، ويوقظ الهمم، فقال: «الإسلام ثورة لا

(١) السّيّد الشّهيد الصّدر، المدرسة القرآنيّة: ٣٦٤.

(٢) اقتصادنا: ٣٦٢.

(٣) السّيّد الشّهيد الصّدر، فلسفتنا: ٥٩.

تنفصل فيها الحياة عن العقيدة، ولا ينفصل فيها الوجه الاجتماعيّ عن المحتوى الرّوحيّ، ومن هنا كان ثورةً فريدةً على مرّ التّأريخ»[١].

وقال أيضاً: «الإسلام - الّذي كافح من أجله الأنبياء - ثورة اجتماعيّة على الظُّلم والطُّغيان، وعلى ألوان الاستغلال والاستعباد»[٢].

وهكذا حرّر ذهنيّة الأمّة، وأطلق الفكر الإسلاميّ من السّجن الَّذي حُبِسَ فيه، وأبطل أسطورة «الدّين أفيون الشّعوب»، ونسف المحاولات البائسة لفصل الدّين عن السّياسة، والإسلام عن الدّولة، وركّز في وجدان الإنسان الواعي أنَّ الإسلام دين الدّولة، وأنَّ دولةً بلا إسلام غابةٌ يحكم فيها الظّفر والنّاب.

بعد هذه المقدّمة المقتضبة عن الوضع الَّذي انطلق منه لننظر كيف نظَّر السّيّد الشّهيد الصّدر للدّولة، فبعد أن مهَّد الأرضيّة، لقبول أطروحته الفكريّة والسّياسيّة من خلال مشروعه الحضاريّ العظيم المتمثّل في تأسيس حزب الدَّعوة الإسلاميّة، الَّذي عرَّفه بكلمات موجزة جامعة مانعة بأنَّه: «حركةٌ في الأمّة، وتنظيمٌ في العمل، وتحزّب لله»، ومن خلال ذلك وضع الأسس العامّة لقيام دولة الإسلام في الأرض؛ «فالإسلام - إذن - مبدأٌ كاملٌ؛ لأنَّه يتكوّن من عقيدة كاملة في الكون، ينبثق عنها نظامٌ اجتماعيٌّ شاملٌ لأوجه الحياة، ويفي بأمسّ حاجتين للبشريّة وأهمّهما، وهما القاعدة الفكريّة، والنّظام الاجتماعيّ»[٣]، ثمّ راح يؤكّد أنَّ الدَّولةَ ظاهرةٌ اجتماعيّةٌ أصيلةٌ...

وعلى هذا الأساس قسَّم الدّول على ثلاثة أنواع، وهي:

---

(١) الإسلام يقود الحياة: ٣٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣٣.

(٣) السّيّد محمّد باقر الصّدر، أسس الدّولة الإسلاميّة: ٦٣.

١- دولة قائمة على قاعدة فكريّة مضادّة للإسلام كالدّولة الشّيوعيّة، والدّولة الدّيمقراطيّة الرّأسماليّة.

٢- الدّولة الّتي لا تملك لنفسها قاعدة فكريّة معيّنة كما هو شأن الحكومات القائمة على أساس إرادة حاكم وهواه، أو المُسَخَّرة لإرادة أمّة أخرى ومصالحها.

٣- الدّولة الإسلاميّة، وهي الدّولة الّتي تقوم على أساس الإسلام، وتستمدّ منه تشريعاتها بمعنى أنَّها تعتمد الإسلام مصدرها التّشريعيّ، وتعتمد المفاهيم الإسلاميّة منظارها الّذي تنظر به إلى الكون والحياة والمجتمع.

وبعد أن حدّد هويّة الدّولة الإسلاميّة، وأكّد أنّ فكرة الدَّولة ظهرت على يد الأنبياء والمرسلين، وظلّوا «يواصلون بشكل وآخر دورهم العظيم في بناء الدّولة الصّالحة، وقد تولّى عدد كبير منهم الإشراف المباشر على الدّولة، كداود وسليمان وغيرهما، وقضى بعض الأنبياء كلّ حياته، وهو يسعى في هذا السَّبيل، كما في حالة موسى عليه السلام، واستطاع خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله أن يتوّج جهود سلفه بإقامة أنظف وأطهر دولة في التّأريخ شكّلت بحقّ منعطفاً عظيماً في تأريخ الإنسان، وجسّدت مبادئ الدّولة الصّالحة تجسيداً كاملاً ورائعاً»[(١)].

وهكذا أثبت السّيّد الشّهيد الصّدر أنّ قيام الدّولة أمرٌ إسلاميٌّ رساليٌّ إلهيٌّ عميقٌ في حركة التّوحيد على طول خطّ التّأريخ، وبذلك نسف كلّ التّنظيرات الواهية الّتي أرادت إثبات عدم إمكان قيام دولة إسلاميّة في عصر الغيبة، وبهذا فنَّد فكرة فصل الدّين عن السّياسة.

وبعد أن أثبت أنّ الله تعالى بشريعته الغرّاء، وضع للدّولة أسسها وقواعدها باستنباط دقيق من قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ

(١) الإسلام يقود الحياة: ١٤-١٥.

وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١]، ركّز دعائم نظريّة الدّولة القائمة على أساس الإسلام بوصفه شريعة تقود الحياة، وتقوم على أساسه بقيادة المرجعيّة الرّشيدة الّتي تخطّط للدّولة، وتستنبط الأحكام والقوانين لها، وعلى أساس الوعي الّذي يحمله المؤمنون، وعلى أساس هذا الإيمان قرّر أنّ مصدر السُّلطات التّشريعيّة والتّنفيذية هو الله تعالى، وقرّر على ضوء ذلك أنّ «هذه الحقيقة الكبرى تعتبر أعظم ثورة شنّها الأنبياء ومارسوها في معركتهم من أجل تحرير الإنسان من عبوديّة الإنسان»[٢].

ولكي يرفع الالتباس، ولئلا يخلط البعض بين نظريّة أنّ السّيادة لله وحده، وبين نظريّة (الحقّ الإلهيّ) أكّد أنّ نظريّة «السّيادة لله تعالى الّتي دعا إليها الأنبياء تحت شعار: «لا إله إلا الله» تختلف اختلافاً أساسياً عن الحقّ الإلهيّ الّذي استغلّه الطُّغاة والملوك والجبابرة قروناً من الزّمن للتّحكّم والسّيطرة على الآخرين؛ فإنّ هؤلاء وضعوا السّيادة اسميّاً لله؛ لكي يحتكروها واقعيّاً، وينصّبوا من أنفسهم خلفاء لله على الأرض»[٣].

وبعد أن أكّد أنّ السّيادة لله تعالى، ولا سيادة لإنسان على آخر أكّد أنّ الشّريعة الإسلاميّة هي مصدر التّشريع بمعنى أنّه المصدر الوحيد الّذي يستمدّ منه الدّستور، وتُشَرّع على ضوئه القوانين.

وما أن وضع الأساس العقائديّ للدّولة وهو أنّ السّيادة لله وحده، وأنّ

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) الإسلام يقود الحياة: ١٨.

(٣) المصدر نفسه.

الإسلام مصدر التَّشريع الوحيد راح يرسم الصّورة التّنفيذيّة لتفعيل هاتين الدّعامتين اللّتين تتكوّن وتنشأ الدّولة على أساسهما، ورفض كلّ أشكال الحكم كنظريّة التّغلّب والتّفويض الإلهيّ للجبّارين، ونظريّة العقد الاجتماعيّ، ونظريّة تطوّر الدّولة عن العائلة... وأثبت أنّ الدّولة ظاهرة نبويّة لتصعيد العمل الإسلامّي، بل المسألة في نشوء الدَّولة أعمق من ذلك؛ فإنَّها «ظاهرةٌ اجتماعيَّةٌ أصيلةٌ في حياة الإنسان، وقد نشأت هذه الظّاهرة على يد الأنبياء ورسالات السّماء، واتَّخذت صيغتها السّويّة، ومارست دورها السَّليم في قيادة المجتمع الإنسانيّ، وتوجيهه من خلال ما حقّقه الأنبياء في هذا المجال من تنظيم اجتماعيّ قائم على أساس الحقّ والعدل»[1].

وأمّا وظيفة الدّولة الإسلاميّة وتطبيقاتها؛ فقد رفض فكرة أصالة الفرد المتمثّل في الطّرح الرّأسماليّ، وأصالة المجتمع (المذهب الاشتراكيّ)، وحدّد وظيفة الدولة الأساسيّة بتطبيق شريعة السَّماء الَّتي أعطت للفرد حقّه وللمجتمع حقّه، ووازنت بينهما بدون أن تبخس حقَّ أحد منهما... وبذلك رفض النّظام الملكيّ، والنّظام الارستقراطيّ، وطرح شكلاً للحكم قائماً على أساس الإسلام، وبذلك أحرز كلّ إيجابيّات النّظام الدّيمقراطيّ، وتجنّب سلبيّاته المتمثّلة في صناعة الدُّستور بيد الإنسان لا من شريعة الله.

وهكذا يتّضح أنَّ الدَّولة في نظر الإمام الصّدر ﵀ لم تكن مجرّد أداة سياسيّة وإداريّة تشرف على مسيرة المجتمع، وتحقّق أهدافاً اجتماعيّة وسياسيّة واقتصاديّة، وإنّما هي «ظاهرة اجتماعيّة أصيلة في حياة الإنسان»، وضع الله تعالى أسسها وقواعدها... وواصل الأنبياء دورهم في بنائها، واستدلَّ على ذلك بقوله

(١) الإسلام يقود الحياة: ١٣.

تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[(١)].

إذن الدّولة في النّظريّة الإسلاميّة مؤسّسةٌ إلهيّةٌ نبويّةٌ تقوم على أساس الإيمان بالله وصفاته: تربّي الفرد، وتبني المجتمع؛ ليكون الإنسان سيّداً للدُّنيا، لا عبداً لها، ومالكاً للطّيّبات، لا مملوكاً لها، ومنطلقاً إلى حياة أوسع وأغنى من حياة الأرض.

ومن هنا حدَّد أهمّ وظائف الدّولة وهي تنمية الإنسان من خلال بناء المحتوى الدّاخليّ وتحريره من النّوازع الدّاخليّة بتركيز علاقته بالله تعالى، وسعيه المستمرّ نحو المطلق في عمليّة البناء والإبداع والتّجديد...

وبهذا البناء الصّالح للمواطن في الدّولة الإسلاميّة يستطيع الإنسان أن يتحرّر من مغريات الأرض، ويرتفع عن الهموم الصَّغيرة الَّتي تفصله عن الله، ويعيش من أجل الهموم الكبيرة.

وكان السّيّد الشّهيد يؤكّد أنَّ على الدولة العملَ على تنمية الطّاقات الخيّرة لدى الإنسان؛ لتوظيفها لخدمة الإنسان، ومن أهمّ مدلولات ذلك:

١- عمل الدّولة على استئصال كلّ علاقات الاستغلال للإنسان لأخيه الإنسان في كلّ مجالات الحياة الفكريّة والسّياسيّة والاقتصاديّة، وبذلك توفّر للمجتمع طاقتين طاقة المستغَلّ وطاقة المستغِلّ، وبذلك تعيد للإنسان حرّيّته وكرامته.

(١) البقرة: ٢١٣.

٢- المدلول الواقعيّ الَّذي يعيشه الحاكمون في الدّولة الإسلاميّة؛ فإنَّهم يعيشون مواطنين اعتياديّين في حياتهم الخاصّة، وسلوكهم مع النّاس، ومساكنهم الَّتي يسكنونها، وعلاقاتهم مع الآخرين.

٣- ومن المدلولات السّياسيّة في علاقة الدّولة الإسلاميّة في السّاحة الدّوليّة تقوم على أساس العدل والحقّ ونصرة المستضعفين، لا على أساس المصالح المتبادلة والاستغلال لخبرات الشّعوب؛ وهكذا تصبح الدّولة مؤسّسة إلهيّة لتعبئة كلّ طاقات الأمّة، وتفجيرها، وتحريكها في مسار البناء الرّوحيّ والفكريّ والاقتصاديّ من دون إكراه أو جبر أو ترغيب أو ترهيب، وإنَّما تخلق الدّوافع الذّاتيّة في جعل (رضوان الله غايةً في كلّ عمل).

وقد أشار السّيّد الصَّدر قدس سره إلى واجبات الحكومة، وقسَّمها على قسمين في الداخل والخارج، قال رحمه الله: «ففي الدّاخل تستهدف:

أوّلاً: تطبيق الإسلام في مختلف مجالات الحياة.

ثانياً: تجسيد روح الإسلام بإقامة مبادئ الضّمان الاجتماعيّ، والتّوازن الاجتماعيّ، والقضاء على الفوارق بين الطّبقات في المعيشة، وتوفير حدّ أدنى كريم لكلّ مواطن، وإعادة توزيع الثروة بالأساليب المشروعة، وبالطَّريقة الَّتي تحقّق هذه المبادئ الإسلاميّة للعدالة الاجتماعيّة.

ثالثاً: تثقيف المواطنين على الإسلام تثقيفاً واعياً، وبناء الشَّخصيّة الإسلاميّة العقائديّة في كلّ مُواطِن؛ لتتكوّن القاعدة الفكريّة الرّاسخة الّتي تمكّن الأمّة من مواصلة حمايتها للثّورة.

وفي الخارج تستهدف الدّولة:

أوّلاً: حمل نور الإسلام، ومشعل هذه الرّسالة العظيمة إلى العالم كلّه.

ثانياً: الوقوف إلى جانب الحقّ والعدل في القضايا الدّوليّة، وتقديم المَثَل الأعلى للإسلام من خلال ذلك.

ثالثاً: مساعدة كلّ المستضعفين والمعذّبين في الأرض، ومقاومة الاستعمار والطّغيان، وبخاصّة في العالم الإسلاميّ الَّذي تعتبر إيران جزءاً لا يتجزّأ منه»(١).

وختاماً أقول بعد هذا العرض الموجز لنظريّة الدّولة في الإسلام، لقد كان للسّيّد الشَّهيد رحمه الله هدفٌ أساسيٌّ سعى من أجله بكلّ ما يملك من فكر خلاق تنظيراً وتشريعاً وتجسيداً سلوكيّاً، هذا الهدف هو إعادة الأمّة إلى نهج الإسلام؛ ليكون لها قائداً وموجّهاً وحاكماً؛ لتنهض من كبوتها وغفلتها إلى آفاق السَّماء الرَّحبة.

دَوْرُ الْحُكومَةِ في حَياةِ الْمُجْتَمَعِ:

إنَّ وجود الحكومة والقيادة في أيّ مجتمع ضرورة مبدئيّة، واجتماعيّة، وسياسيّة، ولا يمكن الاستغناء عنها بحال؛ ولهذا يجب السّعي من أجل إقامة الحكم الإلهيّ، وتأمير الصّالحين من ذوي التّقوى والورع، والقدرة الإداريّة، والكفاءة السّياسيّة من المؤمنين.

وتشكيل الحكومة في الإسلام يحتلّ موقعاً متقدّماً، ودليلنا على ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عباد الله عنْدَ الله إمامٌ عادلٌ، هُدِيَ وهَدى، فأَقامَ سُنَّةً مَعْلومَةً، وأَماتَ بدْعَةً مجْهولَةً، وإنَّ السُّنَنَ لَنيِّرَةٌ لَها أَعْلامٌ، وَإنَّ الْبِدَعَ لَظاهِرَةٌ لَها أَعْلامٌ، وَإنَّ شَرَّ النّاسِ عِنْدَ الله إمامٌ جائرٌ ضَلَّ وَضُلَّ**

(١) الإسلام يقود الحياة: ٢٢-٢٣.

به، فَأَماتَ سُنَّةً مَأْخوذَةً، وأَحْيا بدْعَةً مَتْروكَةً، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسولَ الله ﷺ يَقولُ: "يُؤْتى يومَ الْقيامة بالإمامِ الْجائر، ولَيْسَ معه نَصيرٌ ولا عاذرٌ، فيُلْقى في نار جهنَّم، فيَدورُ فيها كما تدورُ الرَّحى، ثُمَّ يرْتَبِطُ[(١)] في قَعْرِها"»[(٢)].

وهذا هو نفس ما أكّده القرآن الكريم في تقسيمه الحكّام إلى أئمّة العدل وأئمّة الجور، يقول تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾[(٣)].

﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ**﴾[(٤)].

ومن خلال ذلك يتّضح لنا تأثير عقائد الزّعماء والحُكّام سواء كانوا دينيّين، أو كانوا سياسيّين، أو دينيّين سياسيّين في تقرير مصير الأمّة على مختلف الصُّعد الفكريّة والسّياسيّة والاجتماعيّة؛ ولهذا أكَّد رسول الله ﷺ على خطورة هذا الأمر، قال ﷺ: «**صِنْفانِ منْ أُمَّتي إذا صَلُحا صَلُحَتْ أُمَّتي، وَإذا فَسَدا فَسَدَتْ أُمَّتي**، قيلَ: يا رسول الله، ومن هما؟ قال: **الْفُقَهاءُ وَالأُمَراءُ**»[(٥)].

باستقامة هاذين الصّنفين يستقيم النّظام وينحرف بانحرافهما، «وبالجملة حفظ النّظام من أوجب الواجبات، والهرج والمرج واختلال أمور المسلمين من أبغض الأشياء لله – تعالى –، ولا يتمّ حفظ النّظام إلا بالحكومة»[(٦)].

---

(١) يرتبط: يُشدّ.

(٢) نهج البلاغة: ٢٦٦، خطبة: ١٦٤، من كلام له عليه السلام في نصيحة عثمان أثناء حصاره.

(٣) الأنبياء: ٧٣.

(٤) القصص: ٤١.

(٥) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٣٧/١.

(٦) الشّيخ المنتظريّ، دراسات في ولاية الفقيه: ١٨٧/١.

إذن دور الأمراء دورٌ خطيرٌ له آثار على بناء المجتمع وتربيته، فالنّاس على دين ملوكهم، فإذا كان الحاكم مستقيماً عادلاً منصفاً قاد الرّعية إلى الصّلاح، والعكس صحيح، وهذا من أشدّ ما كان يقلق أمير المؤمنين عليه السلام، ويحزنه؛ ولهذا كان يبثّ آهاته وحسراته قائلاً: «**وَلَكِنَّنِي آسَى أَنْ يَلِيَ هذه الأُمَّةَ سُفَهاؤُها وَفُجّارُها، فَيَتَّخِذوا مالَ الله دُوَلاً، وَعِبادَهُ خَوَلاً، وَالصّالحينَ حَرْباً وَالْفاسِقينَ حِزْباً؛ فَإِنَّ مِنْهُمُ الَّذي شَرِبَ فيكُمُ الْحَرامَ، وَجُلِدَ حَدّاً في الإِسْلامِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتّى رُضِخَتْ لَهُ عَلى الإِسْلامِ الرَّضائِخُ**[1]»[2].

وهكذا يتّضح لنا خطورة الأمر على الإنسانيّة فضلاً عن المسلمين إذا تولّى السّفهاء والظّالمون الحكمَ، وما أكثر الكوارث والويلات الّتي مرَّت على الإسلام والمسلمين من تحكّم الطُّغاة على طول خطّ التّأريخ برقاب المسلمين، وما تحمّلته البشريّة من تحكّم العناصر الغاشمة والفاسدة والجاهلة في مصير الأمّة، فقد سفكوا الدّماء، ونهبوا الثّروات، وسلبوا الحقوق، واستعبدوا الأحرار، واستحيوا النّساء، وقد وصف أمير المؤمنين عليه السلام آثار فسق حكّام الجور وفسادهم وذلك في وصف

(١) الرَّضائخ: أي العطايا، قال ابن أبي الحديد: «فأمّا الّذي رُضِخت له على الإسلام الرّضائخ، فمعاوية؛ والرَّضيخة شيء قليل يُعطاه الإنسان يُصانَع به عن شيء يُطْلَب منه كالأجر؛ وذلك لأنّه من المؤلّفة قلوبهم الّذين رغبوا في الاسلام والطّاعة بجمال وشاء دُفعَت إليهم، وهم قوم معروفون كمعاوية وأخيه يزيد، وأبيهما أبي سفيان، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام ابن المغيرة، وحويطب بن عبد العُزّى، والأخنس بن شَريق، وصفوان بن أميّة، وعمير بن وهب الجمحيّ، وعُيَيْنة بن حصن، والأقرع بن حابس، وعبّاس بن مرداس وغيرهم، وكان إسلام هؤلاء للطّمع والأغراض الدّنياويّة، ولم يكن عن أصل ولا عن يقين وعلم»، شرح نهج البلاغة: ٢٢٦/١٧.

(٢) نهج البلاغة: ٤٧٢، كتاب: ٦٢.

سياسة الأمويّين قائلاً: «**وَاللهِ لا يَزالونَ حَتّى لا يَدَعوا لله مُحَرَّماً إلا اسْتَحَلّوهُ، وَلا عَقْداً إلا حَلّوهُ، حَتّى لا يَبْقى بَيْتُ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إلا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ، وَنَبا بِهِ سوءُ رَعْيِهِمْ، وَحَتّى يَقومَ الْباكِيانِ يَبْكِيانِ: باكٍ يَبْكي لِدينِهِ، وَباكٍ يَبْكي لِدُنْياهُ**»(١).

والسّرّ في ذلك: أنَّ تُجّار السّياسة وعُشّاق الرّئاسة وشياطينها إذا أصبحت مقدّرات الأمّة الماليّة والعسكريّة والإداريّة بأيديهم، فإنَّهم يتفنّنون في جرائمهم؛ لإشباع غرائزهم، ويمكن أن نذكر بعض آثارهم:

١- تصبح الأحكام والقوانين والشّرائع الإلهيّة لعبةً بأيديهم، ويخضعونها لرغباتهم وأهوائهم النّفسيّة، ويفسّرونها ويتصرّفون بها كما تملي عليهم غرائزهم.

٢- إنَّ سياستهم ستقوم على الخديعة والغدر والظّلم، فلا يلتزمون بعهد ولا ميثاق، وحينئذٍ تُفْقَد الثّقة بين النّاس، وبين الحكومة، وتعمّ الفوضى.

٣- ونتيجة ما تقدّم سيعمّ الظُّلم والجور، وينتشر الجهل والتَّجاوز على الحدود الشّرعيّة في جميع أرجاء المجتمع.

٤- إنَّ الكوارث ستعمّ دنيا النّاس كما تعمّ دينهم، وبذلك يصاب البلد بالفناء والبوار.

وأدقّ وصف لتأثيرات الحكام الظّلمة ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام:

«**...فَعِنْدَ ذلِكَ أَخَذَ الْباطِلُ مَآخِذَهُ، وَرَكِبَ الْجَهْلُ مَراكِبَهُ، وَعَظُمَتِ الطّاغِيَةُ، وَقَلَّتِ الدّاعِيَةُ، وَصالَ الدَّهْرُ صِيالَ السَّبُعِ الْعَقورِ، وَهَدَرَ فَنيقُ**

(١) نهج البلاغة: ١٧١-١٧٢، خطبة: ٩٧.

الْباطلِ[١] بَعْدَ كُظومٍ[٢]، وتَواخى النّاسُ عَلى الْفُجور، وتَهاجَروا عَلى الدّين، وَتَحابّوا عَلى الْكَذِب، وتَباغَضوا على الصِّدْق؛ فَإذا كانَ ذلكَ كانَ الْوَلَدُ غَيْظاً[٣]، والْمَطَرُ قَيْظاً[٤]، وتَفيضُ اللِّئامُ فَيْضاً، وتَغيضُ الْكِرامُ غَيْضاً، وكانَ أَهْلُ ذلكَ الزَّمان ذئاباً، وسَلاطينُهُ سباعاً، وأَوْساطُهُ أُكّالاً[٥]، وفُقَراؤُهُ أَمْواتاً، وَغارَ الصِّدْقُ، وفاضَ الْكَذِبُ، واسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ باللِّسان، وتَشاجَرَ النّاسُ بالْقُلوب، وصارَ الْفُسوقُ نَسَباً، والْعَفافُ عَجَباً، ولُبِسَ الإسْلامُ لُبْسَ الْفَرْوِ مَقْلوباً»[٦].

أَهْدافُ الْحُكومَةِ عِنْدَ الإمامِ عَلِيٍّ عليه السلام:

١- «أَما وَالَّذي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وبَرَأَ النَّسَمَةَ[٧]، لَوْلا حُضورُ الْحاضرِ[٨]، وَقيامُ الْحُجَّةِ بِوُجودِ النّاصرِ[٩]، وما أَخَذَ اللهُ عَلى الْعُلَماءِ أَلا يُقارّوا عَلى

(١) هدر: صاح، وفنيق الباطل: فحله.

(٢) الكظوم: الإمساك والسّكوت.

(٣) أي يغيظ والديه.

(٤) القيظ: الصّيف، أي لا يكون المطر مثمراً، بل مضرّاً.

(٥) أكّالاً: طعاماً.

(٦) نهج البلاغة: ١٨٦، خطبة: ١٠٧.

(٧) برأ: خلق، والنّسمة: الرّوح.

(٨) من حضر لبيعته من النّاس.

(٩) أي أنّه مع وجود المقاتلين النّاصرين للحقّ لا يجوز القعود عن التّصدّي للقيام بمهمّات الحكم والإصلاح، فوجود الأنصار على الحقّ حجّة على القائد، لا بدّ معها من الحركة والقيام بالأمر.

كظَّة(١) **ظالم، ولا سغَب**(٢) **مظلوم، لألْقَيْتُ حبْلَها على غاربها**(٣)**، ولسَقَيْتُ آخرَها بكأْس أوَّلها، ولأَلْفَيْتُم دُنْياكُمْ هذه أزْهَدَ عنْدي منْ عفْطة عنْز**(٤)»(٥).

وقال عبد الله بن عبّاس: «دخلتُ على أمير المؤمنين صلوات الله عليه بذي قار، وهو يخصف نعله، فقال لي: **ما قيمةُ هذا النَّعْل؟** فقلتُ: لا قيمة لها، فقال عليه السلام: **وَالله لَهي أَحَبُّ إليَّ منْ إمْرَتكُمْ إلا أنْ أُقيم حقّاً، أَوْ أَدْفَعَ باطلاً**»(٦).

وقال عليه السلام: «**اللّهُمَّ، إنَّكَ تعْلَمُ أنَّه لمْ يكُن الَّذي كانَ منّا مُنافسةً في سلْطان، وَلا الْتماسَ شيْء منْ فُضول الْحُطام، ولكنْ لنرد الْمعالمَ منْ دينك، ونُظْهرَ الإصْلاحَ في بلادكَ، فيأْمنَ الْمظْلومونَ منْ عبادكَ، وتُقامَ الْمُعطَّلَةُ منْ حُدودكَ**»(٧).

وَسائِلُ مُكافَحَةِ الظُّلْمِ في نَهْجِ الإمامِ عَلِيٍّ عليه السلام:

أوّلاً: التَّخويف من عدل الله، وشدّة حسابه، والتَّحذير من عقابه جلَّ جلاله

(١) الكظّة: ما يعتري الآكل من الضّيق عند امتلاء البطن بالطّعام، والمراد هنا تعدّي الظّالم على حقوق النّاس.

(٢) السّغب: شدّة الجوع، والمراد هنا هضم حقوق الضّعيف.

(٣) الغارب: الكاهل، النّاقة حين يتركها قائدها فلا يقودها يرخي لها الخطام، فالكلام تصوير للتّرك وإرسال الأمر.

(٤) عفطة العنز: ما تنثره من فمها، الشّروح في الهامش من كتاب دراسات في نهج البلاغة للشّيخ محمّد مهدي شمس الدّين: ٣٦٢-٣٦٣.

(٥) نهج البلاغة: ٥٥-٥٦، خطبة: ٣.

(٦) نهج البلاغة: ٩١، خطبة: ٣٣.

(٧) نهج البلاغة: ٢٢٠، خطبة: ١٣١.

للظّالمين، قال عليه السلام: «ومَنْ ظَلَمَ عبادَ الله كانَ اللهُ خَصْمَهُ دونَ عباده، ومَنْ خاصمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وكانَ لله حَرْباً حتّى يَنْزِعَ ويَتوبَ، ولَيْس شَيْءٌ أَدْعى إلى تَغْيير نعْمَة الله وتَعْجيل نقْمَته منْ إقامَة على ظُلْمٍ؛ فإنَّ اللهَ سَميعٌ دَعْوَةَ الْمُظلومين، وهُوَ للظّالمينَ بالْمرْصاد»[1].

وقالَ عليه السلام: «يَوْمُ الْمَظْلومِ عَلى الظّالِمِ، أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الظّالِمِ عَلى الْمَظْلومِ»[2].

وقالَ عليه السلام: «يَوْمُ الْعَدْلِ عَلى الظّالِمِ، أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الْجَوْرِ عَلى الْمَظْلومِ»[3].

ثانياً: إثارة الشّعور الإنسانيّ عند الحاكمين والولاة في وصاياه لهم، قال عليه السلام لمالك الأشتر: «وأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ للرَّعيَّة، والْمَحبَّةَ لَهُمْ واللُّطْفَ بهمْ، ولا تَكونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضارياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ؛ فإنَّهُمْ صنْفان، إمّا أَخٌ لَكَ في الدّين، وإمّا نَظيرٌ لَكَ في الْخَلْق، يَفْرُطُ منْهُمُ الزَّلَلُ، وتَعْرِضُ لَهُمُ الْعلَلُ، ويُؤْتى على أَيْديهِمْ في الْعَمْد والْخَطَأ؛ فَأَعْطِهِمْ منْ عَفْوِكَ وصَفْحكَ، مثْل الَّذي تُحبُّ أَنْ يُعْطيَكَ اللهُ منْ عَفْوه وصَفْحه؛ فإنَّكَ فَوْقَهُمْ، ووالي الأَمْر عَلَيْكَ فَوْقَكَ، واللهُ فَوْقَ مَنْ وَلاكَ، وقَد اسْتَكْفاكَ أَمْرَهُمْ، وابْتَلاكَ بهمْ»[4].

ثالثاً: رفض عليه السلام أن يعامل أو يداري أحداً من الظّالمين، ولو حاولوا التّقرّب

(١) نهج البلاغة: ٤٥١، كتاب: ٥٣.

(٢) المصدر نفسه: ٥٢٥، قصار الحكم: ٢٣٢.

(٣) المصدر نفسه: ٥٤٢، قصار الحكم: ٣٣٢.

(٤) المصدر نفسه: ٤٥٠، كتاب: ٥٣.

تملّقاً إليه، أتاه الأشعث بن قيس بهديّة ملفوفة من الحلوى يتقرّب إليه بها، وصف عليه السلام ذلك بقوله: «... **وأَعْجَبُ منْ ذلكَ طارقٌ طَرَقَنا بمَلْفوفَة في وعائها، ومَعْجونَة شَنئْتُها**[1]**، كأَنَّما عُجنَتْ بريق حيَّة أَوْ قَيْئها، فَقُلْتُ: أَصلَةٌ، أَمْ زَكاةٌ، أَمْ صدَقَةٌ؟ - فَذلك مُحَرَّمٌ عَلَيْنا أَهْلَ الْبيْت! فَقالَ: لا ذا ولا ذاك، ولكنَّها هَديَّةٌ، فَقُلْتُ هبلَتْكَ الْهبولُ**[2]**! أَعَنْ دين الله أَتَيْتَني لتَخْدَعَني! أَمُخْتَبطٌ أَنْتَ أَمْ ذو جنَّة، أَمْ تَهْجرُ! والله لوْ أُعْطيتُ الأَقاليم السَّبْعَة بما تَحْتَ أَفْلاكها، على أَنْ أَعْصيَ اللهَ في نَمْلَة أَسْلُبها جُلْبَ شَعيرَة ما فعلْتُه**»[3].

رابعاً: كان يفضّل أن يكون مظلوماً، ولا يكون ظالماً ما دامت عاقبة الظُّلم وخيمةً، وتلك النّظريّة في واقع الأمر لم يقلها، ولم يفعلها غيره، ولم يفضّلها أحدٌ سواه، وهي نظريّة تستمدّ جذورها من الاعتقاد باليوم الآخر، قال عليه السلام:

«**واقْدموا على الله مَظْلومينَ، ولا تَقْدموا علَيْه ظالمين**»[4].

«**والله لأَنْ أَبيتَ على حَسَك السَّعْدان**[5] **مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ في الأَغْلال مُصفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ منْ أَنْ أَلْقى اللهَ ورسولَهُ يوْمَ الْقيامَة ظالماً لبَعْضِ الْعباد،**

(١) شنئتها: أبغضتها وكرهتها.

(٢) هبلتك: ثكلتك، والهَبول: المرأة الّتي لا يعيش لها ولد.

(٣) نهج البلاغة: ٣٧٤، خطبة: ٢٢٣.

(٤) نهج البلاغة: ٢٤٢، خطبة: ١٥١.

(٥) الحسك: شوك لا يكاد أحد يمشي عليه إذا يبس، إلا من في رجليه خفٌّ أو نعل؛ لخشونته، وهو أنواع منها حسك السَّعدان ينظر: لسان العرب: ٤١١/١٠، (حسك)؛ والسّعدان: «نبت شوكيّ ذو حسك، لها ثلاث أرؤس محدّدة على أيّ وجه وقعت من الأرض كان لها رأسان قائمان» شرح نهج البلاغة لابن ميثم: ٨٤/٤

وَغاصباً لشَيْءٍ منَ الْحطامِ، وكَيْفَ أَظْلمُ أَحداً لنَفْسٍ يُسْرِعُ إلى الْبلى قُفولُها، وَيَطولُ في الثَّرى حُلولُها»(١).

خامساً: رفض أعوان الظّلمة والسّائرين على نهجهم من ضعاف النُّفوس، أو أصحاب المطامع الدّنيويّة الطّامحين لتولّي المناصب العليا في الدّولة من ديوان عليّ عليه السلام؛ ولذا وجدناه يحذّر ولاته من استعمالهم في الحكم، وإدارة شؤون الأمّة، قال عليه السلام لمالك الأشتر رحمه الله عندما ولاه مصر: **«شَرُّ وُزَرائكَ مَنْ كانَ للأَشْرار قَبْلَكَ وَزيراً، وَمَنْ شَرِكَهُمْ في الآثام، فَلا يَكونَنَّ لكَ بطانَةً، فَإنَّهُمْ أَعْوانُ الأَثَمَة، وَإخْوانُ الظَّلَمَة، وَأَنْتَ واجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَف، مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرائهِمْ وَنَفاذِهِمْ، ولَيْسَ عَلَيْه مِثْلُ آصارِهِمْ**(٢)**، وَأَوْزارِهِمْ، وَآثامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعاوِنْ ظالماً عَلى ظُلْمه، ولا آثماً عَلى إثْمه، أُولئكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعونَةً، وَأَحْنى عَلَيْكَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لغَيْرِكَ إلْفاً، فَاتَّخذْ أُولئكَ خاصَّةً لخَلَواتكَ وَحَفَلاتكَ»**(٣).

مَوْقِعُ الْحاكِمِ مِنَ الْأُمَّةِ في الإِسْلامِ:

الحاكم في الإسلام موقعه من الأمّة موقع الأمين لا المتسلّط؛ لأنّه مؤتمن على مقدّرات النّاس، وعن نشر القسط والعدل بين أبناء الأمّة، فهو مسؤول أوّل، وحارس، ومؤتمن، ومستودع، وليس من حقّه أن يتصرّف في مقدّرات الشّعب كما يحلو له، وإنّما عليه أن يحفظ أموال الأمّة، ويوزّعها بالعدل إليهم، هذا المعنى

---

(١) المصدر نفسه: ٣٧٣، خطبة: ٢٢٣.

(٢) الآصار، جمع إصر، وهو الوزر والثّقل.

(٣) المصدر نفسه: ٤٥٢، كتاب: ٥٣.

السّياسيّ الإنسانيّ تجلّى بوضوح في نصوص نهج البلاغة، قال عليه السلام للأشعث بن قيس عامله على آذربيجان: «**وإنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَة، ولكنَّهُ في عُنُقِكَ أَمانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعًى لِمَنْ فَوْقَكَ، لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتاتَ**[١] **في رَعِيَّة، ولا تُخاطِرَ إلا بِوَثيقَة**»[٢].

وقال عليه السلام في كتاب آخر لعمّال الخراج: «**فَأَنْصِفوا النّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاصْبِرُوا لِحَوائِجِهِمْ؛ فَإِنَّكُمْ خُزّانُ الرَّعِيَّة، وَوُكَلاءُ الأُمَّة، وَسُفَراءُ الأَئِمَّة**»[٣].

وقال عليه السلام: «**ولا تَقولَنَّ: إنّي مُؤَمَّرٌ، آمُرُ فَأُطاعُ؛ فَإِنَّ ذلكَ إِدْغالٌ في الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ**»[٤].

صِفَةُ الْحاكِمِ الْفاضِلِ:

لقد حدّد الإمام عليّ عليه السلام في نهجه السّياسيّ صفات الحاكم الفاضل بدقّة متناهية لمعالجة الحالات النّفسيّة المرضيّة كالتّكبّر، والعجب، والجشع، والاستئثار، والشّره، والحسد، والبخل... هذه الأمراض إذا وجدت في شخص الوالي يمكن أن يتسلّط على كلّ مقدرات المجتمع، ويستحوذ عليها، ويستأثر بها، ويحرم رعيّته منها، قال عليه السلام: «**وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لا يَنْبَغي أَنْ يَكونَ الْوالي عَلى الْفُروجِ،**

---

(١) «الافتيات: افتعالٌ من الفَوْت، وهو السَّبْق إلى الشَّيء دون ائتمار مَن يُؤتَمَر. تقول: افتات عليه بأمر كذا، أي فاته به، وفلان لا يُفْتاتُ عليه، أي لا يعمل شيء دون أمره»، الصّحاح للجوهريّ: ١/٢٦٠، (فوت).

(٢) نهج البلاغة: ٣٩٢، كتاب: ٥.

(٣) المصدر نفسه: ٤٤٧، كتاب: ٥١.

(٤) المصدر نفسه: ٤٥٠، كتاب: ٥٣.

والدِّماء والْمَغانم والأحْكام، وإمامة الْمُسْلمين، الْبَخيل، فتَكونَ في أَمْوالهِمْ نَهْمَته(١)، **ولا الْجاهلُ فَيُضلَّهُمْ بجَهْله، ولا الْجافي فَيَقْطَعَهُمْ بجفائه، ولا الْجائفُ للدُّوَل**(٢)، **فيَتَّخذَ قَوْماً دونَ قَوْم، ولا الْمُرْتَشي في الْحُكْم، فيَذْهَبَ بالْحُقوق، ويَقفَ بها دونَ الْمَقاطع**(٣)، **ولا الْمُعَطِّلُ للسُّنَّة فيُهْلكَ الأُمَّةَ**»(٤).

ومن الصّفات الّتي أكّد عليها في الحاكم التّواضعُ والنُّزولُ إلى مستوى حاجات النّاس، واجتنابُ التّفاخر، قال عليه السلام: «**وإنَّ منْ أَسْخَف حالات الْوُلاة عنْدَ صالح النّاس، أَنْ يُظَنَّ بهم حُبُّ الْفَخْر، ويوضَعَ أَمْرُهُمْ على الْكبْر**»(٥).

ولهذا كان عليه السلام يرفض حتّى المجاملات العرفيّة؛ فقد ورد في الكافي عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «**خرَجَ أَميرُ الْمُؤْمنينَ عليه السلام وهُوَ راكبٌ، فَمَشوا معَهُ، فقال: أَلَكُمْ حاجَةٌ؟ قالوا: لا، ولكنّا نُحبُّ أَنْ نَمْشيَ مَعَك، فَقالَ لَهُمْ: انْصَرفوا؛ فإنَّ مَشْيَ الْماشي مَعَ الرّاكب مَفْسَدَةٌ للرّاكب، ومَذَلَّةٌ للْماشي**»(٦).

وحين مسيره إلى الشّام استقبله دهاقين(٧) الأنبار، فترجّلوا له، واشتدّوا بين

---

(١) النّهمة: إفراط الشّهوة والمبالغة في الحرص.

(٢) الجائف: قد يكون من أجيفوا الأبواب أي أغلقوها، والدّول - جمع دُولة بالضّمّ -: المال، والمعنى: المغلق للأموال، وفي رواية أخرى: الحائف للمال من الحيف أي الجور والظّلم.

(٣) المقاطع: جمع مقطع، أي الحدود الّتي عيّنها الله تعالى.

(٤) نهج البلاغة: ٢٢٠، خطبة: ١٣١.

(٥) المصدر نفسه: ٣٦١، خطبة: ٢١٦.

(٦) الكافي: ١٣/٢٧١-٢٧٢، ح/١٣٠٠٩.

(٧) «الدّهقان: معرّب يطلق على رئيس القرية، وعلى التّاجر، وعلى من له مال وعقار، ودالُهُ مكسورة، وفي لغة تُضَمُّ، والجمع (دهاقين)، ودهقن الرَّجل وتدهقن كَثُرَ ماله»، المصباح المنير للفيومي: ٢٠١.

يديه، فَقال: «**ما هَذا الَّذي صَنَعْتُموه؟**» فقالوا: «خُلُقٌ منّا نُعظِّمُ به أُمراءنا»، فَقال: «**والله ما يَنْتَفعُ بهذا أُمراؤُكُمْ، وإنَّكُمْ لَتَشقّون به على أَنْفُسكُمْ [في دُنْياكُمْ]، وَتَشْقَوْنَ به في آخرَتكُمْ، وما أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وراءها الْعقاب، وأَرْبَحَ الدَّعَةَ مَعَها الأَمانُ من النّار**»(١).

ولم يكتف بذلك، بل كان يراقب الولاة الَّذين أمَّرهم، فيحاسبهم، ويرشدهم إلى الأسلوب الأسلم والأفضل في التَّعامل مع الرّعيّة، فقد كتب لبعض ولاته حين عرف أنَّه غليظ في معاملته مع النّاس قائلاً: «**أَمّا بَعْدُ، فَإنَّ دَهاقينَ أَهْلِ بَلَدكَ شَكَوا منْكَ غلْظَةً وَقَسْوَةً، واحْتقاراً وَجفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلاً لأَنْ يُدْنَوْا لشرْكهمْ، وَلا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لعَهْدهمْ، فَالْبَسْ لَهُمْ جلْباباً منَ اللّين تَشوبُهُ بطَرَفٍ منَ الشِّدَّة، وَداوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَة وَالرَّأْفَة، وَامْزِجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْريب وَالإدْناء، وَالإبْعاد وَالإقْصاء، إنْ شاءَ اللهُ**»(٢).

وفي وصيّته عليه السلام لمالك الأشتر رحمه الله كتب له: «**وَإنَّما يُسْتَدَلُّ عَلى الصّالحينَ بما يُجْري اللهُ لَهُمْ عَلى أَلْسُن عباده، فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخائر إلَيْكَ ذَخيرَةُ الْعَمَل الصّالح، فَامْلكْ هَواكَ، وَشُحَّ بنَفْسكَ عَمّا لا يَحلُّ لَكَ، فَإنَّ الشُّحَّ بالنَّفْس الإنْصافُ منْها فيما أَحَبَّتْ وَكَرِهَتْ، وَأَشْعرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ للرَّعيَّة، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بهمْ، وَلا تَكونَنَّ عَلَيْهمْ سَبُعاً ضارياً تَغْتَنمُ أَكْلَهُمْ؛ فَإنَّهُمْ صنْفان، إمّا أَخٌ لَكَ في الدّين، وَإمّا نَظيرٌ لَكَ في الْخَلْق**»(٣).

---

(١) نهج البلاغة: ٤٩٢، قصار الحكم: ٣٣.

(٢) المصدر نفسه: ٤٠٣، كتاب: ١٩.

(٣) المصدر نفسه: ٤٤٩-٤٥٠، كتاب: ٥٣.

الأَساليبُ السِّياسِيَّةُ عِنْدَ الإمام عَلِيٍّ عليه السلام وَمُخالِفيهِ:

السّائد والمعروف في الأوساط السّياسيّة العامّة اليوم أنَّ السّياسة النّاجحة هي سياسة المغالبة، والصّراع، واللّفّ والدّوران لأجل الاستيلاء على المواقع المهمّة والمصالح الأساسيّة بالحقّ أو بالباطل، وأنَّ السّياسيّ النّاجح هو الّذي يجيد فنَّ المكر، والخداع، والتّنكّر للفضائل الإنسانيّة، والنّواميس الإلهيّة، وأكّدوا في تعاليمهم السّياسيّة - كما ورد في بروتوكولات حكماء صهيون -: «أنَّ السّياسة لا تتّفق مع الأخلاق في شيء، فالحاكم المقيّد بالأخلاق ليس بسياسيّ بارع، وهو لذلك غير راسخ على عرشه. لا بدّ لطالب الحكم من الالتجاء إلى المكر والرّياء؛ فإنَّ الشّمائل الإنسانيّة العظيمة من الإخلاص والأمانة تصير رذائل في السّياسة، وأنّها تبلغ في زعزعة العرش أعظم ما يبلغه ألدّ الخصوم، هذه الصّفات لا بدَّ أن تكون هي خصال البلاد الأمميّة (غير اليهوديّة)، ولكنّنا غير مضطرّين إلى أن نقتدي بهم على الدّوام... إنَّ الغاية تبرّر الوسيلة، وعلينا - ونحن نضع خططنا - ألا نلتفت إلى ما هو خيرٌ وأخلاقيٌّ بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروريّ ومفيد»[(١)].

هذا هو الأصل في السّياسة عند طُلاب الحكم والتّسلّط، ويبقى هناك استثناء من الحكّام ممّن يسيرون عكس ذلك، وعليٌّ عليه السلام أميرهم في ذلك؛ فمنهاج عليّ عليه السلام السّياسيّ يبتني على أساس الرّسالة السّماويّة والفضائل والكرامات الإنسانيّة، ولكنّ هذا الأسلوب كلّفه غالياً، وعلى هذا الأساس واجه مشاكل كلّفته لخوض ثلاثة حروب طاحنة واجه فيها اجتماع طُلاب السُّلطة والمال والجاه، قال عليه السلام: **«أَيُّها النّاسُ، فَإِنّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ[(٢)]، ولَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَيْها أَحَدٌ غَيْري،**

(١) محمّد خليفة التّونسيّ، الخطر اليهوديّ بروتوكولات حكماء صهيون: ١٠٦-١٠٧.

(٢) شققتها وقلعتها: تمثيل لتغلّبه عليها، وذلك كان بعد انقضاء أمر النّهروان، وتغلّبه على الخوارج.

بَعْدَ أَنْ ماجَ غَيْهَبُها[١]، واشْتَدَّ كَلَبُها[٢]»[٣].

والفتنة الّتي يقصدها هي قتال أهل القبلة المتلبّسين في الدّين، والطّامعين في الدّنيا.

وهذا المنهج اختطّه الإمام عليّ عليه السلام ليعيد السّنّة النّبويّة الشّريفة إلى مجراها الطّبيعيّ ولو كلّفه حياته، ومن هنا أراد أن يكون صريحاً جدّاً جدّاً مع النّاس بعد مقتل عثمان حين هرع النّاس إليه يطلبون مبايعته بشدّة وإلحاح، ولكنّه وقف بقوّة وصراحة، ورفض العواطف المتأجّجة عند النّاس؛ ليوضّح لهم منهجه الّذي قد لا يطيقونه، فقال لهم:

«دَعوني والْتَمسوا غَيْري، فَإنّا مُسْتَقْبلونَ أَمْراً، لَهُ وُجوهٌ وأَلْوانٌ؛ لا تَقومُ لَهُ الْقُلوبُ، ولا تَثْبُتُ عَلَيْه الْعُقولُ، وَإِنَّ الآفاقَ قَدْ أَغامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ[٤]، واعْلَموا أَنّي إنْ أَجَبْتُكُمْ، رَكِبْتُ بكُمْ ما أَعْلَمُ، ولَمْ أُصْغِ إلى قَوْلِ الْقائلِ، وَعَتْبِ الْعاتبِ، وَإِنْ تَرَكْتُموني فَأَنا كَأَحَدِكُمْ، ولَعَلّي أَسْمَعُكُمْ

---

(١) الغيهب الظُّلمة؛ وموجها: شمولها وامتدادها.

(٢) الكَلَب محركة: داء معروف يصيب الكلاب، فكلُّ من عضَّته أصيب به، فجنّ ومات، شبّه به اشتداد الفتنة حتّى لا تصيب أحداً إلا أهلكته، هذه الشّروح من شرح الشّيخ محمدّ عبده على نهج البلاغة: ١٨٢.

(٣) نهج البلاغة: ١٦٥، خطبة: ٩٢.

(٤) «استعار لفظ الغيم لما غشى آفاق البلاد وأقطار القلوب المتغيّرة العازمة على الفساد من ظلمات الظُّلم والجهل، ووجه المشابهة ما تستلزمه هذه الظُّلمات من توقّع نزول الشرور منها كما يتوقّع نزول المطر والصّواعق من الغيم، وأشار بالمحجّة إلى واضح طريق الشَّريعة، وتنكّرها جهل النّاس بها، وعدم سلوكهم لها»، شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرانيّ: ٣٨٦/٢.

وَأَطْوَعُكُمْ لمَنْ ولَّيْتُموهُ أَمْرَكُمْ، وأَنا لَكُمْ وَزيراً، خَيْرٌ لَكُمْ منّي أَميراً»(١).

تلك هي سياسة عليّ عليه السلام، صراحةٌ كالشّمس في وضح النّهار، وعدالةٌ تامّة كحدّ السّيف لا تقبل المهادنة، ولا تعرف المجاملة، ولم يفهم محترفو السّياسة وتجّارها مفهوم العدل الإلهيّ الّذي تجسّد في عليّ عليه السلام، فصار بحقّ صوت العدالة الإلهيّة المطلقة، لا يمكن أن يصانع، أو يضارع، أو يتّبع المطامع، كما صرّح عليه السلام بذلك، واتّخذ الحدّيّة المبدئيّة قاعدة في منهجه السّياسيّ لا تقبل المهادنة، قائلاً: «**لا يُقيمُ أَمْرَ الله سُبْحانَهُ إلا مَنْ لا يُصانِعُ، وَلا يُضارِعُ**(٢)**، وَلا يَتَّبِعُ الْمَطامِعَ**»(٣).

وبناءً على هذه القاعدة الإلهيّة، «فإنّه لم يكن يفضّل شريفاً على مشروف، ولا عربيّاً على عجميّ، ولا يصانع الرّؤساء وأمراء القبائل، كما يصنع الملوك، ولا يستميل أحداً إلى نفسه»(٤).

وهو عليه السلام القائل: «**وَالله لَوْ أُعْطيتُ الأَقاليمَ السَّبْعَةَ بما تَحْتَ أَفْلاكِها، عَلى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ في نَمْلَةٍ أَسْلُبُها جُلْبَ شَعيرَةٍ ما فَعَلْتُه**»(٥).

فالّذين نقدوا سياسته لم يدركوا حقيقة العدالة الرّبّانيّة، وأنّها لا تخضع للمقاييس المصلحيّة، والأغراض النّفعيّة، قالوا: إنّ عليّاً لا يعرف من السّياسة شيئاً، وإنّ أسلوبه هذا هو الّذي خلق له المشاكل، وفرّق النّاس من حوله، وانحازوا إلى

---

(١) نهج البلاغة: ١٦٤-١٦٥، خطبة: ٩١.

(٢) قال ابن ميثم البحرانيّ: «المصانعة: المصالحة برشوة ونحوها؛ والمضارعة: مفاعلة من الضَّرع، وهو الذّلّة، كأنّ كُلاًّ منهما يضرع للآخر»، شرح نهج البلاغة: ٥/٢٩٧-٢٩٨.

(٣) نهج البلاغة: ٥٠٤، قصار الحكم: ١٠٥.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢/١٩٧.

(٥) نهج البلاغة: ٣٧٤، خطبة: ٢٢٣.

أعدائه، وهذا الفهم المبنيّ على النَّظرة النّفعيّة لم يكن جديداً، وإنّما قيل من قبل على لسان المدائنيّ الَّذي كان يرى «أنَّ من أهمّ الأسباب الَّتي أدَّت إلى تخاذل العرب عن الإمام اتّباعه لمبدأ المساواة، حيث كان لا يفضّل شريفاً على مشروف في العطاء، ولا عربيّاً على عجميّ، لقد ورمت آناف أولئك الطّغاة من سياسة الإمام الَّتي هدمت الحواجز، وألغت الطّبقيّة، وساوت بين جميع أبناء المسلمين، لا في العطاء فقط، وإنَّما في جميع الحقوق والواجبات»[١].

والأمر الآخر لسبب هذا النَّقد عدم وعي موقع عليّ عليه السلام من حركة التّأريخ الرّساليّ، فلم يدركوا أنّه عليه السلام امتدادٌ لحركة الرّسالات الإلهيّة على طول خطّ التّأريخ، وأمين الله لحفظ رسالة التّوحيد من التَّحريف، والأمّة من الانحراف، وتعاملوا معه كسياسيّ يريد أن يتربّع على عرش الرّئاسة، وجهلوا أنَّ القيادة والزّعامة عنده وسيلة لإحقاق الحقّ، وإبطال الباطل، وليس وسيلةً للتّسلّط والتّحكّم والاستغلال والاستعلاء.

وكان عليه السلام يؤكّد هذه الحقيقة في قوله وفعله، ومن الشَّواهد على ذلك حواره مع ابن عبّاس، قال ابن عبّاس: «دخلتُ على أمير المؤمنين صلوات الله عليه بذي قار، وهو يخصف نعله، فقال لي: **ما قيمةُ هذا النَّعْل**؟ فقلتُ: لا قيمة لها، فقال عليه السلام: **وَالله لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إلا أَنْ أُقِيمَ حَقّاً، أَوْ أَدْفَعَ باطلاً**»[٢].

وهو عليه السلام القائل: «**فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْه أَضْيَقُ**»[٣].

---

(١) الشّيخ باقر القرشيّ، موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام (الإمام الحسين بن عليّ عليهما السلام): ٤٣٦/١٢.

(٢) نهج البلاغة: ٩١، خطبة: ٣٣.

(٣) المصدر نفسه: ٦٥، خطبة: ١٥.

ولذا رفض عليه السلام أن يقول ولو كلمة واحدة ستمكّنه من عرش الخلافة؛ لأنَّها تخالف سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله حين أخذ عبد الرحمن بن عوف في ندوة الشّورى بيده، وطلب منه أن يحكم بكتاب الله، وسنّة رسوله، وسيرة الشيخين، فقال عليّ عليه السلام: «**بَلْ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَ بكتاب الله، وَسُنَّة رَسوله، وأَجْتَهِدَ رأيي**»[1].

وتناسى النّاقدون، أو تجاهلوا أنَّ الحُكّام صنفان: صنف يعشق الكرسيّ، ويبذل قصارى جهوده للوصول إليه، فإذا حقَّق مرامه، وتسلَّط على رقاب النّاس، نسي مبادئه الَّتي كان يدّعيها، وراح يخطّط للبقاء والاستمرار، ولو على حساب المبادئ الحقّة، وفي حوار معاوية وعمرو بن العاص خير شاهد ودليل على ذلك فقد روى عديّ بن أرطاة، قال:

«قال معاوية يوماً لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله، أيّنا أدهى؟ قال عمرو: أنا للبديهة، وأنت للرّويّة، قال معاوية: قضيت لي على نفسك، وأنا أدهى منك في البديهة، قال عمرو: فأين كان دهاؤك يوم رُفِعَت المصاحف؟ قال: بها غلبتني يا أبا عبد الله، أفلا أسألك عن شيء تصدقني فيه؟ قال: والله، إنَّ الكذب لقبيح، فسل عمّا بدا لك أصدقك، فقال: هل غششتني منذ نصحتني؟ قال: لا، قال: بلى والله، لقد غششتني، أما إنّي لا أقول في كلّ المواطن، ولكن في موطنٍ واحد، قال: وأيّ موطنٍ هذا؟ قال: يوم دعاني عليّ بن أبي طالب للمبارزة، فاستشرتك، فقلتُ: ما ترى يا أبا عبد الله؟ فقلتَ: كفؤٌ كريمٌ، فأشرت عليَّ بمبارزته، وأنت تعلم من هو، فعلمت أنَّك غششتني، قال: يا أمير المؤمنين، دعاك رجلٌ إلى مبارزته، عظيم الشَّرف، جليل الخطر، فكنتَ من مبارزته على إحدى الحسنيين، إما أن تقتله

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٤٥/١.

فتكون قد قتلت قتّال الأقران، وتزداد به شرفاً إلى شرفك، وتخلو بملكك، وإما أن تعجّل إلى مرافقة الشّهداء والصّالحين، وحسن أولئك رفيقاً، قال معاوية: هذه شرٌّ من الأوّل، والله، إنّي لأعلم أنّي لو قتلته دخلت النّار، ولو قتلني دخلتُ النّار، قال له عمرو: فما حملك على قتاله؟! قال: الملك عقيم، ولن يسمعها منّي أحد بعدك»(١).

والمصداق الآخر على ذلك ما رواه المأمون العبّاسيّ عن أبيه هارون في وصف الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قوله: «... هذا إمام النّاس، وحجّة الله على خلقه، وخليفته على عباده، فقلت: يا أمير المؤمنين، أو ليست هذه الصّفات كلّها لك وفيك؟ فقال: أنا إمام الجماعة في الظّاهر بالغلبة والقهر، وموسى بن جعفر إمام حقّ، والله يا بنيّ إنّه لأحقّ بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله منّي، ومن الخلق جميعاً، والله لو نازعتني هذا الأمر لأخذتُ الّذي فيه عيناك، فإنَّ الملكَ عقيمٌ»(٢).

والمصاديق على ذلك كثيرة، وهناك صنف آخر يريد الحكم؛ لأجل خدمة المبادئ السّماويّة في التّمسّك فيها، والعمل على نشرها وتبليغها، وهداية النّاس إليها، والإمام عليّ عليه السلام هو الفريد في ذلك، والفارس المتميّز في هذا الميدان، ولكنّ السّائرين على هذا النهج أندر من الكبريت الأحمر، وقد قيل: إنّ عليّاً رجل حرب، ومعاوية رجل سياسة، ولذلك انتصر معاوية، وردَّ الإمام عليه السلام ذلك، وفنَّده بقوله عليه السلام: «**وَاللهِ ما مُعاوِيَةُ بِأَدْهى مِنّي، وَلكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلا كَراهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهى النّاسِ، وَلكِنْ كُلُّ غَدْرَةٍ فَجْرَةٌ، وَكُلُّ فَجْرَةٍ كَفْرَةٌ،**

(١) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ١٣٢-١٣٣، ح/١٢٥؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ٥٦٩/٣-٥٧٠، ح/١٥٧٢.

(٢) عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ١١٧/١.

وَلِكُلِّ غادرٍ لواءٌ يُعْرَفُ بِهِ يوْمَ الْقِيامَةِ، وَاللهِ ما أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكيدَةِ، وَلا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّديدَةِ»[١].

ولغلبة المطامع الدّنيويّة على أغلب النُّفوس، وتبرير ذلك، ومحاولة تخريجه تخريجاً مقبولاً طُلب من عليّ عليه السلام أن يتّبع سياسة التَّرغيب، وشراء الضّمائر؛ لاستمالة المؤثّرين في الوسط الاجتماعيّ، فقيل له: اعط الأموال لهؤلاء الأشراف إلى أن يستقرَّ الحكم لك، فقال: «**أَتَأْمُرونّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فيمَنْ وُلّيتُ عَلَيْهِ، وَاللهِ لا أَطورُ بِهِ ما سَمَرَ سَميرٌ**[٢]**، وَما أَمَّ نَجْمٌ في السَّماءِ نَجْماً**[٣]**، لَوْ كانَ الْمالُ لي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّما الْمالُ مالُ اللهِ... أَلا وَإِنَّ إِعْطاءَ الْمالِ في غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذيرٌ وَإِسْرافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صاحِبَهُ في الدُّنْيا، وَيَضَعُهُ في الآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ في النّاسِ، وَيُهينُهُ عِنْدَ اللهِ**»[٤].

وأراد عليه السلام أن يجسّد الأخلاق السّياسيّة في الإسلام عمليّاً، فرفض المتملّقين والمخادعين، والمتذلّلين لذوي السُّلطة، وبذلك أراد أن يرسم منهجاً سياسيّاً؛ لذلك قال عليه السلام في خطبة ألقاها في صفّين: «**فَلا تُكَلِّموني بِما تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبابِرَةُ، وَلا تَتَحَفَّظوا مِنّي بِما يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبادِرَةِ، وَلا تُخالِطوني بِالْمُصانَعَةِ، وَلا تَظُنّوا بي اسْتِثْقالاً في حَقٍّ قيلَ لي، وَلا الْتِماسَ إِعْظامٍ لِنَفْسي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقالَ لَهُ، أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كانَ الْعَمَلُ بِهِما أَثْقَلَ**

---

(١) نهج البلاغة: ٣٤٦، خطبة: ٢٠٠.

(٢) أطور به: أقرّ به، سمير: اسم للدّهر، أي ما بقي الدّهر.

(٣) أي ما دامت الدّنيا قائمة.

(٤) نهج البلاغة: ٢١٤-٢١٥، خطبة: ١٢٦.

عَلَيْه، فَلا تَكُفّوا عَنْ مَقالَة بحقٍّ، أَوْ مَشُورَة بعَدْل؛ فَإِنّي لَسْتُ في نَفْسي بفَوْق أَنْ أُخْطئَ، وَلا آمَنُ ذلكَ منْ فعْلي، إلا أَنْ يَكْفيَ اللهُ منْ نَفْسي ما هُوَ أَمْلَكُ به منّي، فَإِنَّما أَنا وَأَنْتُمْ عَبيدٌ مَمْلوكونَ لرَبٍّ لا ربَّ غَيْرُه»[1].

والحَديث عن عليّ عليه السلام واسع بسعَة الإسلام نكتفي بذلك، وأسأل الله أن يبصّرني لمعرفة الإسلام بمعرفة الإمام عليّ عليه السلام، ويرزقني التّأسّي به، وسلوك منهجه، وكما رزقني حبّه أن يرزقني شفاعته ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[2].

(١) نهج البلاغة: ٣٦٢، خطبة: ٢١٦.

(٢) الشّعراء: ٨٨-٨٩.

هكَذا حارَبوا الإِسْلامَ

قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1].

منذ شروق شمس الإسلام على يد الرَّسول الأعظم صلى الله عليه وآله، أخذت قوى الكفر بكلّ أشكالها كافرة، أو مشركة، أو منافقة، أو أديان محرّفة تفكّر كيف تواجه هذه الحركات الإسلاميّة؛ لتطفئ نورها، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم كما في الآية المتقدِّمة، وجرى الصّراع بكلّ أشكاله: حروب دامية، ودعوات مظلّلة، وشبهات متواصلة، وحملات إعلاميّة تشويهيّة، وتصفيات جسديّة... والمعركة قائمة لم تتوقّف لحظة أبداً إلى يومنا هذا.

ولا أريد أن أستعرض تاريخ المعركة القديمة، وإنَّما أريد أن أبحث عن بعض الأساليب الّتي اتُّبِعَتْ في القرن الأخير لمحاربة الإسلام، ولا سيّما من الدّول الاستعماريّة، فبعد أن أدركوا بأنَّ القضاء على الإسلام بالحروب والتّصفيات الجسديّة لا يزيد المسلمين إلا صموداً، وإلا تعلّقاً بدينهم، وبعد أن أدركوا بأنَّ الإسلام هو العائق الوحيد لسيطرتهم على البلاد الإسلاميّة أخذوا يفكّرون بأساليب أخرى؛ لإطفاء نور الله تعالى، قال لويس التّاسع ملك فرنسا الّذي أُسرَ في دار ابن لقمان بالمنصورة، في وثيقة محفوظة في دار الوثائق القوميّة في باريس: «إنَّه لا يمكن الانتصار على المسلمين من خلال حرب [عسكريّة]، وإنّما يمكن الانتصار

---

(١) الصَّف: ٨

عليه بواسطة السّياسة باتّباع ما يلي:

- إشاعة الفرقة بين قادة المسلمين، وإذا حدث فليعمل على توسيع شقّتها ما أمكن حتّى يكون هذا الخلاف عاملاً في إضعاف المسلمين.

- عدم تمكين البلاد الإسلاميّة والعربيّة أن يقوم فيها حكم صالح.

- إفساد أنظمة الحكم في البلاد الإسلاميّة بالرَّشوة والفساد والنّساء، حتّى تنفصل القاعدة عن القمّة.

- الحيلولة دون قيام جيش مؤمن بحقّ وطنه عليه، يضحّي في سبيل مبادئه.

- العمل على الحيلولة دون قيام وحدة عربيّة في المنطقة.

- العمل على قيام دولة غربيّة في المنطقة العربيّة تمتدّ ما بين غزّة جنوباً، أنطاكية شمالاً، ثمّ تتّجه شرقاً حتّى تصل إلى الغرب»[(١)].

ونتيجة هذا الفهم صدرت على لسان قادتهم تصريحات تشير إلى ذلك:

قال لورنس براون: «الخطر الحقيقيّ كامن في نظام الإسلام، وفي قدرته على التّوسّع والإخضاع، وفي حيويّته: إنّه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبيّ»[(٢)].

وقال غلادستون ريكسن وزير بريطانيا الأوّل سابقاً: «ما دام هذا القرآن موجوداً، فلن تستطيع أوروبا السَّيطرة على الشَّرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان»[(٣)].

---

(١) جلال العالم، قادة الغرب يقولون دمّروا الإسلام أبيدوا أهله: ٦٢-٦٣.

(٢) عمر فرّوخ، مصطفى خالدي، التَّبشير والاستعمار في البلاد العربيّة: ١٨٤.

(٣) محمّد أسد، الإسلام على مفترق الطّرق: ٤١.

وقال الحاكم الفرنسيّ في الجزائر في ذكرى مرور مائة عام على استعمار الجزائر: «يجب أن نزيل القرآن العربيّ من وجودهم.. ونقتلع اللّسان العربيّ من ألسنتهم، حتّى ننتصر عليهم»[١].

وقالت الجريدة اليوميّة للحزب الشّيوعيّ الأوزباخستانيّ: «من المستحيل تثبيت الشّيوعية قبل سحق الإسلام نهائيّاً»[٢].

وقال آرسنت رينان الأب المستشرق الفرنسيّ في كتاب له عام ١٨٦٣ عن حياة يسوع: «إنَّ الشَّرط الأساسيّ لكي تنتشر الحضارة الأوروبيّة هو هدم ذلك الشَّيء الشَّديد السّاميّة، أي هدم السُّلطة الإلهيّة للإسلام»[٣]، ووصف الإسلام بـ«أنَّه أثقل أغلال تكبَّلت بها الإنسانيّة على الإطلاق»[٤].

وقال المبشّر ويليم جيفورد بالكراف: «متى توارى القرآنُ ومدينة مكّة عن بلاد العرب؛ يمكننا – حينئذ – أن نرى العربيّ يتدرّج في سبيل الحضارة الّتي يبعده عنها إلا محمّد وكتابه»[٥].

«بل لقد أعلن أكثر من مسؤول في الغرب، ومنهم نيكسون [الرّئيس الأمريكيّ]: أنَّ العدو الباقي، والَّذي يتعيّن مواجهته الآن إنّما هو الإسلام، وذلك بعد انهيار الاتّحاد السّوفيتي بتضافر جهود المخابرات المركزية الأمريكيّة، والجهاز السّياسيّ الدّينيّ للفاتيكان، وهي نفس الأجهزة الَّتي تتصدّر العمليّات

---

(١) قادة الغرب يقولون دمّروا الإسلام أبيدوا أهله: ٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ٤١.

(٣) د. زينب عبد العزيز، محاصرة.. وإبادة، موقف الغرب من الإسلام: ٤٩.

(٤) المصدر نفسه: ٩٥.

(٥) عبد الله التّلّ، جذور البلاء: ٢٠١.

حاليّاً»(١).

هذه بعض التَّصريحات، وهي غيض من فيض تؤكّد أنَّه «لم يكن الغرب يرمي إلى صدّ الإسلام، والحدّ من انتشاره عقائديّاً فحسب، وإنَّما طمس معالمه، وآثاره، أو تشويهها في كافّة المجالات»(٢).

وليس الخطر في ذلك وحسب، ولكن الأخطر من ذلك أن نغفل عن تفكيرهم في محاربة الإسلام، وعن تخطيطهم، وأساليب تنفيذهم؛ ولذا يجب أن نفتح عيوننا جيّداً، ونعرف كيف يفكّرون؟ وكيف يخطّطون؟ وكيف ينفّذون؟

لِماذا يَرْهبونَ الإِسْلامَ؟

والشّيء الذي يجب أن نعرفه جيّداً أوّلاً لماذا يرهبون الإسلام، ويقضّ مضاجعهم؟

والجواب: أنَّ الاستعمار تُرْهِبُهُ الأمور الآتية:

١- أصالة الإسلام، وعمقه في نفوس أبنائه، ومدى اعتناقهم له، وتأصّل روح التّقديس له في نفوسهم، قال وزير الخارجيّة الفرنسيّ (هانوتو) في معرض تثقيفه لقوات الاحتلال الفرنسيّ في أفريقيا: «إنَّ التّمدّن الأوربيّ [الحضارة عبر الاحتلال] يجد في طريقه في أفريقيا، لا سيّما في شمالها، ذلك الدّين القديم العظيم الَّذي هو دين الإسلام... وهذا الدّين يدعو إلى إله واحد، ويجعل الإيمان بالتّوحيد مصدراً لكلّ الفضائل الذّاتيّة والاجتماعيّة، ويستولي على المؤمن استيلاءً شديداً، فلا يعود يقدر على التّفلّت منه، فمن المفروض علينا التّساهل في هذا الشّأن، بل

(١) محاضرة.. وإبادة، موقف الغرب من الإسلام: ٢٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ٤٢.

ليس التّساهل بكاف وحده، فمن الواجب أن ندرس هذا الدّين، ونبذل جهدنا في فهمه، وعلينا أن نتّخذ الكلمة الإسلاميّة ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[(١)] شعاراً لا نخرج عن حدود معناها، وأن نحترم الدّين الإسلاميّ، ونحميه من كلّ طارئ سوء»، وواضح أنَّ (هانوتو) عاد إلى تجربة نابليون آخذاً منها أوّلاً بعدما أفاض في انتقاد الدّيانة الإسلاميّة من قبل[(٢)].

وهو هنا يريد أن يقول: اخدعوا المسلمين بالتَّظاهر باحترام دينهم؛ لئلا تثيروا فيهم مشاعر الحقد والحساسيّة ضدّكم، فيمنعونكم من تحقيق مآربكم في استعمار بلادهم، وسلب خيراتهم، وشأنه في ذلك شأن نابليون حين احتلّ مصر؛ إذ ادّعى أنّه جاء ليحرّرهم من حكم المماليك، ولينقذ الإسلام من تسلّطهم، فلمّا أحكم سيطرته قلب لهم ظهر المجنّ[(٣)].

وهذا النّهج النّابليونيّ مبنيٌّ على مخادعة المسلمين من خلال التَّظاهر باحترام الإسلام والقرآن؛ لتحاشي إثارة حساسيّة المؤمنين تجاههم، وتجنّب ردود الفعل إزاء استفزازاتهم، ومثال ذلك خطاب الرَّئيس الأمريكيّ (أوباما Obama)

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) مداخل المثقّفين العرب للاستشراق، نهاية القرن التّاسع عشر: يقظة أم مواجهة؟ د. محسن جاسم الموسويّ، مجلّة الاستشراق، العدد الثّاني، شباط ١٩٨٧، بغداد: ٨

(٣) نقل المؤرّخ الجبرتيّ أن الاحتلال الفرنسيّ بقيادة نابليون بونابرت كتب مرسوماً وطبعه، وأرسل منه نسخاً إلى البلاد لتطمينهم، وجاء فيه: «بسم الله الرّحمن الرّحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له ولا شريك له في ملكه.. أيّها المشايخ والقضاة والأئمّة والجربجية وأعيان البلد، قولوا لأمّتكم إنَّ الفرنساويّة هم أيضاً مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنَّهم قد نزلوا في رومية الكبرى، وخرّبوا فيها كرسيّ البابا الَّذي كان دائماً يحثّ النّصارى على محاربة الإسلام»، عجائب الآثار في التّراجم والأخبار لعبد الرّحمن الجبرتيّ: ٤/٤-٥.

في القاهرة الَّذي «ألقي ببراعة، لم يستعمل فيه عبارات بوش كالحرب على الإرهاب، بل أشاد في خطابه بحضارة الإسلام، واستشهد بعدد من الآيات القرآنيّة، وبالفعل كسب ودّ وتصفيق الآلاف من السّذّج، كالضَّعيف المظلوم الَّذي يفرح بأدنى تعاطف وتقدير من الظّالم القويّ»(١).

وهذا الأسلوب مبنيٌّ على قاعدة من قواعدهم لحرب الإسلام مفادها «حاربوا الدّين بالدّين»، أي «هدم الدّين باسم الدّين، وذلك باتّخاذ الإسلام أداة لهدم الإسلام نفسه»(٢)، من خلال أساليب متعدّدة، منها مثلاً: تحريف مفاهيمه عن معناها الحقيقيّ، أو التَّشكيك بصلاحيّته للعصر الحاضر، أو ترويج الأساطير والخرافات ونسبتها للدّين، والتّأكيد على أنَّ الدّين يخالف العلم مع الاستشهاد بالنّظريّات الحديثة كنظريّة داروين وفرويد وماركس، وغيرها من النّظريّات المتبنّاة في الغرب، وبناءً على ذلك قال المبشّر تاكلي: «يجب أن نستخدم كتابهم (أي القرآن الكريم)، وهو أمضى سلاح في الإسلام، ضدّ الإسلام نفسه؛ لنقضي عليه تماماً، يجب أن نري هؤلاء النّاس أنَّ الصّحيح في القرآن ليس جديداً، وأنَّ الجديد فيه ليس صحيحاً»(٣).

٢- تَحَرّك روح الوعي الإسلاميّ في نفوس المسلمين، قال (البرمشادور): «إنَّ هذا المسلم الذّكيّ الشّجاع قد ترك لنا حيث حلَّ آثار علمه وفنّه، آثار مجده وفخاره، إنَّ هذا المسلم الّذي نام نوماً عميقاً مئات السّنين قد استيقظ، وأخذ ينادي:

---

(١) من الشّبكة العنكبوتيّة.

(٢) من الشّبكة العنكبوتيّة، من وثيقة قنّنها الحزب الشيوعي للقضاء على الاسلام الفقرة ١٦ نقلاً من مجلة (العلم والدّين) الرّوسيّة في عددها الصّادر في أول كانون الثّاني من سنة ١٩٦١م.

(٣) التّبشير والاستعمار: ٤٠.

هذا أنذا لم أمت. إنّي أعود إلى الحياة، لا لأكون أداةً طيّعةً أو كتلاً من البشر تُسَيّرها العواصم الكبرى»، ثمَّ قال: «من يدري؟ قد يعود اليوم الَّذي تصبح فيه بلاد الفرنج مهدّدة بالمسلمين، فيهبطون من السّماء لغزو العالم مرّة ثانية في الوقت المناسب أو الزّمن الموقوت.. لست أدّعي النّبوءة، ولكنّ الإمارات الدّالّة على هذه الاحتمالات كثيرة، لا تقوى الذّرّة، ولا الصّواريخ على وقف تيّارها»[1].

وهذا الأمر من أشدّ ما يخيفهم، ويقضّ مضاجعهم؛ لأنَّ المسلمين إذا وعوا دينهم كشفوا كلّ مخطّطاتهم وألاعيبهم، ورفضوا كلّ طروحاتهم الفكريّة، والسّياسيّة، والاقتصاديّة، وما طرحوه من وعود برّاقة كالعمران، والارتقاء، والعلم، وما يتفرّع منها أو يلامسها كالحرّيّة، والعدالة، والسَّعادة، والتَّجديد، والمساواة... وغيرها من الألفاظ المعسولة الَّتي تخفي وراءها الدّسائس والأحابيل، وهذا ما أكّدته خططهم السّرّيّة إذ قالوا: «سنحاول أن نوجّه العقل العامّ نحو كلّ نوع من النّظريّات المبهرجة Fantastic الَّتي يمكن أن تبدو تقدّميّة أو تحرّريّة. لقد نجحنا نجاحاً كاملاً بنظريّاتنا على التّقدّم في تحويل رؤوس الأمميّين الفارغة من العقل نحو الاشتراكيّة، ولا يوجد عقل واحد بين الأمميّين يستطيع أن يلاحظ أنَّه في كلّ حالة وراء كلمة «التّقدّم» يختفي ضلال وزيغ عن الحقّ»[2].

٣- قيام حكومة إسلاميّة مستقلّة تتبنّى الإسلام عقيدة ونظاماً، ولا ترتبط بالشَّرق ولا بالغرب، وقد رأينا الجهد الّذي بذلوه لتمزيق الدّولة العثمانيّة رغم أنَّ حكمها بالإسلام كان شكليّاً، لكن مجرّد اسم الإسلام يخيفهم، ويقضّ مضاجعهم؛

---

(١) جودت سعيد، لِمَ هذا الرّعب كلّه من الإسلام: ٤٢.

(٢) محمّد خليفة التّونسيّ، الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون: ١٥١.

ولهذا عملوا على تمزيق أوصالها، ووزَّعوها إلى دويلات صغيرة[1]، وزرعوا بذور الفتنة بينها، ووضعوا لكلّ منها دستوراً يناقض الإسلام شكلاً ومضموناً، وسلَّطوا تلامذتهم الَّذين أعدّوهم مسبقاً لهذه المهمّة، ككمال أتاتورك ورضا شاه... وغيرهم، وسلَّطوهم على رقاب المسلمين، ووضعوا لهم خططاً، وأمروهم بتنفيذها، فأشدّ ما يرعبهم هو قيام دولة إسلاميّة مستقلّة عنهم؛ ولذا رأينا حالة الفزع الَّتي أصابتهم عند انتصار الثّورة الإسلاميّة في إيران، ومدى الجهد الَّذي بذلوه لإسقاطها طيلة أربعة عقود من الزَّمن، ولا تزال إلى الآن محاصرة اقتصاديّاً، وفكريّاً، وسياسيّاً، وإعلاميّاً بأبشع أنواع الحصار، ولا يزالون يحوكون المؤامرات عليها بكلّ الوسائل الممكنة، بل أصبحت الجمهوريّة الإسلاميّة الكابوس الّذي يؤرّق صنّاع السّياسة الاستخباريّة، وما النّيران الَّتي أوقدوها في المنطقة الإسلاميّة كالحرب الَّتي أشعلوها على يد صدام وحزبه طيلة ثماني سنوات، وفتنة داعش في سوريا والعراق، وحرب السّعوديّة لليمن، وغيرها إلا لأجل تشويه صورة الإسلام، وتبشيعه في أنظار شعوب ما يسمّى بالعالم المتحضّر كمقدّمة لتقويض الصَّحوة الإسلاميّة، ولإيقاف المدّ الإسلاميّ في العالم الَّذي تغذّيه الثّورة الإسلاميّة والحركة الإسلاميّة بصورة عامّة.

٤- قيام تحرّك إسلاميّ منظّم في المنطقة الإسلاميّة غير مرتبط بأيّة جهة

---

(١) ورغم هذا التَّمزيق الّذي أجروه في البلاد الإسلامية لم يكتفوا به، بل أخذوا يخطّطون اليوم - وفي هذه السّاعة وأنا أكتب هذه السّطور - لتقسيم كلّ دولة إلى دويلات أصغر على أساس قوميّ كما يريدون تقسيم العراق إلى ثلاث دول: كرديّة في الشّمال، وشيعيّة في الجنوب، وسنّيّة في الوسط، وهكذا في السّعودية، بل في كلّ المنطقة الإسلاميّة؛ لتسهل عليهم السَّيطرة والقضاء على التّحرّك الإسلاميّ بصورة نهائيّة.

من الجهات الاستعماريّة؛ ولذا أعلنوا الحرب على كلّ منظمة، أو حركة إسلاميّة تعمل لتوعية الأمّة الإسلاميّة، فراحوا يطلقون التّهم، ويثيرون الشّبهات مرّة باسم (التّطرّف)، وأخرى باسم (الإرهاب)، وثالثة باسم (الأصوليّة)... وهلمّ جرّى، وما تقوم به أمريكا في هذه الأيام خير دليل على ذلك، فقد صنّفت كلَّ الحركات الإسلاميّة، ووضعت الفعّالة منها على قائمة الحركات الإرهابيّة.

٥- ارتباط المسلمين بعلمائهم الواعين، وشدّة ولائهم إليهم؛ ولذلك راحوا يرسمون الخطط لعزل العلماء المؤثّرين عن الوسط الاجتماعيّ بتوجيه التُّهم إليهم، وإثارة الشُّبهات حولهم لعزلهم عن المجتمع، ولمّا فشلت كلّ تلك الأساليب أصدروا الحكم عليهم بالإعدام كما فعلوا مع الشّيخ حسن البنّا، وعبد العزيز البدريّ، والسّيّد محمّد باقر الصَّدر، والسّيّد محمّد الصَّدر، والسّيّد موسى الصَّدر... وكثيرون غيرهم.

هذا هو أشدُّ ما يرهب القوى الاستعماريّة أن يعود الوعي الإسلاميّ الأصيل إلى الأمّة، وتتمسّك به عقيدةً ونظاماً، وتتحرّك لإقامة المجتمع المسلم والدّولة الإسلاميّة؛ لتواجه المخطّطات الاستعماريّة؛ ولذا فـ«الإصرار على معاداة اليقظة الفكريّة الإسلاميّة حينئذٍ مدفوع بتعصّب يبغي الهجوم من خلال التَّمهيد له بالاتّهام، على أساس أنَّ عودة (الإسلام) تحمل معها بذور العدوان على الغرب»[1].

أساليبُ مُحارَبَةِ الإسْلامِ:

لمّا فشلت أساليب الإبادة والتَّصفيات الجسديّة مهما بلغت من الوحشيّة

---

(١) مداخل المثقّفين العرب للاستشراق، نهاية القرن التّاسع عشر: يقظة أم مواجهة؟ د. محسن جاسم الموسويّ، مجلّة الاستشراق، العدد الثّاني، شباط ١٩٨٧، بغداد: ١٢-١٣.

والقسوة راحوا يفكّرون بأساليب أخرى لضرب الإسلام بطرق أخرى كي يمرّروها بصورة خفيّة هادئة، يدسّون فيها السّمّ بالعسل، فلا يعلنون الحرب على الإسلام مباشرة؛ ليتجنّبوا حسّاسيّة الأمّة، فأخذوا يخطّطون في الظّلام، ومن وراء الكواليس، ليحوكوا المؤامرات الخبيثة، وليطعنوا الإسلام من الخلف؛ لئلا يثيروا مشاعر المسلمين ضدّهم، ومن تلك الأساليب:

١- تحريف الدّين عن مفهومه الصَّحيح وتشويه حقيقته:

الدّين في جوهره عقيدة تحدّد نظر الإنسان نحو الكون والحياة، ونظام شامل لكلّ جوانب الحياة، وهو ثورة لقلب الواقع الفاسد إلى واقع سليم، ولمواجهة هذا التصور راحوا يروّجون المفاهيم المسمومة؛ ليحصروا الدّين في زوايا المعابد، ويعزلوه عن المجتمع، واتّبعوا لمقاومة الدّعاة إلى الله أسلوب التّسميم الفكريّ والسّياسيّ.

وخلاصة هذا الأسلوب: هو تنظيم مخطّط لعمليّة تسميم سياسيّ، ويقصد بها زرع مسائل فكريّة في منطق الخصم، فإذا به يسير في الطَّريق الَّذي يريده العدوّ من حيث لا يشعر، وهكذا يقوده إلى الخراب، الَّذي هو اليوم المحور الَّذي أضحت تدور عليه عمليّة تحقيق الانهيار النَّفسيّ للتّخلّي عن إرادة الصّراع، ونشر الإشاعات بقصد بلبلة الأفكار، وخلق الاضطراب، والإخلال بالأمن من خلال قتل الزّعماء، ونشر الأراجيف عنهم(١).

ولمّا كان الاستعمار يعلم أنَّ الدّينَ عند المسلمين نظامٌ شاملٌ لجميع نواحي الحياة أخذ يعمل بشكل تدريجيّ، لفصل الدّين عن الحياة السّياسيّة والاقتصاديّة

---

(١) ينظر: الدّكتور حامد ربيع، الحرب النّفسيّة في الوطن العربيّ: ٤٤، وما بعدها.

ليعزله في زاوية المسجد، فطرح للدّين تعريفاً مخالفاً لحقيقته، فقال فيه: «إنَّ الدّين علاقة فرديّة بين الخالق والمخلوق»، ومرّر هذه الفكرة من خلال المدارس الَّتي تربّت فيها النّاشئة الإسلاميّة إلى أن نشأ جيل، بل أجيال، لا يعي من الدّين إلا الطُّقوس العباديّة الشّكليّة، وهذه بنظري من أخطر السُّموم الَّتي بثَّها الاستعمار.

ولمّا كانت هذه الأساليب قديمةً بقدم الإنسان، وتتجدّد في كلّ عصر فقد حذَّر الله نبيَّه الكريم من ذلك كلّه، والتَّحذير في حقيقته موجّه إلى الأمّة لكن خاطب به الرَّسول صلى الله عليه وآله؛ لبيان خطورة الأمر المحذّر منه، فلا بدَّ لدعاة الإسلام أن يكونوا حذرين يقظين مراقبين لحركات العدوّ؛ لئلا يقعوا في شباكهم، قال تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[١].

ولم يكتفوا بذلك، بل صوَّروا الإسلام بأحطّ صور التّخلّف والوحشيّة، وتشويه سمعة الشّخصيّات الإسلاميّة، وهذا المسلك سلكه أغلب المستشرقين لتشويه صورة الرَّسول الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام والعلماء الأعلام، وقد صرّح بذلك أكابر علمائهم، فلنقرأ بعض تلك التَّصريحات:

١- آرنست رينان (Ernest Renan): «إنَّ الإسلام هو الإنكار الكامل لأوروبا، فالإسلام في زعمهم هو احتقار العلوم، وإلغاء المجتمع المدنيّ، وهو الغباء القاتل للعقل السّاميّ، والَّذي يدفع العقل الإنسانيّ إلى الضُّمور، ويغلقه أمام أيّة فكرة رقيقة، وأمام أيّ شعور مرهف، وأيّ بحث عقلانيّ؛ ليضعه أمام شموليّة خالدة هي: الله هو الله»[٢].

(١) المائدة: ٤٩.

(٢) محاصرة.. وإبادة، موقف الغرب من الإسلام: ٢٥.

٢- وأضاف آخر: «إنَّ شريعتهم الملعونة الَّتي أعطاها لهم محمّد تأمرهم بإيذاء الآخرين الَّذين لا يدينون بإيمانهم»(١).

٣- جوستاف فلوبير: «إنَّني أَطلبُ باسم الإنسانيّة أن يسحق الحجر الأسود، ويلقى رماده في الرّيح، وأن تهدم مكّة، وأن يدنّس قبر محمّد، إنَّها الوسيلة الوحيدة لإحباط التّعصّب»(٢).

٤- القسّ جان كلود بارو (Jean Claude Barreau) الَّذي صدر كتابه في شهر ديسمبر عام ١٩٩١م، وحصل على جائزة أدبيّة لذلك العام نفسه، إذ قال بعد أن زايد في تجريح الإسلام طوال كتابه: «إنَّه لا بدَّ من إعادة صياغة القرآن والحديث والسّنّة خلال عقد أو اثنين، بمفاهيم عصرية، أو على الإسلام أن يختفي».. وهو ما يتماشى مع ما «وضعه الغرب من مخطّطات لاستبعاد المسلمين من البلدان العربيّة وإذابة هويّتهم، وتحطيم انطلاقتهم، وإلغاء عروبتهم لامتصاصهم أو إذابتهم في دولة اندماجيّة»(٣).

وكتب أيضاً: «إنَّ القرآن أقلُّ بكثير من الكتب الدّينيّة الأخرى كالإنجيل أو البجاماجيتا أو حتّى الإلياذة! فالقرآن بالنّسبة لهذه الأعمال الجليلة كتاب بالٍ شديد الملل، ولعلَّ ذلك الملل هو الَّذي جعل المستشرقين يأنفون من ترجمته»(٤).

٥- الأب جيوم رينال (G.Raynal): «من بين كافة الأنسقة السّياسيّة

---

(١) محاصرة.. وإبادة، موقف الغرب من الإسلام: ٢٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ٣١.

(٤) المصدر نفسه: ٤٧.

والدّينيّة الّتي بُلِيَت بها البشريّة، لا يوجد ما هو أكثر تكبيلاً للحرّيّة من الإسلام»[١].

٦- هولباخ (Holbach): «لقد ظهر محتال في بلاد العرب، وارتجل الأكاذيب باسم السَّماء، واستطاع أن يفرضها على جزء من مواطنيه: وسرعان ما أصبحت هذه الأكاذيب مقدّسة، وانتشرت بالسّلاح في آسيا وأفريقيا وأوروبا، ويسمحون لمتعصّبين طموحين أن يغزوا كلّ الأرض، ويروونها بالدّماء... إنَّ شريعة محمّد أقيمت بالسّلاح، وهي تطيح بالعروش؛ لتقيم الطّغيان الإسلاميّ على أنقاضها»[٢].

٧- الأب ميشليه (Michelet): «الإسلام يعني: الله هو الله. إنَّه دين التَّوحيد، وليختفي الإنسان، وليختبئ الجسد.. لا صور فيه، ولا فنّ؛ لأنَّ هذا الرَّبّ الغيور يغار حتّى من رموزه، إنّه يستحوذ على الإنسان، ولا بدّ له من أن يكتفي به... فالأسرة قد تهدَّمت تقريباً، وكذلك القرابة والقبيلة.. واختبأت المرأة في "الحرملك".. لقد سمح بأربع زوجات، لكنّه أقرّ محظيّات بلا عدد.. إنَّ العلاقات قليلة بين الأخوة وذويهم.. ولا يوجد لديهم مسيح، ولا أيّ وسيط، ولا إله إنسان.. إنَّ هذا السُّلّم الّذي منحتنا المسيحيّة إيّاه، والّذي يصعد إلى الله عن طريق القدّيسين، والعذراء، والملائكة، ويسوع قد ألغاه محمد كما ألغى أيّ تدرّج إلهيّ أو إنسانيّ»[٣].

٨- دومنيك بودييه (D.Baudier) كتب قائلاً: «إنَّ محمّداً، الغارق في الملذّات المنحرفة، نظراً لميوله الطّبيعيّة، لم يخجل من أن يقول في قرآنه إنَّ الله

(١) محاصرة.. وإبادة، موقف الغرب من الإسلام: ٣٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ٣٨-٣٩.

قد حباه من قوّة الكلى قوّة أربعين شخصاً من أضخم ماجني الدُّنيا»[١].

٩- اللّورد كرومر (Crommer) في كتابه في مطلع القرن العشرين، قال: «إنَّ القرآن هو المسؤول عن تأخّر مصر في مضمار الحضارة الحديثة.. لن يفلح الشَّرق ما لم يرفع الحجاب عن وجه المرأة، ويغطّي به القرآن»[٢].

ولمّا فشلت جميع أساليب الطَّعن، والتَّشويه، والتَّخريب، بل زادت المسلمين ثباتاً على دينهم، راحوا يفكّرون بأساليب أخطر وأفحش من ذلك كلّه، وهي تغيير العقائد والأحكام والمفاهيم الإسلاميّة عن أصالتها القرآنيّة، وهذا ما كان يقصده رئيس وكالة المخابرات الأمريكيّة CIA السّابق "جيمس وولسي" في ٢٠٠٦ عن الدّول العربيّة وخصوصاً الإسلاميّة: «**سنصنع لهم إسلاماً يناسبنا، ثمّ** نجعلهم يقومون بالثّورات، ثمّ يتمّ انقسامهم على بعض لنعرات تعصبيّة، ومن بعدها قادمون للزَّحف وسوف ننتصر»، وأضاف: «إنَّنا سننجح...»[٣].

ولأجل إنجاح هذا المشروع الخطير أسَّسوا مراكز بحوث ومؤسّسات في مختلف الاختصاصات لدراسة الفكر الإسلاميّ، وأوضاع المسلمين، وتقديم التقارير الدَّقيقة في ذلك، واقتراح مشاريع وطروحات يتوصَّلون من خلالها لتشويه صورة الإسلام بما يخدم مصالحهم، ويحقّق أهدافهم من دون أن يثير حفيظة المسلمين، ومن أخطر المؤسّسات مؤسّسة راند، «وهي مؤسّسة فكريّة بحثيّة تابعة للقوّات الجويّة الأمريكيّة، وهي أهمّ مؤسّسة فكريّة مؤثّرة على صناعة القرار في الإدارة الأمريكيّة، خاصّة فيما يتعلّق بالشّرق الأوسط.

---

(١) المصدر نفسه: ٤٠.

(٢) المصدر نفسه: ٥٣.

(٣) من صفحات الشّبكة العنكبوتيّة.

ومن أبرز ما أصدرته مؤسّسة راند تقريران خطيران:

التَّقرير الأول: نشر في عام ٢٠٠٤م، (يهدف التَّقرير إلى تغيير الإسلام من خلال تقسيم المسلمين إلى أربع فئات: مسلمين أصوليّين، أو متشدّدين، ومسلمين تقليديّين، ومسلمين عصرانيّين أو حداثويّين، ومسلمين علمانيّين)، واقترح التَّقرير لكلّ فئة من المسلمين أسلوباً خاصّاً بها في كيفيّة التَّعامل معها، ولكنّ الكلّ منصبّ على تشويه حقيقة الإسلام، وعرقلة فهمه الصَّحيح، أو العمل على إسقاط العاملين للإسلام معنويّاً، أو احتوائهم على أقلّ تقدير، ومن باب المثال نذكر ما اقترحوه للتّعامل مع ما يسمّونهم بالحداثويّين، فيقول: وأمّا الحداثويّون أو العصرانيّون مسخ الإسلام ليتعايش مع العصر، ومعهم العلمانيّون الَّذين يرون فصل الدّين عن الحياة، فهم الأقرب إلى الغرب في المبادئ والسّياسات، لكنّهم في موقف ضعيف، فيجب مساندتهم، ونشر أعمالهم في الإعلام والمناهج، وتوفير الدَّعم الشّعبيّ لهم، وتطوير منظّماتهم المدنيّة.

ويتحدّث التَّقرير عن قضايا أخرى من منظور تغريبيّ مشوّه، مثل الدّيموقراطيّة، وحقوق الإنسان، وتعدّد الزَّوجات، والقوانين الجنائيّة في الإسلام كقطع الأيدي، ورجم الزُّناة، والأقلّيّات والأديان الأخرى، ولباس المرأة، وضرب الزَّوجات، واختتم التَّقرير بالتَّشكيك في جمع القرآن ونقله.

وأمّا التَّقرير الثّاني: الَّذي نشر في عام ٢٠٠٧م بعنوان (بناء شبكات مسلمة معتدلة)، ويقع في ٢١٧ صفحة، واستغرق إعداده ثلاث سنوات من البحث، ويدعو إلى أمركة مفهوم الاعتدال، وتفكيك وتفرقة الصَّف الإسلاميّ، وممّا ذكر في التّقرير: دعم المعتدلين وفق الرّؤية الأمريكيّة لمواجهة الإسلاميّين، والتَّحذير من دور المسجد في المعارضة السّياسيّة، وعدم تمكّن التّيّار العلمانيّ من استعمال هذا

المنبر»[١].

وهنا واضح أنَّ التَّقرير يقترح إنشاء شبكات تعمل باسم الإسلام، وأطلقت عليها الإسلام المعتدل، وهذا الاعتدال يجب أن يكون بمفهوم أمريكيّ، لكي يفرغ الإسلام من حقيقته الإلهيّة كفصل الدّين عن الحياة الاجتماعيّة، والسّياسيّة، والاقتصاديّة، وحصره في زوايا المساجد والمحاريب، وقصره على العبادات الشّكليّة بعد تفريغها من محتواها الإلهيّ، وآثارها التّربويّة، والأخلاقيّة، والرّوحيّة، وبناءً على ذلك يمكن للمتديّن وفق هذا التّديّن المزعوم أن يعتنق أيّ عقيدة أو فكر اجتماعيّ؛ لأنَّ التّديّنَ علاقةٌ فرديّةٌ بين الخالق والمخلوق تخصّ الفرد، ولا ربط لها بالمجتمع لا من بعيد ولا قريب.

ولهذا تنبّه قادة الأمّة الإسلاميّة الواعين لهذا الخطر، وعلى رأسهم قائد الأمّة الإسلاميّة الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ، فقال: «فالإسلام هو دين المجاهدين الَّذين ينشدون الحقَّ والعدل، دين الَّذين يطالبون بالحرّيّة والاستقلال، والَّذين لا يريدون أن يجعلوا للكافرين على المؤمنين سبيلاً.

ولكنَّ الأعداء أظهروا الإسلام بغير هذا المظهر؛ فقد رسموا له صورة مشوَّهة في أذهان العامّة من النّاس، وغرسوها حتّى في المجامع العلميّة، وكان هدفهم من وراء ذلك إخماد جذوته، وتضييع طابعه الثّوريّ الحيويّ، حتّى لا يفكّر المسلمون في السَّعي لتحرير أنفسهم، وتنفيذ أحكام دينهم كلّها، عن طريق تأسيس حكومة تضمن لهم سعادتهم في ظلّ حياة إنسانيّة كريمة.

فقالوا عن الإسلام: أن لا علاقة له بتنظيم الحياة والمجتمع، أو تأسيس

---

(١) ما أوردته هنا حول مؤسّسة رائد من الشَّبكة العنكبوتيّة، موقع واحة العقيدة للسّيّد العربيّ بن كمال.

حكومة من أيّ نوع، بل هو يعني فقط بأحكام الحيض والنّفاس، وقد تكون فيه أخلاقيّات، ولا يملك بعد ذلك من أمر الحياة وتنظيم المجتمع شيئاً»(١).

كما نبّه إلى ذلك السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصَّدر قَدَّسَ سِرَّهُ قبل أكثر من نصف قرن إذ عَرّفَ الدّين بأنّه ليس «كلمات جامدة تردّدها الشّفاه، ولا طقوساً تقليديّة تؤدّيها العضلات، وإنّما هو عقيدة، وكيان، ومنهج في التَّفكير»(٢).

وقال قَدَّسَ سِرَّهُ: «وهذا هو الإسلام في أخصر عبارة وأروعها، فهو عقيدةٌ معنويّةٌ وخُلُقيّةٌ، ينبثق عنها نظام كامل للإنسانيّة، يرسم لها شوطها الواضح المحدّد، ويضع لها هدفاً أعلى في ذلك الشَّوط، ويعرّفها على مكاسبها منه»(٣).

وقال قَدَّسَ سِرَّهُ: «ولذلك فليس الوعي السّياسيّ للإسلام وعياً للنّاحية الشّكليّة من الحياة الاجتماعيّة فحسب، بل هو وعيٌ سياسيٌّ عميق، مردّه إلى نظرة كلّيّة نحو الحياة والكون، والاجتماع، والسّياسة، والاقتصاد، والأخلاق، فهذه النَّظرة الشّاملة هي الوعي الإسلاميّ الكامل»(٤).

٢- تصعيد روحيّة التّعصّب القوميّ في أوساط الأمّة الإسلاميّة؛ لعزل المسلمين بعضهم عن بعض، وتمزيق وحدتهم.

لقد جاء الإسلام ليصنع أمّة واحدة ترتبط بعقيدة واحدة وبنظام واحد، ويقيم حضارة إنسانيّة على أساسها، فدعا إلى ترك التّعصّب للقبيلة والجنس، وعدَّ الإنسانيّة نسيجاً واحداً ترجع إلى أصل واحد من آدم وحوّاء، «**كُلُّكُمْ لآدَمَ، وَآدَمُ**

(١) الإمام الخمينيّ، الحكومة الإسلاميّة: ٢٦-٢٧.

(٢) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، المدرسة القرآنيّة: ٣٦٤.

(٣) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، فلسفتنا: ٥٩.

(٤) المصدر نفسه: ٦٠.

منْ تُراب»[١].

وأكَّد على مفهوم الأخوّة الإيمانيّة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٢]، وأنَّ المسلمين أمّة واحدة وفق الأمر الإلهيّ، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[٣]، وبذلك نفى كلّ الفوارق القوميّة والعنصريّة والإقليميّة، وجعل ميزان التَّفاضل بين المسلمين هو التَّقوى، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٤].

بهذه المقاييس والموازين الإلهيّة، وبهذه الرّوح الإنسانيّة الرَّحبة دعا الإسلامُ النّاس إلى الله، ولم يفرّق بين عربيّ وأعجميّ، ولا بين أسود وأبيض، وقد عمل النّبيّ صلى الله عليه وآله طيلة حياته على تركيز هذه الحقائق في وجدان النّاس؛ لتصبح راسخة في أعماق فكرهم، وتابعه على ذلك أمير المؤمنين عليه السلام.

تلك هي حقيقة الإسلام في النّظريّة الاجتماعيّة، والنّظرة إلى المجتمع الإسلاميّ، ولكن ما أن رحل رسول الله صلى الله عليه وآله، وخرجت سلطته من يد خليفته المعصوم حتّى عادت الرّوح الجاهليّة من جديد، وصار يفرّق بين العربيّ والأعجميّ، وفي سقيفة بني ساعدة انطلقت الرّوح الجاهليّة، والنّبيّ صلى الله عليه وآله لم تجهز جنازته بعد! «وإذا فحصنا المنطق الّذي استخدم في الجدل الّذي دار آنذاك بين

---

(١) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٣٤.

(٢) الحجرات: ١٠.

(٣) المؤمنون: ٥٢.

(٤) الحجرات: ١٣.

المهاجرين والأنصار نجد أنَّ الرّوح القبليّة ظاهرة فيه ظهوراً بيّناً، فقد أثار كلام أبي بكر الأحقاد والإحن الكامنة بين الأوس والخزرج، وأغرى بينهما حين تحدّث عمّا بين الحيَّين من القتلى، وعن الجراح الّتي لا تُداوى، بينما نرى أنَّ الحبّاب بن المنذر – خطيب الأنصار – قد تكلَّم بنفس جاهليّ صرف حين تحدَّث إلى الأنصار يهيجهم، ويشدّ من عزائمهم، ولم يخرج لسان المهاجرين عن هذه الرّوح حين قال: من ينازعنا سلطان محمّد ونحن أولياؤه وعشيرته»[١].

وجاء مبدأ عمر في العطاء مخالفاً لمنهج الرَّسول الأكرم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فترك آثاراً سيّئة بين المسلمين، وأعاد الرّوح القبليّة بعد أن قبرها الإسلام، وجاء الدّور الأمويّ، ففعل ما هو أفظع من ذلك بـ«إثارة الرّوح القبليّة على نطاق واسع يكفل له انشقاق القبائل بتأثير أحقادها الصَّغيرة، ويخلق بينها حالة من التّوتّر تجعل من المتعذّر عليها أن تتوحّد»[٢].

بهذه الأساليب الماكرة فرّقت الأمّة، ووضعت بينها حواجز قوميّة وعنصريّة لضرب الإسلام من داخله.

وقد تنبّهت البعثات التّبشيريّة المسيحيّة إلى ذلك منذ وقت مبكر من القرن الماضي، فراحت تبعث الرّوح القوميّة من جديد؛ لتمزّق وحدة الأمّة الإسلاميّة، وقد قال كبير المبشّرين البروتستانت في الشّرق (صمويل زويمر): «**إنَّ أوّل ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إيجاد القوميّات**»[٣].

وقد جاء هذا التَّخطيط بعد أن فشلت الغزوات الصَّليبيّة للقضاء على الإسلام

(١) الشّيخ محمّد مهدي شمس الدّين، ثورة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ظروفها الاجتماعيّة وآثارها الإنسانيّة: ٢٦.

(٢) ثورة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ظروفها الاجتماعيّة وآثارها الإنسانيّة: ٩١.

(٣) أنور الجنديّ، سقوط مفهوم القوميّة الوافد: ٤.

الَّتي استمرت لمدّة طويلة؛ «فقد استخدمت الأنظمة الحاكمة في المنطقة الإسلاميّة إمكانات هائلة جدّاً؛ لتعميق الإحساس القوميّ عند المسلمين، على كافّة الأصعدة، وفي مختلف المجالات، في التّربية والتّعليم، وفي الإعلام بمختلف أجهزته وفي أجهزة الدولة والجيش والشّارع، وبموجب تخطيط دقيق ينمّ عن وجود عقول مخطّطة ما وراء هذه الخطة... فإنَّ الدَّعوة إلى القوميّة الفارسيّة، والدَّعوة إلى القوميّة التّركيّة، والعمل على بتر علائق هاتين القوميّتين بالإسلام والأمّة الإسلاميّة من جانب، وتمتين الإحساس القوميّ من جانب آخر قام بها في إيران وتركيا مجاميع من السّياسيّين والكُتّاب والحكّام»[١].

ولترسيخ الرّوح القوميّة، وبعثها في العرب بذلت أموال طائلة وجهود جبّارة، وفي مختلف الأساليب التّربويّة والسّياسيّة والفكريّة، واختاروا لذلك أشخاصاً معروفين بعدائهم للإسلام، وتأييدهم للإنجليز المحتلّين كالأب (أنستانس الكرمليّ) الَّذي كان له دور كبير في نشر الرّوح القوميّة في نفوس النّاشئة، وألَّف لذلك «كتاباً في التّأريخ سمّاه "خلاصة تأريخ العراق منذ نشوئه إلى يومنا هذا" لِيُدرّس في المدارس الابتدائيّة الرَّسميّة»[٢]، ووفق قاعدة «فرّق تسدّ» الَّتي استعملها الاستعمار؛ لتمزيق صفوف الأمّة الإسلاميّة المترامية الأطراف الَّتي تضم كلّ الأقوام على مختلف لغاتهم، وألوانهم، وأوطانهم ببثّ النّعرة القوميّة بين أبناء الأمّة الإسلاميّة الَّتي تعدّ أخطر وسيلة؛ لتمزيق وحدتها، فسخَّروا لذلك شخصيّات معادية للإسلام، ورفعوها على أكتاف المسلمين.

ففي تركيا سخّروا شخصيّات مهمّة؛ ليكونوا دعاةً للقوميّة التّركيّة، وعلى

---

(١) ضياء الدّين أحمد، حركة القوميّة العربيّة: ١٨-١٩.

(٢) حركة القوميّة العربيّة: ٧٧.

رأسهم طلعت باشا، وأنور باشا، وكمال أتاتورك... وعمل هؤلاء على احتقار القوميّات الأخرى ولا سيّما القوميّة العربيّة، واستعملت سياسة التّتريك في الأوساط العربيّة؛ لإثارة الشُّعور القوميّ عند العرب، وتأصيله عند الأتراك، وإثارة العداوات بينهم، ثمّ نشر المبادئ العلمانيّة الَّتي كانت تنشر بطابع قوميّ، حتى قال قوميٌّ تركيٌّ: «جدّنا نحن جنكيز خان العادل، وجدّنا نحن معادل لجد الحسين».

وفعلاً أنشئت أحزاب قوميّة منها: حزب الاتّحاد والتّرقّي، وحزب تركيا الفتاة... وحورب الإسلام في تركيا محاربةً عنيفةً على أساس قوميّ، وقام أتاتورك بأعمال هدم فيها الشّعائر الإسلاميّة، وضيَّق الخناق على المسلمين، ومن أعماله: أنَّه جعل الأذان باللّغة التّركيّة، وألغى الأعياد الإسلاميّة، وأغلق المعاهد الإسلاميّة، وأدخل المبادئ القوميّة العنصريّة في كلّ مجالات الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة والتَّعليميّة، وألغى الحروف العربيّة، وحوَّلها إلى اللاتينيّة...

وفي البلاد العربيّة بُعثَت الرّوح القوميّة، وانطلقت الدَّعوة إليها بالأسلوب نفسه، وقامت حركات قوميَّة تدعو إليها، منها: الجمعية العربيّة الفتاة في باريس، وجمعيّة الآداب والعلوم، أنشأها الأمريكيّون، وعلى رأسهم القسّ غالي سميث، والجمعيّة الثّورية العربيّة، وجمعية الإصلاح العام، وجمعيّة عصبة الوطن العربيّ لنجيب عازوري... الخ.

«واستثمر المبشّرون الأمريكان جهود اثنين من العلماء هما: ناصيف اليازجيّ، وبطرس البستانيّ، فعهدوا إليهما بتأليف كتب مدرسيّة مختصرة في شتّى الموضوعات، وما كاد يتمّ تأليف هذه الكتب وإقرارها حتّى طبعوها في مؤسّستهم، ووزّعوها على جميع أنحاء البلاد»[1].

---

(١) جورج أنطونيوس، يقظة العرب: ١٠٥.

وفي كلّ هذه الجمعيّات والأحزاب رؤوس يهوديّة ومسيحيّة، وقد كانت تتلقّى الخطط والدَّعم الماديّ والإعلام من مختلف الدُّول الاستعماريّة، وقد سخّروا بعض الشَّخصيّات العربيّة؛ لنشر أفكارهم بعد أن ربّوهم في بلادهم وأنشأوهم على عقائدهم، وأسندوا إليهم أرقى المناصب من أمثال ساطع الحصري أحد كبار منظّري حركة القوميّة العربيّة، الَّذي تربّى في أوروبا، وجاء لينشر أفكاره في البلاد الإسلاميّة، فمن مدرّس في بلاد الأناضول إلى وزير المعارف في سوريا عام ١٩٢٠م إلى مدير معهد التّربية العالميّ في القاهرة إلى مدير عامّ للمعارف في العراق حتّى نشأ أطفالنا على أفكاره من نعومة أظفارهم.

وأصبحت المناهج الدّراسيّة كلّها تجري على هذا المجرى، وكان لساطع الحصريّ دور فعال في نشر الرّوح القوميّة؛ إذ قام بتأليف مجموعة من الكتب المدرسيّة؛ للتّدريس في المدارس الابتدائيّة والثّانويّة، وبناءً على ذلك عُيّن وزيراً للمعارف، وكان يؤكّد على مطلبين مهمّين هما: القوميّة العربيّة، والمبادئ التَّربويّة الحديثة، وكان هدفه تعميق الشُّعور القوميّ العنصريّ في الأمّة العربيّة من خلال إثارة الشُّعور بأمجادها القائمة على أساس الجنس، واللُّغة، والتَّأريخ، وقد استمرَّ بالعمل في ميدان التَّربية والتَّعليم في العراق طويلاً حتّى استطاع أن يوجّه التَّعليم توجيهاً قوميّاً، وقد اعتنى عنايةً فائقةً بغرس الرّوح القوميّة والوطنيّة في نفوس النّاشئة(١).

ولأجل تخريج القادة المنظّرين والمفكّرين والقوميّين أُنشئت الجامعة الأمريكيّة في بيروت الَّتي خرَّجت أكثر من تسعين بالمائة من قادة القوميّة العربيّة

---

(١) ينظر: حركة القوميّة العربيّة: ٧٩-٨٠.

الأقحاح[1].

هذا غيضٌ من فيض ممّا بذله أعداء الإسلام من جهود؛ لتفتيت وحدة الأمة، وحرفها عن مسار التَّوحيد بطريق دسّ السّم بالعسل، ولا يسعنا أن نذكر أكثر من ذلك في هذه الأوراق.

وخلاصة الكلام أنَّ المكر والتَّدبير الشَّيطاني أخذ أساليبَ مختلفة لتحتلّ النُّفوس، وتسيطر على العقول، وتسخّر المجتمع البشريّ؛ لخدمة مصالحها الذّاتيّة، الَّتي لم تجد خطراً يهددها أكبر من الإسلام، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[2].

وفي إيران جاءوا برضا بهلوي، ليبعث الرّوح القوميّة في إيران، فقام بخطوات واسعة في هذا المجال، فأحيا العادات المجوسيّة، وروَّج البهائيّة، ومنع المساجد الفعّالة من أداء دورها، وحارب العلماء الواعين بين قتل وسجن وإبعاد، ومنع النّساء من ارتداء الحجاب الإسلاميّ، ونشر البغاء، وابتكر لنفسه لقب (بهلوي)؛ إحياء للسّلالة الفارسيّة الَّتي كانت حاكمة في إيران قبل الإسلام.

وهكذا عمل بعده ولده محمّد رضا بهلوي، إذ نمّى الرّوح القوميّة عند الفرس على حساب القوميّات الأخرى الَّتي ثأرت لقوميّاتها كالأكراد والعرب والبلوش، ثمّ جاءوا بحزب البعث في العراق الَّذي رفع شعاره القوميّ: «أمّة عربيّة واحدة، ذات رسالة خالدة»، مكان شعار التَّوحيد «لا إله إلا الله، محمّد رسول الله» على يد شبلي شمّيل، وميشيل عفلق الَّذي تخرَّج من السّوربون على يد المستشرق (ماسينيون)، وهو من أخطر المعادين للإسلام، وأبرزوا اليوم شخصيّة أخرى لإثارة

(١) ينظر: لعبة الأمم لمايلز كوبلاند: ٢٦٩، من تعليق في الهامش للمترجم مروان خير.

(٢) الأنفال: ٣٠.

النّعرات القوميّة والطّائفيّة هو الدّكتور سعد الدّين إبراهيم الأستاذ في الجامعة الأمريكيّة في القاهرة، ووضعوا تحت يده إمكانات ضخمة لإنجاح دعوته بحيث إنَّ أمريكا تدفع له ٣٠٠ آلف دولار شهريّاً غير الَّذي يتلقّاه من الاتحاد الأوربّيّ، وحين سجنته الحكومة المصريّة بتهمة تلقّي أموال من جهات مشبوهة هدَّدت أمريكا الحكومة المصريّة بالمقاطعة، ومنع الإعانات عنها!! فما هو الدّور الخطير المناط بهذا الرّجل؟ الله أعلم بذلك!

وهكذا كان عمل كثير من الرّؤساء العرب في بعث الحركات القوميّة، وتنشيطها، ودعم جميع دعاة القوميّة العربيّة، والأخطر من ذلك أنَّ بعضهم كان يُلْبسُ دعواته العلمانيّة لباس القوميّة خوفاً من إثارة المشاعر الإسلاميّة كالاشتراكيّة العربيّة، وهكذا واصلوا عملهم في تمزيق وحدة الأمّة الإسلاميّة في نشر التّعصّب القوميّ بين أبنائها بعد أن عمل رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ على استئصاله من نفوس المسلمين، وحارب كلّ الفوارق القوميّة بين الأمم والشّعوب، وجعل العلم والتّقوى والجهاد ميزان التّفاضل بين البشر، وهذا ما جاء صريحاً في القرآن الكريم، يقول تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١).

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾(٢).

﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الزّمر: ٩.

ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[١].

٣- تأصيل الرّوح الإقليميّة بين أبناء الأمّة الإسلاميّة:

«وقد جاء العامل السّياسيّ الّذي صنعه الاستعمار الكافر؛ ليعمّق الفواصل بطريقة حاسمة.. وذلك من خلال الكيانيّة السّياسيّة الّتي تجعل من هذا الإقليم كياناً مستقلاً على أساس القوميّة، أو اللّون، أو الأرض.. فتزداد الخصائص عمقاً وتنوّعاً، فتنعكس على السّاحة مزيداً من الشُّعور بالانفصال إزاء الواقع الآخر.. على أساس اللعبة الاستعماريّة المتحرّكة في السّاحة العامّة»[٢].

ومن آثار الإقليمية السيئة على العمل الإسلاميّ: إثارة التّناقضات الدّاخليّة للأقاليم المختلفة لخلق الفجوة بين أبنائها؛ لتكون منطلقاً لإثارة المشاكل الّتي تعمّق الفواصل، وتعميق الشُّعور بالوطنّية بدلاً من الشُّعور بالإسلاميّة، والاهتمام بالمشاكل الدّاخليّة للوطن الواحد، والإعراض عن بقية مشاكل المناطق الأخرى[٣].

٤- نشر النّظريّات الإلحاديّة، والفكريّة، والسّياسيّة، والاقتصاديّة وترويجها:

لقد ركّز الاستعمار على تبنّي الأفكار والنّظريّات الإلحاديّة ونشرها في أوساط الأمّة الإسلاميّة كنظريّة ماركس، ونظريّة فرويد، ونظريّة دارون... وغيرها لغرض بلبلة الذّهنيّة الإسلاميّة، وقد جاء في بروتوكولات حكماء صهيون التّأكيد على نشر تلك النّظريّات في أوساط المسلمين؛ لأنّها خير معين على نشر الإلحاد، فقد جاء في البروتوكول الثّاني لحكماء صهيون: «لاحظوا هنا أنّ نجاح دارون

(١) النّساء: ٩٥.

(٢) الإقليميّة في العمل الإسلاميّ، بحث للسيد محمّد حسين فضل الله، مجلّة المنطلق، عدد ٢٣: ٤.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٥.

Darwin، وماركس Marx، ونيتشه Nietsche قد رتَّبناه من قبل، والأثر غير الأخلاقيّ لاتّجاهات هذه العلوم في الفكر الأمميّ (غير اليهوديّ) سيكون واضحاً لنا على التّأكيد»(١).

وفي البروتوكول الثّالث عشر جاء «سنحاول أن نوجّه العقل العامّ نحو كلّ نوع من النّظريّات المبهرجة Fantastic الّتي يمكن أن تبدو تقدّميّة، أو تحرّريّة. لقد نجحنا نجاحاً كاملاً بنظريّاتنا على التّقدّم في تحويل رؤوس الأمميّين الفارغة من العقل نحو الاشتراكيّة»(٢).

والأخطر من ذلك أنَّ هذه النَّظريَّات راحوا يُدَرّسونها في المدارس الرَّسميّة في أكثر من بلد إسلاميّ، ونشرت بمختلف اللُّغات، بل أنشأوا لها جمعيّات وأحزاب وحركات سياسيّة، بل دول تدافع عنها، وتطالب بتطبيقها في المجتمع الإسلاميّ.

٥- نشر المفاسد الأخلاقيّة:

من الأمور الأساسيّة الَّتي ركّز عليها الاستعمار هو نشر المفاسد الأخلاقيّة في أوساط المسلمين؛ لعلمه بأنَّ الأمّة إن انهارت أخلاقيّاً سهلت السَّيطرة عليها، وستصبح بيده ألعوبةً يتصرّف بها كما يحلو له؛ ولذلك جاء في البروتوكول التّاسع من بروتوكولات حكماء صهيون: «عليكم أن تواجهوا التفاتاً خاصّاً في استعمال مبادئنا إلى الأخلاق الخاصّة بالأمّة الَّتي أنتم بها محاطون، وفيها تعملون، وعليكم ألا تتوقّعوا النّجاح خلالها في استعمال مبادئنا بكلّ مشتملاتها حتّى يعاد تعليم الأمّة

---

(١) الخطر اليهوديّ، بروتوكولات حكماء صهيون: ١١٣.

(٢) المصدر نفسه: ١٥١.

بآرائنا، ولكنّكم إذا تصرَّفتم بسداد في استعمال مبادئنا فستكشفون أنَّه – قبل مضي عشر سنوات – سيتغيّر أشدّ الأخلاق تماسكاً، وسنضيف كذلك أمّة أخرى إلى مراتب تلك الأمم الَّتي خضعت لنا من قبل»[1].

وبناءً على ذلك قال أحد أعداء الإسلام: «كأس وغانية يفعلان في الأمّة المحمّديّة ما لا يفعله ألف مدفع»، ومن هذا المنطلق سعى الاعداء إلى نشر المفاسد الأخلاقيّة في المجتمع الإسلاميّ بشتّى صورها، وابتكروا لها وسائل لا تخطر حتّى إلى ذهن الشَّيطان كالأفلام الخليعة، والقصص الفاحشة، والمسرحيّات الماجنة، وازداد الأمرُ سوءاً بعد انتشار الشَّبكات العنكبوتيّة، وصارت ميسّرة بكلّ يد، وأنشأوا لذلك مواقع فاسدة مفسدة في منتهى الانحطاط الأخلاقيّ، والخروج عن كلّ القيم الإنسانيّة فضلاً عن القيم الإسلاميّة.

٦- ضرب الحركات الإسلاميّة الواعية:

يحاول الاستعمار بكلّ طريقة لضرب الحركات الإسلاميّة المبدئيّة الواعية الهادفة لنشر الفكر الإسلاميّ الأصيل، وتخطّط لتحكيمه، وذلك من خلال أحد الأساليب الآتية:

أ- طريقة الاحتواء: وذلك بحرفها عن الهدف الَّذي قامت من أجله، فكثير من الحركات والثَّورات الإسلاميّة قامت في بدايتها على أساس إسلاميّ، وانطلقت لتحرير المسلمين إلا أنَّها بعد تسلّل العناصر المدسوسة إليها حرَّفوها عن مسيرتها، والأمثلة على ذلك كثيرة.

ب- تصفيتها جسديّاً بتوجيه الحكومات العميلة؛ لضربها واستئصالها كما

(١) الخطر اليهوديّ، بروتوكولات حكماء صهيون: ١٣٠.

حدث ذلك في مصر للإخوان المسلمين، وفي العراق لحزب الدعوة الإسلاميّة، وفي الجزائر لحركة الإنقاذ، وفي تركيا لحزب الفضيلة... وغيرها من الحركات الإسلاميّة في أكثر من بلد إسلاميّ.

ج- تشويه سمعتها بنشر الأكاذيب والافتراءات حولها، ووصمها بالعمالة والرّجعيّة، والتّخلّف، والإرهاب؛ لإبعاد المسلمين عنها، وقد تتظاهر بعض الدّول الاستعماريّة والعلمانيّة بالدّفاع عن تلك الحركات؛ لتأكيد الشُّبهة عليها، أو تقديم المساعدات الماليّة لها، ثمّ التّخلّي عنها بعد تنفيذ المخطّط الَّذي رُسِمَ لتشويه صورتها.

٧- تنصيب حكومات عميلة:

للسّير تحت ركاب الاستعمار، وتسخيرها لضرب الدّين في الصَّميم، وهذا هو ما جرى ويجري في أغلب البلاد الإسلاميّة عموماً، وإذا توقَّفت هذه الحكومات عن أداء واجباتها المحدودة لها، فسرعان ما تزال أو تحارب، وإذا ما استقلَّت دولة، وأرادت تطبيق الإسلام، فتحاصر سياسيّاً، وعسكريّاً، واقتصاديّاً كما هو الحال مع الجمهورية الإسلاميّة المباركة.

٨- بث بذور التَّفرقة بين المسلمين:

من أخطر الأسلحة الَّتي استعملها أعداء الإسلام إثارة النَّعرات المذهبيّة والقوميّة في أوساط الأمّة؛ لتمزيق صفوفهم، وضرب البعض منهم بالبعض الآخر بإثارة التّعصّب المذهبيّ والعنصريّ، واستعمال شتّى الأساليب؛ لإنجاح ذلك وبالطّرق المختلفة من خلال الاستفادة من بعض الاختلافات بين المذاهب، واستغلال بعض السّذّج في بلادنا لذلك باسم أهل البيت أو أصحاب الرّسول،

ويكفي أن ننقل الحادثة الآتية كدليل على ما تقدّم.

يروى أنّ معمّماً ضريراً بسيطاً «كان يقرأ التّعزية على سيّدة نساء العالمين فاطمة الزّهراء عليها السلام في مسجد بطهران قرب السّفارة العثمانيّة أيام الدّولة العثمانيّة والصّفويّة، وكان ينال من الخليفة أبي بكر باعتباره ظَلَم الزّهراء، وصادر منها منطقة فدك الّتي نحلها إيّاها النّبيّ صلى الله عليه وآله، وينال من الخليفة عمر باعتباره دخل دار عليّ عليه السلام بدون إذن، وهدّد بإحراقه عليهم إن لم يبايع عليّ عليه السلام.. هذا المعمّم كان صادقاً في اعتقاده بمظلوميّة الزّهراء عليها السلام، وغضبه على من ظلمها، ولكنّه كان بذلك يخدم أعداء الزّهراء والنّبيّ وأبي بكر وعمر، ويقبض أجرته من حيث لا يشعر.. فعندما تنبّه إلى ذلك أحد المتديّنين الواعين، وسأل الشّيخ عن قراءة هذا الموضوع لأيّام متتالية، أخبره أنّ صاحب الدّكان المجاور نذر قراءة تعزية على الزّهراء عليها السلام، وذمّ من ظلمها، وطلب منه أن يقرأ ذلك لمدّة خمسة عشر يوماً.. ولمّا تتبّع هذا المتديّن المسألة، قال له صاحب الدّكان: إنّه ليس هو صاحب النّذر، وأنّ رجلاً أعطاه ثلاثين روبية، وكلّفه أن يستأجر قارئاً بما شاء، ويأخذ الباقي، وأنّه قد أعطى القارئ النّصف، وأخذ هو النّصف، ولمّا تابع الرّجل بحثه وصل بعد عدّة أشخاص إلى صاحب النّذر الأصليّ الّذي هو سفارة صاحب الجلالة ملك بريطانيا، ووجد أنّ مبلغ النّذر كان خمس مائة روبية، وأنّ هدفه أن يسمع موفظو السّفارة العثمانيّة المساس بالخلفاء عندما يُصلّون في ذلك المسجد، فيخبرون بذلك دولتهم، ويصبّون النّار على الخلاف المذهبيّ الذي أشعله الأوروبيّون بين الدولة العثمانيّة [السّنّيّة] والصّفوية [الشّيعيّة] حتّى وصل الأمر إلى الحرب بينهما»[1].

(١) علي الكورانيّ، طريقة حزب الله في العمل الإسلاميّ: ١٦١.

هذه مفردة واحدة فيها دلالة على ما يبذله أعداء الإسلام قديماً وحديثاً لتوجيه أسلحة المسلمين إلى صدور بعضهم البعض الآخر، ورفعها عن صدور أعداء الإسلام، هذا كان في زمن كان المنبر هو الوسيلة الإعلاميّة الوحيدة، وهي محدودة في دائرة جغرافيّة ضيّقة قد لا تتعدّى محيطها، وأمّا اليوم، وبعد انتشار الأقمار الصّناعيّة، ومحطّات التّلفزة فقد تفاقم الأمر، وتعاظم الخطر حين نصبت محطّات خاصّة لبثّ النّعرات الطّائفيّة بأبشع صور الإثارة والاستفزاز لأتباع مذهب على مذهب آخر، ففي أحد شوارع دويلات الخليج محطّة فضائيّة تبثّ باسم الشّيعة تشتم الصّحابة والعلماء، وعلى مسافة قريبة منها تبثّ باسم السّنّة تسبّ الشّيعة، وتفتري على التّشيّع، وتنسب له ما ليس فيه، وخيرُ شاهدٍ على ما نقول هو المحطّات الّتي تبثّ من أمريكا وبريطانيا اليوم باسم الشّيعة والسّنّة وبلسان عربيّ فصيح، وبأزياء أهل الدّين، وأصبحت الفتاوى تبثّ من خلالها، وكأنّها امتدادٌ لتلك الفتاوى الّتي صدرت قديماً في هدر دماء الشّيعة كفتوى ابن نوح الّذي قُتِلَ من جرّائها أكثر من خمسة آلاف شيعيّ، وما إصدار المؤلفات الّتي تثير النّعرات المذهبيّة كمؤلفات محبّ الدّين الخطيب، والخضريّ، وظهير الباكستانيّ، وعلي ناصر القفاريّ... الخ وغيرهم، وما تأسيس جيش الصّحابة في باكستان الّذي قام بقتل المئات من الشّيعة إلا ضمن هذه الخطّة الّتي وضعت من الاستخبارات العالميّة، وهي أخطر من استعمال السّلاح الذّرّي لقتل المسلمين.

وكان آخر محاولاتهم - وليس أخيرها - هو (داعش) الّتي جمعوا فيها شذّاذ الآفاق، وسفّاكي الدّماء من أكثر من مائة دولة، ونسبوها للإسلام والخلافة الإسلاميّة، وزوّدوها بكلّ الإمكانات العسكريّة والإعلاميّة الّتي لم تطق تحملها دولة كبرى لوحدها؛ ولذا شكّلوا لها تحالفاً مكوّناً من سبعين دولة بحجّة محاربتها،

وفي الحقيقة شكّل هذا التّحالف لإسنادها وإمدادها وتقويتها كما أثبتت الأحداث، وسمعنا كثيراً منها، وصوّرتها الكامرات، وفعل هذا التَّنظيم من الجرائم ما لم يعرف له التّأريخ مثيلاً، لا الغزو المغوليّ، ولا التّتر، ولا النّازيّة، بل ولا جرائم ماسولين، ولا ستالين، ولا كلّ فضائع الصّليبيّين، فباسم الإسلام قتلوا المسلمين، وهدّموا بيوت الله، وسبوا الحرائر، وباعوها في سوق النّخاسة، وقتلوا مئات الألوف، وشرّدوا الملايين، وهدّموا مدناً بكاملها، وخرّبوا في العراق وسوريا ما لا يُعَمّر في نصف قرن، كلّ ذلك تحت نظر دول الاستكبار العالميّ وذيوله من الدّول الإقليميّة، كلّ ذلك لأجل هدف واحد هو تشويه حقيقة الإسلام، وليس كما يذهب تجار السّياسة أنَّ ذلك لأجل السَّيطرة على ثروات البلدان الإسلاميّة، ومن منعهم منها؟ وهي تحت أيديهم يتصرَّفون فيها كما يشاؤون كما هو واقع في الخليج العربيّ من حدّه إلى حدّه، وقواعدهم العسكريّة مسيطرة على البرّ والبحر والفضاء، فما لهم من هدف إذن إلا لإيقاف التّيّار الإسلاميّ الَّذي أخذ يمتدّ إلى أوطانهم وشعوبهم، وبما أنَّهم لا يستطيعون مقاومة الفكر الإسلاميّ بالمكر والخداع، إذن لا بدَّ من أن يعطوا لشعوبهم صورة مشوّهة عن الإسلام، وأنَّه دين الذّبح والسّلب والنَّهب والتَّخريب، بل والوحشيّة بأبشع صورها، وهذا هو ما حقَّقوه بصور لا نعرف لها مثيلاً في بشاعة الجرائم ممّا يندّ له جبين الإنسانيّة.

حَقيقَةُ الْمَكْرِ

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[1].

المكر لغةً: احتيال في خُفية، وقيل: هو الخديعة والاحتيال، تقول: مكر يمكر مكراً ومكر به، وأصل المكر الخداع[2].

قال الرّاغب الأصفهانيّ: «المكر صرف الغير عمّا يقصده بحيلة، وذلك ضربان: مكر محمود، وذلك أن يتحرّى بذلك فعل جميل، وعلى ذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[3]، ومذموم وهو أن يتحرّى به فعل قبيح، قال: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[4]، ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[5]، ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾[6]، وقال في الأمرين: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾[7]،

---

(١) الأنفال: ٣٠.

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٨٣/٥، (مكر).

(٣) آل عمران: ٥٤، الأنفال: ٣٠.

(٤) فاطر: ٤٣.

(٥) الأنفال: ٣٠.

(٦) النّمل: ٥١.

(٧) النّمل: ٥٠.

وقال بعضهم: منْ مَكر الله إمهال العبد، وتمكينه من أعراض الدُّنيا؛ ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: **مَنْ وُسِّـعَ عَلَيْه دُنْياه، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ مُكِرَ بِه فَهُوَ مَخْدوعٌ عَنْ عَقْله**»[1].

هذا هو المكر لغةً، وأمّا اصطلاحاً، فهو: عبارة عن الحيلة، والخديعة، والدّهاء، والتّآمر الَّذي يستعمله العدوّ؛ ليغيّر اتّجاه عدوّه، أو يوقف تحرّكه، أو يوقعه في هاوية.

إنَّ الصَّراع بين الحقّ والباطل يتّخذ صوراً عديدة؛ فتارة صراع ظاهريّ، وأخرى صراع خفيّ، والمكر هو نوع من الصّراع الخفيّ تُرسم فيه خطط خفيّة من العدوّ؛ لإيقاع عدوّه في مهالك، أو ليصدّه عن قصده، أو يبعده عن هدفه، فمنذ أشرقت شمس الرّسالة أخذت قوى الكفر تسلك شتّى السّبل؛ لإيقاف تيّارها، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله أكثر من واجه تلك الأساليب، فقد اتَّبعت قريش مختلف الحيل: كالمكر، والدّهاء والغدر، والمخادعة، والإغراء؛ ومن أهمّ الأساليب:

١- أسلوب استهدف شخصيّة الرّسول صلى الله عليه وآله؛ لإسقاطها من أعين النّاس، فوصفوه - والعياذ بالله - بالسّاحر، والكاهن، والمجنون، والشّاعر... يقول تعالى:

﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[2].

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾[3].

وقد ردَّ القرآن الكريم هذه الافتراءات، ودفعها عن رسوله الأمين صلى الله عليه وآله

---

(١) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٦٥٠، (مكر).

(٢) ص: ٤.

(٣) الذّاريات: ٥٢.

بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[١].

٢- الضّغوط العائليّة على أبي طالب رَحِمَهُ الله بالمفاوضات تارة، وبالتّهديد أخرى، ومن خفّة عقولهم عرضوا عليه استبدال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بعمارة بن الوليد ليقتلوا رسول الله، قال ابن إسحاق: «مَشَوْا إليه بعُمارة بن الوليد بن المُغيرة، فقالوا له - فيما بلغني -: يا أبا طالب، هذا عُمارة بن الوليد، أنهد[٢] فتى في قريش، وأجمله، فخُذْه، فلك عقله ونصره، واتّخذه ولداً، فهو لك، وأسلمْ إلينا ابنَ أخيك، هذا الّذي قد خالف دينك، ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفَّه أحلامهم، فنقتله، فإنّما هو رجل برجل، فقال: والله لبئس ما تَسومونني، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبداً»[٣].

٣- أسلوب الإهانات الشّخصيّة: رجموه بالحجارة، وألقوا عليه سلى ناقة، «فجاء إلى أبي طالب، فقال: **يا عَمّ، كَيْفَ حَسَبي فيكُمْ**؟ قال: وما ذاك يا ابن أخ؟ قال: **إنَّ قريشاً أَلْقَوا عَلَيَّ سَلى**، فقال لحمزة: خذ السّيف، وكانت قريش جالسة في المسجد، فجاء أبو طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ ومعه السّيف، وحمزة ومعه السّيف، فقال: أمِرَّ السّلى على سبالهم، فمن أبى، فاضرب عنقه، فما تحرّك أحدٌ حتّى أَمَرَّ السّلى على سبالهم، ثمّ التفت إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فقال: يا ابن أخ، هذا حسبك فينا»[٤].

(١) الحاقّة: ٤٠-٤٣.

(٢) أنهد: أشدّ وأقوى، وأصل هذه الكلمة للتّقدّم، يقال: نهد ثدي الجارية، أي برز قدماً.

(٣) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٣٠٣/١-٣٠٤.

(٤) الشّيخ الطّبرسيّ، إعلام الورى بأعلام الهدى: ١٢٠/١.

٤- تعذيب أصحابه أشدّ التَّعذيب، منهم بلال ﵁، وكان أميّة بن خلف يخرجه «إذا حميت الظّهيرة، ثمّ يأمر بالصّخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ثمّ يقول له: لا والله، لا تزال هكذا حتّى تموت، أو تكفر بمحمّد، وتعبد اللات والعزّى. فيقول، وهو في ذلك: أَحَدٌ أَحَد»[1].

ومنهم عمّار بن ياسر وأبوه وأمّه رحمهم الله، وكان رسول الله ﷺ يمرّ بهم، فيقول: «**صَبْراً آلَ ياسرٍ، مَوْعدكُم الْجنَّةُ**»[2]، فمات ياسر في التَّعذيب وطعن أبو جهل سميّة بحربة في صدرها، فكانت أوَّل شهيدة في الإسلام، فعن جابر: «أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بعمّار وأهله، وهم يُعذّبون، فقال: **أَبْشروا آلَ عَمّارٍ أو آلَ ياسرٍ؛ فَإِنَّ مَوْعدَكُمُ الْجنَّةُ**»[3].

وعن مجاهد، قال: «أوّل شهيد كان في الإسلام استشهد أم عمّار سميّة، طعنها أبو جهل بحربة في قلبها»[4].

ورُوِيَ: «كان أبو جهل الفاسق الّذي يُغْري بهم في رجال من قريش، إذا سمع بالرّجل قد أسلم، له شَرَفٌ ومَنَعَةٌ، أنَّبَهُ وأخزاه، وقال: تركْتَ دين أبيك وهو خيرٌ منك! لَنُسَفِّهَنَّ حلْمَك، ولَنُفَيِّلَنَّ[5] رأيك، ولنضعنَّ شرفك؛ وإن كان تاجراً قال: والله لَنُكَسِّدَنَّ تجارتك، ولَنُهْلِكَنَّ مالَكَ، وإن كان ضعيفاً ضربه، وأغرى به»[6].

(١) ابن كثير، السّيرة النّبويّة: ٤٩٢/١.

(٢) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٣٥٦/١.

(٣) البيهقيّ، دلائل النّبوّة: ٢٨٢/٢.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) لنفيّلنّ رأيك: أي لنقبّحنه ونخطّئنه.

(٦) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٣٥٧/١.

٥- متابعة المهاجرين إلى الحبشة، وإثارة الشّبهات عليهم؛ لغرض إرجاعهم إلى مكّة، فعن أم سلمة زوج رسول الله ﷺ قالت: «لمّا نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار النّجاشيّ، أَمنّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه؛ فلمّا بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النّجاشيّ فينا رجلين منهم جَلْدَين، وأن يُهدوا للنّجاشيّ هدايا ممّا يُستطرف من متاع مكّة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدَم[1]، فجعلوا لـه أَدَماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا لـه هديّة، ثمّ بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كلّ بطريق هديّته قبل أن تكلّما النّجاشيّ فيهم، ثمّ قدّما إلى النّجاشيّ هداياه، ثمّ سَلاه أن يسلّمهم إليكما قبل أن يكلمهم».

قالت: «فخرجا حتّى قدما على النّجاشيّ، ونحن عنده بخير دار، عند خير جار، فلم يبقَ من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديّته قبل أن يكلّما النّجاشيّ، وقالا لكلّ بطريق منهم: إنَّه قد ضوى[2] إلى بلد الملك منّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم؛ ليردّهم إليهم، فإذا كلّمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا، ولا يكلّمهم، فإنَّ قومهم أعلى بهم عيناً[3]، وأعلم بما عابوا عليهم؛ فقالوا لهما: نعم، ثمّ إنّهما قدّما هداياهما إلى النّجاشيّ، فقبلها منهما، ثمّ كلّماه، فقالا لـه: أيّها الملك، إنَّه قد ضوى إلى بلدك منا غِلْمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن

---

(١) الأدَم: الجلود.

(٢) ضوى: لجأ ولصق وأتى ليلاً.

(٣) أعلى بهم عيناً: أبصر بهم: أي عينهم وأبصارهم فوق عين غيرهم.

ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه».

قالت: «ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النّجاشيّ».

قالت: «فقالت بطارقته حوله: صدقا، أيّها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليردّاهم إلى بلادهم وقومهم».

قالت: «فغضب النّجاشيّ، ثمّ قال: لاها الله إذن(١)، لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتّى أدعوهم، فأسألهم عمّا يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنْتُ جوارهم ما جاوروني».

قالت: «ثمّ أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فدعاهم، فلمّا جاءهم رسوله اجتمعوا، ثمّ قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرّجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول: والله ما علمنا، وما أمرنا به نبيّنا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن، فلمّا جاؤوا، وقد دعا النّجاشيّ أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم، فقال لهم: ما هذا الدّين الَّذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا [به] في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟».

قالت: «فكان الَّذي كلَّمه جعفر بن أبي طالب (رضوان الله عليه)، فقال له: أيّها الملك، كنّا قوماً أهل جاهليّة، نعبدُ الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش،

(١) قال ابن الأثير: «جاء الحديث «لاها الله إذا» والصَّواب «لاها الله ذا» بحذف الهمزة، ومعناه: لا والله لا يكون ذا، أو لا والله الأمر ذا، فحُذِفَ تخفيفاً»، النهاية في غريب الحديث والأثر: ٥/٢٣٧-٢٣٨.

ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويّ منّا الضَّعيف، فكنّا على ذلك، حتّى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله؛ لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كُنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدّماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزّور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصَّلاة والزّكاة والصّيام - قالت: «فعدَّد عليه أمور الإسلام» - فصدَّقناه، وآمنّا به، واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذَّبونا، وفتنونا عن ديننا؛ لُيردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلّ ما كنّا نستحلّ من الخبائث، فلمّا قهرونا، وظلمونا، وضيَّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيّها الملك».

قالت: «فقال له النّجاشيّ: هل معك ممّا جاء به عن الله من شيء؟».

قالت: «فقال لـه جعفر: نعم، فقال لـه النّجاشيّ: فاقرأه عليَّ».

قالت: «فقرأ عليه صدراً من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[(1)]».

قالت: «فبكى، والله، النّجاشيّ حتّى اخضلّت لحيته، وبكت أساقفته حتّى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم؛ ثمّ قال [لهم] النّجاشيّ: إنَّ هذا والَّذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون».

---

(١) مريم: ١.

قالت: «فلمّا خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: واللهِ، لآتينَّه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم[١]».

قالت: «فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرَّجلين فينا: لا نفعل؛ فإنَّ لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله، لأخبرنَّه أنَّهم يزعمون أنَّ عيسى بن مريم عبد».

قالت: «ثمَّ غدا عليه [من] الغد، فقال [له]: أيّها الملك، إنَّهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسِلْ إليهم، فسَلْهم عمّا يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم؛ ليسألهم عنه».

قالت: «ولم ينزل بنا مثلها قطّ، فاجتمع القوم، ثمّ قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول، والله، ما قال الله، وما جاءنا به نبيّنا، كائناً في ذلك ما هو كائن».

قالت: «فلمّا دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟»

قالت: «فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الَّذي جاءنا به نبيّنا صلى الله عليه وآله، [يقول]: هو عبد الله، ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول».

قالت: «فضرب النّجاشيّ بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثمّ قال: واللهِ، ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود».

قالت: «فتناخرت[٢] بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيومٌ[٣] بأرضي... من سبّكم غَرِم، ثمّ قال: من سبّكم غَرِم، ثمّ قال: من

(١) خضراءهم: شجرتهم الّتي منها تفرّعوا.

(٢) «أي تكلّمت، وكأنّه كلام مع غضب ونفور»، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٣٢/٥.

(٣) الشّيوم: الآمنون.

سبَّكم غَرِم، ما أحبّ أنَّ لي دَبراً من ذهب[١]، وأني آذيت رجلاً منكم... ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله منّي الرّشوة حين ردَّ عليَّ مُلْكي، فآخذ الرّشوة فيه، وما أطاع النّاس فيّ فأطيعهم فيه».

قالت: «فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار»[٢].

٦- المحاصرة الاقتصاديّة: فقد كتبوا صحيفة، وختموها بأربعين خاتماً، ختمها كلّ رجل من رؤساء قريش، وعلّقوها في الكعبة: أن لا يشتروا منهم، ولا يبيعوا، ولا يتزوجّوا منهم، ولا يزوجّوهم، ولا يتعاملوا معهم بشيء، ولا يتّفقوا معهم على أمر من الأمور، وحاصروهم في شعب أبي طالب من أوّل محرّم من السّنة السّابعة للبعثة، وكانت قريش تظنّ أنَّ هذه المقاطعة بما فيها من تجويع وإرهاب ومحاصرة ستقضي على حركة الإسلام، وتوقف تيّاره، أو تعزله عن المجتمع الّذي يدعو فيه، ولم يزد ذلك رسول الله ﷺ - معتصماً ومتوكّلاً على الله - إلا ثباتاً واستقامة ومواصلة للدَّعوة رغم الحصار المضروب عليهم، والَّذي دام سنتين أو ثلاثة، وما كانوا يخرجون من شعب أبي طالب إلا في أيّام الموسم: موسم العمرة في رجب، وموسم الحجّ في شهر ذي الحجة، ولم يكن يصلهم شيء من الغذاء إلا ما كان يقوم به بعض المتعاطفين معهم سراً كهشام بن عمرو الَّذي كان يأتي بالبعير بعد البعير محمّلاً بأنواع الطّعام والتّمر إلى فم الشّعب، ثمّ يرسله؛ ليدخل الشّعب، واضطرّتهم تلك المحاصرة إلى أكل الأعشاب، وورق الشّجر، حتّى لم يتركوا شيئاً من نبات الأرض إلا أكلوه حتّى أجهدهم الجوع من شدّة الحصار.

---

(١) دَبر، بلسان أهل الحبشة، يعني الجبل.

(٢) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٣٧٢/١-٣٧٥.

قال ابن إسحاق: «فلمّا رأت قريش أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً، وأنَّ النّجاشيّ قد منع من لجأ إليه منهم... وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا [بينهم] أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطّلب، على أن لا يُنكحوا إليهم، ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، فلمّا اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثمَّ تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثمّ علّقوا الصَّحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، وكان كاتب الصَّحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدّار بن قصيّ - قال ابن هشام: ويقال: النَّضر بن الحارث - فدعا عليه رسول الله ﷺ، فشُلّ بعض أصابعه».

قال ابن إسحاق: «فلمّا فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم، وبنو المطّلب إلى أبي طالب بن عبد المطّلب، فدخلوا معه في شعبه، واجتمعوا إليه، وخرج من بنى هاشم أبو لهب، عبد العزّى بن عبد المطّلب، إلى قريش فظاهرهم»(1).

هذه بعض الأساليب وغيرها من الّتي اتّبعوها لإطفاء نور الله في الأرض، وكلّها لم تفلح حتّى أنَّ الله تعالى سلّط الأُرضة على الصَّحيفة التي كتبوها، ودمّرتها، قال ابن هشام: «وذكر بعض أهل العلم: أنَّ رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: **يا عَمّ، إنَّ ربِّيَ اللهَ قَدْ سلَّطَ الأُرْضَةَ على صَحيفَة قُرَيْش، فَلَمْ تَدَعْ فيها اسْماً هُوَ لله إلا أَثْبَتَتْهُ فيها، ونَفَتْ منْها الظُّلْمَ والْقَطيعَةَ والْبُهْتانَ**، فقال: أربّك أخبرك بهذا؟ قال: **نَعَمْ**، قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثمَّ خرج إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إنَّ ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلمّ صحيفتكم، فإن كان

(1) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٣٨٨/١.

كما قال ابن أخي، فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عمّا فيها، وإن كان كاذباً دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رَضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثمّ نظروا، فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شرّاً، فعند ذلك صنع الرَّهط من قريش في نقض الصَّحيفة ما صنعوا»[١].

ولمّا أعيتهم الحيلة، وفشلت كلّ أساليب المكر والخداع من التَّرغيب والتَّرهيب، بشتّى أشكاله، مع الحصار والمقاطعة الشَّديدة، ولمّا لم يستطيعوا أن يوقفوا حركة الدعوة إلى الله، راحوا يخطّطون لقتل الرّسول ﷺ كما أخبر تعالى بقوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[٢].

وهكذا راحوا يفكّرون كيف يقتلون رسول الله ﷺ؛ ليتخلّصوا منه، ويُضيعوا دمه بين عشائر كثيرة بحيث لا يستطيع الهاشميّون المطالبة بدمه والمقاومة لها، إلا أنَّ رعاية الله تبارك وتعالى كانت تحوط النّبيّ ﷺ من كلّ جوانبه، فأمره الله تبارك وتعالى بالهجرة إلى المدينة، وخرج ﷺ من وسط محاصرة مشدَّدة على شعب بني هاشم ليلاً ونهاراً، بعد أن أمر عليّاً عليه السلام أن يبيت بفراشه، وأحاط القوم بالدّار، وهم مجموعة من الأشداء، وراحوا ينظرون إلى المكان الَّذي ينام فيه النّبيّ ﷺ، فرأوا رجلاً قد التحف ببردته، فلمّا كان الثّلث الأخير من اللّيل خرج النّبيّ ﷺ من باب الدّار، وانسلّ من بينهم، وهم ينتظرون ظلمة اللّيل؛ لينفّذوا خطّتهم، وكان يقرأ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ

(١) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٤١٥/١.

(٢) الأنفال: ٣٠.

﴿فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾[١]، وأخذ حفنة من التّراب، وجعل ينثرها على رؤوسهم، وهم لا يشعرون، ولمّا حان الوقت هجموا على الدّار فثار عليٌّ عليه السلام في وجوههم، فانهزموا منه، ثمّ سألوه عن النّبيّ صلى الله عليه وآله فقال: **لا علْمَ لي به**[٢].

وهكذا أنجى الله تبارك وتعالى نبيّه صلى الله عليه وآله مَنَ غدر الغادرين، وأخرجه سالماً من بين أيديهم وهم لا يشعرون.

واليوم التّأريخ يعيد نفسه لمواجهة الامتداد الإسلاميّ الَّذي صنعته الصحوة الإسلاميّة في العالم كلّه، فذعرت قوى الكفر العالميّ أيّما ذعر، وما يجري وراء الكواليس لضرب الحركة الإسلاميّة في العالم أجمع هو من هذا القبيل، وخطَّط الماكرون لإجهاض الثّورة والحركة الإسلاميّة؛ ولذا نرى كيف تحاك الخطط في الظَّلام، وبأساليب متطوّرة لإيقاف التّيّار الإسلاميّ، وبذلوا لذلك الأموال الطّائلة، والجهود الجبّارة بكلّ ما يملكون من حَوْل وطَوْل، فمرّة يحاولون تحريف مفهوم الإسلام، وأنَّه علاقة فرديّة بين الخالق والمخلوق، وأنَّه لا علاقة له بإدارة المجتمع، وسياسة الدَّولة، ومرّة يحاولون احتواء الدُّعاة إلى الله، وتسخيرهم لمصالحهم، والطّعن بالإسلام من خلالهم، وثالثة يستعملون أساليب الإرهاب بأبشع أشكاله من سجن وتشريد وقتل، كلّ ذلك يبذل على مستوى الدّول الكبرى وذيولها وعملائها للقضاء على الإسلام، ورغم ذلك كلّه نرى أنَّ الامتداد الإسلاميّ أخذ أبعاداً كثيرة فكريّة وسياسيّة، واقتحم قلاع الكفر، ووصلت كلمة التَّوحيد في كلّ مكان حتّى عادت مشكلة كبرى يواجهها أعداء الإسلام؛ ففي إحصائيّات تعود إلى تسعينات

---

(١) يس: ٩.

(٢) ينظر: كتاب الطّبقات الكبير لابن سعد: ١/١٩٤-١٩٥، سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله لهاشم معروف الحسنيّ: ٢٥١.

القرن الماضي «أصبح تعداد المسلمين في كل من ألمانيا والولايات المتّحدة وبريطانيا وفرنسا بالملايين، وتقدّر الإحصاءات الغربيّة إجمالي عدد المسلمين في العالم بـــ(٩٩٠،٥٤٧) مليون – وهو رقم متحفّظ – يسبّبون لهم الخوف والهلع.

تنتشر المساجد في العالم كلّه بين لوس أنجليس، روما، زغرب، حتّى موسكو وبكين، وفي قرطبة الحاضرة القديمة للخلافة الأمويّة في الأندلس أسّس المسلمون الإسبان في ١٩٩٤ الجامعة الإسلاميّة الدّوليّة (آفيروس)، وليس بعيداً عن الجامع القديم الرّائع في قرطبة يرفع الآذان ثانياً للصّلاة»[١].

وبسبب هذا الامتداد الإسلاميّ أصاب قوى الكفر العالميّ الهلع والذّعر حتّى صرح الرئيس الأمريكيّ جورج بوش الأب: «إنَّ الإسلام ليس مجرّد دين، فحسب، بل هو أساس حضارة كبرى. إنَّ العالم الإسلاميّ عالمٌ ثوريٌّ بطبيعته، ويشكّل واحداً من أكبر التّحدّيات السّياسيّة للولايات المتّحدة في القرن العشرين»[٢].

وقال السّيناتور جون كينيدي: «إنَّ أقوى قوّة في العالم اليوم ليست الاشتراكيّة، ولا الرّأسماليّة، ولا قنبلة هيروشيما، ولا الصّواريخ الموجّهة، إنّها رغبة الإنسان الأبديّة في أن يكون حرّاً ومستقلاً».

وعاد الجنرال (مايكل فلين) مستشار الأمن القوميّ في عهد الرّئيس الأمريكيّ (ترامب) ليصف الإسلام بالسّرطان الّذي يجب اجتثاثه من الوجود؛ إذا قال: «الإسلاميّة هي سرطان خبيث في جسد ١،٧ مليار شخص على وجه الأرض،

---

(١) د. مراد هوفمان، الإسلام عام ٢٠٠٠: ١٧.

(٢) مجموعة مؤلّفين، التّحدّيات "الشّرق أوسطيّة" الجديدة والوطن العربيّ: ٨٥.

وعلينا استئصاله»[١].

ويتّخذ المكر صوراً لا حصر لها، وخلاصة الكلام: إنَّ المكرَ عملٌ خفيٌّ مدبّر مُحكم ينفّذ وفق مخطّط يُظْهِر شيئاً، ويبطن أشياء، وقد يبرز ما يوافق هوى الجهة الَّتي يعمل ضدّها، ويخفي وراءها أهدافاً أخرى يريد تحقيقها، كصيّاد ينصب شراكاً للطّيور، فهو يضع الحبّ واللّقط، ولكن يخفي الشّرك والصَّيد والذّبح، وقد يكون هذا المسلك من الحيل أخطر من الحرب الظّاهريّة، بل هو في الحقيقة أشدّ خطر؛ لأنَّ العدوّ الظّاهر يمكن أن تُتّقى عداوته باليقظة، والحذر والمقاومة، وأمّا الماكر فقد يأخذ الإنسان بغتة، ويوقعه في شباكه، أو يسقطه في حفرة لا يخرج منها.

وبعبارة أدقّ: هناك إرادة يراد لها أن تُحَطّم، وخصم يراد لـه أن يُحْتوى، وحضارة يراد لها أن تتفتّت مقوّماتها؛ تمهيداً لعمليّة الابتلاع الكلّيّة الشّاملة مع ما يعنيه ذلك من الاستئصال الجذريّ للوجود الحضاري"[٢].

ومن هنا فإنَّ الإسلام لا يسمح لحملته ودعاته أن يكونوا غافلين من كيد الكافرين، وإنَّما عليهم أن ينتبهوا لكلّ حركة تحدث حولهم، قال الإمام الجواد عليه السلام: «**مَنِ انْقادَ إِلى الطَّمْأَنِينَةِ قَبْلَ الْخِبْرَةِ، فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَكَةِ وَلِلْعاقِبَةِ الْمُتْعِبَةِ**»[٣].

وبما أنَّ الاصل في هذا الزّمان التّغالب على المكاسب السّياسيّة والاقتصاديّة، وبما أنَّ المصالح المادّيّة هي الحاكمة على جميع الحوارات

(١) من الشّبكة العنكبوتيّة، موقع عربي ٢١.

(٢) راجع: التّحدّيات "الشرق أوسطيّة" الجديدة والوطن العربيّ: ٤٢.

(٣) الدّيلميّ، أعلام الدين في صفات المؤمنين: ٣٠٩.

والاتّفاقيّات، والمعاهدات، وأبعدت فيها المبادئ الأخلاقيّة فيجب على المؤمن أن يكون حذراً فطناً يقظاً على دينه ووطنه، ولا تغرّه نعومة الحوارات الدّبلوماسيّة وسلاستها، فقد ابتكروا وسائل وأساليب للسَّيطرة وخداع الطّرف المقابل سمّوها القوّة النّاعمة، ويقصد بها: «أن يكون للدّولة قوّة روحيّة ومعنويّة من خلال ما تجسّده من أفكار ومبادئ وأخلاق، ومن خلال الدّعم في مجالات حقوق الإنسان والبنية التّحتيّة والثّقافة والفنّ ممّا يؤدّي بالآخرين إلى احترام هذا الأسلوب والإعجاب به، ثمّ اتّباع مصادره؛ وهذا الاسلوب قد صاغه جوزيف ناي من جامعة هارفارد لوصف القدرة على الجذب والضّمّ دون الإكراه، أو استخدام القوّة كوسيلة للإقناع. وفي الآونة الأخيرة، تمّ استعمال المصطلح للتّأثير على الرّأي الاجتماعيّ والعامّ، وتغييره من خلال قنوات أقلّ شفافيّة نسبيّاً، والضَّغط من خلال المنظّمات السّياسيّة، وغير السّياسيّة. إذ قال جوزيف ناي: إنَّه مع القوّة النّاعمة "أفضل الدّعايات ليست دعاية"، موضّحاً أنَّه وفي عصر المعلومات، تعدّ "المصداقية أندر الموارد"»[1].

وقد حذَّر أئمّة الإسلام من الوقوع في شراكهم، وخدعهم، والتّعامل معهم بحذر متناه، مهما بذلوا من أساليب ناعمة، والأصحّ أن يقال أساليب ماكرة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا استَوْلى الصَّلاحُ عَلى الزَّمان وأَهْله، ثُمَّ أَساءَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ خِزْيَةٌ، فَقَدْ ظَلَمَ، وَإذا استَوْلى الْفَسادُ عَلى الزَّمانِ وَأَهْلِه، فَأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ**»[2].

---

(١) من الشّبكة العنكبوتيّة.

(٢) نهج البلاغة: ٥٠٥، قصار الحكم: ١٠٨.

الإيمانُ وَالْمَكْرُ:

وقد يقال: هل يمكن للإنسان المؤمن أن يتّصف بصفة المكر؟

والجواب: إنَّ المكر المراد من المؤمن هو ليس الخداع والاحتيال، وإنَّما المراد من المؤمن أن يكون فطناً ملتفتاً إلى خطط العدوّ، ليستطيع أن يطوّقها ويحبطها، ولا يجوز للمؤمن أن يكون مغفّلاً، لا يدري ما يجري حوله، بل يجب أن يكون يقظاً يفكّر، ويخطّط بدقّة، وخفاء عن أعين الأعداء، ويحاول كشف مؤامرتهم وإحباطها، ومواجهتها بتخطيط أحكم، وهذا هو التَّدبير الدَّقيق لخدمة الرّسالة في مواجهة العقبات الَّتي تقف بوجهها، ومن هنا جاء في دعاء سيد السّاجدين: «**اللّهمَّ صلِّ على محمَّد وآله... وامْكُرْ لنا، ولا تَمْكُرْ بنا، وأَدِلْ لَنا، ولا تُدِلْ منّا**»[1].

ودعائه عليه السلام: «**وَهَبْ لي مَكْراً على مَنْ كايَدَني**»[2].

فمكر المؤمن إذا صحَّ التَّعبير هو حكمة، وتدبير، ويقظة، وفطنة، وانتباه، وحذر من الوقوع في شباك عدوّه، والله يقول: ﴿**وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾[3]، والحذر ليس غدراً، ولا خداعاً؛ ولذا على المؤمن أن يدرس الوضع الاجتماعيّ، ويعمل على تغييره بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن أولى لوازم الحكمة التَّفكير في أيّ عمل يريد أن يقوم به المؤمن، ثمّ التَّخطيط له، ثمَّ تنفيذ الأساليب، وتقرير المواقف.

---

(١) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ٣٦، دعاء: ٥، دعاؤه لنفسه وخاصّته.

(٢) المصدر نفسه: ٨٣، دعاء: ٢٠، دعاؤه في مكارم الأخلاق.

(٣) المائدة: ٤٩.

وأمّا المكر المذموم والّذي حذَّر منه الإسلام بشدّة، ونهى عنه فهو المكر المبنيّ على الخداع الهادف إلى تحقيق أمور رخيصة، خسيسة تتّسم بالغدر، قال صلّى الله عليه وآله: «**لَيْسَ منّا مَنْ ماكَرَ مُسْلماً**»(١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَالله ما مُعاوِيَةُ بِأَدْهَى منّي، ولَكنَّهُ يَغْدِرُ ويَفْجِرُ، ولَوْلا كَراهيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهى النّاس، ولكنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ، وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ**(٢)**، ولِكُلِّ غادرٍ لواءٌ يُعْرَفُ به يَوْمَ الْقيامَة، وَالله ما أُسْتَغْفَلُ بالْمَكيدَة ولا أُسْتَغْمَزُ بالشَّديدَة**»(٣).

فالمكر المنهيُّ عنه هو الخداع والغدر ولو كان بالعدوّ، وهذا عكس التَّدبير، والتَّخطيط، والحذر من الوقوع في مصائد العدوّ.

مَعْنى مَكْرِ اللهِ:

وردت آيات عدّة تنسب المكر إلى الله تعالى، منها قوله تعالى:

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾(٤).

---

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٣٨/٤، ح/٢٦٧٩.

(٢) «(غدر) غدراً من باب ضرب ونصر: نقض عهده، و(فجر) يفجر من باب قتل، و(الغدرة) و (الفجرة) و (الكفرة) كلّها في بعض النّسخ بفتح الفاء و سكون العين وزان تمرة فالتّاء للمرّة، وفي بعضها بتحريك الفاء والعين وزان مَرَدة، فيكون جمع غادر وفاجر وكافر، وفي بعضها بضمّ الفاء وفتح العين وزان هُمَزَة، فالتّاء للمبالغة، أي الكثير الغدر والفجور والكفر، فإن أسكَنْتَ العين فالبناء للمفعول، تقول: رجل سُخَرة، كهمزة: يسخر من النّاس، وسُخرة كغرفة: من يُسْخر منه»، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة لحبيب الله الخوئيّ: ٣٦٤/١٢.

(٣) نهج البلاغة: ٣٤٦، خطبة: ٢٠٠.

(٤) آل عمران: ٥٤.

﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾(١).

﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴾(٢).

فما معنى المكر هنا؟

والجواب: إنَّ الكافرين يدبّرون المؤامرات ضدّ رسالة الله تعالى، ليطفئوا نوره، ويعملون في الظلام؛ لئلا تكشف أحابيلهم، ويتصوَّرون أنَّهم بعيدون عن الأعين، إلا أنَّهم نسوا بأنَّ الله لا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السَّماء، فهو عالم بكلّ ما يخطّطون ويخفون، ومحيط بكلّ أعمالهم، والحقيقة إنَّما أطلقت لفظة المكر عليه تعالى مجازاً لا حقيقة، قال بعض العلماء: إنَّه تعالى سمّى جزاء المكر بالمكر، وجزاء السّيّئة سيّئة مثلها، فمجازاة المسيء ومعاقبته بمثل ما اعتدى ليس سيّئة، وإنّما دفع سيّئة.

وقالوا: المكر من الله جزاء سمي باسم المكر مجازاً، قال تعالى:

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾(٣).

﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾(٤).

فالأوّل ظلم، والثّاني ليس بظلم، وإنّما هو دفع للظّلم؛ فالمكر الإلهيّ هو أنَّ الله تبارك وتعالى ينعم على الإنسان نعماً كثيرة، ويستدرجه بها؛ ليكشف للآخرين ما في نفسه من مخفيّات؛ لتظهر في الواقع، ويتمّ الحجة عليه، فإذا شكر وسّع عليه،

(١) النّمل: ٥٠.

(٢) يونس: ٢١.

(٣) الشّورى: ٤٠.

(٤) البقرة: ١٩٤.

وزاد في إنعامه وأفضاله، وإن تمادى في غيّه، وضلَّ عن سبيله باستعمال تلك النّعم في معاصيه أخذه أخذ عزيز مقتدر، يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[١].

و«في حديث الدّعاء: «اللّهمَّ، امْكُرْ لي، ولا تَمْكُرْ بي»؛ مَكْرُ الله: إيقاعُ بلائه بأَعدائه دون أَوليائه، وقيل: هو استدراج العبد بالطّاعات فَيَتَوهَّمُ أَنَّها مقبولة، وهي مردودة. المعنى: أَلْحِقْ مَكْرَكَ بأَعْدائي لا بي»[٢].

والآية الكريمة: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[٣].

نزلت في قضيّة تدبير قريش للقضاء على النّبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في أوّل دعوته حينما اجتمعوا في دار النَّدوة، وتداولوا في أمره، وكانت هناك اقتراحات عدّة، منها:

١- أن يثبتوه، قيل معناه: أن يجرحوه بجروح تعجزه عن التّحرّك حتّى يموت، وقيل يسجنوه.

٢- أن يخرجوه من مكّة، ويبعدوه عنها.

٣- أن يقتلوه بخطّة يضيع بها دمه بين القبائل، وهي الخطّة الّتي طرحها أبو جهل.

فأفشل الله مكرهم، وتدبيرهم بهجرة رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ونوم عليّ عَلَيْهِالسَّلَامُ على فراشه، وقصّة مكرهم وتخطيطهم معروفة مشهورة تراجع في مطوّلات السّيرة[٤].

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٣٤٩/٤، (مكر).

(٣) الأنفال: ٣٠.

(٤) ينظر: كتاب الطّبقات الكبير: ١٩٣/١-١٩٤؛ تاريخ الطّبريّ: ٣٧٠/٢-٣٧١؛ والكامل في التّاريخ لابن الأثير: ١٠٢/٢؛ والسّيرة النّبويّة لابن كثير: ٢٢٨/٢-٢٢٩.

الإِشاعَةُ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

الآية الكريمة نزلت في حادثة معيّنة معروفة لا نريد التّعرّض لها؛ لأنَّ الآية لا تختصّ بمورد النّزول - في قصّة الإفك المعروفة - بل إنّها تفيد العموم؛ ولذا فهي تشمل كلّ من كان مريداً لهذا الفعل الشَّنيع فضلاً من أن يكون فاعلاً فالعبرة بعموم اللّفظ لا بقذف أمّ المؤمنين عائشة.

ومعنى الفاحشة هنا مطلق الفاحشة، وهي: «ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال»[2]، وتشمل كلّ خصلة قبيحة.

مَعْنى الإِشاعَةِ:

في اللّغة هي انتشار الخبر بين النّاس تقول: شاع الحديث إذا ظهر في العامّة[3].

وفي الاصطلاح السّياسيّ: «هي النَّبأ الهادف الَّذي يكون مصدره مجهولاً - ويروّج ضدّ جهة معيّنة بهدف إسقاطها، وفي بعض الأحيان بهدف إسنادها - وهي

(١) النّور: ١٩.

(٢) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٥١٦، (فحش).

(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٩١/٨، (شاع).

سريعة الانتشار ذا طابع استفزازيّ أو هادئ حسب طبيعة النّبأ»[١].

وهي أسلوب من أساليب الحرب النَّفسيّة يهدف زعزعة ثقة الإنسان بنفسه، أو إسقاط اعتباره في المجتمع الَّذي يعمل فيه، «وتعتمد الإشاعة على التَّرويج، ومادّتها الافتراء، والخبر المكذوب، وأسلوبها المبالغة في عرض الخبر، وتضخيم تفاصيله، ومسخ حقائقه».

«والشّائعة تقوم أساساً على انتزاع بعض الأخبار والمعلومات ومعالجتها بالمبالغة، والتّوهين مع إلقاء الضَّوء الباهت على تفاصيل معيّنة تجسّم بطريقة الفعّاليّة»[٢].

وعلى كلّ حال، فهي سلاحٌ هدّامٌ ينتشر من مصدر خفيّ، يستهدف إسقاط شخص، أو جهة، أو مبدأ، وهو سلاح العاجز عن مواجهة الحقّ بالقوّة والغلبة، وبالمنطق الجليّ الواضح.

دَوافِعُ الإشاعَةِ:

للإشاعة دوافع نفسيّة كامنة في النَّفس لا يستطيع الحاملون لها أن يبرزوها بشكل واضح لافتقارهم للحجّة والبرهان، ومن هذه الدّوافع:

١- **الشُّعور بالنَّقص النَّفسيّ**: وعدم القدرة في التّفوّق على الخصم بالبرهان القاطع، والحجّة الدّامغة، أو القوّة الضّاربة.

٢- **المصالح الشّخصيّة أو السّياسيّة**: قد تقتضي مصلحة شخص، أو حزب، أو أيّ جهة إلى إسقاط الجهة المعاكسة لها في المصالح، أو الأهداف، ولا

---

(١) زهير الأعرجيّ، دراسات في الأعلام: ٤٦.

(٢) إحسان العسكريّ، الخبر ومضادّه.

يمتلك الشَّخص أو الجهة الوسيلة النّاجحة لإسقاطه، فيلجأ إلى الإشاعة بهدف زعزعة ثقة الآخرين بتلك الجهة لإبعادهم عن خصمه، وقطع الرّوابط معها.

٣- الفشل في الحياة العلميّة أو العمليّة: كثير من النّاس من يحاول أن يُحَمّل الآخرين أسباب فشله في الحياة، فيختلق الأكاذيب والافتراءات لإسقاط من يحسدهم من النّاس، فيبقى حسداً من نفسه يترصّد لعيوب الآخرين، ويتتبّع هفواتهم؛ ليسدّ ما في نفسه من نقص، وليُحَمّل غيره أسباب فشله، فيبقى يثير الإشاعات عنهم.

٤- التّخطيط الاستعماريّ (الطّابور الخامس): وهذا له مدارس ومعاهد وخبراء في ذلك يتّبعون شتّى الفنون والأساليب في هذا المسلك الخسيس، وإذا لم يكن الإنسان يقظاً وفطناً فإنَّه يصبح بوقاً لأولئك من دون أن يشعر.

التُّهَمُ الَّتي تُرَوِّجُها الإشاعَةُ:

تختلف الإشاعة حسب الزّمان والمكان والأشخاص والأهداف، فلكلّ وقت أسلوبه في طريقة بثّ التُّهم بحسب ما يناسب الزّمان، فمثلاً في زمان رسول الله صلى الله عليه وآله عندما شرعت قريش بمقاومة التّحرّك الإسلاميّ، فبعد أن فشلت عروضها المختلفة من التّرغيب، والتّرهيب، والتّعذيب، والمقاطعة...الخ، لجأت إلى أسلوب الإشاعات، فرموه بالسّحر، والكهانة، والجنون، والكذب، والشّعر، والتّهم الأخلاقيّة كما أشاع المنافقون في حديث الإفك حتّى فضح الله افتراءاتهم، وفي زماننا يتّهم المؤمن بالرّجعيّة مرّة، وبالتّخلّف الفكرّي ثانياً، وبالعقليّة القديمة ثالثاً... وإذا كان المؤمن يمتلك الثّقافة العالية، والحركيّة المغيّرة، والوعي السّياسيّ، رُميَ بالعمالة للأجنبيّ، وبالمتاجرة بالدّين... وهلمّ جرّا ممّا يخطر لهم من أفكار شيطانيّة،

متغافلين عن كلّ عمل صالح، وصفة إيجابيّة خيّرة محاولين إظهار الجوانب السّلبيّة بحيث إنَّهم يحاولون النّفوذ من أصغر كوّة، ولو كانت أقذر ما في الأرض، رُوِيَ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**الأَشْرارُ يَتَتَبَّعونَ مَساوِئَ النّاسِ، ويَتْرُكونَ مَحاسِنَهُمْ، كَما يَتَتَبَّعُ الذُّبابُ الْمَواضِعَ الْفاسِدَةَ**»(١).

أَساليبُ نَشْرِ الإِشاعَةِ:

يحاول ناشرو الإشاعات أن يسلكوا شتّى السّبل والأساليب لترويج ما يرومون نشره من أخبار هادفة، ولكنّهم يتّفقون على أمور معيّنة، هي:

١- اختلاق الأكاذيب (البهتان).

٢- التَّفسيرات المعاكسة لمقصد الخصم، إذ يحاولون أن يفسّروا قصد المقابل عكس معناه ليصلوا إلى إسقاطه.

٣- تضخيم الخطأ على فرض حصوله حتّى يصيّرون النَّملة جملاً، والذّرّة جبلاً.

٤- حجب الأخبار الحقيقيّة عن المجتمع، أو إبداء شيء بسيط منها...

٥- محاولة الحصول على أخبار حقيقيّة.

مُواصَفاتُ الإِشاعَةِ:

هنا سؤال يطرح نفسه: كيف تميّز بين الخبر الحقيقي والإشاعة؟

إذا أردنا أن نعرف ذلك لا بدّ أن نحدّد مواصفات الإشاعة، وهي:

١- إنَّها تحمل شيئاً من الحقيقة لا كلّ الحقيقة، فالمُشيع للخبر يأخذ رأس

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٠/٢٦٩.

الخبر، ويبقى ينسج عليها من خيالاته الوهميّة؛ ليبني صرحاً من الأباطيل.

٢- إنَّ الإشاعة تتّسم بالغموض، فالشّيء المطروح غير واضح، وإنّما يكون عائماً ضبابيّاً لا يركّز على قضيّة معيّنة؛ ليوهم الآخرين بوجود أمر يجهلونه... فهو يطلق بالوناً في الهواء، ويتركه يحوم فوق رؤوس الآخرين، أمّا ماذا يحمل فغير بيّنٍ ولا معلوم؛ ليثير شبهة، وليولّد قلقاً في النّفوس.

٣- اعتماد التّكرار والصّياغات المختلفة.

٤- تتركّز في الوسط الّذي يعمل فيه الخصم.

إذا استطعنا فهم هذه المواصفات بدقّة، وإدراكها بوعي حينئذٍ نستطيع أن ندرس الخبر، ونحلّله إلى عناصره، ونعرف ما وراءه من أهداف، يمكننا أن نميّز الخبر الصَّحيح من الإشاعة الكاذبة.

أَهْدافُ الإِشاعَةِ:

للإشاعة أهداف كثيرة شخصيّة، وسياسيّة، واقتصاديّة، وعسكريّة... وأمّا الأهداف العامّة:

١- تشويه سمعة الأشخاص من المؤمنين العاملين في وسط الأمّة لزعزعة ثقة المجتمع فيهم.

٢- تمزيق وحدة الصّفّ في الأمّة؛ وذلك بإشاعة الشّكوك، وإثارة الحسّاسيّات، واختلاق النَّعرات الطّائفيّة، أو العشائريّة، أو المذهبيّة بين أبنائها.

٣- هدم معنويّات المؤمنين، وخلق القلق النَّفسيّ، وإشغالهم بأمور هامشيّة تبعدهم عن أهدافهم الحقيقيّة.

٤- بلبلة الأفكار في وسط المؤمنين بنشر أخبار مزوّرة لا أساس لها من

الصّحّة؛ لإضعاف الرّوح المعنويّة، وتصديع الجبهة الدّاخليّة.

كَيْفَ نُواجِهُ الإشاعَةَ؟

لا يمكن القول إنَّ السّكوت وإهمال ما يشاع بأنّه صحيح، بل يجب أن يردّ عليها بأسلوب حكيم دقيق، فقد رُويَ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«**إذا قُذفْتَ بشَيْء فَلا تَتَهاوَنْ به، وَإنْ كانَ كَذباً، بَلْ تَحَرَّزْ منْ طُرُق الْقَذْف جَهْدَكَ، فَإنَّ الْقَوْلَ وَإنْ لَمْ يَثْبُتْ يوجبُ ريبَةً وَشَكّاً**»(١).

إذن لا بدَّ من التّحرّز من سموم الإشاعات أوّلاً، وإذا ما حدثت فيجب أن نثبت العكس عمليّاً بشرط أن يكون فعلاً لا ردَّ فعل معاكس لما يشاع، فإنَّ ذلك يزيد الرّيبة، ولا بد أن يحدث هذا الفعل بحكمة ورويّة تُغَيّر مجرى الإشاعة، أو تقبرها في مهدها، وهذا يحتاج إلى ثقة عالية بالنَّفس، وبالخطّ الّذي نعمل فيه لتحقيق الهدف الأسمى، ويمكن تلخيص خطوات الرَّدّ بالنّقاط الآتية:

١- الالتجاء إلى الله تعالى، والثّقة بأنَّه وحده الَّذي يكفّ عدوان الظّالمين، يقول الله تعالى: ﴿ **أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ** ﴾(٢).

٢- تقوية الثّقة بالنَّفس، وعدم الاهتزاز والانفعال لذلك، بل يجب الهدوء والوقار، وعدم إبداء التّأثّر أمام النّاس، والصَّبر على ما يقال، يقول تعالى: ﴿ **فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ** ﴾(٣).

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٥٨/٢٠.

(٢) الزّمر: ٣٦.

(٣) طه: ١٣٠.

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾[1].

٣- الدّقّة في أسلوب الرَّدّ بحيث يثبت العكس، ويدحض الافتراء، وهذا يحتاج إلى دراسة الإشاعة، وتحليلها، وكشف الجانب الكاذب فيها؛ ليكون الرّدّ محكماً قويّاً؛ لأنَّ الرّدّ إذا كان ردّاً انفعاليّاً مضطرباً، فإنَّه سيثبت صحّتها فضلاً عن دحضها.

٤- مراقبة السّلوك الشّخصيّ، وعدم إعطاء نقطة ضعف للعدوّ المتربّص لجمع الأخطاء، سأل رجلٌ أميرَ المؤمنين عليه السلام: «بماذا أسوء عدوّي؟» فقال: «**بأَنْ تكونَ على غايَة الْفَضائل؛ لأنَّهُ إنْ كانَ يَسوؤُه أَنْ يَكونَ لَكَ فَرَسٌ فارهٌ، أَوْ كَلْبٌ صَيودٌ، فَهُوَ لأَنْ تَذْكَرَ بالْجَميل، ويُنْسَبَ إلَيْكَ أَشَدَّ مَساءةً**»[2].

٥- إثبات العكس بالعمل، لا بالقول فقط...

٦- البحث عن عناصر الإشاعة، وطرق انتشارها، وكشف أهدافها، وهذا يساعد على إبطال مفعولها.

وقد حرّمت الشَّريعة المقدّسة نشر الإشاعات، وحذَّرت المؤمنين من هذا المسلك الوخيمة عاقبته، ففي الآية الَّتي صدّرنا البحث فيها إشارة دقيقة إلى فظاعة نشر الأباطيل، إذ إنَّها لم تشر إلى النّاشر مباشرة، وإنّما أشارت إلى من يحبّ، ويفرح بنشرها على المؤمنين، فإذا كان من يحبّ أن تنتشر له عذاب أليم، فكيف بمن يقوم هو بنفسه بنشرها، فلا شكَّ أنَّ عقابه أكثر وأشدّ، ومن هنا يمكن القول: إنّ من الواجب على المؤمن أن يراقب قلبه عندما يسمع، ويتأمّل في نفسه هل لاقى ذلك ارتياحاً في نفسه أم استنكاراً؟ ثمّ يقوم بعد ذلك بدوره في ردّ الإشاعة فضلاً

(١) المزمّل: ١٠.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٠/٢٥٨.

عن الحديث فيها.

عَن ابْن أَبِي عُمَيْر، عَنْ بَعْض أَصْحابه، عَنْ أَبِي عَبْد الله عليه السلام قالَ: «**مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِن ما رَأَتْهُ عَيْناهُ وسَمعَتْهُ أُذُناهُ، فَهوَ من الَّذينَ قالَ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[1]»[2].

وقال عليه السلام: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: مَنْ أَذاعَ فاحِشَةً كانَ كَمُبْتَدئها**»[3].

وعَنْ مُفَضَّل بْن عُمَرَ، قالَ: «قالَ لي أَبو عَبْد الله عليه السلام: **مَنْ رَوى عَلَى مُؤْمِن روايَةً يُريدُ بها شَيْنَهُ، وهَدْمَ مُروءَتِه ليَسْقُطَ مِنْ أَعْيُن النّاس، أَخْرَجَهُ اللهُ مِنْ وَلايَته إلى وَلايَة الشَّيْطان، فَلا يَقْبَلُهُ الشَّيْطانُ**»[4].

وعَنْ عَبْد الله بْن سنان، قالَ: «قُلْتُ لَهُ: عَوْرَةُ الْمُؤْمن عَلى الْمُؤْمن حَرامٌ؟ قالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: تَعْني سُفْلَيْه؟ قالَ: **لَيْسَ حَيْثُ تَذْهَبُ، إِنَّما هِيَ إِذاعَةُ سِرِّه**»[5].

ونعود إلى القولَ: بأنَّ الاعتقاد الصّادق، والهدَف الصّالح، والمبدَئيَّة الرّاسخة لا يمكن أن تزلزلها الدّعايات والإشاعات، بل تزيدها إيماناً، ورسوخاً، واستمراراً في العمل، قال الإمام الكاظم عليه السلام: «**يا هشامُ، لَوْ كانَ في يَدكَ جَوْزَةٌ، وَقالَ النّاسُ: لُؤْلُؤَةٌ ما كانَ يَنْفَعكَ، وأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّها جَوْزَةٌ، ولَوْ كانَ في يَدكَ لُؤْلُؤَةٌ، وَقالَ النّاسُ: إِنَّها جَوْزَةٌ ما ضَرَّكَ، وأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّها لُؤْلُؤَةٌ**»[6].

---

(١) النّور: ١٩.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٨٢/٤ ح/٢٧٥٨.

(٣) المصدر نفسه: ٨٠/٤ ح/٢٧٥٤.

(٤) المصدر نفسه: ٨٥/٤-٨٦ ح/٢٧٦٤.

(٥) المصدر نفسه: ٨٦/٤ ح/٢٧٦٥.

(٦) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٢٨٨.

الْمَصادِرُ وَالْمَراجِعُ:

- القرآن الكريم، كتاب الله سبحانه وتعالى.

- آداب الصّلاة، الإمام الخمينيّ، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخمينيّ، الشّؤون الدّوليّة، طهران.

- الآداب المعنويّة للصّلاة، الإمام الخمينيّ، ترجمة: العلامة أحمد الفهريّ، دار طلاس، دمشق، الطّبعة الأولى، ١٩٨٤م.

- آفاق الرّوح، السّيّد محمّد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ٢٠٠٢م.

- اثنا عشر رسالة، المحقّق المير محمّد الباقر الدّاماد (١٠٤١هـ)، د.ت.

- الاحتجاج، الشّيخ الطّبرسي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، النّجف الأشرف، الطّبعة الأولى، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، الحافظ أبو حاتم محمّد بن حبّان البُستيّ (٣٥٤هـ)، تحقيق: شُعَيب الأرنؤوط، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

- أحكام القرآن، ابن العربي (٥٤٣هـ)، محمّد عبد القادر عطا، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

- أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن عليّ الرّازيّ الجصّاص (٣٧٠هـ)، تحقيق: محمّد الصّادق قمحاوي، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

- إحياء علوم الدّين، أبو حامد الغزاليّ (٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

- أخبار الحسن بن عليّ بن أبي طالب، الإمام الطّبرانيّ (٣٦٠هـ)، حقّقه وعلّق عليه:

محمّد شجاع ضيف الله، دار الأوراد للنّشر والتّوزيع، الكويت، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

- الأخبار الدّخيلة، الشّيخ محمّد تقي التّستريّ، مكتبة الصّدوق، طهران، الطّبعة الثّانية، ١٤٠١هـ

- الأخبار الطّوال، أحمد بن داود الدّينوريّ (٢٨٢هـ)، تحقيق: عبد المنعم عامر، منشورات الشريف الرضي، قم، ١٤١٢هـ

- الاختصاص، الشّيخ المفيد (٤١٣هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفّاريّ، السّيّد محمود الزّرنديّ، دار المفيد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، الطَّبعة الثّانية، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

- اختيار معرفة الرّجال (رجال الكشّيّ)، الشّيخ الطّوسيّ، تصحيح وتعليق: المعلّم الثّالث: مير داماد الأسترابادي، تحقيق: السّيّد مهدي الرّجائيّ، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، قم، ١٤٠٤هـ

- الأخلاق في القرآن، الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، مدرسة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قم، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٦هـ

- الأخوان، ابن أبي الدُّنيا (٢٨١هـ)، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م.

- الأدب المفرد، محمّد بن إسماعيل البخاريّ (٢٥٦هـ)، تخريج وتعليق: محمّد ناصر الدّين الألبانيّ، دار الدّليل، المملكة العربيّة السّعوديّة، مؤسّسة الرّيّان، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

- أدب الطّفّ أو شعراء الحسين، السّيّد جواد شبّر، دار المرتضى، بيروت، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م.

- أدب الكاتب، أبو محمّد عبد الله بن قتيبة الكوفيّ (٢٧٦هـ)، تحقيق: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، م.السّعادة، مصر، الطَّبعة الرّابعة، ١٣٨٢هـ ١٩٦٣م.

- الأربعون حديثاً، الإمام الخمينيّ، تعريب: السّيّد محمد الغرويّ، مؤسسة دار الكتاب الإسلاميّ.

- الأربعون حديثاً، الشّيخ البهائيّ (١٠٣١هـ)، تحقيق: مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المقدّسة، الطّبعة الأولى، ١٤١٥هـ

- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشّيخ المفيد (٤١٣هـ)، نشر وتحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

- إرشاد القلوب، الحسن بن أبي الحسن محمّد الدّيلميّ، تحقيق: سيّد هاشم الميلانيّ، دار الأسوة للطّباعة والنّشر، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ

- أسباب نزول القرآن، أبو الحسن الواحديّ (٤٦٨هـ)، تحقيق: الدّكتور ماهر ياسين الفحل، دار الميمان، الطّيبعة الأولى، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

- الاستذكار، ابن عبد البرّ (٤٦٣هـ)، تحقيق الدّكتور عبد المعطي أمين قلعجي، دار قتيبة للطباعة والنَّشر، دمشق، دار الوغى، حلب-القاهرة، الطَّبعة الأولى، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

- الاستكبار والاستضعاف من وجهة نظر القرآن الكريم، الشّيخ محمّد تقي رهبر، معاونيّة الرّئاسة للعلاقات الدّوليّة في منظمة الإعلام الإسلاميّ، طهران، الطّبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

- أسس الدّولة الإسلاميّة، السّيّد محمّد باقر الصّدر، نشر ودراسة: محمّد طاهر الحسينيّ، المركز الإسلامي للدّراسات والتّخطيط، بغداد، ١٤٣٨هـ ٢٠١٧م.

- الإسلام عام ٢٠٠٠، د.مراد هوفمان، ترجمة: عادل المعلّم، مكتبة الشّروق، الطّبعة الأولى، ١٩٩٥م.

- الإسلام على مفترق الطّرق، محمّد أسد، ترجمة الدّكتور عمر فرّوخ، دار العلم للملايين، ١٩٧٨م.

- الإسلام وإيران، الشّهيد الشّيخ مرتضى مطهّري، دار الإرشاد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.

- الإسلام والحضارة الغربيّة، السّيّد مجتبى الموسويّ اللاريّ، تعريب: الشّيخ محمّد هادي اليوسفيّ الغرويّ، مركز نشر الثّقافة الإسلاميّة في العالم، قم، الطّبعة السّابعة، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

- الإسلام والغرب الوجه الآخر، حسن السّعيد، مركز الهدى للدّراسات الحوزويّة، النّجف الأشرف، ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م.

- الإسلام ومشكلات الحضارة، سيّد قطب، دار الشّروق، بيروت، الطّبعة الحادية عشر، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

- الإسلام يقود الحياة، الإمام الشَّهيد السّيّد محمّد باقر الصَّدر، إعداد وتحقيق: لجنة التَّحقيق التّابعة للمؤتمر العالميّ للإمام الشَّهيد الصّدر، دار الصّدر، قم، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٩هـ

- الإسلام ينابيعه مناهجه غاياته، آية الله العظمى الشّيخ محمّد أمين زين الدّين، نشر وتوزيع: مؤسّسة الشّيخ زين الدّين قدس سره للمعارف الإسلاميّة، النّجف الأشرف، الطّبعة الثّالثة، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

- أسلوب الدّعوة في القرآن، آية الله السّيّد محمّد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، لبنان، الطّبعة الخامسة، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

- الأصمعيّات، اختيار الأصمعيّ عبد الملك بن قُرَيب (٢١٦هـ)، تحقيق وشرح: أحمد محمّد شاكر، عبد السّلام هارون، دار المعارف، مصر، الطّبعة الثّالثة.

- الأصول السّتّة عشر، تحقيق: ضياء الدّين المحموديّ، دار الحديث للطّباعة والنّشر، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٣هـ

- الأصول من الكافي، ثقة الإسلام الكلينيّ (٣٢٩هـ)، صحّحه وعلّق عليه: علي

أكبر الغفاريّ، دار صعب، ودار التّعارف، بيروت، الطّبعة الرّابعة، ١٤٠١هـ

- إعانة الطّالبين، أبو بكر البكريّ الدّمياطيّ، دار إحياء الكتب العربيّة.

- الاعتقادات، الشّيخ الصّدوق، تحقيق: عصام عبد السّيّد، المؤتمر العالميّ لألفيّة الشّيخ المفيد، قم، الطّبعة الأولى، ١٤١٣هـ

- أعلام الدّين في صفات المؤمنين، الحسن بن محمّد الدّيلميّ، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، قم.

- إعلام الورى بأعلام الهدى، الشّيخ الفضل بن الحسن الطّبرسيّ، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، قم المشرّفة، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ

- الأغاني، أبو الفرج الأصفهانيّ (٣٥٦هـ)، شرحه وكتب هوامشه: الأستاذ عبد علي مهنّا، والأستاذ سمير جابر، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.

- إقبال الأعمال، السّيّد ابن طاووس (٦٦٤هـ)، قدّم له وعلّق عليه، الشّيخ حسين الأعلميّ، منشورات مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

- الاقتصاد الهادي إلى طريق الرّشاد، شيخ الطّائفة الطّوسيّ (٤٦٠هـ)، منشورات مكتبة جامع جهلستون، طهران، ١٤٠٠هـ

- اقتصادنا، الإمام الشّهيد السّيّد محمّد باقر الصّدر، إعداد وتحقيق: لجنة التّحقيق التّابعة للمؤتمر العالميّ للإمام الشّهيد الصّدر، النّاشر: دار الصّدر، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٩هـ

- الإقليميّة في العمل الإسلاميّ، بحث، السّيّد محمّد حسين فضل الله، مجلّة المنطلق، عدد ٢٣، ربيع الثّاني ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

- أقوال في السّياسة، مجلة العرفان، المجلد ٤٠، الجزء الثّالث، ١٩٥٣م.

- الله يتجلّى في عصر العلم، أشرف على تحريره: جون كلوفر مونسيما، ترجمة: الدّكتور الدّمرداش عبد المجيد سرحان، راجعه وعلّق عليه: الدّكتور محمّد جمال الدّين الفنديّ، دار القلم، بيروت، لبنان.

- الأمالي، عبد الملك بن محمّد بن بشران (٤٣٠هـ)، ضبط نصّه: عادل بن يوسف العزازيّ، دار الوطن، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

- الأمالي، الشّريف المرتضى (٤٣٦هـ)، تصحيح وتعليق: السّيّد محمّد بدر الدّين النّعسانيّ الحلبيّ، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشيّ النّجفيّ، الطّبعة الأولى، ١٣٢٥هـ ١٩٠٧م.

- الأمالي، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، تحقيق: قسم الدّراسات الإسلاميّة، مؤسّسة البعثة، قم، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

- الإمام عليّ عليه السلام صوت العدالة الإنسانيّة، جورج جرداق، منشورات طليعة النّور، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

- الإمام والأخلاق والسّياسة، سيّد حسن إسلاميّ، ترجمة: صادق خورشا، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخمينيّ، طهران، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

- الإمامة والقيادة، الدّكتور أحمد عزّ الدّين، نشر المصطفى للدّراسات الإسلاميّة، الحوزة العلميّة بقم المشرّفة.

- إمتاع الأسماع بما للنّبيّ صلى الله عليه وآله من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تقي الدّين أحمد بن عليّ المقريزيّ (٨٤٥هـ)، تحقيق وتعليق: محمّد بن عبد الحميد النّميسيّ، منشورات محمّد عليّ بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، مؤسّسة البعثة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

- أمّ المؤمنين الطاهرة خديجة بنت خويلد عليها السلام، الشّيخ جعفر الحائريّ، مجلّة علوم الحديث، العدد الحادي عشر، السّنة السّادسة.

- الانتصار، الشّريف المرتضى (٤٣٦هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، ١٤١٥هـ.

- الانحرافات الكبرى، سعيد أيّوب، دار الهادي، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

- الإنسان ذلك المجهول، ألكسيس كاريل، تعريب: شفيق أسعد فريد، منشورات: مؤسّسة المعارف، بيروت.

- أنصار الحسين، الشّيخ محمّد مهدي شمس الدّين، الدّار الإسلاميّة، بيروت، الطبعة الثّانية، ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

- الأنوار في مولد النّبيّ محمّد صلى الله عليه وآله، أبو الحسن بن عبد الله البكريّ، منشورات المكتبة الحيدريّة ومطبعتها في النّجف.

- الإهليلجة للإمام أبي عبد الله الصّادق عليه السلام، برواية أبي محمّد المفضّل بن عمر الجعفيّ الكوفيّ، تحقيق: الشّيخ قيس العطّار، منشورات دليل ما، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

- إيقاظ النّائمين، صدر الدّين محمّد بن إبراهيم الشّيرازيّ، بمقدّمة وتصحيح: دكتر محسن مؤيّدي، مؤسّسة مطالعات وتحقيقات فرهنگيّ.

- البداية والنّهاية، ابن كثير الدّمشقيّ (٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

- بحار الأنوار، المحدّث الشّيخ محمّد باقر المجلسيّ (١١١١هـ)، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطّبعة الرّابعة، ١٣٦٢هـ ش.

- البرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدّين محمّد بن عبد الله الزّركشيّ (٧٩٤هـ)،

تحقيق: الدّكتور يوسف عبد الرَّحمن المرعشلي، الشّيخ جمال حمدي الذَّهبيّ، الشَّيخ إبراهيم عبد الله الكرديّ، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطَّبعة الأولى، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

- بصائر الدّرجات في فضائل آل محمّد عليهم السلام، محمّد بن الحسن بن فرّوخ بن الصّفّار، تحقيق مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدّسة، الطّبعة الأولى.

- البصائر والذَّخائر، أبو حيّان التّوحيديّ (٤١٤هـ)، تحقيق: الدّكتورة وداد القاضي، دار صادر، بيروت، الطّبعة الأولى.

- بهجة المُجالس وأنس المَجالس، ابن عبد البرّ (٤٦٣هـ)، تحقيق: محمّد مرسي الخوليّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.

- البيان في تفسير القرآن، السّيّد أبو القاسم الخوئي، دار الزّهراء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان.

- البيان والتّبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطّبعة السّابعة، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

- البيان وفنّ الخطابة، الأستاذ محمّد تقي فلسفيّ، ترجمة: عبّاس حسين الأسديّ، مؤسّسة البعثة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

- بين المنبر والنّهضة الحسينيّة، الشّهيد الشّيخ مرتضى مطهّري، دار الإرشاد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

- تأويل الآيات الظّاهرة في فضائل العترة الطّاهرة، السّيّد شرف الدّين الأسترابادي، تحقيق ونشر: مؤسّسة الإمام المهديّ عليه السلام، قم، الطّبعة الثّانية، ١٤٣٣هـ

- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد مرتضى الزّبيديّ، تحقيق: عبد السّتّار أحمد فراج، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.

- تاريخ ابن خلدون، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، لبنان.

- تاريخ الإسلام ووفيّات المشاهير والأعلام، الحافظ شمس الدّين محمّد بن

أحمد الذّهبيّ (٧٤٨هـ)، تحقيق: الدّكتور عمر عبد السّلام تدمري، دار الكتاب العربيّ، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

- تاريخ الطّبريّ، تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمّد بن جرير الطّبريّ (٣١٠هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار التّراث، بيروت.

- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر (٥٧١هـ)، دراسة وتحقيق: محبّ الدّين العمرويّ، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

- تاريخ اليعقوبيّ، أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبيّ، انتشارات المكتبة الحيدريّة، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٥هـ

- التَّبشير والاستعمار في البلاد العربيّة، الدّكتور عمر فرّوخ، الدّكتور مصطفى خالدي، منشورات المكتبة العصريّة، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.

- التّبيان في آداب حملة القرآن، أبو زكريّا يحيى بن شرف النّوويّ (٦٧٦هـ)، عُنِيَ به: محمّد شادي مصطفى عربش، دار المنهاج، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّانية، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

- التّبيان في تفسير القرآن، شيخ الطّائفة الطّوسيّ (٤٦٠هـ)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان.

- التّحدّيات "الشّرق أوسطيّة" الجديدة والوطن العربيّ، مجموعة مؤلّفين، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ٢٠٠٠م.

- تحرير الوسيلة، الإمام السّيّد روح الله الموسويّ الخمينيّ، مطبعة الآداب، النّجف الأشرف، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٠هـ

- تحف العقول عن آل الرّسول، ابن شعبة الحرّانيّ، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاريّ، مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، الطَّبعة الثّانية، ١٤٠٤هـ

- التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم، المحقّق المفسّر العلامة المصطفويّ، مركز نشر آثار العلامة المصطفويّ، القاهرة، لندن، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطَّبعة الثّالثة، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

- التّخلّف الاجتماعيّ مدخل إلى سيكولوجيّة الإنسان المقهور، الدّكتور مصطفى حجازي، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، الطّبعة التّاسعة، ٢٠٠٥م.

- ترتيب الأمالي، الشّيخ محمّد جواد المحموديّ، مؤسّسة المعارف الإسلاميّة، قم، الطَّبعة الثّانية، ١٤٣٠هـ

- تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الآمديّ، المحقّق: مصطفى الدّرايتي، مكتب الإعلام الإسلاميّ، قم المقدّسة، الطّبعة الأولى.

- تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون، مكتب الإعلام الإسلاميّ، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٨هـ

- تطوّر الحدود النّحويّة، السّيّد عليّ حسن مطر الهاشميّ، دار الإرشاد، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م.

- التّفسير، أبو النّصر محمّد بن مسعود العيّاشيّ، تحقيق: قسم الدّراسات الإسلاميّة، مؤسّسة البعثة، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ

- تفسير أبي السّعود (إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم)، أبو السّعود محمّد بن محمّد العماديّ (٩٨٢هـ)، دار إحياء التّارث العربيّ، بيروت، لبنان.

- تفسير البحر المحيط، أثير الدّين محمّد بن يوسف بن عليّ بن يوسف، أبو حيّان الأندلسيّ (٧٤٥هـ)، حقّق أصوله وعلّق عليه وخرّج أحاديثه: د.عبد الرّزّاق المهدي، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، الطَّبعة الأولى.

- تفسير البغويّ، معالم التّنزيل، أبو محمّد الحسين بن مسعود البغويّ (٥١٦هـ)، حقّقه وخرّج أحاديثه: محمّد عبد الله النّمر، عثمان جمعة خيرية، سليمان مسلم الحرش،

دار طيبة للنّشر والتّوزيع، الرّياض، ١٤٠٩هـ

- تفسير بيان السّعادة في مقامات العبادة، سلطان علي شاه، ترجمة: محمّد رضا خاني، حشمت الله رياضي، مركز جامعة بيام نور للطّباعة والنّشر، طهران، الطّبعة الأولى، ١٤١٤هـ

- تفسير البيضاويّ (أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل)، أبو الخير عبد الله بن عمر البيضاويّ (٦٩١هـ)، إعداد وتقديم: محمّد عبد الرّحمن المرعشلي، دار إحياء التّراث العربيّ، مؤسّسة التّاريخ العربيّ، بيروت، لبنان.

- تفسير التّحرير والتّنوير، المعروف بتفسير ابن عاشور، الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور، مؤسّسة التّاريخ، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى.

- تفسير جوامع الجامع، الشّيخ أبو عليّ الفضل بن الحسن الطّبرسيّ، تحقيق ونشر: مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٣هـ

- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدّين النّيسابوريّ، ضبطه وخرّج آياته وأحاديثه: الشّيخ زكريّا عميرات، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

- تفسير فرات الكوفيّ، أبو القاسم فرات بن إبراهيم الكوفيّ، تحقيق: محمّد الكاظم، مؤسّسة التّاريخ العربيّ، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

- تفسير القرآن، أبو المظفّر السّمعانيّ (٤٨٩هـ)، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، دار الوطن، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

- تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم الرّازيّ (٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمّد الطّيّب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكّة المكرّمة، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء، إسماعيل بن كثير (٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمّد السّلامة، دار طيبة، الرّياض، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

- تفسير القرآن الكريم، صدر المتألّهين صدر الدّين الشّيرازيّ، انتشارات بيدار، قم، الطّبعة الثّانية.

- تفسير القرآن الكريم، السّيّد مصطفى الخمينيّ، تصحيح وتحقيق: محمّد سجّادي أصفهانيّ، الطّبعة الثّانية، ١٣٦٩هـ ش.

- تفسير القرآن المجيد المستخرج من تراث الشّيخ المفيد، السّيّد محمّد عليّ أيازي، مركز الثّقافة والمعارف القرآنيّة، بوستان كتاب قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

- تفسير القمّيّ، عليّ بن إبراهيم القمّيّ، تحقيق ونشر: مؤسّسة الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف، قم المقّدسة، الطّبعة الأولى، ١٤٣٥هـ.

- التّفسير الكبير، الفخر الرّازيّ، الطّبعة الثّالثة.

- تفسير كنز الدّقائق وبحر الغرائب، الشّيخ محمّد المشهديّ، تحقيق: حسين درگاهي، منشورات مؤسّسة شمس الضّحى، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

- تفسير المراغيّ، أحمد مصطفى المراغيّ، دار الفكر.

- تفسير مقتنيات الدّرر، السّيّد مير علي الحائريّ الطّهرانيّ، تحقيق: السّيّد محمّد وحيد الطّبسيّ الحائريّ، مؤسّسة دار الكتاب الإسلاميّ، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.

- تفسير المنار، محمّد رشيد رضا، دار المعرفة للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

- التّفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، تحقيق ونشر مدرسة الإمام المهديّ عليه السلام، قم المقدّسة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

- تفسير من وحي القرآن، العلامة المرجع السّيّد محمّد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٣٩هـ ٢٠١٨م.

- التّفسير المنير في العقيدة والشّريعة والمنهج، الدّكتور وهبة الزّحيليّ، دار الفكر، دمشق، الطّبعة العاشرة، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

- تفسير نور الثّقلين، الشّيخ عبد عليّ بن جمعة العروسيّ الحويزيّ (١١١٢هـ)،

صحّحه وعلّق عليه: الحاجّ السّيّد هاشم الرّسوليّ المحلاتيّ، نشر: أفست علميّة قم.

- تفصيل وسائل الشّيعة إلى تحصيل مسائل الشّريعة، الشّيخ محمّد بن الحسن الحرّ العامليّ (١١٠٤هـ)، تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، قم المشرّفة، الطَّبعة الثّانية، ١٤١٤هـ

- تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشّريف الرّضيّ، حقّقه وقدّم له وصنع فهارسه: محمّد عبد الغني حسن، دار الأضواء، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

- تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر، مجموعة ورّام، الشّيخ ورّام بن أبي فراس المالكي الأشتريّ (٦٠٥هـ)، تحقيق وتعليق: باسم محمّد مال الله الأسديّ، إصدار: شعبة التّحقيق قسم الشّؤون الفكريّة والثّقافيّة، العتبة الحسينيّة المقدّسة، كربلاء، الطّبعة الأولى، ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م.

- تنوير المقياس من تفسير ابن عبّاس، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

- تهذيب الأحكام في شرح المقنعة، أبو جعفر محمّد بن الحسن بن عليّ الطّوسيّ (٤٦٠هـ)، صحَّحه وعلَّق عليه: عليّ أكبر الغفّاريّ، مكتبة الصَّدوق، طهران، الطَّبعة الأولى، ١٤١٨هـ

- تهذيب اللّغة، أبو منصور محمّد بن أحمد الأزهريّ (٣٧٠هـ)، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة، حقّقه وقدّم له: عبد السّلام محمّد هارون.

التّواضع والخمول، ابن أبي الدّنيا (٢٨١هـ)، تحقيق وتعليق: لطفي محمّد الصّغير، دار الاعتصام، القاهرة.

- التّوحيد، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، صحّحه وعلّق عليه: السّيّد هاشم الحسينيّ الطّهرانيّ، مؤسسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، ١٣٩٨هـ

- الثّاقب في المناقب، ابن حمزة الطّوسيّ، تحقيق: نبيل رضا علوان، مؤسّسة

أنصاريّان للطّباعة والنّشر والتّوزيع، قم، الطّبعة الثّالثة، ١٤١٩هـ

- ثقافة الدّعوة الإسلاميّة، النّشرات السّرّيّة لحزب الدّعوة الإسلاميّة من عام ١٩٥٧-١٩٨٢م، جمع وإعداد": المفكّر الشّهيد عزّ الدّين سليم، القائد الشّهيد محمّد هادي السّبيتيّ، دار الهدى للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ١٤٣٨هـ ٢٠١٧م.

- ثقافة الدّعوة الإسلاميّة، القسم السّياسيّ، حزب الدّعوة الإسلاميّة، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

- الثّقافة السّياسيّة الإسلاميّة، السّيد هاشم ناصر الموسويّ.

- ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، الشيخ الصدوق (٣٨١هـ)، منشورات الشريف الرضي، قم، الطبعة الثانية، ١٣٦٨ هـ ش.

- ثورة الحسين عليه السلام ظروفها الاجتماعيّة وآثارها الإنسانيّة، الشَّيخ محمّد مهدي شمس الدّين، دار المثقّف المسلم، قم، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

- جامع الأحاديث، جلال الدّين السّيوطيّ، جمع وترتيب: عبّاس أحمد صقر، أحمد عبد الجواد، مكتب البحوث والدّراسات في دار الفكر، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

- جامع الأخبار، أو معارج اليقين في أصول الدّين، الشّيخ محمّد بن محمّد السّبزواريّ، تحقيق: علاء آل جعفر، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير الطّبريّ، محمّد بن جرير الطّبريّ (٣١٠هـ)، تحقيق: الدّكتور عبد الله بن عبد المحسن التّركيّ، هجر للطّباعة والنَّشر والتّوزيع، القاهرة، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البرّ (٤٦٣هـ)، تحقيق أبي الأشبال الزّهيريّ، دار ابن الجوزيّ، المملكة العربيّة السّعوديّة، الطّبعة الأولى، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

- جامع السّعادات، الشّيخ محمّد مهدي النّراقيّ (١٢٠٩هـ)، تصدّى لنشره والتّعليق

عليه وتصحيحه: السّيّد محمّد كلانتر، منشورات جامعة النَّجف الدّينيّة، ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م.

- الجامع لأحكام القرآن، محمّد بن أحمد القرطبيّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

- الجامع لشعب الإيمان، الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ (٤٥٨هـ)، تحقيق: مختار أحمد النّدويّ، مكتبة الرّشد، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م.

- جامع المقاصد في شرح القواعد، المحقّق الكركيّ (٩٤٠هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

- جاهليّة القرن العشرين، محمّد قطب، دار الشّروق، القاهرة، الطّبعة الثّانية عشرة، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

- جذور البلاء، عبد الله التّلّ، دار الإرشاد، الطّبعة الأولى، ١٣٩٠هـ ١٩٧١م.

- جنود العقل والجهل، الإمام الخمينيّ، تعريب العلامة أحمد الفهريّ، انتشارات ذوي القربى، الطّبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

- جهان بيني إسلاميّ، الشّهيد مرتضى مطهّري، باللّغة الفارسيّة.

- جواهر العقدين في فضل الشّرفين، الشّيخ عليّ السّمهوديّ (٩١١هـ)، دراسة وتحقيق: الدّكتور موسى بُناي العليلي، مطبعة العاني، بغداد، ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م.

- جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، الشَّيخ محمّد حسن النَّجفيّ (١٢٦٦هـ)، دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

- الحاشية على أصول الكافي، السّيّد بدر الدّين العامليّ، جمعها ورتّبها: السّيّد محمّد تقي الموسويّ (١٠٩٤هـ)، تحقيق: علي الفاضليّ، دار الحديث للطّباعة والنّشر، قم، الطّبعة الثّالثة، ١٤٢٨هـ.

- الحاشية على أصول الكافي، رفيع الدّين النّائينيّ (١٠٨٢هـ)، تحقيق: محمّد حسين الدّرايتيّ، دار الحديث للطّباعة والنّشر، قم، الطّبعة الثّالثة، ١٤٢٨هـ.

- الحجاب، أبو الأعلى المودوديّ، تعريب: محمّد كاظم السّبّاق، دار الفكر، دمشق، الطّبعة الثّانية، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

- الحدائق النّاضرة في أحكام العترة الطّاهرة، المحقّق الشّيخ يوسف البحرانيّ، حقّقه وعلّق عليه: محمّد تقي الإيروانيّ، دار الأضواء، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

- الحرب النّفسيّة في الوطن العربيّ، د.حامد ربيع، دار واسط للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بغداد، ١٩٨٩م.

- حركة التّأريخ عند الإمام عليّ عليه السلام، الشّيخ محمّد مهدي شمس الدّين، بنياد نهج البلاغة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ

- حركة القوميّة العربيّة، ضياء الدّين أحمد، المركز الإسلاميّ للأبحاث السّياسيّة، قم، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

- حقائق الإيمان، الشّهيد الثّاني (٩٦٥هـ)، تحقيق: السّيّد مهدي الرّجائيّ، مكتبة آية الله العظمى المرعشيّ النّجفيّ العامّة، قم المقدسة، ١٤٠٩هـ

- حقائق التّأويل في متشابه التّنزيل، السّيّد الشّريف الرّضيّ (٤٠٦هـ)، شرحه: العلامة الأستاذ محمّد الرّضا آل كاشف الغطاء، دقّقته: دار المهاجر للطّباعة، والنَّشر، والتّوزيع.

- الحقايق في محاسن الأخلاق، المولى محسن الفيض الكاشانيّ (١٠٩١هـ)، تحقيق: اللّجنة العلميّة في مكتبة بارسا، الطّبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

- الحكمة الخالدة، أبو عليّ أحمد بن محمّد مسكويه، حقّقه وقدّم له: عبد الرّحمن بدوي، مكتبة النّهضة، القاهرة، ١٩٥٣م.

- الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، صدر الدّين محمّد الشّيرازيّ (١٠٥٠هـ)، مكتبة المصطفويّ، قم.

- الحكومة الإسلاميّة (ولاية الفقيه)، الإمام الخمينيّ، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخمينيّ ﵀، طهران، الطَّبعة التّاسعة، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الحافظ أبو نعيم الأصبهانيّ (٤٣٠هـ)، دار الكتاب العربيّ، بيروت، الطّبعة الخامسة، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

- الحياة، محمد رضا الحكيميّ، محمّد الحكيميّ، علي الحكيميّ، الطّبعة الثّالثة، دائرة الطّباعة والنّشر، طهران، ١٤٠١هـ

- الخبر ومضادّه، إحسان العسكريّ، د.ت.

- الخرائج والجرائح، قطب الدّين الرّاونديّ (٥٧٣هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة الإمام المهديّ ؈، قم المقدّسة، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٩هـ

- الخطر اليهوديّ، بروتوكولات حكماء صهيون، محمّد خليفة التّونسيّ، دار الإمام الحسن ؈، قم، الطَّبعة الخامسة، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

- خطوات على طريق الإسلام، السّيّد محمّد حسين فضل الله،

- خلل الصّلاة وأحكامها، الشّيخ مرتضى الحائريّ، الشّيخ مرتضى الحائريّ (١٤٠٦هـ)، تحقيق: الشّيخ محمّد حسين أمر اللهيّ، مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ

- دراسات أخلاقيّة في ضوء الكتاب والسّنّة، الشّيخ جميل الرّبيعيّ، مؤسّسة مسجد السّهلة، دار القارئ، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّانية، ١٤٣٨هـ ٢٠١٧م.

- دراسات في الأعلام، زهير الأعرجيّ، د.ت.

- دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدّولة الإسلاميّة، آية الله الشّيخ المنتظريّ، المركز العالميّ للدّراسات الإسلاميّة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ

- الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور، جلال الدّين السّيوطيّ (٩١١هـ)، تحقيق: الدّكتور عبد الله بن عبد المحسن التّركيّ، بالتّعاون مع مركز هَجَر للبحوث والدّراسات

العربيّة والإسلاميّة، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

- الدُّرُّ النّضيد في الاجتهاد والاحتياط والتَّقليد، محمّد حسن المرتضويّ اللنگروديّ، مؤسّسة أنصاريان، قم، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ

- دستور الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران، النّاشر: رابطة الثّقافة والعلاقات الإسلاميّة، مديريّة التّرجمة والنّشر، طهران، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

- دعائم الإسلام، القاضي النّعمان المغربي (٣٦٣هـ)، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م.

- دلائل النّبوّة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ (٤٥٨هـ)، وثّق أصوله وخرّج حديثه وعلّق عليه: الدّكتور عبد المعطي قلعجي، دار الرّيّان للتّراث، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

- دلالات الزّوجيّة في الكون، مقال على الشّبكة العنكبوتيّة، موقع مجلّة حراء، العدد ٣٨، ديسمبر ٢٠١٦.

- ديوان أبي حيّان الأندلسيّ، تحقيق الدّكتور أحمد مطلوب، الدّكتورة خديجة الحديثيّ، مطبعة العانيّ، بغداد، الطّبعة الأولى، ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م.

- ديوان الإمام الشّافعيّ، اعتنى به عبد الرّحمن المصطلاويّ، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

- الرّائد، معجم لغويّ عصريّ، جبران مسعود، دار العلم للملايين، الطّبعة السّابعة، ١٩٩٢م.

- رجال النّجاشيّ، أو فهرست أسماء مصنّفي الشّيعة، جمعه الشّيخ الجليل أبو العبّاس أحمد بن علي بن أحمد بن العبّاس النّجاشيّ الأسديّ الكوفيّ (٤٥٠هـ)، تحقيق: الحجّة السّيّد موسى الشّبيريّ الزّنجانيّ، مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، إيران، ١٤٠٧هـ

- رسائل الجاحظ، بتحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجيّ، القاهرة.

- رسائل الشَّريف المرتضى (٤٣٦هـ)، إعداد: السّيّد مهدي الرّجائيّ، دار القرآن الكريم، قم، ١٤٠٥هـ

- الرّسالة، محمّد بن إدريس الشّافعيّ، بتحقيق وشرح: أبي الأشبال أحمد محمّد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ وأولاده مصر، الطّبعة الأولى، ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م.

- رسالتنا، سماحة آية الله العظمى الإمام الشّهيد السّيّد محمّد باقر الصّدر قدس سره، إعداد وتحقيق: لجنة التّحقيق التّابعة للمؤتمر العالميّ للإمام الشّهيد الصّدر قدس سره، انتشارات دار الصّدر، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٩هـ

- رسالة لبّ اللّباب في سير وسلوك أولي الألباب، السّيّد محمّد حسين الطّهرانيّ، ترجمة ونشر: دار الاعتصام، إيران، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ

- الرّسالة السّعديّة، العلامة الحلّيّ (٧٢٦هـ)، تحقيق: عبد الحسين محمّد علي بقّال، مكتبة آية الله العظمى المرعشيّ النّجفيّ، قم، الطّبعة الأولى، ١٤١٠هـ

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني، العلامة أبو الفضل شهاب الدّين السّيّد محمود الآلوسي البغداديّ (١٢٧٠هـ)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت.

- الرّوح والنّور في القرآن الكريم، الشّهيد مرتضى مطهّري، دار الإرشاد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

- روضات الجنّات في أحوال العلماء والسّادات، الميرزا محمّد باقر الخوانساريّ، عنيت بنشره مكتبة إسماعيليّان، قم، إيران، ١٣٩٠هـ

- الرّوضة البهيّة في شرح اللّمعة الدّمشقيّة، الشّهيد الثّاني (٩٦٥هـ)، تحقيق وإعداد: مسلم قلي بور الجيلاني، منشورات ذوي القربى.

- روضة الواعظين، الشّيخ محمّد بن الفتّال النّيشابوريّ (٥٠٨هـ)، تحقيق:

غلامحسين المجيديّ، مجتبى الفرجيّ، منشورات دليل ما، قم، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٣هـ

- الرّوض الأنف في تفسير السّيرة النّبويّة لابن هشام، أبو القاسم عبد الرّحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعميّ السُّهيليّ (٥٨١هـ)، علّق عليه ووضع حواشيه: مجدي بن منصور بن سيد الشّوري، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.

- رياض السّالكين في شرح صحيفة سيّد السّاجدين الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام، السّيّد علي خان الحسينيّ المدنيّ الشيرازيّ (١١٢٠هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة النّشر الإسلاميّ، التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرَّفة، محرّم الحرام، ١٤١٥هـ

- زبدة البيان في براهين أحكام القرآن، المحقّق الأردبيليّ (٩٩٣هـ)، إعداد: رضا الأستاديّ، علي أكبر زماني نژاد، انتشارات مؤمنين، قم، الطّبعة الثّانية، ١٤٢١هـ

- زبدة التّفاسير، المولى فتح الله الكاشانيّ (٩٩٨هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة المعارف الإسلاميّة، قم، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٣هـ

- الزّهد، الحسين بن سعيد الكوفيّ، تحقيق ميرزا غلامرضا عرفانيان، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٢هـ

- الزّوجيّة في الكون، مقال على الشّبكة العنكبوتيّة، موقع المهندس مأمون عبد القادر شاهين.

- سبل الهدى والرّشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصّالحيّ الشّاميّ (٩٤٢هـ)، تحقيق: الدّكتور مصطفى عبد الواحد، وزارة الأوقاف، القاهرة، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

- سعد السّعود للنّفوس، السّيّد ابن طاووس (٦٦٤هـ)، تحقيق: فارس تبريزيان الحسّون، انتشارات دليل، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ

- سرّ الفصاحة، الأمير أبو محمّد عبد الله بن محمّد بن سعيد بن سنان الخفاجيّ

الحلبيّ (٤٦٦هـ)، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

- سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار، المحدّث الشَّيخ عبّاس القمّيّ، دار الأسوة للطّباعة والنّشر، قم، الطَّبعة الرّابعة، ١٤٢٧هـ

- سقوط مفهوم القوميّة الوافد، أنور الجنديّ، دار الأنصار، القاهرة.

- سلوة الحزين وتحفة العليل (الدّعوات)، قطب الدّين الرّاونديّ (٥٧٣هـ)، تحقيق: عبد الحليم عوض الحلّيّ، مكتبة العلامة المجلسيّ، منشورات دليل ما، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٧هـ

- سنن ابن ماجة، محمّد بن يزيد القزويني (٢٧٥هـ)، تحقيق وترقيم وتعليق: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السّجستانيّ (٢٧٥هـ)، تحقيق وتعليق: سعيد محمّد اللّحّام، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

- سنن التّرمذيّ (٢٧٩هـ)، تحقيق وتصحيح: عبد الوهّاب عبد اللّطيف، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

- سنن الدّارقطنيّ، الحافظ عليّ بن عمر الدّارقطنيّ (٣٨٥هـ)، تحقيق: شُعيب الأرنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللّطيف حرز الله، أحمد برهوم، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م.

- سنن الدّارميّ، الحافظ عبد الله بن عبد الرّحمن الدّارميّ السّمرقنديّ (٢٥٥هـ)، تحقيق: فوّاز أحمد زمرلي، خالد السّبع العلميّ، نشر: قديمي كُتب خانة، كراچي.

- السّنن الكبرى، أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ)، دار الفكر.

- سنن النّبيّ صلى الله عليه وآله، العلامة السّيّد محمّد حسين الطّباطبائيّ، مع ملحقات الشّيخ محمّد هادي الفقهيّ، مؤسّسة النّشر الإسلاميّ، قم، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٢هـ

- سير أعلام النُّبلاء، شمس الدّين الذّهبيّ (٧٤٨هـ)، مؤسّسة الرّسالة، بيروت،

الطَّبعة الحادية عشرة، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

- سيرة الأئمّة الاثني عشر، هاشم معروف الحسنيّ، دار القلم، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٩٨١م.

- سيرة المصطفى، السّيّد هاشم معروف الحسنيّ، دار القلم، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة، ١٩٨١م.

- السّيرة النّبويّة، ابن كثير (٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار الرّائد العربيّ، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

- السّيرة النّبويّة، ابن هشام (٢١٨هـ)، حقّقها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السّقّا، إبراهيم الأبياريّ، عبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، الطَّبعة الثّالثة، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

- الشَّخصيّة النّاجحة، يوسف ميخائيل أسعد، نهضة مصر، القاهرة.

- شرائع الإسلام، المحقّق الحلّيّ، شرحه وعلّق عليه: السّيّد عبد الزّهراء الحسينيّ الخطيب، دار الزّهراء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

- شرح الأخبار في فضائل الأئمّة الأطهار، القاضي أبو حنيفة النّعمان المغربيّ (٣٦٣هـ)، مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة.

- شرح الأسماء، الملا هادي السّبزواريّ (١٢٨٩هـ)، تحقيق: د.نجفقلي حبيبي، منشورات جامعة طهران، الطّبعة الثّانية، ١٣٧٥هـ ش.

- شرح الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبّار بن أحمد، تعليق: الإمام أحمد بن الحسين بن أبي هاشم، حقّقه وقدّم له: الدّكتور عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، الطّبعة الثّالثة، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

- شرح أصول الكافي، المولى محمّد صالح المازندرانيّ (١٠٨٩هـ)، مع تعاليق الميرزا أبو الحسن الشّعرانيّ، المكتبة الإسلاميّة، طهران.

- شرح أصول الكافي، صدر الدّين محمّد الشّيرازيّ (ملا صدرا)، عني بتصحيحه: محمد خواجوي، نشر: بژوهشگاه علوم إنساني ومطالعات فرهنگي، طهران، الطّبعة الثّانية، ١٣٨٣هـ

- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامريّ، حقّقه وقدّم له: الدّكتور إحسان عبّاس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٢م.

- شرح ديوان المتنبّي، عبد الرّحمن البرقوقيّ، المطبعة الرّحمانيّة بمصر، ١٣٤٨هـ ١٩٣٠م.

- شرح رسالة الحقوق، السّيّد حسن القبّانچيّ، مؤسّسة إسماعيليّان للطّباعة والنّشر، قم، ١٤٠٦هـ

- شرح المقاصد، سعد الدّين التّفتازانيّ (٧٩٣هـ)، تحقيق: الدّكتور عبد الرّحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

- شرح منازل السّائرين، عبد الرّزّاق القاسانيّ، تحقيق وتعليق: محسن بيدار فر، انتشارات بيدار، قم، ١٤٢٧هـ

- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، الطّبعة الثّانية، ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.

- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحرانيّ (٦٧٩هـ)، مركز التّبليغات الإسلاميّة، قم، ١٣٦٢هـ

- شعراء الغريّ، علي الخاقانيّ، مكتبة آية الله العظمى المرعشيّ النّجفيّ، قم، إيران، ١٤٠٨هـ

- شعر عمرو بن معدي كرب الزّبيديّ، جمعه ونسّقه: مطاع الطّرابيشيّ، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة، دمشق، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

- الشّفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي أبو الفضل عِياض اليحصبيّ (٥٤٤هـ)،

تحقيق: عليّ محمّد البجاوي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٤٠٤هـ ١٩٨٩م.

- شواهد التّنزيل لقواعد التّفضيل، الحاكم الحسكانيّ، حقّقه وعلّق عليه: الشّيخ محمّد باقر المحموديّ، مجمّع إحياء الثّقافة الإسلاميّة، الطّبعة الثّالثة، ١٤٢٧هـ

- الصّحاح، تاج اللُّغة وصحاح العربيّة، إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ (٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

- الصَّحوة الإسلاميّة بين الجحود والتّطرّف، الدّكتور يوسف القرضاويّ، سلسلة كتاب الأمّة، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٢هـ

- صحيح ابن خزيمة، أبو بكر محمّد بن إسحاق بن خزيمة (٣١١هـ)، تحقيق: الدّكتور محمّد مصطفى الأعظميّ، المكتب الإسلاميّ.

- صحيح البخاريّ، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاريّ، دار الفكر، الطَّبعة الأولى، ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

- صحيفة الإمام، تراث الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّه، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّه، الشّؤون الدّوليّة، الطّبعة الأولى، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

- صحيح مسلم بشرح النوويّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

- الصّحيح من سيرة النّبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، السّيّد جعفر مرتضى العامليّ، دار السّيرة، بيروت، لبنان، الطّبعة الرّابعة.

- الصّحيفة السّجاديّة الكاملة، من إنشاء الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام، بتحقيق وتنسيق: علي أنصاريّان، سفارة الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، دمشق، ١٤١٩هـ ١٩٩٩.

- الصّراط المستقيم إلى مستحقّي التّقديم، أبو محمّد عليّ بن يونس العامليّ

(٨٧٧هـ)، تصحيح: محمّد باقر البهبوديّ، المكتبة المرتضويّة، الطّبعة الأولى، ١٣٨٤هـ

- الصَّواعق المحرقة في الرّدّ على أهل البدع والزَّندقة، أحمد بن حجر الهيثميّ (٩٧٤هـ)، دار الطّباعة المحمّديّة، حقَّقه: عبد الوهاب عبد اللَّطيف، درب الأتراك بالأزهر بالقاهرة.

- الطّاغية، د. إمام عبد الفتّاح إمام، سلسة عالم المعارف، الكويت.

- الطّراز الأوّل والكناز لما عليه من لغة العرب المُعوَّل، السَّيِّد عليّ بن أحمد بن محمّد معصومٍ الحسينيّ، المعروف بابن معصوم المدنيّ (١١٢٠هـ)، تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التُّراث- مشهد، مطبعة تيزهوش، قم، الطَّبعة الأولى، ذو الحجّة، ١٤٢٦هـ

- طرف من الأنباء والمناقب، السّيّد ابن طاووس (٦٦٤هـ)، تحقيق وتوثيق، الشّيخ قيس العطّار، انتشارات تاسوعاء، مشهد، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ

- طريقة حزب الله في العمل الإسلاميّ، علي الكورانيّ، مكتب الإعلام الإسلاميّ، الطّبعة الأولى، محرّم ١٤٠٦هـ

- الطّفل بين الوراثة والتّربية، محمّد تقي فلسفي، تعريب: فاضل الحسيني الميلاني، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

- عالم الأرواح، محمّد عبد الهادي حيدر، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٩٩٢م.

- عجائب الآثار في التّراجم والأخبار، عبد الرّحمن بن حسن الجبرتيّ، تحقيق: أ.د. عبد الرّحيم عبد الرّحمن عبد الرّحيم، مطبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة، ١٩٩٨م.

- عدّة الدّاعي ونجاح السّاعي، ابن فهد الحلّيّ (٨٤١هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة المعارف الإسلاميّة، قم، إيران، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٥هـ

- العدل الإلهيّ، الأستاذ الشّهيد مرتضى مطهّريّ، ترجمه إلى العربيّة: محمّد عبد

المنعم الخاقانيّ، الدّار الإسلاميّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

- العقد الفريد، ابن عبد ربه (٣٢٨هـ)، تحقيق: محمّد عبد القادر شاهين، المكتبة العصريّة، بيروت، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

- عمدة القاري شرح صحيح البخاريّ، بدر الدّين محمود بن أحمد العينيّ (٨٥٥هـ)، ضبطه وصحّحه: عبد الله محمود محمّد عمر، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.

- العمر المديد، البروفيسور روبير توكيه، ترجمة: د.فردريك معتوق، جروس برس، طرابلس، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

- على حافة العالم الأثيريّ، ج. آرثر فندلاي، ترجمه إلى العربيّة: أحمد فهمي أبو الخير، مكتبة النّهضة المصريّة، الطّبعة الثّانية، ١٣٦٤هـ ١٩٤٥م.

- علل الشّرائع، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، انتشارات كلمة الحقّ، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

- عوالي اللآلي، ابن أبي جمهور الإحسائيّ، تحقيق: الحاجّ آقا مجتبى، مطبعة سيّد الشُّهداء، قم، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- عيون الأثر في فنون المغازي والشّمائل والسّير، أبو الفتح محمّد بن محمّد بن سيّد النّاس اليعمريّ (٧٣٤هـ)، تحقيق: د.محمّد عيد الخطراويّ، محيي الدّين متو، مكتبة دار التّراث، المدينة المنوّرة، دار ابن كثير، دمشق، بيروت.

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، شرح وتحقيق: الدّكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

- عيون أخبار الرّضا عليه السلام، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، قم، ١٤٣١هـ

- الغارات، أبو إسحاق إبراهيم الثّقفيّ الكوفيّ (٢٨٣هـ)، تحقيق: السّيد جلال الدّين المحدّث، انتشارات أنجمن آثار ملّيّ، الطّبعة الثّانية.

- غرر الأخبار ودرر الآثار في مناقب أبي الأئمّة الأطهار، الحسن بن أبي الحسن عليّ بن محمّد الدّيلميّ، تحقيق إسماعيل الضّيغم، مكتبة العلامة المجلسيّ، منشورات دليل ما، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٧هـ

- الفائق في غريب الحديث، جار الله محمود بن عمر الزّمخشريّ (٥٣٨هـ)، تحقيق: علي محمّد البجاوي، محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

- الفتاوى الواضحة، آية الله العظمى الإمام الشّهيد السّيّد محمّد باقر الصّدر، إعداد وتحقيق: لجنة التّحقيق التّابعة للمؤتمر العالميّ للإمام الشّهيد الصّدر قدس سره، انتشارات دار الصّدر، الطّبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، راجعه: محب الدين الخطيب، ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.

- فروق اللّغات في التّمييز بين مفاد الكلمات، نور الدّين الجزائريّ، حقّقه وشرحه: الدّكتور محمّد رضوان الدّاية، مكتب نشر الثّقافة الإسلاميّة، الطّبعة الثّالثة، ١٤١٥هـ

- الفروق اللّغويّة، أبو هلال العسكريّ، منشورات مكتبة بصيرتي، قم.

- الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة، ابن الصّبّاغ المالكيّ (٨٥٥هـ)، حقّقه ووثّق أصوله وعلّق عليه: سامي الغريريّ، دار الحديث، قم، الطّبعة الثّالثة، ١٤٣٢هـ

- فقه الإمام جعفر الصّادق عرض واستدلال، الشّيخ محمّد جواد مغنيّة، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٩٧٧م.

- فقه السّيرة، محمّد الغزاليّ، دار الكتب الحديثة، الطّبعة السّادسة، ١٩٦٥م.

- فقه الصّادق عليه السلام، آية الله العظمى السّيّد محمّد صادق الرّوحانيّ، آيين دانش، قم المقدّسة، الطّبعة الخامسة، ١٤٣٥هـ ٢٠١٠م.

- الفقه المنسوب إلى الإمام الرّضا عليه السلام، تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، الطّبعة الثّانية، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

- فلسفتنا، آية الله العظمى الإمام الشّهيد السّيّد محمّد باقر الصّدر، إعداد وتحقيق: لجنة التّحقيق التّابعة للمؤتمر العالميّ للإمام الشّهيد الصّدر قدس سره، انتشارات دار الصّدر، الطّبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ

- فنّ الإلقاء العربيّ الخطابيّ والتّمثيليّ، الدّكتور فاروق سعد، الشّركة العالميّة للكتاب، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

- فنّ الخطابة، دايل كارنيجي، دار أسامة، دمشق، بيروت، ١٩٩٧م.

- فنّ النّقد، لجنة التّأليف، مؤسّسة البلاغ، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م.

- في رحاب القرآن، آية الله الشّيخ محمّد مهدي الآصفيّ، مركز الطّباعة والنّشر التّابع لمكتب الإعلام الإسلاميّ، الطّبعة الأولى، ١٤٣٦هـ

- في سبيل البعث الكتابات السّياسيّة الكاملة، ميشيل عفلق، حزب البعث العربيّ الاشتراكيّ، القيادة القوميّة، مكتب الثّقافة والإعلام.

- فيض القدير شرح الجامع الصّغير، محمّد عبد الرّؤوف المناوي، ضبطه وصحّحه: أحمد عبد السّلام، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

- في ظلال القرآن، سيّد قطب، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، الطّبعة السّابعة، ١٣٩١هـ ١٩٧١م.

- في ظلال نهج البلاغة، محمّد جواد مُغنيّة، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٩٧٩م.

- قادة الغرب يقولون دمّروا الإسلام أبيدوا أهله، جلال العالم، دار الكتاب

الإسلاميّ، دار الكتاب الإسلاميّ، ١٣٦٢هـ.ش.

- القاموس المحيط، مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآباديّ (٨١٧هـ)، قدّم له وكتب حواشيه: الشّيخ أبو الوفا نصر الهوريني (١٢٩١هـ)، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّانية، ٢٠٠٧م.

- قرب الإسناد، الشّيخ الحميريّ، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، الطّبعة الأولى، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

- قصّة الحضارة، ول وايريل ديورانت، ترجمة: الدّكتور زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

- القضاء في الفقه الإسلاميّ، آية الله العظمى السّيّد كاظم الحائريّ، مجمع الفكر الإسلاميّ، قم، الطّبعة الأولى، ١٤١٥هـ

- القواعد الفقهيّة، السّيّد محمّد حسن البُجنورديّ، تحقيق: مهدي المهريزيّ، محمد حسين الدّرايتيّ، انتشارات دليل ما، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٤هـ

- القيادة في الإسلام، محمّد الرّيشهريّ، تعريب: علي الأسديّ، دار الحديث، قم، الطّبعة الأولى، ١٣٧٥هـ.ش.

- القيم الأخلاقيّة في الفلسفة الغربيّة المعاصرة، الدّكتور قاسم الشّمريّ، المركز العلميّ العراقيّ، بغداد، دار ومكتبة البصائر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ٢٠١٥م.

- الكافي، ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكليني (٣٢٩هـ)، تحقيق ونشر: قسم إحياء التّراث، مركز بحوث دار الحديث، قم، الطّبعة الثّالثة، ١٤٣٤هـ

- الكافي في الفقه، أبو الصّلاح الحلبيّ، المحقّق: آية الله رضا الأستاديّ، مؤسّسة بوستان كتاب قم، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٢هـ ش.

- كامل الزّيارات، أبو القاسم جعفر بن محمّد بن قولويه القُمّيّ (٣٦٨هـ)، تحقيق: الشيخ جواد القيّومي، مؤسسة نشر الفقاهة.

- الكامل في التّأريخ، عزّ الدّين أبو الحسن عليّ بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.

- الكامل في ضعفاء الرّجال، الحافظ أبو أحمد عبد الله بن عديّ الجرجانيّ (٣٦٥هـ)، تحقيق وتعليق: الشّيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشّيخ عليّ محمّد معوّض، منشورات محمّد عليّ بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.

- كتاب الأمالي، شيخ الطّائفة الطّوسيّ (٤٦٠هـ)، تحقيق وتصحيح: بهراد الجعفريّ، وعلي أكبر الغفّاريّ، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطّبعة الأولى، ١٣٨٠هـ ش.

- كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدّلائل، أبو بكر محمّد بن الطّيّب الباقلانيّ (٤٠٣هـ)، تحقيق: عماد الدّين أحمد حيدر، مؤسّسة الكتب الثّقافيّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

- كتاب الثّقات، الحافظ ابن حبّان (٩٦٥هـ)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة بحيدر آباد الدّكن، الهند، ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

- كتاب الخصال، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفّاريّ، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة، ١٤٠٣هـ

- كتاب الخلاف، الشّيخ الطّوسيّ (٤٦٠هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، ١٤٠٧هـ

- كتاب الصافي في تفسير القرآن، المولى محسن الفيض الكاشانيّ (١٠٩١هـ)، تحقيق السّيّد محسن الحسينيّ الأمينيّ، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطّبعة الأولى، ١٤١٩هـ

- كتاب الصّمت وآداب اللّسان، ابن أبي الدّنيا (٢٨١هـ)، حقّقه وخرّج أحاديثه: أبو إسحاق الحوينيّ الأثريّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٠هـ

١٩٩٠م.

- كتاب الصّناعتين الكتابة والشّعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكريّ (٣٩٢هـ)، تحقيق: علي محمّد البجاوي، محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، صيدا، لبنان، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

- كتاب الطّبقات الكبير، محمّد بن سعد بن منيع الزّهريّ (٢٣٠هـ)، تحقيق الدّكتور عليّ محمّد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة.

- كتاب عوائد الأيام في بيان قواعد استنباط الأحكام، المولى أحمد النّراقيّ، دار الهادي للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

- كتاب العين، أبو عبد الرّحمن الخليل بن أحمد الفراهيديّ (١٧٥هـ)، تحقيق: الدّكتور مهدي المخزوميّ، الدّكتور إبراهيم السّامرائيّ، دار الرّشيد للنّشر، بغداد، ١٩٨٠م.

- كتاب عيون الأخبار، أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوريّ (٢٧٦هـ)، مطبعة دار الكتب المصريّة بالقاهرة، ١٩٩٦م.

- كتاب الفرج بعد الشّدّة، القاضي التّنوخيّ، القاضي أبو عليّ المحسن بن عليّ التّنوخيّ (٣٨٤هـ)، تحقيق عبود الشّالجيّ، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

- كتاب فردوس الأخبار، الحافظ شيرويه الدّيلميّ، تحقيق فوّاز أحمد الزّمرليّ، محمّد المعتصم بالله البغداديّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

- كتاب فكّر (توحيد المفضّل)، أملاه الإمام أبو عبد الله الصّادق عليه السلام على المفضّل بن عمر الجعفيّ الكوفيّ، تحقيق: الشّيخ قيس العطّار، مكتبة العلامة المجلسيّ، منشورات دليل ما، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٧هـ

- كتاب في السّياسة، الوزير الحسين بن عليّ المغربيّ، عُنِيَ بنشره وتحقيقه وتعليق حواشيه: سامي الدّهّان، المعهد الفرنسيّ بدمشق للدّراسات العربيّة، ١٣٦٧هـ ١٩٤٨م.

- كتاب في المنطق، الخطابة، أبو نصر الفارابيّ، تحقيق وتعليق: الدّكتور محمّد سليم سالم، الهيأة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٧٦م.

- كتاب المغازي، محمّد بن عمر بن واقد الواقديّ، تحقيق: الدّكتور مارسدن جونس، نشر دانش إسلاميّ، ١٤٠٥هـ

- كتاب المجروحين، ابن حبّان، تحقيق: حمدي عبد المجيد السّلفيّ، دار الصّميعيّ للنّشر والتّوزيع، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

- الكتاب المقدّس، العهد الجديد، منشورات دار المشرق، بيروت، الطّبعة الثّالثة.

- كتاب من لا يحضره الفقيه، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، صحّحه وعلّق عليه: عليّ أكبر الغفاريّ، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة، الطّبعة الثّانية.

- كتاب الميّسر في شرح مصابيح السّنّة، الحسن التّوربشتيّ (٦٦١هـ)، تحقيق: دكتور عبد الحميد هنداويّ، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربيّة السّعوديّة، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

- كتاب نور القبس المختصر من المقتبس، محمّد بن عمران المرزبانيّ، عُنِيَ بتحقيقه: رودلف زلهايم، دار النّشر، فرانتس شتاينر بفيسبادن، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

- كتاب الهداية، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، الطّبعة الثّالثة، تحقيق: مؤسّسة الإمام الهادي عليه السلام، قم، الطّبعة الثّالثة، ١٤١٨هـ

- كتاب الوافي، الفيض الكاشانيّ، التّحقيق والتّعليق والتّصحيح والمقابلة مع الأصل: ضياء الدّين الحسينيّ، مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، أصفهان، إيران، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ

- الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، محمود بن عمر الزّمخشري (٥٢٨هـ)، رتّبه وضبطه وصحّحه: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب

العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

- كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، أبو الحسن الأربليّ (٦٩٢هـ)، منشورات الشَّريف الرّضيّ، قم، الطَّبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

- كفاية الطّالب في مناقب عليّ بن أبي طالب عليه السلام، محمد بن يوسف الگنجيّ الشّافعيّ، دار إحياء تراث أهل البيت عليهم السلام، طهران، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٤هـ.

- كلمة التّقوى، الشّيخ محمّد أمين زين الدّين، مطبعة: مهر، الطّبعة الثّالثة، ١٤١٣هـ.

- الكلّيّات، أبو البقاء الكفويّ (١٠٩٤هـ)، تحقيق: د.عدنان درويش، محمّد المصريّ، منشورات ذوي القربى، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.

- كنز العمّال في سنين الأقوال والأفعال، المتّقي الهنديّ (٩٧٥هـ)، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

- كنز الفوائد، أبو الفتح الكراجكيّ (٤٤٩هـ)، مكتبة المصطفويّ، قم، الطّبعة الثّانية، ١٣٦٩هـ ش.

- كيف تتمتّع بحياتك وبعملك، نخبة من أساتذة علم الاجتماع وعلم الإرادة، المركز الدّوليّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع، مصر، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ ١٩٩١م،

- لبّ اللّباب، قطب الدّين الرّاونديّ (٥٧٣هـ)، حقّقه وعلّق عليه: السّيّد حسين الجعفريّ الزّنجانيّ، نشر آل عبا، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

- لسان العرب، ابن منظور (٧١١هـ)، نشر أدب الحوزة، قم، إيران، ١٤٠٥هـ.

- لعبة الأمم، مايلز كوبلاند، ترجمة: مروان خير، انترناشنال سنتر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٧٠م.

- لِمَ هذا الرّعب كلّه من الإسلام وكيف بدأ الخوف، جودت سعيد، دار الفكر، دمشق، الطّبعة الأولى، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

- ليلة القدر، السّيّد أبو القاسم الموسويّ، دار الغدير، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م.

- المؤمن، الحسين بن سعيد الكوفيّ الأهوازيّ، دار المرتضى، بيروت، لبنان.

- مباحث الأصول، تقريراً لأبحاث سماحة آية الله العظمى الشّهيد السّيّد محمّد باقر الصّدر، السّيّد كاظم الحسينيّ الحائريّ، مطبعة مركز النّشر، مكتب الإعلام الإسلاميّ، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

- مباني النّظريّة الاجتماعيّة في الإسلام، زهير الأعرجيّ، المطبعة العلميّة، قم المشرّفة، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

- مباهج الفلسفة، ول ديورانت، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني، المركز القوميّ للتّرجمة، الطّبعة الثّالثة، ٢٠١٨م.

- المباهلة، السّيّد عبد الله السّبيتيّ، مطبوعات مكتبة النّجاح، طهران.

- المبدأ والمعاد، صدر الدّين محمّد الشّيرازيّ (١٠٥٠هـ)، مركز انتشارات دفتر تبليغات إسلاميّ، الطّبعة الثّالثة، ١٤٢٢هـ.

- المُثُل العليا في الإسلام لا في بحمدون، الإمام الشّيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء، منشورات دار الوعي الإسلاميّ، بيروت، لبنان.

- المبسوط في فقه الإماميّة، الشّيخ الطّوسيّ (٤٦٠هـ)، المكتبة المرتضويّة، طهران، ١٣٨٧هـ.

- المجازات النّبويّة، الشّريف الرّضيّ (٤٠٦هـ)، علّق عليه ووضع حواشيه: كريم سيّد محمّد محمود، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

- مجمع الأمثال، أبو الفضل الميدانيّ (٥١٨هـ)، تحقيق وشرح وفهرسة: الدّكتور قصيّ الحسين، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

- مجمع البحرين، الشّيخ فخر الدّين الطّريحيّ (١٠٦٥هـ)، تحقيق: السّيّد أحمد

الحسينيّ، المكتبة المرتضويّة، طهران، ١٣٦٢هـ ش.

- مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطَّبرسيّ، دار المعرفة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

- مجمع الزَّوائد ومنبع الفوائد، الحافظ عليّ بن أبي بكر الهيثميّ (٨٠٧هـ)، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

- المجموع، محيي الدّين النَّوويّ، حقّقه وعلّق عليه: محمّد نجيب المطيعيّ، مكتبة الإرشاد، جدّة، المملكة العربيّة السّعوديّة.

- المجموعة الكاملة، عبّاس محمود العقّاد، دار الكتاب اللّبنانيّ، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٩٧٤م.

- محاسبة النَّفس، السّيّد ابن طاووس (٦٦٤هـ)، تحقيق: جواد القيوميّ الأصفهانيّ، مؤسّسة القيوم، طهران، الطّبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

- المحاسن، أحمد بن محمّد البرقيّ، تحقيق: السّيّد مهدي الرّجائيّ، المجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام، الطّبعة الثّالثة، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

- محاصرة.. وإبادة، موقف الغرب من الإسلام، أ.د.زينب عبد العزيز، القدس للنّشر والإعلان، القاهرة، الطّبعة الثّانية، ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.

- المحتضر، محمّد الحسن بن سليمان الحلّيّ، تحقيق: سيّد علي أشرف، انتشارات المكتبة الحيدريّة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

- المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء، الفيض الكاشانيّ (١٠٩١هـ)، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفّاريّ، مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، الطّبعة الثّانية.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطيّة الأندلسيّ، تحقيق: عدد من المحقّقين، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، قطر، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

- محمّد باقر الصّدر تكامل المشروع الفكريّ والسّياسيّ، صائب عبد الحميد، مكتبة الصّدر، قم، دار الكتاب العربيّ، بغداد.

- محمّد وعليّ النّبيّ والإمام، الشّهيد الشّيخ مرتضى مطهّريّ، دار الإرشاد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

- مختلف الشّيعة، العلامة الحلّيّ (٧٢٦هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، الطّبعة الرّابعة، ١٤٣٣هـ

- المخصّص، أبو الحسن علي بن إسماعيل النَّحويّ اللّغويّ الأندلسيّ، المعروف بابن سيده المرسيّ (٤٥٨هـ)، المطبعة الكبرى الأميريّة، بولاق، الطَّبعة الأولى، ١٣٣٠هـ

- مداخل المثقّفين العرب للاستشراق، نهاية القرن التّاسع عشر: يقظة أم مواجهة؟ د. محسن جاسم الموسويّ، مجلّة الاستشراق، العدد الثّاني، شباط ١٩٨٧، بغداد.

- مدارك التَّنزيل وحقائق التّأويل، أبو البركات النّسفيّ (٧١٠هـ)، حقّقه: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطّيّب، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

- مدارك العروة، الشّيخ علي بناه الاشتهارديّ، دار الأسوة للطّباعة والنّشر، ١٤١٧هـ

- المدرسة القرآنيّة، الإمام الشّهيد السّيّد محمّد باقر الصّدر، إعداد وتحقيق: لجنة التّحقيق التّابعة للمؤتمر العالميّ للإمام الشّهيد الصّدر، دار الصّدر، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٩هـ

- مرآة العقول في شرح أخبار آل الرّسول، العلامة المجلسيّ (١١١١هـ)، إخراج ومقابلة وتصحيح: السّيّد هاشم الرّسوليّ، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٤هـ

- المراسم العلويّة في الأحكام النّبويّة، الشّيخ أبو يعلى الدّيلميّ (٤٤٨هـ)، تحقيق: السّيّد محسن الحسينيّ الأمينيّ، المعاونيّة الثّقافيّة للمجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام،

١٤١٤هـ

- مروج الذَّهب ومعادن الجواهر، أبو الحسن المسعوديّ (٣٤٦هـ)، شرحه: عبد الأمير علي مهنّا، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

- مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام، الفاضل الجواد الكاظميّ، الطّبعة الثّانية، المكتبة المرتضويّة، طهران، ١٣٦٥هـ ش.

- المستدرك على الصّحيحين، الحافظ الحاكم النّيسابوريّ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

- مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ميرزا حسين النّوريّ (١٣٢٠هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٠٧هـ

- مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، تحقيق: جمع من المحقّقين بإشراف: الشّيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسّسة الرّسالة، بيروت.

- مسند البزّار (البحر الزّخّار)، الحافظ أبو بكر البزّار (٢٩٢هـ)، تحقيق: د.محفوظ الرّحمن زين الله، مؤسّسة علوم القرآن، بيروت، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنوّرة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م.

- مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، الشّيخ عليّ الطّبرسيّ، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٣هـ

- مشكلة الحرّيّة، الدّكتور زكريّا إبراهيم، مكتبة مصر.

- مصباح الكفعميّ، أو جنّة الأمان الواقية وجنّة الإيمان الباقية، الشّيخ تقيّ الدّين إبراهيم بن عليّ بن الحسن بن محمّد بن صالح العامليّ الكفعميّ، مؤسّسة النّعمان، بيروت، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

- مصباح الشّريعة المنسوب للإمام الصّادق عليه السلام، مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

- مصباح الفقاهة، تقرير بحث آية الله العظمى السّيّد أبو القاسم الخوئيّ، بقلم: الميرزا محمّد عليّ التّوحيديّ التّبريزيّ، المطبعة الحيدريّة، النجف، ١٣٧٤هـ ١٩٥٤م.

- مصباح المتهجّد، الشّيخ الطّوسي، مؤسّسة فقه الشّيعة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

- المصباح المنير، المُقْري الفيّوميّ (٧٧٠هـ)، منشورات دار الهجرة، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ

- المصنّف لابن أبي شيبة (٢٣٥هـ)، تحقيق: حمد بن عبد الله الجمعة، محمّد بن إبراهيم اللّحيدان، مكتبة الرّشد، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

- المصنّف، عبد الرّزّاق الصّنعانيّ (٢١١هـ)، تحقيق: حبيب الرّحمن الأعظميّ، المكتب الإسلاميّ، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م.

- مصنّفات الشّيخ الصّدوق، تحقيق: اللّجنة العلميّة في مكتبة بارسا، قم، الطّبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

- المكاسب، الشّيخ الأعظم مرتضى الأنصاريّ (١٢٨١هـ)، مؤسّسة دار الكتاب للطّباعة والنّشر، قم، إيران.

- معارج نهج البلاغة، عليّ بن زيد البيهقيّ الأنصاريّ، تحقيق: أسعد الطّيّب، مركز الأبحاث والدّراسات الإسلاميّة، قسم إحياء التّراث الإسلاميّ، بوستان كتاب قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٢هـ

- معارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرّسول والبتول، محمّد بن يوسف الزّرنديّ الحنفيّ (٧٥٧هـ)، تحقيق: محمّد كاظم المحموديّ، مجمّع إحياء الثّقافة الإسلاميّة، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٥هـ

- معاني الأخبار، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، عُنِيَ بتصحيحه: علي أكبر الغفاريّ، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة، ١٣٧٩هـ

- معاني القرآن، أبو زكريّا يحيى بن زياد الفرّاء (٢٠٧هـ)، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطَّبعة الثّالثة، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

- معجم ألفاظ الفقه الجعفريّ، الدّكتور أحمد فتح الله، مطابع المدوخل، الدّمام، الطّبعة الأولى، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

- المعجم الأوسط، الحافظ الطّبرانيّ (٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله، عبد المحسن بن إبراهيم، دار الحرمين للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطّبرانيّ، حقّقه وخرّج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السّلفيّ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

- معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة، د.محمود عبد الرّحمن عبد المنعم، دار الفضيلة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة.

- معجم مقاييس اللّغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا (٣٩٥هـ)، بتحقيق وضبط: عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

- المعجم النّقديّ لعلم الاجتماع، ر.بودون وف.بورّيكو، ترجمة: الدّكتور سليم حداد، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

- المعجم الوسيط، قام بإخراجه: إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزّيّات، حامد عبد القادر، محمّد عليّ النّجّار، دار الدَّعوة، استانبول، تركية، ١٩٨٩م.

- مع الحكمة في خط الإسلام، السّيّد محمّد حسين فضل الله، مؤسّسة الوفاء، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ١٩٨٥م.

- معرفة الصّحابة، أبو نعيم الأصبهانيّ (٤٣٠هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزّاويّ،

دار الوطن للنّشر، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

- معرفة المعاد، السّيّد محمّد الحسين الطّهرانيّ، تعريب: عبد الرّحيم مبارك، دار المحجّة البيضاء، دار الرّسول الأكرم ﷺ، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

- مفتاح الفلاح في عمل اليوم واللّيلة، الشّيخ البهائيّ (١٠٣١هـ)، تحقيق: السّيّد مهدي الرّجائيّ، مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المقدّسة، الطّبعة الرّابعة، ١٤٣٢هـ.

- المفترون، خطاب التّطرّف العلمانيّ في الميزان، فهمي هويدي، دار الشّروق، القاهرة، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

- مفردات ألفاظ القرآن، الرّاغب الأصفهانيّ (٥٠٢هـ)، الأميرة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

- مقدّمة في علم الأخلاق، الدّكتور محمود حمدي زقزوق، دار القلم، الكويت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

- مكارم الأخلاق، الشّيخ الطّبرسيّ (٥٤٨هـ)، منشورات الشّريف الرّضي، الطّبعة السّادسة، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.

- مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، الحافظ أبو عبد الله محمّد بن عليّ بن شهر آشوب (٥٨٨هـ)، تحقيق: السّيّد عليّ السّيّد جمال أشرف الحسينيّ، المكتبة الحيدريّة، قم المقدّسة، الطّبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

- مناهج الأنظمة الإسلاميّة من رحاب أهل البيت عليهم السلام، الشّيخ باقر شريف القرشيّ، مطبعة ستارة، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

- المنتقى من ثقافة الدّعوة الإسلاميّ، مكتب التّنظيم المركزيّ، حزب الدّعوة الإسلاميّة-تنظيم العراق، ١٤٢٨هـ.

- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، الميرزا حبيب الله الخوئيّ، المكتبة

الإسلاميّة، طهران، الطّبعة الرّابعة.

- مهج الدّعوات، السّيّد ابن طاووس، منشورات الفجر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.

- مهذّب الأحكام في بيان الحلال والحرام، آية الله العظمى السّيّد عبد الأعلى السّبزواريّ، دار التّفسير، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٣٠هـ

- منية المريد، الشّهيد الثّاني (٩٦٥هـ)، تحقيق: رضا المختاري، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٠٩هـ

- مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن، آية الله العظمى السّيّد عبد الأعلى السّبزواريّ، مؤسسة المنار، الطّبعة الثّالثة، ١٤١٤هـ

- موسوعة ابن إدريس الحليّ، إعداد: مكتبة الرّوضة الحيدريّة، منشورات دليل ما، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٩هـ

- موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسّنّة والتّأريخ، محمّد الرّيشهريّ، دار الحديث للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

- موسوعة السّياسة، بإشراف عبد الوهّاب الكيّاليّ، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، مطبعة الدّيوانيّ، بغداد.

- موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام، باقر شريف القرشيّ، تحقيق: مهدي باقر القرشيّ، دار المعروف، مؤسّسة الإمام الحسن عليه السلام لإحياء تراث أهل البيت عليهم السلام، النّجف الأشرف، الطّبعة الرّابعة، ١٤٣٧هـ ٢٠١٦م.

- موسوعة الشّهيد الأوّل، إعداد وتحقيق: مركز إحياء التّراث الإسلاميّ، النّاشر: المركز العالميّ للعلوم والثّقافة الإسلاميّة، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

- موسوعة الشّهيد الثّاني، إعداد وتحقيق: مركز إحياء التّراث الإسلاميّ، النّاشر:

المركز العالميّ للعلوم والثّقافة الإسلاميّة، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م.

- موسوعة الشّيخ المفيد (٤١٣هـ)، دار المفيد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، قم، ١٤٣١هـ

- موسوعة العقائد الإسلاميّة، محمّد الرّيشهريّ، دار الحديث، قم، الطّبعة الثّالثة، ١٣٨٦هـ.ش.

- موسوعة العلامة البلاغيّ، مركز العلوم والثّقافة الإسلاميّة، قسم إحياء التّراث الإسلاميّ، قم، الطّبعة الثّانية، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

- الموسوعة العلميّة المبسّطة (عجائب الكون وغرائبه)، مجموعة من المحرّرين، دار العودة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٨٩م.

- موسوعة نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم ﷺ، إعداد مجموعة من المختصّين بإشراف: صالح بن عبد الله بن حُمَيد، وعبد الرّحمن بن محمّد، دار الوسيلة، جدّة.

- موعد اللّقاء، رسائل سماحة الإمام الخمينيّ قدس سره إلى سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السّيّد أحمد الخمينيّ رحمه الله، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخمينيّ، الشّؤون الدّوليّة، الطّبعة الأولى، ١٩٩٦م.

- ميزان الاعتدال في نقد الرّجال، أبو عبد الله الذّهبيّ (٧٤٨هـ)، تحقيق: علي محمّد البجاويّ، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

- ميزان الحكمة، محمد الرَّيشهريّ، دار الحديث، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

- الميزان في تفسير القرآن، العلامة السّيّد محمّد حسين الطّباطبائيّ، مؤسّسة مطبوعاتي إسماعيليّان، الطّبعة الثّالثة، ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

- نزهة النّاظر وتنبيه الخاطر، الشّيخ الحسين الحلوانيّ، تحقيق ونشر مدرسة الإمام

المهديّ عليه السلام، قم المقدّسة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ

- النَّصُّ والاجتهاد، السّيّد عبد الحسين شرف الدّين العامليّ، دار القارئ، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

- نظرات في الإعداد الروحي، الشّهيد الشّيخ حسين معن، مركز الإمام الباقر عليه السلام، قم، الطّبعة الخامسة، ٢٠٠٨م.

- نقض رسالة الحبل الوثيق، السّيّد حسن آل المجدّد الشّيرازيّ، مجلّة تراثنا، العدد المزدوج (٤٣-٤٤)، السّنة الحادية عشر، رجب-ذو الحجّة، ١٤١٦هـ

- النّهاية في مجرّد الفقه والفتاوى، الشّيخ الطّوسيّ (٤٦٠هـ)، انتشارات قدس محمّدي، قم.

- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهّاب النّويريّ (٧٣٣هـ)، وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ، المؤسّسة المصريّة العامّة للتّأليف والتّرجمة والطّباعة والنّشر.

- النّهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير (٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزّاويّ، محمود محمّد الطناحيّ، مؤسّسة إسماعيليّان، قم، الطَّبعة الرّابعة.

- نهج البلاغة، المختار من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، لجامعه: الشّريف الرّضيّ (٤٠٦هـ)، تحقيق: السّيّد هاشم الميلاني، العتبة العبّاسيّة المقدّسة، كربلاء المقدسة، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

- نهج البلاغة، شرح الأستاذ محمّد عبده، دار المعرفة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان.

- نهج السّعادة في مستدرك نهج البلاغة، الشّيخ محمّد باقر المحموديّ، وزارة الثّقافة والإرشاد الإسلاميّ، طهران، الطّبعة الأولى، ١٤١٨هـ

- نهج البلاغة نبراس السّياسة ومنهل التّربية، مجموعة بحوث ومقالات لعدّة من

العلماء والمفكّرين، مطبعة سلمان الفارسيّ، قم، ١٤٠٤هـ

- النّوادر، فضل الله الرّاونديّ (٥٧١هـ)، تحقيق: سعيد رضا علي عسكري، دار الحديث الثّقافية، قم، الطبعة الأولى.

- نوادر الأصول في أحاديث الرّسول، الحكيم التّرمذيّ، حقّق أصوله وخرّج أحاديثه: الدّكتور عبد الرّحمن عميره، دار الجيل، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

- هداية الطّالب إلى أسرار المكاسب، الميرزا فتاح الشّهيديّ التّبريزيّ (١٣٧٢هـ)، دار الفقه للطّباعة والنّشر، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٨هـ

- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحديّ النّيسابوريّ (٤٦٨هـ)، تحقيق: عدد من المحقّقين، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

وقعة صفّين، نصر بن مزاحم المنقريّ (٢١٢هـ)، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشيّ النّجفيّ، قم، إيران، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٤هـ

- يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القوميّة، جورج أنطونيوس، ترجمهُ: الدّكتور ناصر الدّين الأسد، الدّكتور إحسان عبّاس، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّانية، ١٩٨٧م.

- اليمين والعهد والنّذر، السّيّد محمّد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

- ينابيع المودة لذوي القربى، سليمان بن إبراهيم القندوزيّ الحنفيّ (١٢٩٤هـ)، تحقيق: سيّد علي جمال أشرف الحسينيّ، دار الأسوة للطّباعة والنَّشر، قم، الطَّبعة الأولى، ١٤١٦هـ

الْفِهْرَسْتُ:

الإسلام ومتطلّبات المرحلة.. ٧

السّؤال.. ١٣

أسباب النّزول... ١٣

الإسلام دين التّغيير... ١٤

إثارة الأسئلة منهج تغيير وتعليم... ١٥

حسن السّؤال نصف العلم... ١٩

حكمة لقمان.. ٢٧

معنى الحكمة... ٢٩

ولا تخزني يوم يبعثون.. ٣٧

ميّت الأحياء... ٤٧

حميّة الجاهليّة.. ٥٥

القَسَم............ **٦٣**
الآثار الوضعيّة لليمين............ **٦٨**
تحريم القسم بالبراءة............ **٧٢**
اليمين الغموس............ **٧٣**

القراءة............ **٧٥**
عوامل انصراف النّاس عن المطالعة............ **٨٠**

سبل معالجة الخطاب المتطرّف............ **٨٥**
التّطرّف لغةً واصطلاحاً............ **٨٥**
منابع التّطرّف............ **٨٧**
مظاهر التّطرّف............ **٨٩**
موقف الإسلام من التّطرّف............ **٩١**
سبل معالجة التّطرّف في الخطاب............ **٩٩**

الحرّيّة............ **١٠٥**
منبع الحرّيّة............ **١٠٩**
قيمة الحرّيّة............ **١١١**
أنواع الحرّيّة............ **١١١**

الإنسان الحرّ...١١٤
لماذا يتنازل الإنسان عن حرّيّته..١١٥

موقف الإسلام من الحياة الدّنيا..١١٧

شهوات الدّنيا السّتّ..١٢٧
البحث الأوّل: في معنى تزيين الشّهوات...١٣٠
البحث الثّاني: الاعتدال في التّلذّذ في الشّهوات الشّرعيّة......................١٣٣

لعبوا بها ولعبت بهم..١٤١
لعب ولهو..١٤٣

الحياة...١٤٩
مظاهر المجتمع الحيّ...١٥٣

أخطر المزالق في طريق الكدح إلى الله.......................................١٥٥
خطورة هذا المسلك..١٦١
صفات طلاب الدّنيا بالدّين..١٦٤
عاقبة طلاب الدّنيا بالدّين...١٧٧
وجوب التّحرّز من هذه الأخطار...١٨١

أنموذجان متلبّسان في الدّين.. ١٨٣
من وحي الآيتين... ١٨٧

الّذي انسلخ من آيات الله... ١٨٩
الأوّل: الإخلاد إلى الدّنيا... ١٩٣
ثانياً: اتّباع الهوى.. ١٩٤
مثال العلم بلا إيمان... ٢٠١

دروس وعبر من قصّة قارون.. ٢٠٣
المشهد الأوّل.. ٢٠٤
المشهد الثّاني.. ٢٠٩
المشهد الثّالث... ٢١٠

السّياسة والسّياسيّون بين الإسلام والمبادئ الأخرى............................ ٢١٣
تعريف السّياسة.. ٢١٣
أمّ الكوارث والبلايا.. ٢١٩
من مظاهر حبّ الرّئاسة.. ٢٢١
مهمّة رجل السّياسة.. ٢٢٢
السّياسة في الإسلام... ٢٢٥

تصوّر خاطئ خطير...٢٢٦
مرتكزات التّفكير السّياسيّ في الإسلام...٢٣٠
النّظام السّياسيّ في نهج البلاغة..٢٥١
السّياسة في منطق أمير المؤمنين عليه السلام..٢٥٣
الحكومة ضرورة لا بدَّ منها..٢٥٤
نظريّة السّيّد الشّهيد الصّدر في الدّولة...٢٥٩
دور الحكومة في حياة المجتمع...٢٦٩
أهداف الحكومة عند الإمام عليّ عليه السلام...٢٧٣
وسائل مكافحة الظّلم في نهج الإمام عليّ عليه السلام..٢٧٤
موقع الحاكم من الأمّة في الإسلام..٢٧٧
صفة الحاكم الفاضل...٢٧٨
الأساليب السّياسيّة عند الإمام علي عليه السلام ومخالفيه..٢٨١

هكذا حاربوا الإسلام...٢٨٩
لماذا يرهبون الإسلام..٢٩٢
أساليب محاربة الإسلام..٢٩٧

حقيقة المكر...٣٢١
الإيمان والمكر..٣٣٦

معنى مكر الله..٣٣٧

الإشاعة..٣٤١

معنى الإشاعة...٣٤١

دوافع الإشاعة..٣٤٢

التّهم الّتي تروّجها الإشاعة...٣٤٣

أساليب نشر الإشاعة...٣٤٤

مواصفات الإشاعة...٣٤٤

أهداف الإشاعة...٣٤٥

كيف نواجه الإشاعة...٣٤٦

المصادر والمراجع...٣٤٩

الفهرست..٣٩٣